

ماريو باراغاس يوسا

# البطل المكتوم

رواية



ترجمة: صالح علمااني





ماريو بارغاس يوسا

# الليل الممكّن

ترجمة: صالح علمازي

دار الحوار

البطل المتكئ

الكتاب: البطل المكتوم

المؤلف: ماريو باراغاس يوسا

الطبعة الأولى: 2016/4

ترجمة: صالح علماي

حقوق الطبعة العربية محفوظة © دار العوار للنشر والتوزيع.

هذه هي الترجمة الأصلية للنص الإسباني:

Mario Vargas Llosa

El héroe discreto



ISBN: 978-9933-523-58-9



تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفي **دار العوار**

**دار العوار للنشر والتوزيع** [www.daralhiwar.com](http://www.daralhiwar.com)

ص. ب 1018 اللاذقية، سوريا.

هاتف وفاكس: +963 41 422 33

البريد الإلكتروني [daralhiwar@gmail.com](mailto:daralhiwar@gmail.com)

[info@daralhiwar.com](mailto:info@daralhiwar.com)



يمنع نسخ أو تصوير هذا الكتاب أو أجزاء منه بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو تصوير ضوئي أو تسجيل على أشرطة أو أقراص مقرودة أو أية وسيلة نشر أخرى دون إذن خطى مسبق من **دار العوار للنشر والتوزيع**.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the written permission of Dar Al Hiwar Publishing Company



إلى ذكرى صديقي  
خابير سيلفا روبي



«واجبنا الجميل هو أن نتخيل أن هنالك متاهة وخيطاً»

خورخي لويس بورخيس  
«الخيط والمتاهة»



## I

خرج فيليثيتو ياناكيه، صاحب شركة نارييهوالا للنقل، من بيته في ذلك الصباح كما في كل يوم، من الاثنين إلى السبت، في الساعة السابعة والنصف بالضبط، بعد أن مارس تمارين الكي - جونغ لدة نصف ساعة، واستحم تحت دوش ماء بارد، ثم أعدَّ فطوره المعتاد: قهوة بحليب الماعز وخبز محمص مع الزبد وقطرة صغيرة من عسل التشانكاكا. كان يعيش في مركز مدينة بيورا، وكان صخب المدينة قد انفجر في شارع اريكيبيا، وغصت الأرصفة بأناس يتوجهون إلى مكاتب عملهم أو إلى السوق، أو يوصلون أطفالهم إلى المدرسة. بعض المتدينات كنْ يتوجهن إلى الكاتدرائية من أجل قداس الساعة الثامنة. وكان الباعة المتجولون يعلنون بأعلى صوت عن بضاعتهم من حلوي اليوكوتشا ورقائق الموز المجففة، وفطائر وكل أنواع الترهات. وكان الأعمى لوثيندو قد استقر في موقعه عند الناصية، تحت شرفة البيت الكولونيالي، وعلبة جمْع الصدقات عند قدميه. كل شيء كما في كل يوم بالضبط، ومنذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة.

ثمة استثناء وحيد. ففي هذا الصباح، وعلى بوابة بيته القديمة المصنوعة من خشب مزين بمسامير حديدية كبيرة، ألسق أحدهم، عند مستوى المقرعة البرونزية، مغلقاً أزرق يُقرأ عليه بوضوح، وبحرروف كبيرة، اسم صاحب البيت: دون فيليثيتو ياناكيه. وعلى ما يذكره هو

نفسه ، كانت تلك هي أول مرة يَتَرَكُ له فيها أحدهم رسالةً معلقة بهذه الطريقة ، كأنها إشعار قضائي أو قسيمة غَرامَة . فمن المعهود أن يَدْسَسْ ساعي البريد الرسائل من فتحة في الباب إلى الداخل . انتزع الرسالة المعلقة . فتح الملف وقرأها وهو يحرك شفتيه مع تقدمه في القراءة .

### السيد ياناكيه

أن تسير أمور شركة ناريهوala للنقل التي تملكها على ما يرام يُشكّل مصدر فخر لبيورا وأهالي بيورا . ولكنه يشكل خطراً أيضاً ، فكل شركة ناجحة معرضة للسطو والتخييب على يد الحاقدين والحاقدين وغيرهم من الأشرار الذين يوجد كثيرون منهم مثلما تعرف حضرتك . ولكن لا تقلق . فمِنْظَمَتنا ستتولى حماية شركة ناريهوala للنقل ، وحماية حضرتك بالذات وأسرتك الموقرة من أي أذى أو مضائق أو تهديد من الأشرار . ستكون مكافأتنا عن هذا العمل مبلغ 500 دولار شهرياً (وهو مبلغ متواضع بالنسبة لثروتك كما ترى) . سوف نتصل بك في الوقت المناسب بشأن طريقة الدفع .

لسنا بحاجة للتاكيد لك على ضرورة الحفاظ على أعلى قدر من التكتم حول هذا الموضوع . فالأمر كله يجب أن يظل بيننا .  
وليحفظ الله حضرتك .

وبدلاً من التوقيع ، كانت الرسالة تحمل رسمًا ظاهراً لما يشبه عنكبوتًا . قرأها دون فيليشيتو مرتين آخريين . الرسالة مكتوبة بخطٍ مترافق مع لطخات حبر . شعر بالمفاجأة والمتعة ، مع إحساس غامض بأن المسألة لا تعود أن تكون مزحة سمجة . جعد الورقة والملف و كان على وشك أن يرمي بها إلى سلة القمامنة عند الناصية ، حيث يقف الأعمى لوثنيندو . لكنه ندم على ذلك ، فأعاد تمسييد الرسالة ووضعها في جيبه .

هناك حوالي عشرة شوارع بين بيته في شارع اريكيبيا ومكتبه في  
جادة سانتشيث سيرو. لم يجتازها هذه المرة وهو يهيء في ذهنه أجندة  
عمل اليوم، مثلاً يفعل دوماً، بل كان يقلب في عقله مسألة رسالة  
العنكبوات. هل عليه أن يأخذ الأمر على محمل الجد؟ أيذهب إلى  
الشرطة لتقديم شكوى؟ المبتزون يقولون إنهم سيتصلون به من أجل  
«طريقة الدفع». أ يكون من الأفضل الانتظار إلى أن يفعلوا ذلك قبل  
توجيهه إلى مفوضية الشرطة؟ ربما لا يكون الموضوع أكثر من ظرافات بطال  
متعلّل يريد له أن يمر بلحظة عصيبة. صحيح أن الجرائم قد تزايدت  
في بيورا منذ بعض الوقت: سرقات من البيوت، أعمال نشل في  
الشارع، وحتى عمليات اختطاف تقوم بتسويتها تحت المنضدة، كما  
يقال، عائلاتُ البيض في حبيبي التшибه ولوس إخيدوس. كان يشعر  
بالحيرة والتردد، ولكنه واثق على الأقل من أمر واحد: لن يقدم، تحت  
أية ذريعة أو أي ظرف، سنتاً واحداً لأولئك اللصوص. وتذكر فيليثيتو  
مرة أخرى، مثلاً حدث له في مرات كثيرة في حياته، الكلمات التي  
قالها له أبوه قبل أن يموت: «لا تسمح لأحد بأن يُذلك يابني. هذه  
النصيحة هي الإرث الوحيد الذي ستحصل عليه مني». وقد عمل  
بنصيحته، ولم يسمح لأحد بأن يُذله. وبعد ما يزيد على نصف قرن  
يحملها على كاهله، صار عجوزاً لا يمكن له تغيير عاداته. كان  
مستغرقاً في هذه الأفكار إلى حد لم يكدر يحيي الشاعر خواكين راموس  
بأكثر من انحناءة سريعة، وغذ الخطى قدمًا؛ مع أنه كان يتوقف في  
مرات سابقة أخرى، لتبادل بعض الكلمات مع ذلك البوهيمي المتمادي  
الذي يكون قد أمضى الليل في أحد البارات الصغيرة، ويقف في هذا  
الوقت عائداً إلى بيته بعينين زجاجيتين، وعدسة المونوكل الدائمة وهو  
يجر خلفه العنزة التي يسميها غزالته.

حين وصل إلى مكاتب شركة نارييهولا كانت الحافلات قد خرجت في مواعيدها إلى سويانا وتالارا وتومباس، وإلى تشولوكاناس وموروبون، وإلى كاتاكاوس ولأونيون وسيتشورا وبابويار، وجميعها بعدد جيد من الركاب، وكذلك الفانات الصغيرة إلى تشيكلابو، والشاحنات إلى بaita. وكان هناك عدد من الأشخاص يُجرون معاملات إرسال طرود أو يتحرون عن مواعيد حافلات وفانات بعد الظهر. وكانت سكرتيرته خوسيفيتا ذات الوركين الكبيرين والعينين الحيوتين والبلوزات واسعة فتحة الصدر، قد وضعت على مكتبه قائمة مواعيده والتزاماته لهذا اليوم، وحافظة القهوة التي يأخذ بتناولها خلال فترة الصباح وحتى موعد الغداء.

- ماذا جرى لك أيها الرئيس؟ - حيّته سكرتيرته -. لماذا هذا الوجه؟ هل رأيت كابوساً الليلة؟

- مشاكل صغيرة - أجابها بينما هو يخلع القبعة والسترة ويعلّقهما على المشجب ويجلس. لكنه نهض من فوره وأعاد ارتداء السترة ووضع القبعة على رأسه من جديد، كما لو أنه تذكر أمراً مستعجلًا جداً.

- سأرجع بسرعة - قال لسكرتيرته وهو يتجه نحو الباب -. إنني ذاهب إلى مفوضية الشرطة لتقديم شكوى.

- هل داهم لصوص بيتك؟ - فتحت خوسيفيتا عينيها المتيقظتين والمتفاوتتين -. هذا ما صار يحدث كل يوم في ببورا الآن.

- لا، لا، سوف أُخبرك لاحقاً بما جرى.

توجه فيليثيتو بخطوات حازمة إلى المفوضية القائمة على بعد كوارارات قليلة من مكتبه، في جادة سانتيشيث سيرو نفسها. كان الوقت لا يزال مبكراً والحر يبدو محتملاً، ولكنه يعرف أن هذه الشوارع التي تغص بوكالات السفر وشركات النقل ستبدأ خلال أقل من ساعة بالتأجج

وسيرجع متعرقاً إلى المكتب. لقد قال له ابنه، ميفيل وتيبورثيو، مرات ومرات، إنه من الجنون ارتداء جاكيت وصدر وقبعة على الدوام في مدينة جميع من فيها، فقراء وأغنياء، يقضون السنة كلها بقمصان قصيرة الأكمام أو سترات الغوايابيرا الخفيفة. ولكنه لم يكن يخلع تلك الملابس، كي يحافظ على المظهر، منذ افتتاحه شركة ناريهمولا، فخر حياته؛ ففي الشتاء والصيف يرتدي على الدوام القبعة والجاكيت والصدر، وربطة العنق بعقدتها الصغيرة جداً. إنه رجل قصير القامة ونحيل جداً، قليل الكلام وشغيل. لم ينتعل حذاء قط هناك في ياباتيرا، حيث ولد، أو في تشولوكانا، حيث درس الابتدائية، ولم يبدأ بانتعال الأحذية إلا حين جاء به أبوه إلى بيورا. إنه الآن في الخامسة والخمسين، يحتفظ ببنية سليمة، وبلياقة بدنية وحب للعمل. وهو يظن أن الفضل في حالته البدنية الجيدة يعود إلى تمارين الكي جونغ الصباحية التي علمه إياها صديقه، البقال المتوفى لاو. وهذه هي الرياضة الوحيدة التي مارسها في حياته، إضافة إلى المشي، إن كان بالإمكان إطلاق تسمية رياضة على حركات الكاميرا البطيئة تلك التي هي أولاً، وقبل أن تكون تمارين للعضلات، مجرد طريقة مختلفة وحكيمة للتنفس. وصل إلى مفوضية الشرطة متقدلاً بالحر وغاضباً. فسواء أكان الأمر مزاحاً أم غير مزاح، فقد جعله من كتب تلك الرسالة يضيع الصباح.

كانت المفوضية في الداخل فرناً، وبدا المكان شبه مظلماً لأن النوافذ كلها مغلقة. كانت هنالك مروحة عند المدخل، ولكنها متوقفة. الشرطي الذي يجلس إلى منضدة الاستعلامات، وهو شاب فتىً أمرد، سأله عما يريد.

- أريد التحدث إلى الرئيس من فضلك - قال فيليثيتو وهو يقدم إليه بطاقته.

- المفوض في إجازة ليومين - أوضح له الشرطي -. إذا رغبتَ يمكن للرقيب ليتوما أن يستقبلك، فهو المسؤول عن الموقع حالياً.  
- سأتحدث إليه إذاً، أشكرك.

كان عليه أن ينتظر ربع ساعة إلى أن تنازل الرقيب واستقبله. وعندما أدخله الشرطي إلى المقصورة الضيقة، كان منديل فيليثيتو مبللاً بالعرق لكترة ما مسح به جبهته. لم ينهض الرقيب لمصافحته. مدّ إليه يداً سمينة ورطبة، ثم أشار إلى الكرسي الفارغ قبالته. إنه رجل ممتلىء، يمبل إلى البدانة، له عينان ضيقتان لطيفتان، وبداية لفدي يتلمسه بين حين وآخر بتحبيب. يرتدي قميص الخدمة الخاكي مفتوح الأزرار، مع بقعتي عرق تحت الإبطين. وهناك على المنضدة الصغيرة مروحة كهربائية، وقد كانت المروحة تعمل. شعر فيليثيتو بالامتنان لهبة الهواء الباردة التي داعبت وجهه.

- بماذا يمكنني أن أخدمك يا سيد ياناكى.

- لقد تلقيتُ للتو هذه الرسالة. الصقوها على باب بيتي. رأى الرقيب ليتوما يضع نظارة تمنحه هيئة كثيبة. وبلاماح هادئة راح يقرأ الرسالة بدقة.

- حسنٌ حسن - قال أخيراً وهو يتصنع تكشيرة لم يتمكن فيليثيتو من تفسيرها -. هذه هي نتائج التقدم أيها السيد. وحين انتبه إلى ارتباك صاحب شركة النقل، أوضح وهو يهز الرسالة التي مازالت في يده:

- عندما كانت بيورا لا تزال مدينة فقيرة، لم تكن تحدث هذه الأمور. فمن ذا الذي كان يخطر له آنذاك أن يطلب إتاوة من تاجر؟ أما اليوم، فالأموال كثيرة، والمحталون يُشهرون مخالبهم ويريدون التصرف على هواهم. المسؤولية يتحملها الإكوادوريون يا سيدى. فهم لا يثقون

بحكمتهم، ويُخرجون رؤوس أموالهم من هناك ويأتون للاستثمار هنا.  
إنهم يملؤون جيوبهم منا نحن أهالي بيورا.

- هذا الكلام لا يمنعني أي عزاء أيها الرقيب. أضف إلى ذلك أنه يخيل إليّ وأنا أسمعك أن كارثة حلّت بيورا الآن لأن أمورها تمضي على ما يرام.

- لم أقل هذا - قاطعه الرقيب باقتضاب -. ما عنيته فقط هو أن لكل شيء ثمنه في هذه الحياة. وثمن التقدم هو هذا الذي يحدث.

وهز مجدداً رسالة العنكبوت في الهواء، فبدا لفيليسيتو ياناكيه أن ذلك الوجه الأسمى للدين يسخر منه. كان يلمع في عيني الرقيب وميض بين الأصفر والضارب إلى الخضرة، مثل أعين الضبوب. وسمع من عمق المفوضية صوتٌ زاعق: «أفضل مؤخرات البيرو موجودة هنا، في بيورا!» أؤكد ذلك، يا للعنة». ابتسم الرقيب ورفع إصبعه إلى صدغه. بينما اكتسى فيليسيتو بعلامات جدية جداً وهو يشعر برهاب الحبس. إذ يكاد لا يوجد أي فراغ بينهما وسط تلك الجدران الخشبية الملطخة بإشعارات ومذكرة وصور وقصاصاتِ صحف مثبتة بدبابيس. لقد كان يعقب برائحة العرق والشيخوخة.

- العاهر الذي كتب هذه الرسالة لديه معارف إملائية جيدة - أكد الرقيب وهو يتصفح الرسالة - فأنا، على الأقل، لا أجده لديه أخطاء نحوية.

أحس فيليسيتو بدمائه تفوح.

- لستُ جيداً في النحو ولا أظن أن هذا يفيد كثيراً - دمدم بنبرة احتجاج -. ما الذي سيحدث الآن برأيك؟

- الأن فوراً لن يحدث أي شيء - أجابه الرقيب دون تردد - سأسجل المعلومات من باب الاحتياط. ربما لن يتعدى الأمر هذه

الرسالة. ربما وضعك أحدهم نصب عينيه ويريد إزعاجك. أو قد يكون الأمر جدياً. الرسالة تقول إنهم سيتصلون بك من أجل الدفع. إذا فعلوا ذلك عد إلى هنا وسنرى ماذا نفعل.

- يبدو لي أنك لا تولي الأمر أهمية. احتاج فيليثيتو.

- ليس للأمر أهمية حتى الآن - أكد الرقيب وهو يهز كتفيه - فهذه ليست سوى قصاصة ورق مجعدة يا سيد ياناكيه. يمكن أن تكون دعاية سمجة. ولكن إذا صار الأمر جدأ، فسوف تتصرف الشرطة، أؤكد لك. وباختصار، فلنبدأ العمل.

وخلال وقت لا بأس به، كان على فيليثيتو أن يقدم معلوماته الشخصية والمهنية، بينما راح الرقيب ليتوما يدونها في دفتر ذي غلاف أخضر بقلم رصاص يبلله بفمه بين حين وآخر. كان صاحب شركة النقل يرد على الأسئلة التي تبدو له غير مجدية بتهدبٍ متزايد. مجئه لتقديم هذه الشكوى لم يكن إلا إضاعة للوقت. فهذا الشرطي لن يفعل شيئاً. أضف إلى ذلك، لا يقال إن الشرطة هي الأكثر فساداً بين المؤسسات العامة؟ ربما تكون رسالة العنكبوت آتية من هذا الجحر كريه الرائحة بالذات. وحين قال له ليتوما إنه يجب إبقاء الرسالة في المفوضية كدليل اتهام، ردَّ عليه فيليثيتو بنفور:

- أريد نسخة مصورة عنها أولاً.

- لا توجد لدينا آلة تصوير فوتوكبي هنا - أوضح الرقيب مشيراً بيديه إلى تكشف المكان الشبيه بتكشف الكهنة الفرنسيسكان - هناك في الشارع العام متاجر كثيرة تقوم بالتصوير. اذهب وصورها ثم ارجع أيها السيد. إنني هنا بانتظارك.

خرج فيليثيتو إلى جادة سانتشيث سيرُو، وبالقرب من سوق التعوين وجد ما يبحث عنه. اضطر للانتظار لوقت لا بأس به إلى أن انتهى

بعض المهندسين من تصوير كومة مخطوطات، وقرر ألا يعود للخضوع مجدداً لاستجواب الرقيب؛ فسلم النسخة المchorة من الرسالة لشرطي منضدة الاستعلامات، وبدل أن يرجع إلى مكتبه عاد للتتوغل في مركز المدينة المتلئ بالناس وصخب السيارات، والحر ومكبرات الصوت، والمتوتوكيسي وضجيج العربات. اجتاز شارع غراو، وظلَّ أشجار التمر الهندي في ساحة السلاح، وقاوم إغواء رغبته في الدخول لتناول مثلجات فواكه في محل تشالان، توجه نحو حي المسْلخ القديم، حي أيام مراهقته، لا غالينيرا، المجاور للنهر. وكان يتضرع إلى الرب أن تكون آديلايدا في دكانها. فالتحدث إليها سيكون مفيداً له. سيُحسن من مزاجه، ومن يدرى كذلك إن كان بإمكان تلك التقية أن تقدم إليه نصيحة جيدة. كان الحر قد بلغ أوجه دون أن تكون الساعة قد بلغت العاشرة بعد. بدأ يشعر ببرطوبة في جبهته وبصفحة متاججة عند مستوى قذاله. مشى بسرعة، بخطوات قصيرة ومتجللة، مصطدماً بالناس الذين يملؤون الأرصفة الضيقة العابقة بروائح البول والمقالي.

بينما مذيع يعزف بأعلى صوت موسيقى أغنية ميركومبوري. فيليثيت يقول أحياناً، وقد قال ذلك لزوجته خيرترووديس ولابنيه، إن الله كافأ جهوده طوال حياته بأن وضع في طريقه شخصين: البقال لاو والتقبية آديلايدا. فمن دونهما ما كان يمكن لأعماله أن تمضي على ما يرام، وما كان ليتمكن من المضي قُدماً بشركته للنقل، ولما استطاع تكوين أسرة محترمة. ومنذ أن أودت التهابات معوية بالمسكين لاو ونقلته إلى العالم الآخر، لم يبق له سوى آديلايدا. وهاهي هناك لحسن الحظ، تتتصفح إحدى المجالات، وراء منضدة دكانها الصغير، حيث تبيع أعشاباً وصور قديسين ومشغولات تطريز وتوافة أخرى.

- مرحباً يا آديلايدا - حياها وهو يمد يده لمصافحتها - صافحي هذه الخمس. يا لحسن حظي بالعثور عليك.

إنها خلاسية بلا سن محددة، قصيرة القامة، ضخمة المؤخرة والصدر، تمشي حافية على أرضية دكانها الترابية، لها شعر طويل ومحمد ينسدل على كتفيها، وترتدي ذلك الجلباب أو المسوح الأزلي الذي له لون الطين النيء ويصل حتى كاحليها. عيناهَا واسعتان ولها نظرٌ تبدو أنها تثقب أكثر من كونها ترى، تخفف منها ملامحها اللطيفة التي تعنح الناس طمأنينة.

- مجيئك لزيارتني يعني أن ضراً قد أصابك أو سيحل بك - ضحكت آديلايدا وهي تربت على ظهره - ما هي مشكلتك يا فيليثيت؟  
قدُم إليها الرسالة.

- لقد تركوها على باب بيتي صباح اليوم. لا أدرى ماذا أفعل. قدّمتُ شكوى في مفوضية الشرطة، ولكنني أظن أنها لن تجدي أي نفع.  
فالشرطي الذي استقبلني لم يُبِدِّ كبير اهتمام.

تلمسست آديلايدا الرسالة وشمتها بعمق كما لو أنها عطر. ثم رفعتها إلى فمها وبدا لفيليثيت أنها تمص حافة الورقة.

- اقرأها لي يا فيليثيت - قالت وهي تعيدها إليه - أرى أنها ليست رسالة حب، تشي غوا<sup>(1)</sup>.

استمعت بجدية بالغة بينما صاحب شركة النقل يقرأ. وعندما انتهى، زمت شفتتها بحركة سخرية وفتحت ذراعيها:

- ماذا تريدين أن أقول لك يا فيليثيت؟

<sup>(1)</sup> تشي غوا che guá: تعبير شعبي شائع الاستخدام في مدينة ببورا البربرية، وهو تعبير متعدد الدلالات والاستخدامات، وغالباً ما يكون للإشارة إلى الاعجاب أو الاستياء، وأن هذا التعبير يتكرر مراراً في الرواية التي تدور معظم أحداثها في مدينة ببورا، وجذبنا أنه من الأفضل الحفاظ عليه، بدلاً من استخدام كلمة «عجبًا» أو سواها.

- أخبريني إن كان هذا الأمر جدياً يا آديلايدا. وإن كان علي أن أقلق أم لا. أم أنها مجرد مزحة يلعبونها معي مثلاً. أوضح لي هذا الأمر، أرجوك.

أفلتت التقية قهقهة هزت كامل جسدها المتين المخباً تحت الجلباب الواسع ذي اللون الطيني.

- أنا لستُ أرب لأعرف هذه الأمور - هتفت وهي ترفع كتفيها وتنزلهما وتحرك يديها.

- لا يقول لكِ الوحي شيئاً يا آديلايدا؟ إنني أعرفك منذ خمسة وعشرين عاماً ولم تقدمي لي نصيحة سيئة قط. نصائحك كلها كانت مفيدة. لا أدري ما الذي يمكن لحياتي أن تكون عليه من دونك يا صديقتي. لا يمكنك أن تقدمي لي نصيحة الآن؟

- لا يا بابيتو، لا نصيحة لدى - أجابت آديلايدا متظاهرة بالحزن - لم يأتني أي وحي. متأسفة يا فيليثيتو.

- حسن، لا يمكننا عمل شيء - وافق صاحب شركة النقل وهو يمد يده إلى محفظته - إذا لم يأتك أي وحي فهذا يعني أنه غير موجود.

- لماذا تدفع لي نقوداً ما دمتُ غير قادرة على نصحك - احتجت آديلايدا. ولكنها انتهت إلى أن دست في جيبها العشرين سولاً التي أصر فيليثيتو على أن تتقبلها منه.

- أيمكنني الجلوس قليلاً هنا في الظل؟ لقد أنهكت من كثرة الحركة يا آديلايدا.

- اجلس واستريح يا بابيتو. سأريك بكأس ماء بارد، أخرجته للتو من حجر التقطير. استرح وحسب.

خلال ذهاب آديلايدا إلى داخل الدكان وعودتها، تفحص فيليثيتو في عتمة المحل الخفيفة شباك العنكبوت الفضية المتسلية من السقف،

والرفوف القديمة وما عليها من أكياس صغيرة تحتوي بقدونس، وإكليل الجبل، وكزبرة، ونعنع، وعلب المسامير والبراغي والحبوب والعري والأزار، وسط رسوم وتصاوير للعذراء والمسيح وقديسين وقديسات، ورعين وورعات، مقطعة من مجلات وصحف، يتزين بعضها بشمع صغيرة مشتعلة وغيرها بزيادات أخرى تتضمن مسابح وقلادات القلب المقدس وأزهاراً من الشمع أو الورق. بسبب تلك الصور يدعونها في بيورا «التفية»، ولكن آديلايدا لم تكن تبدو لفيليثيو شديدة التدين خلال ربع قرن من معرفته لها. فهو لم يرها قط في القدس مثلاً. أضف إلى ذلك أن كهنة الأحياء يعتبرونها ساحرة كما يقال. وهذا ما يناديها به الصبية في الشوارع أحياناً: «ساحرة! ساحرة!». لم يكن ذلك صحيحاً، فهي لا تمارس الشعوذة مثل كثيرات من الخلاسيات المحتالات في كاتاكاوس وفي لاليغوا من يبغضن عقاقير للحب أو البغض أو جلب سوء الطالع، أو مثل أولئك الشامانات في هوانا كابامبا الذين يُمررون قوارض الكوبي<sup>(1)</sup> على أجساد المرضى الذين يدفعون لهم أو يُغطّسونهم في بحيرة هوارينغاس لتخلصهم من العلل. لم تكن آديلايدا ولو مجرد عرافية محترفة. فهي تمارس هذه المهنة في أحيان متعددة، ومع الأصدقاء والمعارف فقط، دون أن تتقاضى منهم سنتاً واحداً. وإذا ما ألح عليها هؤلاء ينتهي بها الأمر إلىأخذ الأكرامية التي يرغبون في تقديمها إليها. وقد كانت زوجة فيليثيو وابناه (وكذلك مابيل) يسخرون منه لإيمانه الأعمى بوحى آديلايدا ونصائحها. أما هو فلم يكن يصدقها وحسب، بل إنه يتعاطف معها. يُحزنه فقرها ووحدتها. لا يُعرف لها زوج ولا أقارب؛ إنها وحيدة دوماً، ولكنها تبدو سعيدة بحياة الناسك التي تعيشها.

<sup>(1)</sup>: حيوان من فصيلة القوارض، بحجم الأرنب تقريباً، موطنها مناطق الأنديز، وبصورة خاصة البيرو.

لقد رأها أول مرة قبل ربع قرن، حين كان سائق شاحنة عبر المقاطعات، ولم تكن لديه بعد شركة النقل الصغيرة، وإن كان يحلم ليلاً ونهاراً في امتلاكها. وحدث عند الكيلومتر الخمسين على أتوستراد بان أميركانا، حيث تلك الاستراحات التي تتوقف فيها الحافلات والشاحنات والفنانات دوماً لتناول مرق دجاج أو قهوة، وملء قرعةٍ من شراب التشيشا وأكل سندويتش قبل مواجهة طريق صحراء أولوس الطويل والممتد، المترع بالغبار والأحجار، الخالي من القرى ولا وجود فيه لأية محطة وقود أو ورشة ميكانيك لحالات الحوادث. كانت آديلايدا ترتدي منذ ذلك الحين هذا الجلباب الذي بلون الطين، والذي سيكون لباسها الوحيد على الدوام، وكانت تملك أحد أكشاك بيع اللحم المقدد والمرطبات. وكان فيليثيتو يومذاك يقود شاحنة تعود ملكيتها لشركة رومبورو، محملة حتى الذروة ببلاطات قطن، ويتجه بها إلى مدينة تروخيبيو. كان يمضي وحيداً، إذ تخلف معاونه عن الرحلة في اللحظة الأخيرة لأن المستشفى العمالي أخبره أن حالة أمه صارت حرجة جداً، ويمكن أن تموت في أية لحظة. كان فيليثيتو يأكل تماماً وهو يجلس على مقعد إلى منضدة كونتوار كشك آديلايدا حين انتبه إلى أن المرأة تنظر إليه بطريقة غريبة بتينك العينين العميقتين والتقصيتين اللتين لها. أي ذبابа لسعت هذه السيدة، تشي غوا؟ لقد امتع وجهها. وبدت شبهة مرتبعة.

- ماذا أصابك يا سيدة آديلايدا؟ لماذا تنظرين إلى هكذا، كالمرتابة بشيء ما؟

لم تقل شيئاً. وواصلت تصويب عينيها السوداويتين الواسعتين والعميقتين إليه مظهرة تصعيرة اشمئزاز وخوف تُعَرَّ خديها وتُجَعَّد جبينها.

- هل أنت مريضة؟ الحَ فيليسيتو بقلق.

- خير لكَ ألا تتصعد إلى هذه الشاحنة. قالت المرأة أخيراً بصوت مبحوح، كما لو أنها تبذل جهداً كبيراً لينصاع لها لسانها وحنجرتها. وكانت تشير بيدها إلى الشاحنة الحمراء التي أوقفها فيليسيتو إلى جانب الطريق.

- أتريديني ألا أصعد إلى شاحنتي؟ - ردّد مشوشاً - ولماذا، إن كان يمكن لي أن أعرف؟

رفعت آديلايدا عينيها عنه لحظة لتنظر في ما حولها، كما لو أنها تخشى أن يسمعها السائقون والزبائن الآخرون، أو أصحاب المحلات والبارات في الاستراحة.

- لدى وهي - قالت له مخفضة صوتها، بوجهها المتفتح كالسابق - لا يمكنني أن أفسر لك الأمر. صدق ما أقوله وحسب، أرجوك. من الأفضل ألا تصعد إلى هذه الشاحنة.

- أشكرك نصيحتك يا سيدتي، وأنا واثق من أنها نصيحة بنية طيبة. ولكن عليّ أن أكسب قوتي. إبني سائق، وأكسب لقمة العيش من سيارة الشاحنات يا سيدة آديلايدا. وإلا كيف سأوفر الطعام لزوجتي وابني؟

- كن حذراً إذاً على الأقل - طلبت منه المرأة وهي تخفض نظرها - صدقني.

- هذا أمر يمكنني أن أعدك به يا سيدتي. فأنا حذر على الدوام. بعد ساعة ونصف من ذلك، وعند منعطف على الطريق غير المعبد، وسط زوبعة غبار بين رمادية وصفراء، ظهرت حافلة لشركة كروث دي تشايلبون وهي تصدر صريراً وزمجرة وتتجه للاصطدام بالشاحنة بصلب مدو من الصفيح والمكافح والصراخ وصريف العجلات. تمكّن فيليسيتو

الذي يتمتع بردود فعل انعكاسية سريعة من الانحراف بالشاحنة وإخراج الجزء الأمامي منها عن الطريق، وهكذا اصطدمت الحافلة بصدوق الشاحنة وحملتها مما أنقذ حياته. ولكنه ظل عاجزاً عن الحركة تحت جبارٍ من الجبس إلى أن التحمت عظام ظهره وكتفه وساقه اليمنى، فضلاً عن الآلام التي تسببها له حكة تبعث على الجنون. وعندما تمكن أخيراً من العودة إلى سيارة الشاحنة، كان أول ما فعله الذهاب إلى الكيلومتر خمسين. وقد تعرفت السيدة آديلايدا عليه فوراً.

- يسعدني أنكَ على ما يرام - قالت له على سبيل التحية - هل آتيك بوجبة تامال ومياه غازية كالعادة؟

- أتوسل إليكِ بأعز ما لديكِ أن تخبريني كيف عرفت أن حافلة كروث دي تشاربون ستصطدم بي يا سيدة آديلايدا. إنني لا أتوقف عن التفكير في الأمر منذ ذلك اليوم. هل أنت ساحرة، أم قدِيسة، أم ماذ؟ رأى السيدة تكتسي بالشحوب ولم تعد تدري ما تفعله بيديها. وكانت قد أطرقت رأسها مرتبكة.

- أنا لم أعرف شيئاً من هذا - تلعمت دون النظر إليه، كمن هي متهمة بأمر خطير - لقد كان وحياً، ولا شيء أكثر من هذا. وهو ما يحدث لي أحياناً، دون أن أعرف السبب. لست أسعى إلى ذلك.. تشي غوا. أقسم لك. إنها لعنة نزلت بي. أنا لا أرغب في أن يجعلني الرب المقدس هكذا. إنني أصلى له كل يوم كي ينتزع مني هذه الهبة التي منحني إياها. إنها مسألة رهيبة، صدقني. يجعلني أشعر بالذنب لكل الأمور الخبيثة التي تحدث للناس.

- ولكن ما الذي رأيته يا سيدتي؟ لماذا قلت لي في ذلك الصباح إنه من الأفضل لي ألا أصعد إلى شاحنتي؟

— لم أَر شيئاً، فأنَا لا أرى الأمور التي ستحدث أبداً. ألم أخبرك بذلك؟ إنه وحي وحسب. إلهام بأنك إذا ما صعدت إلى تلك الشاحنة فسوف يحدث لك شيء. لم أدر ما هو. فأنَا لا أعرف أبداً ما الذي سيحدث. ما أعرفه فقط هو أن هناك أمور يُفضل عدم فعلها لأن نتائجها ستكون وخيمة. هل ستتناول وجبة التامال مع زجاجة إنكا كولا؟

لقد تحولا إلى صديقين منذ ذلك الحين، وسرعان ما صارا يتبادلان الحديث دون كلفة. وعندما تركت السيدة آديلايدا الاستراحة عند الكيلومتر خمسين وفتحت دكانها للأعشاب والمطرزات والترهات والصور الدينية بالقرب من منطقة الملح القديم، صار فيليثيتو يأتي مرة كل أسبوع على الأقل ليسلم عليها ويتبادل الحديث معها لبعض الوقت. وفي كل مرة تقريباً يأتيها بهدية ما: بعض الحلوي أو كعكة أو صندلأ، وحين يودعها يترك ورقة نقدية في يديها القاسيتين والخشنتين كيديِّ رجل. جميع القرارات المهمة التي اتخاذها خلال تلك البضعة والعشرين عاماً استشارها فيها، ولا سيما منذ تأسيسه شركة نارهولا للنقل: القروض التي استدانها، والشاحنات والحافلات والسيارات التي راح يشتريها، وال محلات التي استأجرها، والسائقون والموظفوون الذين يتعاقد معهم أو يصرفهم من العمل. وفي معظم الأحيان كانت آديلايدا تضحك من استشاراته لها. «وما أدراني أنا بهذه الأمور يا فيليثيتو، تشي غوا. كيف تريدينني أن أقول لك إن كانت الشيفروليه أفضل أم الفورد، وما أدراني أنا بماركات السيارات إذا كنت لم أملك أيها قط». ولكن بين حين وآخر، حتى لو كانت لا تعرف شيئاً عن الموضوع، يأتيها وهي وتقدم له نصيحة: «أجل، ادخل في هذه الصفقة يا فيليثيتو، ستكون جيدة كما يبدو لي». أو تقول له: «لا يا فيليثيتو، هذا الأمر لا يناسبك، لا أدرى السبب ولكنني أشم رائحة كريهة في

الموضع». كلمات التقية كانت حقائق كُشف عنها الحجاب في نظر صاحب شركة النقل، وكان ينصلع لأقوالها بحذافيرها مهما بدت غير مفهومة أو سخيفة.

- لقد غفت يا بابيتو. سمعها تقول له.

وبالفعل، كان قد غفا بعد أن شرب كأس الماء البارد الذي أحضرته له آديلايدا. لكم من الوقت غفا على ذلك الكرسي الهزاز الذي تسبب له بتشنج في مؤخرته؟ نظر إلى ساعته. حسن، إنها بضع دقائق وحسب.

- السبب هو توترات هذا الصباح ومشاغله - قال وهو ينهض واقفاً -  
إلى اللقاء يا آديلايدا. يا لهذا الهدوء هنا في دكانك. إنني أشعر بالتحسن كلما زرتكم، حتى لو لم يأتيكِ الوحي.

وفي اللحظة التي تلفظ فيها بكلمة السر، وهي، التي تحدد بها آديلايدا القدرة الغامضة التي تمتلكها، وتكهنها الأمور الطيبة أو الخبيثة التي ستحدث لشخص ما، لاحظ فيليثيتو أن التقية لم تعد هي نفسها المرأة التي استقبلته، والتي استمعت إلى قراءته لرسالة العنكبوت، وأكدت له أن ذلك كله لا يوحى لها بأي ردة فعل. كانت تبدو الآن جدية جداً، تسيطر عليها ملامح الوقار، جبينها مجعد بينما هي تقضم أحد أظفارها. يمكن القول إنها كانت تكبح الغم الذي بدأ يستحوذ عليها. كانت عيناها الواسعتان مصوبيتين إليه. أحس فيليثيتو بتسرع في نبضات قلبه.

- ماذا أصابك يا آديلايدا؟ - سألهما مذعوراً - لا تقولي لي الآن إنه...

أمسكت به يد المرأة المتصلبة من ذراعه وغرست فيه أصابعها.

- أعطهم ما يطلبونه منك يا فيليثيتو - دمدمت - من الأفضل أن تعطيهم ذلك.

- أُعطي خمسة دولارات في الشهر لأولئك المبتسرين كيلا يسبوا لي الأذى؟ - قال صاحب شركة النقل مستهجنًا - أهذا ما يقوله لك الوحي يا آديلايدا؟

أفلتت التقية ذراعه وربتت عليه بحنان.

- أعرف أن عمل ذلك سيئ، وأعرف أن المبلغ كبير - أكدت - ولكن ما أهمية المال في نهاية المطاف، ألا ترى ذلك؟ الأهم منه صحتك، طمأنينيتك، عملك، حبك في كاستييا. أعرف أنه لا يروق لك أن أقول هذا. وأنا أيضًا لا يروق لي قوله، فأنت صديق جيد يا بابتيتو. أسف إلى ذلك أني قد أكون مخطئة وأنني أقدم إليك نصيحة سيئة. ليس هناك ما يدعوك لأن تصدقني يا فيليثيتو.

- ليست المسألة هي النقود يا آديلايدا - قال بحزم - يجب على الرجل ألا يسمح لأحد بأن يُذله في هذه الحياة. هذا هو الموضوع وليس شيئاً آخر يا صديقتي.

## II

حين مر دون إسماعيل كاريرا، صاحب شركة التأمين، على مكتب ريفوبيرتو واقتصر عليه أن يتناول الغداء معاً، فكر ريفوبيرتو: «سوف يطلب مني مرة أخرى أن أتراجع عن قراري»، لأن إسماعيل قد فوجئ كثيراً، مثلما هي حال جميع زملائه ومرؤوسيه، بإعلانه المفاجئ عن أنه سيقدم موعد تقاعده ثلاثة سنوات. لذا التقاعد في سن الثانية والستين، قال له الجميع، في الوقت الذي يمكنه فيه البقاء ثلاثة سنوات أخرى في هذه الإدارة التي يديرها وسط احترام إجماعي من قرابة ثلاثة موظف في الشركة.

«بالفعل، لماذا، لماذا؟»، فكر. لم يكن الأمر واضحًا جيداً حتى له هو نفسه بالذات. ولكن المؤكد أن قراره كان حاسماً. لن يتراجع عنه على الرغم من أن تقاعده، قبل بلوغه الخامسة والستين، سيجعله يخرج دون الحصول على الراتب الكامل، ولن يكون له الحق بكافة تعويضات وزيادات من يحالون إلى المعاش بعد بلوغهم سن التقاعد.

حاول تشجيع نفسه بالتفكير في وقت الفراغ الذي سيتوفّر له. وقضاء الساعات في حيزه الحضاري، محمياً من البربرية، ومتأملاً لوحاته المحببة، وكتب الفن التي تملأ مكتبه، ومستمعاً إلى موسيقى جيدة، واستمتع برحلته السنوية إلى أوروبا مع لوكريشيا في الربيع أو الخريف، حيث يحضر مهرجانات فنون، ويزور متاحف ومؤسسات

ثقافية، ومعارض فنية، ويعود لرؤيه تلك اللوحات والمنحوتات المحببة إليه، ويكتشف أعمالاً أخرى غيرها يضمها إلى متحف لوحاته السري. كان قد أجرى حساباته، وهو جيد جداً في الرياضيات. وبالإنفاق بصورة عقلانية، وإدارته بحذر مدخلاته البالغة قرابة المليون دولار إضافة إلى راتبه التقاعدي، سيتمكن من التمتع، هو ولوكريثيا، بشيخوخة مريحة جداً، ويمكن لها توفير مستقبل مضمون لفونتشيتو.

وفكـر: «أجل، أجل، شـيخوخـة مدـيـدة، ثـقـافـية وـسـعـيـدة». لـما تـراـهـ إذاـ، عـلـى الرـغـم منـ هـذـا الـسـتـقـبـل الـوـاعـدـ، يـشـعـرـ بـكـلـ هـذـا الـقـلـقـ؟ أـيـكـونـ السـبـبـ هوـ إـدـيلـيـرـتوـ توـرـيـسـ أمـ تـراـهـ كـآـبـةـ مـسـبـقـةـ؟ لـاسـيـماـ وـأـنـهـ، مـثـلـمـاـ هوـ عـلـيـهـ الـآنـ، يـمـرـ بـنـظـرـهـ عـلـىـ الصـورـ وـالـشـهـادـاتـ الـمـعـلـقـةـ عـلـىـ جـدـرـانـ مـكـتبـهـ، وـالـكـتـبـ الـمـصـفـوـفةـ عـلـىـ رـفـينـ، وـمـنـضـدـتـهـ الـمـرـتـبـ بـدـقـةـ مـلـيـمـتـرـيةـ وـعـلـيـهـ دـفـاتـرـ مـلـاحـظـاتـهـ، وـأـقـلـامـهـ وـمـقـالـهـ، وـآـلـتـهـ الـحـاسـبـةـ، وـالـتـقـارـيرـ، وـالـكـمـبـيـوتـرـ الـمـشـغـلـ، وـجـهـازـ الـتـلـفـازـ الـمـثـبـتـ دـوـمـاـ عـلـىـ قـنـاةـ بـلـوـمـبرـغـ وـمـاـ تـعـرـضـهـ مـنـ أـسـعـارـ الـبـورـصـاتـ. كـيـفـ يـمـكـنـ لـهـ الشـعـورـ بـحـنـينـ مـسـبـقـ إـلـىـ هـذـاـ كـلـهـ؟ الشـيـءـ الـوـحـيدـ الـمـهـمـ فيـ هـذـاـ الـمـكـتبـ هوـ صـورـ لـوـكـرـيـثـياـ وـصـورـ فـوـتـشـيـتوــ صـورـهـ وـهـوـ حـدـيـثـ الـولـادـةـ، وـطـفـلـ، وـمـرـاـهـقــ وـسـيـحـمـلـ هـذـهـ الصـورـ مـعـهـ يـوـمـ يـنـتـقـلـ. وـمـاـ سـوـىـ ذـلـكـ فـإـنـ هـذـاـ الـبـنـاءـ الـقـدـيمـ فيـ مـنـطـقـةـ كـارـابـايـاـ، وـسـطـ لـيـماـ، لـنـ يـعـودـ عـمـاـ قـرـيبـ مـقـرـاـ لـشـرـكـةـ التـأـمـينـ. فـمـبـنـىـ الـمـقـرـ الجـدـيدـ، فـيـ سـانـ إـيـسـيـدـروـ، عـلـىـ حـافـةـ جـادـةـ الثـانـخـونـ، يـوـشكـ عـلـىـ الـانتـهـاءـ. أـمـاـ هـذـاـ الـبـنـاءـ الـقـبـيـحـ الـذـيـ عـمـلـ فـيـهـ طـوـالـ ثـلـاثـيـنـ عـامـاـ مـنـ حـيـاتـهـ، فـمـنـ الـمحـتمـلـ أـنـ يـهـدـمـ.

ظنـ أنـ إـسـمـاعـيلـ سـيـأـخـذـهـ، مـثـلـماـ يـفـعـلـ كـلـماـ دـعـاهـ لـتـناـوـلـ الـغـدـاءـ، إـلـىـ النـادـيـ الـوطـنـيـ، وـسـيـكـونـ هوـ بـدـورـهـ غـيـرـ قـادـرـ، مـرـأـةـ أـخـرىـ، عـلـىـ مـقاـوـمـةـ إـغـرـاءـ شـرـيـحةـ الـلـحـمـ الـتـيـ تـقـدـمـ هـنـاكـ مـغـطـاةـ بـصـلـصـةـ تـاـكـوــ تـاـكـوـ وـيـسـمـونـهـ «ـمـلاـءـةـ»ـ، وـتـنـاـوـلـ كـأـسـيـنـ مـنـ النـبـيـذـ، مـاـ يـبـقـيـهـ يـشـعـرـ، طـيـلـةـ

فتره العصر، بالانتفاح مع تخرمة ودون رغبة في العمل. ولكنه فوجئ، فور صعودهما إلى سيارة الميرسيديس بنز في كراج المبني، بأن رئيسه أمر السائق: «إلى ميرافلوريس يا نرسيس، إلى مطعم روسا ناوتيكا». ثم التفت إلى ريفوبيرتو وقال موضحاً: «سنشعر هناك بشيء من التحسن باستنشاق قليل من هواء البحر وسماع زعيق النوارس».

- إذا كنت تظن أنك سترشوني بهذا الغداء فأنت مجنون يا إسماعيل - حذرة -. سأتقاعد على أي حال، حتى لو وجّهتَ مسدساً إلى صدري.  
- لن أوجهه إليك - قال إسماعيل بإيماءة ساخرة -. أعرف أنك عنيد مثل بغل. وأعرف أيضاً أنك ستندم حين تشعر بأنك عديم الفائدة وضاجر في بيتك، تُفقد لوكريثيا صبرها طيلة اليوم. ستعود سريعاً لطلب مني جائياً أن أعيدك إلى الإداره. ولسوف أفعل بالطبع. ولكنني سأجعلك تتذهب لبعض الوقت، إنني أحذرك.

حاول أن يتذكر منذ متى يعرف إسماعيل. منذ سنوات طويلة. لقد كان إسماعيل شاباً جيداً جداً، أنيقاً، متميزاً، اجتماعياً. حتى إنه تزوج من كلوتيلدي، فهو مفو. يجعل العازبات والمتزوجات، العجائز والشابات يتنهدن. لقد فقد شعره الآن، لديه قليل من خصل الشعر البيضاء على صلعته، وقد تجعدت بشرته، وصار سميناً ويجرجر قدميه. وثلاحظ أسنانه الاصطناعية التي ركبها له طبيب أسنان في ميامي. فالسنوات، والتؤمنان قبل كل شيء، قد دمرته بدنياً. تعارفاً منذ اليوم الأول لدخول ريفوبيرتو إلى العمل في شركة التأمين، في الإداره القانونية. منذ أكثر من ثلاثين عاماً! يا للعنة، حياة كاملة. تذكر أبا إسماعيل، دون أليخاندرو كاريرا، مؤسس الشركة. كان رجلاً قوياً، لا يكل، رجل صعب لكنه نزيه، مجرد حضوره يفرض نظاماً وجدية مُعدية. وكان إسماعيل يحترم أباه، على الرغم من أنه لم يحبه قط. لأن

دون أليخاندرو جعل ابنه الوحيد يعمل فور عودته من إنكلترا – حيث تخرج من جامعة لندن في الاقتصاد وتدرس لمدة سنة في شركة لويدز – في كافة أقسام الشركة التي كانت قد بدأت باكتساب مكانة مهمة. وكان إسماعيل قد تجاوز الأربعين، ويشعر بالمهانة من ذلك التدريب الذي أوصله حتى إلى العمل في تصنيف بريد الشركة، وإدارة المصحف فيها، والإشراف على محركات مولد الكهرباء، وعلى حراسة مقر الشركة ونظافتها. قد يكون دون أليخاندرو مستبدًا بعض الشيء، ولكن ريفوبيرتو يتذكره بتقدير: إنه قائد شركة. لقد صنع هذه الشركة من العدم، بادئاً برأس مال تافه وقروض سددها حتى آخر سنتيم. ولكن إسماعيل كان، في الحقيقة، مواصلاً مرموقاً لعمل أبيه. لا يكمل من العمل أيضاً ويعرف ممارسة موهبته القيادية حين يتطلب الأمر ذلك. غير أن سلالة آل كاريرا، بوجود التوأميين على رأسها، ستمضي في الفشل إلى القمامنة. فأي من الابنين لم يرث فضائل الأب والجد الإدارية. يا للتعasse التي ستحل بشركة التأمين حين يختفي إسماعيل من الوجود! ولحسن الحظ أنه هو نفسه لن يكون مديرًا في الشركة ولن يشهد الكارثة. لماذا دعاه رئيسه يا ترى إلى الغداء إن لم يكن من أجل التحدث إليه عن تقاعده المبكر؟

كان مطعم «روسا ناوتيكا» يغص بالناس. سائحون كثيرون من يتكلمون الإنكليزية والفرنسية. وكانوا قد حجزوا لدون إسماعيل منضدة إلى جانب النافذة. تناولا كأس كامبرى وهما يتأملان بعض ممتلكي الواح التزلج ي gioيون الأمواج محشورين ببدلاتهم المطاطية. كان يوماً شتائياً رماديًّا، مع غيوم رصاصية منخفضة تخفي جروف الوهاد وأسراب النوارس التي تطلق الزعفق. وكان هناك سرب من طيور القطرس يمضي طافياً فوق سطح البحر. وبدا دوي مد الأمواج الإيقاعي ورجعوا لها لطيفاً. «الشتاء على شيء من الكأبة في ليما، إنني أفضل الصيف ألف مرة»، فكر ريفوبيرتو. طلب سمة غراب

بحر مشوية مع سلطة، ونبهَ رئيسه إلى أنه لا يستطيع شرب قطرة نبيذ واحدة؛ فلديه عمل في المكتب ولا يريد قضاء فترة العمل المسائية في التناوب مثل تمساح مع الشعور بأنه يتحرك نائماً. بدا له أن إسماعيل، المتنع عن الشراب، لم يسمعه. أي ذبابة لسعته يا ترى؟

- أنت وأنا صديقان حميمان، نعم أم لا؟ توجه إليه رئيسه فجأة كما لو أنه قد استيقظ للتو.

- هذا ما أعتقده يا إسماعيل - أجابة ريفوربيرتو -. إن كان بالإمكان وجود صدقة حقاً بين رب عمل وموظفيه. فهناك ما يسمى صراع الطبقات كما تعلم.

- لقد كانت لنا مواجهاتنا أحياناً - واصل إسماعيل بجدية كبيرة -. ولكننا، على الرغم من كل شيء، أمضينا هذه السنوات الثلاثين على ما يرام. ألا ترى ذلك؟

- هل كل هذا اللف والدوران العاطفي من أجل أن تطلب مني إلا أتقاعد؟ - استفزه ريفوربيرتو -. هل ستقول لي إن الشركة ستنهار إذا ما غادرتها؟

لم تكن لدى إسماعيل رغبة في المزاح. كان يتأمل أصداف البرميزانا التي أحضروها له للتو كما لو أنها يمكن أن تكون مسممة. يحرك فمه مصدراً صوتاً بأسنانه الاصطناعية. كان هناك قلق في عينيه شبه المغمضتين. أهي البروستات؟ إصابة بسرطان؟ ما الذي أصابه؟

- أريد أن أطلب منك معرفة - دمم بصوت خفيض جداً، دون أن ينظر إليه. وعندما رفع عينيه، رأى ريفوربيرتو أنهما زائفتان - ليس معروفاً عادياً، إنه معروف كبير يا ريفوربيرتو.

- إن كان باستطاعتي، فجوابي نعم بالطبع - وافق مأخذوا -. ماذا جرى لك يا إسماعيل؟ يا لهذا الوجه الذي تبديه!

- بما أنك صديقي - قال إسماعيل وهو يعيد النظر إلى الواقع -  
سوف أتزوج.

ظللت الشوكة، مع الفم نصف المفتوح، معلقة للحظة في الهواء.  
وأخيراً، بدل أن يوصلها إلى فمه، أعادتها ريفوبيرتو إلى الطبق. «كم  
عمره؟»، راح يفكّر. «ليس أقل من خمسة وسبعين أو ثمانية وسبعين  
عاماً، بل ربما هو في الثمانين». لم يدر ما يمكنه قوله. لقد أصابته  
المفاجأة بالبكّم.

- أحتاج إلى شاهدين - أضاف إسماعيل، وكان ينظر إليه الآن وهو  
أكثر تحكماً بنفسه -. لقد استعرضت في ذهني جميع أصدقائي ومعارفي.  
وتوصلت في النتيجة إلى أن الشخصين الأكثر وفاء، بين من أثق بهم،  
هما نرسيس وأنت. وقد وافق سائقي. فهل توافق أنت؟  
ولعجزه حتى تلك اللحظة عن النطق بكلمة أو قول عبارة مازحة، لم  
يستطيع ريفوبيرتو إلا الموافقة بهز رأسه.

- طبعاً يا إسماعيل - تلعمت أخيراً - ولكن أكيد لي أن هذا الكلام  
جدي، وليس أول عوارض حرف الشيخوخة.

ابتسم إسماعيل هذه المرة، وإن يكن دون أية ذرة من السعادة، فاتحاً  
فمه كثيراً ومظهراً البياض الفاقع لأستانه المزيفة. هنالك سبعينيون  
وثمانينيون يحتفظون ببنية قوية، قال ريفوبيرتو لنفسه، ولكنها ليست حال  
رئيسه بكل تأكيد. ففي الججمحة المطالولة، تحت خصل الشعر البيضاء،  
تكثر الشامات، كما أن جبهته ورقبته مثلثة بالتجاعيد، وفي ملامحه كلها  
هنالك شيء مهزوم. إنه يلبس بأناقة كالعادة، بدلة زرقاء، وقميص يبدو  
مكواياً للتو، وربطة عنق مثبتة بمشبك ذهبي، ومنديل بارز في الجيب.

- هل أصبت بالجنون يا إسماعيل؟ - هتف ريفوبيرتو فجأة، في ردّ  
 فعل متاخر على الخبر - هل ستتزوج حقاً؟ وأنت في هذه السن؟

- إنه قرار متعقل تماماً - سمعه يقول بتصميم -. وقد اتخذته وأنا أعرف جيداً ما سيتسبب به. ولا حاجة للقول لك، إذا ما كنت شاهداً على زفافي، فسوف تواجه المشاكل أيضاً. وباختصار، لماذا الحديث عما تعرفه جيداً.

- وهل هما على علم بالأمر؟

- لا تسألني: أسئلة بلهاء، أرجوك - فقد رئيسه صبره -. سيصل صراغ التوأميين إلى السماء، سيحركان الأرض والجحيم كي يُبطلوا زوجي، وسيسعين لإعلانِي فقد الأهلية، ويحاولان إدخالي إلى مستشفى المجانين وألف شيء آخر. بل إنهم سيدفعون قاتلاً مأجوراً إلى قتلي إذا تمكنا. وستكون أنت ونرسيس أيضاً ضحيتين لحقدهما طبعاً. أنت تعرف هذا كله، وعلى الرغم من ذلك قلتَ لي نعم. لم أخطئ إذاً. إنك الشخص النظيف، الكريم والنبيل، مثلما كنت أظن على الدوام. شكراً أيها العجوز.

مذ يده، وأمسك ريفوبيرتو من ذراعه وأبقاها هناك للحظة، مع ضغطة تأثر.

- أخبرني على الأقل من هي العروس المحظوظة. سأله ريفوبيرتو محاولاً ابتلاع لقمة من سمكة غراب البحر. لقد فقد كل رغبة في الأكل. ابتسם إسماعيل هذه المرة ابتسامة حقيقة وهو ينظر إليه بسخرية.

ضوء خبيث كان يتلألأً في بؤبؤي عينيه وهو يقترح عليه:

- تناول رشفة من النبيذ أولاً يا ريفوبيرتو. إذا كنت قد أصبت بكل هذا الشحوب لمجرد أنني أخبرتك بأنني سأتزوج، فقد تصاب بسكتة قلبية إذا ما أخبرتك من سأتزوج.

- أهي قبيحة إلى هذا الحد متصيدة الثروة هذه؟ تلعنهم ريفوبيرتو. وبعد ذلك التمهيد صار فضوله هائلاً.

- سأتزوج من آرميدا. قال إسماعيل متھجياً الاسم حرفًا حرفًا. وكان ينتظر رد فعله مثلما ينتظر عالم حشرات رد فعل حشرة يدرسها.

آرميدا، آرميدا؟ راح ريفوبيرتو يستعرض كل من يعرفهن، ولكن أياً منها لم تكن تتواافق مع هذا الاسم.

- هل أعرفها؟ سأله أخيراً.

- آرميدا - كرر إسماعيل وهو يتفحصه وينظر إليه بابتسامه متكتمة -

أنت تعرفها جيداً. لقد رأيتها ألف مرة هنا في بيتي. كل ما هناك أنك لم تنتبه إليها قط. لأن أحداً لا ينتبه أبداً إلى العاملات المنزليات.

الشوكة التي غرس فيها قطعة أخرى من سمكة غراب البحر انزلقت من بين أصابعه وسقطت على الأرض. وبينما هو ينحني ليلقطها أحس بأن قلبه بدأ ينبض بقوة. سمع رئيسه يضحك. أيكون ممكناً؟ هل سيتزوج من خادمتها؟ لا تحدث مثل هذه الأمور في المسلسلات التلفزيونية وحدها؟ هل يتكلم إسماعيل بجد أم أنه يسخر منه؟ تخيل التقولات، والاختلاقات، والتخيّلات، والدعابات التي ستتشعل ليما الناس النمامين: سيكون لديهم ما يتسلون به لوقت طويل.

- هناك شخص مجنون هنا - قال مؤكداً من بين أسنانه - إما أنت أو أنا. أم ترانا مجنونين كلينا يا إسماعيل؟

- إنها امرأة طيبة، ونحن متحابان - قال رئيسه، دون أدنى تشوش الآن - إنني أعرفها منذ زمن طويل. ستكون رفيقة جيدة لي في شيخوختي، ولسوف ترى ذلك.

أجل... لقد رأها ريفوبيرتو، تعرف إليها، اختلقها. إنها سمراء، شعرها طويل جداً، ولها عينان متقدتان. إنها خلاصية، ساحلية ذات أساليب لعوبية، نحيلة، وليس قصيرة القامة جداً. تشوليتا حسنة المظهر. وفكرة: «لا بد أنه يكبرها بأربعين عاماً، وربما أكثر. لقد أصيب إسماعيل بالجنون».

- إذا كنت قد نويت، في شيخوختك، أن تكون بطل أكبر فضيحة مدوية في تاريخ ليما، فسوف تتوصل إلى ذلك - قال متنهداً - ستكون جوكر النيمية لسنوات لا يعلم عددها إلا الله، وربما لقرون.

ضحك إسماعيل موافقاً، وكان ضحكه هذه المرة بطيب مزاج صريح.

- لقد أخبرتك بالأمر أخيراً يا ريفوبيرتو - هتف براحة - الحقيقة أن إخباري لك كلفني مشقة كبيرة. وأعترف لك أن بحراً من الشكوك كان يراودني. كنت أموت خجلاً. عندما أخبرتُ نرسيس، فتح الزنجي عينيه كصحnin وكاد أن يبتلع لسانه. حسن. ها أنت تعلم ما سيحدث. ستكون فضيحة مدوية ولا يهمني ذلك مقدار ذرة. هل ستظل موافقاً على أن تكون شاهداً على زفافي؟

هز ريفوبيرتو رأسه: أجل، أجل يا إسماعيل، فكيف يمكنه أن يرفض ما دام إسماعيل هو من يطلب ذلك منه. ولكن، ولكن... بالطبع، لم يعد يدرى أية لعنة يمكنه قولها.

- أهو زواج لا بد منه؟ - تحمس أخيراً - أعني أنك ستغامر بتحمل ما سيجلبه عليك. أنا لا أفك في الفضيحة وحدها يا إسماعيل. يمكن لك أن تخيل ما أعنيه. أهناك ما يستحق الوقع في المشكلة الهائلة مع ابنيك التي سيتسبب بها هذا الزواج؟ فللزواج مفاعيل اقتصادية قانونية. وباختصار، يخيل إليّ أنك قد فكرت بهذا كله وأن ما أقوله لك مجرد تأملات بلهاه. أليس كذلك يا إسماعيل؟

رأى رئيسه يشرب نصف كأس من النبيذ الأبيض في جرعة واحدة. رأه يهز كتفيه ويؤكّد:

- سيعاولان اعتباري عاجزاً وفاقد الأهلية - أوضح بنبرة ساخرة وهو يقوم بتكتسيرة ازدراء - لا بد من دفع رشى وأموال كثيرة لقضاة ومحامين طبعاً. وأنا أملك نقوداً أكثر منها، وهذا يعني أنهما لن يكسبا القضية ضدّي إذا ما تقدما بالشكوى.

كان يتكلم دون أن ينظر إلى ريفوبيرتو، ودون أن يرفع صوته كيلا يسمعه من هم على الموائد المجاورة، وبعينين متوجهتين نحو البحر. ولكنه لم يكن برىء، دون شك، ممتلك الواح التزلج، ولا النوارس، ولا الأمواج التي تندفع نحو الشاطئ مطلقة شرر زبد أبيض، ولا رتلي السيارات التي تمر على الشاطئ الأخضر. وراح صوته يمتلئ بالغضب.

- وهل يستحق الأمر هذا كله يا إسماعيل؟ - ألح ريفوبيرتو.

محامون، وكتاب بالعدل، وقضاة، وممثلو في المحاكم، والقذارة الصحفية وهي تنبش في حياتك الخاصة إلى حد الغثيان. كل هذه الفطاعة، فضلاً عن الأموال التي ستتكلفك إياها مثل هذه النزوة. وأوجاع الرأس والتکدر. هل يستحق الأمر هذا كله؟

وبدلاً من أن يجيبه، فاجأه إسماعيل بسؤال آخر:

- أتتذكر عندما أصابتني النوبة القلبية، في شهر أيلول/سبتمبر؟ ريفوبيرتو يتذكر ذلك جيداً. الجميع ظنوا يومها أن إسماعيل سيموت. فاجأته النوبة وهو في السيارة، في طريق عودته إلى ليما من غداء في أنكون. حمله سائقه نرسيس مغمى عليه إلى مستشفى سان فيليببي. استيقظ في العناية المركزة عدة أيام، مع أوكسجين، وكان ضعيفاً إلى حد لا يقدر معه على الكلام.

- ظننا يومذاك أنك لن تتجاوز المحنّة، ويا للرعب الذي سببته لنا.

لماذا تتذكر ذلك الآن؟

- في ذلك الحين قررتُ الزواج من آرميدا - كان وجه إسماعيل قد تعكر وصار صوته مشحوناً بالمرارة. وبدأ في تلك اللحظة أكثر هرماً - كنتُ على شفا الموت، طبعاً.رأيته قريباً مني، لسته، شمعته. لم يكن الضعف يسمح لي بالكلام، أجل. ولكنني كنت قادراً على السمع. وهذا ما لم يعلمه ابني الوغدان يا ريفوبيرتو. وسوف أخبرك أنت بما

حدث. أنت وحدك فقط. ولا أريد لهذا الأمر أن يخرج من فمك، ولا حتى للوكريثيا. أقسم لي إنك لن تبوح به، أرجوك.

- الدكتور غاميرو كان واضحًا جدًا - أكد ميكى بحماسة ودون أن يخفض صوته -. سيفارق الحياة هذه الليلة بالذات يا أخي. نوبة قلبية حادة. إنها نوبة قاتلة، هذا ما قاله الدكتور. واحتمالات النجاة والمعافاة في أدنى الحدود.

- تكلم بصوت أخفض - طلب منه إسکوبیتا. وكان هذا يتكلم بصوت خافت، في تلك الإضاءة الخافتة التي تشوّه شكل الظلال، في تلك الحجرة الغريبة العابقة برائحة الفورمول - فليسمع الربُّ كلامك يا صاحبي. ألم تستطع تحري أي شيء بشأن الوصية في مكتب المحامي أرنبياس؟ لأنه إذا رغب في استبعادنا، فسوف يستبعدنا. عجوز البراز هذا يعرف كل شيء.

- أرنبياس لا يبوح بشيء لأن العجوز اشتراه - قال ميكى وهو يخفض صوته أيضًا -. لقد ذهبنا في المساء لاستدارجه كي يقول شيئاً، ولكن لم تكن ثمة وسيلة. وقد قمتُ على كل حال ببعض التحريرات. لن يتمكن من استبعادنا حتى لو أراد ذلك. فما أعطانا إيه حين طردنا من الشركة لا يحتسب. القانون واضح. إننا الوارثان الإجباريان. هكذا هي التسمية: الورثة الإجباريون. لا يمكنه حرماننا من التركة يا أخي.

- لا تثق كثيراً يا صاح. فهو يعرف الحيل القانونية كلها. وقدر على عمل أي شيء لخوزقتنا.

- فلنأمل ألا ينقضى عليه هذا اليوم - قال ميكى - لأن هذا العجوز القذر قد يجعلنا نقضى ليلة أخرى دون نوم.

- عجوز البراز هذا، ولينته بأسرع ما يمكن... على بعد أقل من متر عنـي، كانـا سعيـدين بـكونـي أحـضر - تذـكر إـسماعـيل متـكلـماً بـبطـء، وـنظـره مـصـوب إـلـى الفـرـاغ -. أـتـدرـي يا رـيـغـوبـيرـتو؟ لـقد أـنـقـذـانـي مـنـ الموـتـ. أـجلـ،

هما من أنقذاني، أقسم لك. لأن إرادة لا تصدق في التمسك بالحياة جاءتني حين سمعتها يقولان هذه الفظاعات. إرادة في عدم منحهما تلك البهجة، في عدم الموت. وأقول بصدق إن جسدي استجاب. وهناك اتخذتُ القرار، في ذلك المستشفى: إذا ما استعدت عافيتها سأتزوج من آرميدا. سأخذوهما أنا قبل أن يخوزقاني. أيريدان الحرب؟ سيكون لهما ما يريдан.

سيحصلان عليها يا صاحبي. إنني أرى الوجهين اللذين سيبدوان بهما. لم تكن المرارة وخيبة الأمل والغضب وحدها هي التي تضمن كلماته، وإنما كذلك التكشيرة التي عوجت فمه، ويداه وهما تعتصران الفوطة.

— قد يكون ما سمعته مجرد تخيلات، مجرد كابوس — دمم ريفوبيرتو غير مصدق ما يقوله — مع كمية الأدوية التي حُقنت يومذاك في جسده، يمكن لك أن تكون قد حلمت بذلك كله يا إسماعيل. لقد كنت تهذي، وأنا رأيتك.

— كنت أعرف أن ابني لم يحباني قط — واصل رئيسه الكلام، دون أن يغير ما قاله أدنى اهتمام — ولكنني لم أكن أعرف أنهم يكرهانني إلى ذلك الحد، وأنهما توصلوا إلى تمني موتي كي يرثاني دفعة واحدة. وكيف يبدها، بالطبع، ما بنياه أنا وأبي على امتداد سنوات طويلة ونحن نعمل بجهد. لا. سيبقى الضبعان متنوفين، أؤكد لك.

صفة الضبعين تليق تماماً بابني إسماعيل، هذا ما فَكَرَ فيه ريفوبيرتو. إنهما شخصان لا مثيل لهما في السوء. فهما بطalan، عربيدان، مستغلان، طفيلييان يُلحقان العار باسم أبيهما وجدهما. لماذا خرجا على هذا النحو؟ ليس السبب قلة حنان أبويهما ورعايتهما بكل تأكيد. فالواقع عكس ذلك تماماً، لأن إسماعيل وكلوتيدي كانوا يضحيان على الدوام مع أجلهما، وفعلا المستحيل من أجل توفير أفضل تعليم لهما. كانوا يحلمان بأن يجعلانهما رجلين محترمين. أية شياطين حولتهما إلى الوغدين اللذين صارا إليهما؟ لا غرابة في أنهما تبادلا تلك

المحادثة المشؤومة إلى جانب سرير أبيهما الذي كان يحتضر. فهما فوق ذلك غبيان، لم يفكرا في أنه قد يسمعهما. لا يتورعان بكل تأكيد عن تبادل مثل ذلك الحديث وما هو أسوأ منه. ريفوبيروتو يعرف ذلك جيداً، فخلال تلك السنوات كلها كان في مرات كثيرة منديل دموع رئيسه ومتلقي أسراره بشأن عربات ابنيه. لكم عانى إسماعيل وكلوتيلدي من الفضائح التي استثارها ابناهما منذ شبابهما المبكر.

لقد ذهبا إلى أفضل مدرسة في ليماء، وكان لهما أستاذة خصوصيون لواط يبدوان ضعيفين بها، وذهبا في دورات تعليمية إلى الولايات المتحدة وإنكلترا. تعلما الإنكليزية ولكنهم كانوا يتكلمان إسبانية أميين، تتخللها كل تلك العبارات العامية والمستهترة التي يتداولها شبان ليماء، ولم يقرأوا كتاباً واحداً ولا حتى جريدة في حياتيهما كلها، وربما لا يعرفان عواصم نصف البلدان الأمريكية اللاتينية، ولم يتمكن أي منهما من تجاوز السنة الأولى في الجامعة. وقد دشنا ممارساتهم المشينة وهما لا يزالان مراهقين باغتصابهما تلك البنية التي أخذها من حفلة غير محترمة في بوكوسانا. كان اسم الفتاة فلوراليسا روكا، اسم يبدو خارجاً من إحدى روايات الفروسية. نحيلة وعلى قدر لا يأس به من الجمال، لها عينان متأهبتان وبكتاران، وجسد يرتعش خوفاً. ريفوبيروتو يتذكرها جيداً. إنها في ضمیره وما زالت تتنتابه نوبات من تأنيب الضمير على الدور القبيح الذي كان عليه أن يلعبه في تلك القضية. استعاد ذكرى تلك المشكلة: محامون، أطباء، محاضر شرطية، ومساعيائسة للحلولة دون أن تأتي جريدة لا برقسا أو مجلة الكوميسيون على ذكر اسم التوأمین تقاريرهما الإخبارية عن الحادثة. كان عليه هو نفسه أن يتحدث إلى أبي الفتاة، وهو زوجان من مدينة إيكا، متقدمين في العمر، تكلف أمر تهدئتهما وإسكاتهما قرابة خمسين ألف دولار، وهو مبلغ كان يشكل ثروة في ذلك الحين. وما زال حاضراً في ذاكرته ذلك الحديث بينه وبين إسماعيل في

أحد تلك الأيام. كان رئيسه يعصر رأسه، يكبح دموعه، ويتهجد صوته: «بماذا أخطأنا يا ريفوبيرتو؟ ما الذي فعلناه أنا وكلوتيلدي كي يعاقبنا الرب على هذا النحو؟ كيف يمكن أن نكون قد أنجبنا مثل هذين الابنين قاطعي الطريق! حتى إنهم لا يشعرون بالندم على الفظاعة التي اقترفها. إنهم يلقيان الذنب على الفتاة المسكينة، تصور! لم يغتصبها وحسب، بل ضرباها وأساءاً معاملتها». إنهم قاطعاً طريق، هذه هي التسمية المناسبة بالضبط. ربما لم يتتحا لهم قط الإحساس بقليل من المسؤولية. ما كان عليهم أن يغفرا لهم ممارسة ظرافاتهما دوماً... ظرافات التوأمين! تصادم بالسيارات لقيادتهما لها وهما مخمورين ومخدرين، ديون مستحقة يستخدمون فيها اسم الأب، إيصالات مزورة في المكتب حين خطر لإسماعيل، في ساعة نحس، أن يدخلهما إلى الشركة كي يتمرنا. وقد كانوا كابوساً بالنسبة إلى ريفوبيرتو. إذ كان عليه أن يذهب بنفسه ليخبر رئيسه بما ثار الأخرين. لقد وصل بهما الأمر إلى إفراغ صندوق مكتبه حيث تُحفظ نقود النفقات الجارية. وكانت هذه، لحسن الحظ، هي النقطة التي جعلت الكأس يطفح. فقد طردهما إسماعيل من العمل، وفضل أن يقدم لهما مبلغاً شهرياً، ويمول كسلهما. لقد كانت سيرة كل منها بلا حدود. فقد دخلا، على سبيل المثال إلى جامعة بوسطن وكان أبواهما سعيدين. بعد شهور من ذلك اكتشف إسماعيل إنهم لم يطأ حرم تلك الجامعة قط، بل وضعوا في جيوبهما رسوم التسجيل والإقامة الجامعية، وزوراً سجل درجات وتقارير دوام. صدّم أحدهما - أكان ميكى أم إسكوبيتا؟ - عابر طريق في ميامي، وكان ملاحقاً في الولايات المتحدة لأنه استغل الحرية المؤقتة المنوحة له وهرب إلى ليما. إذا ما رجع إلى هناك سيُقاد إلى السجن.

بعد وفاة كلوتيلدي استسلم إسماعيل. فليفعل ما يحلو لهما. أعطاهمما مقدماً جزءاً من الميراث، من أجل أن يستثمراه إذا رغباً أو فلبيداه،

وهذا هو بالطبع ما فعله بالسفر إلى أوروبا وعيش حياة ملوك هناك. لقد صارا رجلين كاملين مكملين، يقتربان من الأربعين من العمر. ولم يكن رئيسه راغباً بمزيد من وجع الرأس مع هذين الابنين اللذين لا سبيل إلى إصلاحهما. وتأتي الآن هذه المسألة! سيحاولان بالطبع إبطال ذلك الزواج إذا ما تحقق. لن يسمحا أبداً بأن يُنتزع منها ميراث ينتظرانه، طبعاً، بشرارة آكلة لحوم بشر. تخيل ريفوبيرتو الفضيحة التي سيفتعلانها. أبوهما يتزوج من آرميدا! من الخادمة! من الخلاصية التشوّلا! وضحك في أعماقه: أجل، يا للوجهين اللذين سيبديانهما. ستكون الفضيحة هائلة. يمكن له منذ الآن أن يسمع، ويرى، ويشم النمائم والتکهنات والأقاويل والاختلاقات التي سيجري تداولها عبر هواتف ليما. إنه يتلهف إلى الساعة التي سيخبر فيها لوكريثيا بهذه المستجدات.

- هل أنت على علاقة جيدة بفونتشيتو؟ - أخرجه صوت رئيسه من تأملاته -. كم صار عمر ابنك الآن؟ أربعة عشر أم خمسة عشر عاماً؟ اقشعر بدن ريفوبيرتو متخيلاً أنه يمكن لفونتشيتو أن يتحول إلى شخص شبيه بابني إسماعيل. لحسن الحظ أنه غير ميال إلى اللهو. - علاقتي به على ما يرام - أجاب -. وعلاقته بلوكريثيا أفضل. ففونتشيتو يحبها كما لو أنها أمه لا أكثر ولا أقل.

- إنك محظوظ، فعلاقة الطفل بزوجة الأب ليست سهلة على الدوام. - إنه ولد طيب - اعترف دون ريفوبيرتو - محب للدراسة، ووديع. لكنه متوحد جداً. إنه في هذه الفترة الصعبة من المراهقة. يشرد بكثرة. أحب أن أراه مصادقاً لآخرين، أن يخرج، أن يُغمر بفتاة، أن يذهب إلى حفلات. - هذا ما كان يفعله الضبعان حين كانوا في مثل عمره - قال إسماعيل بتحسر -. الذهاب إلى الحفلات، اللهو. من الأفضل أن يظل كما هو أيها العجوز. الصداقات الخبيثة هي التي خربت ابني.

كان ريغوبيرتو على وشك أن يروي لإسماعيل حماقة فونتشيتو مع الظهور المتكرر لشخصية إديلبرتو توريس الذي يدعوه هو ولوكريثيا «الشيطان»، ولكنه كبح نفسه. ما جدوى ذلك، ومن يدرى كيف سيفهم الأمر. في البدء استمتع هو ولوكريثيا بالظهور المزعوم لذلك النذل، واحتفيا بمخلة الفتى المتألق، مقتنعين بأنها مجرد لعبة أخرى من الألعاب التي يحب مفاجأتهما بها بين حين وآخر. أما الآن فإنهما قلقان ويقلبان فكرة أخذه إلى طبيب نفسياني. الحقيقة أنه بحاجة إلى أن يعيد قراءة ذلك الفصل عن الشيطان في رواية «دكتور فاوست» لтомاس مان.

- مازلتُ غير مصدق هذا الأمر كله يا إسماعيل. هتف من جديد وهو يرتشف فنجان القهوة. هل أنت متأكد حقاً من أنك ستفعل ذلك، ستتزوج؟ - مثل ثقتي بأن الأرض مكورة - أكد رئيسه -. ليس لتلقين ذلك الثنائي درساً فقط. فأناأشعر بحب شديد نحو آرميدا. لا أدرى ما الذي كان سيحل بي من دونها. فمنذ موت كلوتidi كانت مساعدتها لي لا تعوض بشمن.

- إن آرميدا، إذا لم تخني الذاكرة، امرأة فتية جداً - تلعم دون ريغوبيرتو -. كم عاماً تكبرها، إن كان يمكن لي معرفة ذلك؟ - ثمانية وثلاثون عاماً فقط - ضحك إسماعيل -. أجل، إنها شابة، وأأمل أن تبعث في الحيوة، مثلما فعلت فتاة العهد القديم بسليمان.

كانت تدعى شوليت، أليس كذلك؟

- حسن، حسن، أنت حَرَّ بحياتك - قال ريغوبيرتو مستسماً -. أنا لا أنفع في تقديم النصح. تزوج من آرميدا ولينهار العالم بعد ذلك فوق رؤوسنا، لا فرق أيها العجوز.

- إذا كنت ترغب في أن تعرف، فإننا نكون على ما يرام في الفراش - تبجح إسماعيل ضاحكاً بينما هو يشير بيده إلى النادل كي يأتيه بالحساب -. ومن أجل مزيد من الدقة، لا أستخدم الفياغرا إلا نادراً، لأنني أكاد لا أحتج إليها. ولا تسألني أين سنقضي شهر العسل، لأنني لن أخبرك بذلك.

### III

بعد أيام قليلة من تلقيه الرسالة الأولى، تلقى فيليثيتو ياناكيه رسالة العنكبوت الثانية، يوم الجمعة ليلاً، وهو اليوم الذي يذهب فيه كل أسبوع لزيارة مابيل. فبعد أن هيأ لها، قبل ثمانية أعوام، البيت الصغير في حي كاستيبا، غير بعيد عن الجسر القديم الذي انهار واختفى بفعل الأضرار التي تسبب بها إعصار النينيو، صار يذهب لزياراتها مرتين، وحتى ثلاث مرات، في الأسبوع؛ لكن عاطفته راحت تخفت مع مرور السنوات، واقتصر منذ بعض الوقت على زيارتها مرة واحدة كل أسبوع، في أيام الجمعة فقط، بعد خروجه من المكتب. ويبقى معها بضع ساعات، ويتناولان الغداء معاً في معظم الأحيان، في إحدى حانات الحي أو في مطعم كريولي في مركز المدينة. وبين حين وآخر كانت مابيل تطهو له سمكة شابيل مجففة - وهذا اختصاصها - يلتهمها فيليثيتو بسعادة مع زجاجة بيرة كوسكية مُبردة جيداً.

مازالت مابيل تحافظ بقوام جيد جداً. ففي هذه الأعوام الثمانية لم تزدد سمنة، ويبدو مجمل جسدها كرياضية على حاله؛ فحصرها نحيل، ونهادها صلبان منتصبان، ومؤخرتها المكورة والمعالية ما زالت تهتز بصرخ حين تمشي. إنها سمراء، لها شعر سبط، وشفتان ممتلئتان، وأسنان ناصعة البياض، وابتسمة مشرقة وقهقات تبعث عدوى السعادة في ما حولها. وكانت لا تزال في نظر فيليثيتو جميلة جداً وجذابة مثلما كانت حين رآها أول مرة.

حدث ذلك في stad القديم، في حي بوينس آيريس، خلال مباراة تاريخية. ففي تلك المناسبة، وكانت قد مضت سنوات على فريق أتلاتيكو غراو دون أن يتمكن من الصعود إلى فرق الدرجة الأولى، ولكنه لم يواجه في تلك المباراة فريق أليانثا ليما وحسب وإنما هزمه أيضاً. ما رأه صاحب شركة النقل يومذاك كان ضربة سهم. «إنك ذاهل يا صاحبي»، سخر منه الكولورادو بيفنولو، صديقه وزميله ومنافسه – فهو يملك شركة النقل «دُرّة تشيرا» – وكان معتاداً على الذهاب معه إلى مباريات كرة القدم حين تأتي فرق من ليما ومن أقاليم أخرى للعب في بيورا. « بسبب نظرك المتواصل إلى تلك السمراء، ضيَّعت على نفسك رؤية جميع الأهداف». «لم أر في حياتي شيئاً بمثل هذه الروعة»، ددمد فيليسيتو وهو يفرقع بلسانه؛ ثم أضاف: «إنها باهرة الجمال!». كانوا على بُعد أمتار قليلة منها، وكان يرافقها شاب يضع ذراعه على كتفيها ويداعب شعرها بين وقت وآخر. بعد قليل همس الكولورادو بيفنولو في أذنه: «إنني أعرفها. اسمها مابيل. لقد وقعتَ يا صاحبي. إنها تُضاجع». جفل فيليسيتو: «أتعني يا صاحبي أن هذه البهجة عاهرة؟». – ليست هكذا بالضبط – صرح الكولورادو وهو يوكزه بمرفقه – قلت إنها تُضاجع، وليس أن تتعهر. المضاجعة والتعهر أمران مختلفان يا زميل. ومابيل هي نوع من الخليل أو شيء من هذا القبيل. تفعل ذلك مع بعض المتميزين، وفي بيتها. وهي تحصل من كل واحد منهم على ما يساوي عيناً من وجهه على ما أقدر. أتريديني أن أحصل لك على رقم هاتفها؟

تحرى له عن رقم هاتفها، وقام فيليسيتو بالاتصال بها وهو شبه ميت من الخجل، لأنـه – خلافاً للكولورادو بيفنولو العريبـ الداعـرـ منذ صغره – يعيش حـيـاةـ شـدـيـدةـ التـقـشـفـ مـكـرسـ نـفـسـهـ لـعـملـهـ وأـسـرـتهـ. وبعد كـثـيرـ من

اللُّف والدوران، حدد موعداً مع امرأة الستاد الجميلة. حددت له الموعد أولاً في مقهى بجادة غراو، مقهى باللايكى، القريب من تلك المقاعد التي يجتمع عليها، للاستمتاع ببرودة الغروب، أولئك النمامون المسنون مؤسسو م. ت. ح. ا. (مركز تحري حيوانات الآخرين). تناولا وجبة خفيفة، وتبادلوا الحديث لوقت لا بأس به. كان يشعر بالرهبة حيال ذلك الجمال والشباب، ويتساءل بينه وبين نفسه، في بعض اللحظات، عما سيفعله إذا ما ظهرت زوجته خيرت روبيس فجأة في المقهى أو ابناه تيبورثيو وميغيليتتو. كيف سيقدم لهم مابيل؟ أما هي فكانت تلعب معه لعبة القط والفار: «أنت عجوز جداً، مُستهلك وغير مناسب للوقوع في حب امرأة مثلـي. أضف إلى ذلك أنك طـرـح ضـئـيلـ، وإذا كان عـلـيـ أـمـشـيـ مـعـكـ فـسـوـفـ أـضـطـرـ إـلـىـ المـضـيـ دـائـمـاـ بـحـذـاءـ بلاـ كـعـبـ». كانت تتـفـنـجـ مع صـاحـبـ شـرـكـةـ النـقـلـ عـلـىـ هـوـاـهـاـ، وـتـقـرـبـ مـنـهـ وجـهـهاـ الـبـاسـ وـعـيـنـيـهاـ الـمـرـتـعـتـينـ بـالـشـرـ، وـتـمـسـكـ بـيـدـهـ أوـ بـذـرـاعـهـ، وـهـيـ مـلـامـسـ تـهـزـ كـيـانـ فـيـلـيـثـيـتوـ مـنـ رـأـسـهـ حـتـىـ أـخـمـصـ قـدـمـيهـ. كان عـلـيـهـ الخـرـوجـ مـعـ مـاـبـيلـ قـرـابـةـ ثـلـاثـةـ شـهـورـ، يـأـخـذـهاـ إـلـىـ السـيـنـمـاـ، يـدـعـوـهاـ لـلـفـدـاءـ، لـلـعشـاءـ، لـلـتـنـزـهـ عـلـىـ شـاطـئـ يـائـيـلاـ، إـلـىـ حـانـاتـ كـاتـاكـاوـسـ، وـيـقـدـمـ لـهـاـ الـكـثـيرـ مـنـ الـهـدـاـيـاـ إـلـيـهـاـ، اـبـتـدـاءـ مـنـ عـقـودـ وـأـسـاـورـ وـحتـىـ أحـذـيـةـ وـأـثـوـابـ تـخـتـارـهـاـ بـنـفـسـهـاـ، قـبـلـ أـنـ تـسـمـحـ لـهـ بـزـيـارتـهـ فـيـ الـبـيـتـ الـذـيـ تـعـيـشـ فـيـهـ، شـمـاليـ الـمـدـيـنـةـ، بـالـقـرـبـ مـنـ مـقـبـرـةـ سـانـ تـيـوـدـوـرـوـ الـقـدـيمـةـ، عـنـدـ نـاصـيـةـ فـيـ مـتـاهـةـ تـلـكـ الأـزـقـةـ ذـاتـ الـكـلـابـ الشـارـدـةـ وـالـرـمـالـ الـتـيـ هـيـ آـخـرـ مـاـ تـبـقـىـ مـنـ حـيـ لـاـمـانـغـاتـشـيرـياـ. يـوـمـ نـامـ مـعـهـاـ فـيـلـيـثـيـتوـ يـانـاكـيـهـ أـولـ مـرـةـ، بـكـىـ لـلـمـرـةـ الثـانـيـةـ فـيـ حـيـاتـهـ (الـمـرـةـ الـأـوـلـىـ كـانـتـ يـوـمـ وـفـاةـ أـبـيهـ).

- لماذا تبكي أيها العجوز؟ ألم أعجبك؟

- لم أكن في حياتي سعيداً مثلما أنا الآن - اعترف لها فيليثيتو وهو جاثٍ يقبل يديها - حتى الآن لم أكن أعرف ما هي المتعة، أقسم لك. أنت من علمتني السعادة يا مابيليتا.

بعد وقت قصير من ذلك عرض عليها، دون مزيد من المقدمات، أن يوفر لها ما يسمونه في البيرو «البيت الصغير» وأن يقدم لها مبلغاً شهرياً كي تتمكن من العيش بطمأنينة، دون قلق بشأن المال، في مكان أفضل من ذلك الحي الذي يغص بالماعز وبالمانغاتشريين حملة السكاكيين. فوجئت المرأة، ولم تجد ما تقوله سوى: «أقسم لي إنك لن تسألني أبداً عن ماضيّ، وإنك لن تواجهني بأية نوبة غيرة طوال حياتك». «أقسم لك يا مابيل». بحثت بنفسها عن البيت الصغير في حي كاستيبا، بجوار مدرسة سان خوان بوسكو التابعة للآباء السالسيانيين، وأثنثه وفق ذوقها. وقع فيليثيتو عقود الإيجار ودفع كافة الحسابات، دون أن يعترض على السعر. وصار يقدم إليها المبلغ الشهري بدقة، ونقداً، في اليوم الأخير من كل شهر، مثلما يدفع لموظفي وعمال شركة نارييهوالا للنقل. كان يتفق معها دوماً على الأيام التي سيزورها فيها. وطوال ثمانية أعوام لم يذهب بصورة مفاجئة ودون إخبار مسبق إلى البيت الصغير في كاستيبا. لم يكن يرغب في تعريض نفسه لحرج اللقاء مع بنطال رجالي في غرفة عشيقته. ولم يكن يتحرى كذلك عما تفعله في بقية أيام الأسبوع التي لا يلتقيان فيها. ولكنه كان يحده، وهذا صحيح، أنها تأخذ راحتها ويشكرها بصمت لأنها تفعل ذلك بتكتم، دون أن تُذلّه. وكيف بإمكانه الاعتراض على ذلك؟ فما بيل شابة، مرحة، ولها الحق بأن تستمتع بحياتها. لاسيما وأن قبولها بأن تكون عشيقة لرجل عجوز، قصير القامة وقبح مثله هو أمر أكثر من كبير. ليست المسألة في أنه لم يكن يهتم، لا شيء من هذا. فعندما كان يلمح

ما بليل من بعيد، أحياناً، وهي تخرج من متجر أو من صالة سينما برفقة رجل، كانت معدته تتلوى من الغيرة. وفي بعض الأحيان كانت تأتيه كوابيس تعلن له ما بليل فيها، بكل جدية: «سوف أتزوج، وستكون هذه هي المرة الأخيرة التي نلتقي فيها يا عجوزي». لو كان بإمكان فيليثيتو الزواج بها لفعل ذلك. ولكنه لا يستطيع. ليس لأنه متزوج، وإنما لأنه لا يريد أن يتخلّى عن خيرتروديس، مثلما فعلت أمه، تلك المرأة غير الطبيعية التي لم يعرفها قط، إذ تركته هو وأباء مهجورين، هناك في ياباتира، حين كان فيليثيتو لا يزال طفلاً رضيعاً. ما بليل هي المرأة الوحيدة التي أحبها حقاً. فهو لم يحب خيرتروديس قط، وقد تزوج منها مكرهاً، بسبب تلك الخطوة السيئة في شبابه، وربما، ربما، لأنها هي وأمها الآمرة قد أعدتا له شركاً محكماً (وهذه قضية يحاول عدم تذكرها، لأنها تسبب له المراة، إلا أنها تعود إلى ذهنه دائمًا مثل إسطوانة مشروخة). ولكنه كان زوجاً صالحًا على الرغم من ذلك. قدم لزوجته وابنيه أكثر مما يمكنهم انتظاره من البائس الذي كان عليه عند زواجه. فمن أجل ذلك عمل طيلة حياته كعبد، دون أن يأخذ إجازة قط. هذا ما كانت عليه حياته إلى أن تعرف على ما بليل: عمل، عمل، عمل، وتحطيم ظهره نهاراً وليلًا من أجل جمع رأس مال صغير إلى أن تتمكن من فتح شركته للنقل التي طالما حلم بها. لقد جعلته هذه الفتاة يكتشف أن النوم مع امرأة هو أمر جميل، زخم، مؤثر، وهو ما لم يتخيله قط في المرات النادرة التي ذهب فيها إلى الفراش مع عاهرات المواخير القائمة على الطريق العام إلى سويانا، أو مع «ترتيبية» تخرج له - عند موت مطران - في احتفال ما، ولا تستمر إلا أقل من ليلة. لقد كانت ممارسة الحب مع خيرتروديس أمراً سريعاً، مجرد حاجة بدنية، إجراء لتهيئة الجزء. وقد تخلّيا عن النوم معاً منذ ولادة تيبورثيو، أي

منذ بضعة وعشرين عاماً. وحين يسمع الكولورادو بيغنوولو يتحدث عن مصاجعاته ذات اليمين وذات الشمال، يصاب فيليثيتو بالانبهار. فقد عاش كراهب بالمقارنة مع صاحبه.

كانت مابيل تستقبله برداء بيتي، وبالتودد وعبارات الغزل. تكون قد انتهت من مشاهدة حلقة مسلسل أيام الجمعة التلفزيوني، وتعلق له عليه بينما هي تقتاده من يده إلى المخدع. وتكون قد أسدلت الستائر وشغلت الروحة. ووضعت خرقـة حمراء حول المصباح، لأن فيليثيتو يحب تأملها عارية في ذلك الجو الضارب إلى الحمرة. كانت تساعدـه على خلع ملابسه والاستلقاء على ظهره فوق السرير. ولكن خلافاً لمرات أخرى، لكل المرات الأخرى، لم يُبدِّ عـضـوـ فيليثيـتوـ أدنـىـ مؤـشرـ على التصلـبـ. ظـلـ ضـئـيلاًـ ومـتـفـلـتاًـ، مـلـقاًـ بـطـيـاتـهـ، غـيرـ عـابـيـ بما تـغـدقـهـ عـلـيـهـ مـنـ مـلاـطـفـاتـ أـصـابـعـ مـاـبـيلـ الـحـامـيـةـ.

- وهذا، ما الذي أصابـهـ الـيـوـمـ يا عـجـوزـيـ؟ـ فـوجـئـتـ وـهـيـ تـضـغـطـ عـلـىـ عـضـوـ عـشـيقـهـ المـتـهـدـلـ.

- لا بد أن السبـبـ هو شـعـورـيـ بـأـنـنيـ لـسـتـ عـلـىـ مـاـ يـرـامـ - اعتذر فيليثيـتوـ بـضـيقـ .ـ وـرـبـماـ سـأـصـابـ بـرـشـ.ـ لـقـدـ آـلـنـيـ رـأـسـيـ طـيـلـةـ النـهـارـ،ـ وـتـنـتـابـنـيـ قـشـعـرـيـةـ بـيـنـ حـيـنـ وـآـخـرـ.

- سـأـحـضـرـ لـكـ شـايـاـ سـاخـنـاـ مـعـ الـلـيـمـونـ،ـ وـبـعـدـ ذـلـكـ سـأـدـاعـبـكـ بـبعـضـ الـمـلاـطـفـاتـ لـنـرـىـ إـنـ كـنـاـ سـنـوـقـظـ هـذـاـ النـؤـومـ -ـ قـفـزـتـ مـاـبـيلـ عـنـ السـرـيرـ وـلـبـسـتـ رـدـاءـهـاـ الـبـيـتـيـ مـنـ جـدـيدـ .ـ لـاـ تـنـمـ أـيـضاـ يـاـ عـجـوزـيـ.

ولـكـنـهاـ حـيـنـ رـجـعـتـ حـامـلـةـ فـنـجـانـ الشـايـ الـذـيـ يـتـصـاعـدـ مـنـ الـبـخـارـ وـقـرـصـ الـبـنـادـولـ فـيـ يـدـهـاـ كـانـ فيـلـيـثـيـتوـ قـدـ اـرـتـدـىـ مـلـابـسـهـ.ـ وـكـانـ يـنـتـظـرـهـ فـيـ الصـالـةـ الصـغـيرـةـ ذـاتـ الأـثـاثـ الـبـهـيجـ رـمـانـيـ اللـونـ،ـ مـنـكـمـشـاـ عـلـىـ نـفـسـهـ وـفـيـ حـالـةـ حـرـجـةـ تـحـتـ لـوـحـةـ قـلـبـ يـسـوـعـ الـنـيـرـ.

- ما أصابك شيء أكثر من الرشح - قالت مابيل وهي تجثو إلى جانبه وتتفحصه بنظرات مهيبة - ألا يكون الأمر أنني لم أعد أروق لك؟ ألا تكون قد وقعت في غرام واحدة من نساء بيورا؟

نفى فيليثيتو بحركة من رأسه، ثم أمسك يدها وقبلها.

- أنا أحبك أكثر من أي شيء في هذا العالم يا مابيليتا - أكد بعذوبة

- لن أعود للوقوع أبداً في حب أحد. أعرف أنني لن أجده في أي مكان امرأة مثلك.

تنهد وأخرج من جيبه رسالة العنكبوبت.

- لقد تلقيت هذه الرسالة وأنا قلق جداً - قال وهو يقدمها إليها -

إنني أثق بك يا مابيل. أقرئها ولنر ما هورأيك.

قرأت مابيل وأعادت القراءة ببطء شديد. الابتسامة التي تطفو على وجهها دوماً بدأت بالخسوف، وامتلأت عينها بالقلق.

- عليك أن تذهب إلى الشرطة، أليس كذلك؟ - قالت أخيراً متربدة. وكان التشوّش بادياً عليها - هذه عملية ابتزاز وعليك أن تتقدم بشكوى على ما أعتقد.

- لقد ذهبت إلى مفوضية الشرطة. ولكنهم لم يعيروا الأمر اهتماماً. الحقيقة أنني لا أعرف ما على عمله يا حبي. رقيب الشرطة الذي تكلمت إليه قال شيئاً يبدو للوهلة الأولى صحيحاً. قال إنه مع التقدم الكبير الذي يحدث الآن في بيورا، تتزايد الجرائم أيضاً. تظهر عصابات أشرار تطلب إتاوة من التجار والشركات. لقد سمعت بذلك. ولكنني لم أفكّر قط في أنه يمكن للأمر أن يصل إلى. أعترف لك بأنني مشوش بعض الشيء يا مابيليتا. لا أدري ماذا أفعل.

- لا تقل إنك ستقدم النقود التي يطلبها منك هؤلاء، لا يا عجوزي؟

- لن أدفع سنتاً واحداً، لن أدفع طبعاً. أنا لا أسمح بأن أذلّ من أي  
كان، هذا أمر يمكنني أن تكوني واثقة منه.  
أخبرها أن آديلايدا نصحته بأن يرضخ للمبتدئين.  
أظن أنها ستكون المرة الأولى في حياتي التي لن أتبع وهي صديقتي  
التنمية.

- كم أنت ساذج يا فيليثيتو - ردت مابيل بازعاج -. كيف تستشير  
الساحرة في مثل هذا الموضوع الحساس. لا أدرى كيف يمكنك ابتلاء  
الحكايات الكاذبة التي تقدمها لك تلك الماكرا.

- لم تخطئ معي قط - ندم فيليثيتو لأنه حدثها عن آديلايدا وهو يعرف  
أن مابيل تمقتها -. لا تقلقي، فهذه المرة لن أتبع نصيتها. يبدو لي أن  
كارثة توشك أن تحلّ بي.

بدت مابيل جدية جداً. ورأى فيليثيتو كيف راحت شفاتها  
الجميلتان الحمراوان تتجمعان بعصبية. رفعت إحدى يديها وسوّت  
شعره بتمهل.

- أود أن أتمكن من مساعدتك يا عجوزي، ولكنني لا أعرف كيف.  
ابتسم لها فيليثيتو موافقاً. نهض واقفاً، مشيراً بذلك إلى أنه قرر  
الانصراف.

- لا تريدينني أن أرتدي ملابسي ونذهب معاً إلى السينما؟ سوف  
يلهيك ذلك قليلاً، هيا تشجع.

- لا يا حبي، لا أجد لدى حماسة لمشاهدة أفلام. سنذهب في يوم  
آخر. اغذرني. من الأفضل أن أذهب لأرقد في الفراش. لأن مسألة  
الرshed حقيقة.

رافقته مابيل حتى الباب وفتحته، لتيح له الخروج. وعندئذ رأى  
فيليثيتو، مجفلاً، المغلف الملحق إلى جانب جرس البيت. كان أبيض،

وليس أزرق كالملف السابق، وأصغر منه حجماً. خمن مضمونه على الفور. كان هناك بعض الصبية يلعبون بدوامات خشبية في الشارع، على بعد خطوات قليلة. اقترب منهم فيليثيتو قبل أن يفتح الملف ليسألهم إن كانوا قد رأوا من وضعه هناك. تبادل الصبيان النظرات في ما بينهم متفاجئين، ثم هزوا أكتافهم. لم يرَ أيًّا منهم شيئاً بالطبع. حين رجع إلى البيت كانت مابيل شاحبة جداً ووميض كآبة يلمع في عمق عينيها.

- أتظن أن... تلعمت وهي تعص شفتيها. كانت تنظر إلى الملف الذي في يده دون أن يُفتح بعد وكأنه يمكن له أن يعضاها.

دخل فيليثيتو، أشعل ضوء الممر الصغير، وبينما مابيل تتصلق بذراعه وتقرب وجهها لتقرأ ما كان يقرأ، تعرُّف على الحروف الكبيرة المكتوبة دوماً باللون الأزرق:

السيد ماناكيه :

لقد اقترفت خطأً بذهابك إلى مفوضية الشرطة، على الرغم من التوصية التي قدّمتها إليك المنظمة. كنا نريد لهذه المسألة أن تُحل بصورة سرية، من خلال الحوار. ولكنك تعلن علينا الحرب. سيكون لك ما أردته إن كان هذا ما تفضله. وفي هذه الحالة يمكن لنا أن نخبرك بأنك ستخرج خاسراً. ونأسف لذلك. قريباً ستتجد الدليل على أننا قادرون على الرد على استفزازك. لا تكن عنيداً، نقول لك هذا من أجل مصلحتك. لا تُعرّض للخطر ما توصلت إليه بسنوات طويلة من العمل الشاق يا سيد ماناكيه. ولا تَعْدْ، بصورة خاصة، إلى تقديم شكاوى إلى الشرطة لأن ذلك سيُحزنك. فلتتحمل العواقب.

ليحفظ الله حضرتكم.

رسم العنكبوت الذي يَرِد بدل التوقيع كان مطابقاً تماماً للرسالة الأولى.

- ولكن، لماذا وضعوها هنا، في بيتي – تلعمت مابيل وهي تضغط بقوة على ذراعه. كان يشعر بها ترتجف من رأسها حتى قدميها. وكانت شاحبة.

- يريدونني أن أعرف أنهم يعرفون حياتي الخاصة، وما من سبب آخر - أحاط فيليثيو كتفيها بذراعه وضمها إليه. أحس بها ترتجف، فأحزنه ذلك. قبلها من شعرها - أنت لا تعلمين كم أنا متأسف لأنك ستتورطين بسبيبي في هذه القضية يا مابيليتا. كوني حذرة جداً يا حبي. لا تفتحي الباب دون النظر قبل ذلك من الكوة. ومن الأفضل لا تخرجي وحدك في الليل إلى أن تتضح هذه المسألة. من يدري ما هم مستعدون لفعلة أولئك الأشخاص.

قبلها مجدداً من شعرها وهمس في أذنها قبل أن ينصرف: «أقسم لك بذكرى أبي، وهي أقدس ما لدى، أن أحداً لن يلحق بك أي أذى أبداً يا حبي».

خلال الدقائق القليلة التي انقضت منذ خروجه للتحدث مع الصبية الذين يلعبون بالدوامات، كان الظلام قد خيم. وكانت الأنوار الخافتة في ما حوله تكاد لا تضيء الدروب الممتلئة بالحفر والمطبات. سمع نباحاً وموسيقى لجوجة، كما لو أن أحدهم يضبط وزان جيتار. اللحن نفسه يتكرر مرة بعد أخرى. وعلى الرغم من أنه كان يتعرّث إلا أنه غذ الخطى مستعجلًا. اجتاز الجسر المعلق بما يشبه الركض، هذا الجسر الذي صار الآن مخصصاً للمشاة، وتذكر أن ذلك التلاؤ الليلي الذي يتبدى في مياه نهر بيورا كان يسبب له الخوف في صغره، يجعله يفكر في عالم متكامل من الشياطين والأشباح في أعماق المياه. لم يرد على تحية زوجين آتيبين من الاتجاه المعاكس. واحتاج لما يقارب نصف ساعة كي يصل إلى مفوضية الشرطة في جادة سانتشيث سيررو. كان يتعرّق ويکاد الأضطراب لا يسمح له بالكلام.

- لا يمكن استقبال المراجعين في هذا الوقت - قال له الحراس الشاب عند المدخل - اللهم إلا إذا كان هنالك موضوع مستعجل يا سيدي.

- الأمر مستعجل، ومستعجل جداً - قال فليثيتو باندفاع - أيمكنني التحدث إلى الرقيب ليتوما؟

- من أقول له؟

- فيليثيتو ياناكيه، من شركة ناريهوala للنقل. كنتُ هنا منذ بضعة أيام لتقديم شكوى. قل له إن أمراً خطيراً جداً قد حدث.

كان عليه أن ينتظر وقت لا بأس به، في عرض الشارع، يستمع إلى رجع أصوات ذكرية تتكلم بوضوح داخل المكان. رأى ظهور قمر متناقص فوق سطوح الأبنية المحيطة. كان جسده كله يتاجج، كما لو أن الحمى تتآكله. تذكر ارتجاف أبيه حين كان يصاب بالحمى الثلاثية، هناك في تشلوكانايس، وكيف كان يعالجها بالتعرق متذرأً بكومة من الجلود. ولكن ليست الحمى هي ما يجعله يرتجف الآن وإنما الغضب. أخيراً رجع الحراس الشاب الأمرد وأدخله. كان الضوء في الداخل شحيحاً وكثيباً مثلما هو في شوارع حي كاستيا. لم يقده الحراس هذه المرة إلى مقصورة الرقيب ليتوما الضيق، وإنما إلى حجرة مكتب أكثر اتساعاً. هناك كان الرقيب ومعه ضابط - برتبة نقيب، عرف ذلك من الشرائط الثلاث على كتفي قميصه -، بدین، قصير، وله شارب. نظر إلى فيليثيتو بلا سعادة. كان فمه المفتوح يكشف عن أسنان ضاربة إلى الصفرة. يبدو أنه قطع على الشرطيين لعبة داما. أراد صاحب شركة النقل أن يتكلم، ولكن النقيب أوقفه بإيماءة:

- أعرف قضيتك يا سيد ياناكيه، لقد أطلعني الرقيب عليها. وقد قرأت رسالة العكبوت تلك التي أرسلت إليك. أنت لا تتذكر، ولكننا

تعارفنا خلال غداء في الروتاري كلوب، في المركز البيوراني، منذ بعض الوقت. كانت هناك بعض كوكتيلات الخروب الجيدة كما يبدو لي. دون أن يقول له شيئاً، وضع فيليثيتو الرسالة فوق رقعة الداما مشوشاً ترتيب أحجارها. كان يشعر بأن الغضب قد صعد حتى دماغه ويكاد لا يسمح له بالتفكير.

- اجلس قبل أن تصيبك سكتة قلبية يا سيد ياناكيه - قال النقيب ساخراً وهو يشير إلى كرسي. كان يغضّ أطراف شاربه، وبدت نبرة صوته متعالية واستفزازية - آه، بالنسبة، لقد نسيت أن تقول لنا مساء الخير. أنا النقيب سيلفيا، المفوض، في خدمتك.

- مساء الخير - ركب فيليثيتو الكلمتين بصوت يختنق من الغيظ - لقد أرسلوا إليّ للتو رسالة أخرى. أطالب بتفسير أيها السيدان الشرطيان.

قرأ النقيب مُقرّباً الورقة من مصباح منضدته. وقدمها بعد ذلك إلى الرقيب ليتوما مدمداً من بين أسنانه: «ياه، المسألة تزداد سخونة».

- أطالب بتفسير - كرر فيليثيتو مختنقاً - كيف يعرف اللصوص أنني جئت إلى مفوضية الشرطة لأقدم شكوى بشأن الرسالة المغفلة؟

- عرفوا ذلك بطرق عديدة أيها السيد ياناكيه - هز النقيب سيلفا كتفيه وهو ينظر إليه بأسى - لأنهم لحقوا بك إلى هنا، على سبيل المثال. لأنهم يعرفونك ويعلمون أنك رجل غير قابل للابتزاز، وأنك ستذهب إلى الشرطة وتقدم شكوى ضد المتزين. أو لأن أحداً من أخبرتهم بأنك تقدمت بشكوى. أو لأننا نحن، هكذا فجأة، دبرنا هذه الرسائل المغفلة، نحن التعساء نريد ابتزازك. لقد خطرت لك هذه الفكرة، أليس كذلك؟ ولهذا أنت تبدو سيء المزاج، تشي غوا، مثلما يقول أبناء مدینتك.

كبح فيليثيتو رغبته في أن يقول له أجل. وكان يشعر في تلك اللحظة بغضب على الشرطيين أشد من غضبه على مدبري رسالتى العنكبوت.

- هل وجدتها معلقة أيضاً على باب بيتك؟

توقد وجهه بينما هو يجيب موارياً اضطرابه:

- علقوها على باب بيت شخص كنت أزوره.

تبادل النقيب والرقيب النظارات.

- هذا يعني أنهم يعرفون حياتك بعمق إذاً يا سيد ياناكيه - علق النقيب سيلفا ببطء خبيث - هؤلاء الأندال يعرفون حتى من تزورهم. لقد قاموا بعمل استخباراتي جيد كما يبدو. من هنا يمكننا أن نستنتج أنهم محترفون وليسوا هواة.

- وماذا سيحدث الآن؟ قال صاحب شركة النقل. وقد تبدل غضبه الذي كان عليه قبل لحظة إلى شعور بالحزن والعجز. فما يجري له جائز وقاس. على أي شيء.. ولماذا يعاقبونه من هم هناك في الأعلى؟  
أي شر اقترفه أيها رب المقدس؟

- سيحاولون الآن تخويفك، كي تلين - أكد النقيب كما لو أنه يتكلم عن كم هي باردة هذه الليلة - كي يجعلوك تعتقد أنهم أقوىاء ولا يمكن المس بهم. وبهذا سيقترون خطأهم الأول. عندئذ سنبدأ بتتبع أثرهم. عليك بالصبر يا سيد ياناكيه. فالآمور تمضي في طريق جيد، حتى لو لم تصدق ذلك.

- من السهل قول هذا عند مراقبة الأمر من الشرفة - تفلسف صاحب شركة النقل - وليس عندما تتلقى تهديداتٍ تشوّش حياة أحدنا وتقلبها رأساً على عقب. أتريدني أن أعتصم بالصبر بينما أولئك اللصوص يخططون لعمل خبيث ضدّي أو ضدّ أسرتي كي أرضخ لهم؟

- أحضر كأس ماء للسيد ياناكيه يا ليتوما - أمر النقيب سيلفيا الرقيب بتهكمه المعهود - لا أريد أن تأتيه جلطة، لأنهم سيتهموننا عندئذ بخرق حقوق الإنسان مع رجل محترم من بيورا.

ليس مزاحاً ما قاله ذلك الشرطي، فكر فيليثيانو. أجل، يمكن له أن يصاب بجلطة ويبقى متىبساً هنا بالذات، على هذه الأرضية القدرة المثلثة بأعقارب السجائر. إنها ميّة كثيبة، في مفوضية للشرطة، بينما هو مريض ومحبط بسبب أبناء عاهرة بلا وجوده ولا أسماء، يلعبون معه لعبة رسمي عناكب. تذكر أباه وتأثر وهو يستحضر وجه أبيه القاسي، المشق كما بضربات سكين، وجه صارم دوماً، الشعر منتصب والفم بلا أسنان. «ماذا على أن أفعل يا أبي؟ أعرف، يجب لا أسمح بأن أذل، لا أعطيهم سنتاً واحداً مما كسبته بصورة نظيفة. ولكن أي نصيحة أخرى كان يمكن لك أن تقدمها إليّ لو كنت حياً؟ أن أقضي الساعات منتظرًا الرسالة المغفلة التالية؟ لقد صار ذلك يحطم أعصابي يا أبي».

لماذا كان يدعوه دوماً أبي وليس بابا؟ حتى في هذه الحوارات السرية التي يُجريها معه لا يتجرأ على رفع الكلفة معه. وهو ما يفعله ابناه الآن معه. لماذا لم يتعامل تيبيورثيو وميغيل معه دون كلفة قط. وكلامها بالمقابل يرفعان الكلفة مع أمهما.

- هل تشعر بتحسن يا سيد ياناكيه؟

- أجل، شكرًا - تناول رشفة أخرى من كأس الماء الذي جاءه به الرقيب ونهض واقفاً.

- أخبرنا بأية مستجدات فور وقوعها - شجعه النقيب على سبيل الوداع - ثق بنا. قضيتك الآن هي قضيتنا يا سيد ياناكيه.

بدت له كلمات الضابط ساخرة. خرج من المفوضية مكتئباً بعمق. مشى كامل المسيرة إلى بيته في شارع اريكيبيا ببسطه، ملتصقاً بالجدران.

كان يخامر إحساس مزعج بأن هنالك من يتبعه، أحد يستمتع في التفكير بأنه يدمره قليلاً قليلاً، يُغرقه في انعدام الأمان والريبة، وابن العاهرة ذاك واثق من أنه سيهزمه عاجلاً أو آجلاً. فدمدم: «إنك مخطئ يا ابن العاهرة».

وفي بيته، فوجئت خيرتروديس بعودته مبكراً على ذلك النحو. سألته عما إذا كانت الهيئة الإدارية لجمعية العاملين في النقل في بيورا، وكان فيليثيتو عضواً فيها، قد ألغت عشاء أيام الجمعة ليلاً في نادي غراو. أتعرف خيرتروديس بأمر مابيل يا ترى؟ من الصعب ألا تكون عارفة بالأمر. ولكنها خلال تلك الأعوام الثمانية لم تعطه أية إشارة تدل على أنها عارفة: لا تبدي أية شكوى، ولا تفتعل أي مشهد غيره، ولا تبدي أي تلميح. لا يمكن ألا تكون قد وصلتها إشاعات، تقولات، بأن له عشيقه. أليس بيورا منديلاً مفتوحاً؟ الجميع فيها يعرفون كل شيء عن الجميع، وخاصة شؤون الفراش قبل أي شيء آخر. ربما كانت تعرف وتفضل المدارة كي تتجنب المشاكل وتحمل الأمر بهدوء. لكن فيليثيتو يقول لنفسه أحياناً إنها غير عارفة بالأمر؛ فالحياة المغلقة التي تعيشها امرأته، بلا أقارب، واقتصر خروجها إلى الشارع من أجل الذهاب إلى القدس أو صلوات التاسوع أو المسحة في الكاتدرائية، لابد أن تسمح باستبعاد احتمال أنها تعرف أي شيء.

- جئت مبكراً لشعوري بأنني لست على ما يرام. أظن أنني سأصاب برشح.

- لم تأكل إذاً. أتريدني أن أعد لك شيئاً تأكله. سأفعل ذلك بنفسي، لأن ساتورنينا قد غادرت.

- لا، لست جائعاً. سأشاهد التلفاز قليلاً ثم أذهب إلى الفراش. هل من جديد؟

- تلقيتُ رسالة من أختي آرميدا، من ليما. يبدو أنها ستتزوج.  
- آه، جيد، يجب أن نرسل إليها هدية إذاً - لم يكن فيليثيتو يعلم أن لخيرتوديس اختاً في العاصمة. إنه الخبر الأول عنها. حاول أن يتذكر. أتراها تكون تلك الطفلة الحافية ذات السنوات القليلة التي كانت تتنقل في بنسيون «شجرة الخروب»، حيث تعرف على زوجته؟ لا، تلك الصغيرة هي ابنة سائق شاحنة ترمل يدعى أرخيميرو ترييس. هزت خيرتوديس رأسها موافقة وابتعدت باتجاه حجرتها. فمنذ أن ذهب ميغيل وتيبورثيو ليعيشان وحدهما بعيداً عن البيت، صارت لكل من فيليثيتو وزوجته غرفة منفصلة.رأى كتلة زوجته التي لا تقاطع لها تختفي في البهو الصغير المظلم حيث توجد غرفتا النوم وغرفة الطعام والصالحة الصغيرة والمطبخ. لم يحبها قطًّا مثلما تحب امرأة، ولكنه يشعر نحوها بتعاطف ممزوج بالشفقة، لأن خيرتوديس، وإن كانت لا تشكو، تشعر دون ريب بالإحباط مع زوج بذلك البرود وعدم الاتكثار. لا يمكن لحاله أن تكون غير ذلك في زواج لم يكن حصيلة حب وإنما نتيجة سكرة ومضاجعة شبه غير واعية. أو من يدري. فهذا موضوع يعود إلى ذاكرة فيليثيتو بين حين وآخر ويسبب له مرارة طيلة اليوم، مع أنه يفعل كل ما بوسعه لتجنبه. كانت خيرتوديس ابنة صاحبة نُزل «شجرة الخروب»، وهو بنسيون رخيص في شارع رامون كاستيا، المنطقة الأشد بؤساً آنذاك في إلتشيبه، يأوي إليه سائقو شاحنات كثيرون. وقد نام فيليثيتو معها مرتين، دون أن يكون بوعيه تقريباً، في ليلتي شُرب وسُكر. فعل ذلك لأنه فعله، لأنها كانت هناك ولأنها امرأة، ليس لأن الفتاة أعجبته. لم تكن تعجب أحداً، ومن يمكنه أن يُعجب بتلك الأنثى شبه الحواء، التافهة التي تفوح منها على الدوام رائحة الثوم والبصل. ونتيجة واحدة من تينك المضاجعتين بلا حب، وبلا رغبة تقريباً، حبت

خيرتروديس. كان هذا على الأقل ما قالته فيليثيتو هي وأمها. السيدة لوتميل، صاحبة النزل، من اعتاد السائقون تسميتها بالأمرة، تقدمت بشكوى ضده لدى الشرطة. وكان عليه أن يذهب ليقدم إفادته، واعترف أمام مفوض الشرطة بأنه ضاجع تلك البنت القاصر. ووافق على الزواج منها لشعوره بتأنيب الضمير من أن يولد له ابن دون أن يُعترف به، وأنه صدق القصة. في ما بعد، عندما ولد ميغيل الصغير، بدأت الشكوك. أهو ابنه حقاً؟ لم يستجوب خيرتروديس قطّ بالطبع، ولم يتحدث في هذا الأمر مع آديلايدا أو مع أي شخص آخر. ولكنه عاش طيلة كل تلك السنوات وهو يشك في أنه ليس ابنه. لأنه لم يكن هو الوحيد الذي يضاجع ابنة الآمرة في تلك الحفلات التي كانت تقام أيام السبت في نزل شجرة الخروب. لم يكن ميغيل يشبهه في أي شيء، فهو ولد أبيض البشرة وأزرق العينين. لماذا حملته خيرتروديس وأمها المسؤولية؟ ربما لأنه كان أعزب، وشخصاً طيباً، وشغيلاً، وأن الآمرة تريد تزويجه ابنته بأي حال. وربما لأن أبياً ميغيل الحقيقي كان متزوجاً، أو شخصاً أبيض سيئ السمعة. لقد كانت هذه القضية تعود لتعكر مزاجه بين فترة وأخرى. لم يسمح لأحد قطّ بأن يلاحظ ذلك، بدءاً من ميغيل نفسه. فقد تصرف معه على الدوام على أنه ابنه، مثله مثل تيبورثيو. وإذا كان قد أدخله إلى الجيش، فإنما فعل ذلك من أجل مصلحته، لأنه كان آخذاً بالضلال. ولم يبدِّ قطّ أي تفضيل لابنه الأصغر. وهذا الابن الثاني كان صورة حية عنه بالفعل: خلاسي تشولو من رأسه حتى قدميه، دون أثر من البياض في وجهه أو جسده.

كانت خيرتروديس امرأة نشيطة ومضحية في السنوات الصعبة. وبعد ذلك أيضاً، حين تمكن فيليثيتو من افتتاح شركة ناريهوala للنقل وتحسن أحواله. ومع أن لديهما الآن بيتاً جيداً وخادمة ودخلاً

مضموناً، إلا أنها مازالت تعيش بتقشف السنوات التي كانا فيها فقيرين. فهي لا تطلب منه نقوداً لاحتياجتها الخاصة أبداً، وإنما نقود الطعام والنفقات المنزلية الأخرى. فكان يلح عليها، بين حين وآخر، كي تشتري أحذية أو ثوباً جديداً. ولكنها حتى لو اشتريت شيئاً من ذلك، تظل دوماً بخ福 عادي وبذلك الرداء البيتي الذي يبدو أشبه بجلباب كاهن. متى تحولت إلى متدينة جداً؟ لم تكن هكذا في البدء. بدا له أن خيرتروديس قد تحولت مع مرور السنين إلى جزء من الأثاث، وأنها لم تعد شخصاً حياً. كانا يقضيان أياماً بكمالهما دون أن يتبادلا كلمة واحدة، باستثناء صباح الخير ومساء الخير. لم يكن لزوجته صديقات، وهي لا تقوم بزيارات ولا تستقبل زائرات، بل إنها لا تذهب لزيارة أبنائهما عندما تنقضي الأيام دون أن يأتوا لزيارتها. كان تيبورثيو وميغيل يأتيان إلى البيت بين وقت وآخر، ودائماً بمناسبة عيد ميلاد أحد أفراد الأسرة، وليلة عيد الميلاد، وهي تبدو عندئذ حنونة معهما. وباستثناء هذه المناسبات، لم تكن تبدو شديدة الاهتمام ببنيها. في بعض الأحيان يعرض عليها فيليثيتو أن يذهبا إلى السينما، أو للتنزه على الكورنيش أو لل الاستماع إلى عزف الفرقة الموسيقية العسكرية أيام الآحاد في ساحة السلاح، بعد قداس الثانية عشرة. فتوافق بانصياع، ولكنها نزهات قلما يتبادلان خلالها الكلام، ويبدو له أن خيرتروديس تكون متلهفة للعودة إلى البيت، والجلوس على كرسيها المهزاز في أقصى البهو، بجانب المذيع أو التلفزيون اللذين تبحث فيهما دوماً عن برامج دينية. ولا يتذكر فيليثيتو حدوث أي شجار أو خلاف مع هذه المرأة التي تنبع دوماً لشيئته بإذعان كامل.

ظل بعض الوقت في الصالة الصغيرة يستمع إلى الأخبار. الجرائم وأعمال السطو وعمليات الاختطاف المعهودة. وبين الأخبار سمع خبراً

جعل شعر رأسه ينتصب. روى المذيع أن أسلوباً جديداً في السطو على السيارات آخذ بالانتشار بين لصوص السيارات في ليما. استغلال إشارة المرور الحمراء لرمي فأر حي داخل السيارة التي تقودها سيدة. فتفلت المرأة المقود وهي تكاد تموت من الفزع والقرف، وتخرج من السيارة مطلقة الصرخات وراكضة. عندئذ يأخذ اللصوص السيارة بكل اطمئنان. فأر حي على التمنورة، يا للقذارة! التلفزيون يسم الناس بكثرة الدماء والقذارات. وقد كان من عادة فيليثيتو، بدل الاستماع إلى الأخبار، أن يضع أسطوانة للمغنية سيسليا باراسا. ولكن في هذه المرة تابع تعليق مقدم الأخبار في برنامج 24 ساعة الذي يؤكد على أن الجرائم تتزايد في البلاد. «فليسألوني أنا»، فكر فيليثيتو.

ذهب للنوم في حوالي الساعة الحادية عشرة، ومع أنه غفا على الفور بسبب انفعالات هذا اليوم القوية دون شك، إلا أنه استيقظ في الثانية فجراً. ولم يعد يكاد يغمض عينيه بعدها. كانت تتنبه مخاوف، إحساس بالقشعريرة، وفوق ذلك كله مرارة الشعور بأنه غير قادر، وعجز في مواجهة ما يحدث له. ما إن يغفو قليلاً حتى يعج رأسه بصورة أمراض وحوادث ونكبات. وجاءه كابوس فيه عناكب.

نهض في الساعة السادسة. وقام بممارسة تمارين الكي جونغ إلى جانب السرير وهو ينظر في المرأة، ويتذكر كالعادة معلمه البقال لاو. وضعية الشجرة التي تهتز إلى الأمام والخلف، إلى اليسار واليمين وبصورة دائرية، تحركها الرياح. يقف بقدمين راسختين تماماً على الأرض، وبينما هو يحاول إفراغ ذهنه، يهتز باحثاً عن المنتصف. البحث عن المركز. عدم فقدان المركز. رفع الذراعين وإنزالهما ببطء شديد، مثل مطر خفيف يهطل من السماء يرطب جسده وروحه، يهدئ أعصابه وعضلاته. استبقاء السماء والأرض في مكانيهما والحلولة دون

أن تلتقيا، بواسطة الذراعين - ذراع مرفوع إلى أعلى ليسند السماء والآخر يتوجه إلى أسفل ليثبت الأرض - وبعد ذلك تمسيد الذراعين، والوجه، والكتفين، والساقين في جسده. فتح الماء بيديه وضمها. تسخين المنطقة القطنية من العمود الفقري بتدليلك ناعم ومتواصل. ففتح الذراعين كفراشة تفتح جناحيها. في البدء، كان ذلك البطء الاستثنائي في الحركات، وذلك التنفس بكاميرا بطيئة لتمرير الهواء إلى كافة أجزاء البدن، يُفقده صبره، ولكنه اعتاد عليه مع مرور السنوات. وهو يدرك الآن أنه في ذلك تكمن الفائدة التي يأتي بها إلى جسده وروحه ذلك الشهيق والزفير العميقان، وتلك الحركات، برفع يد إلى أعلى ومد الأخرى نحو الأرض، مع ضم الركبتين بخفة، إنما يثبت كواكب القبة السماوية في أماكنها ويحول دون القيامة. وحين يغمض عينيه أخيراً، ويبقى ثابتاً دون حراك للحظات، بينما اليدان مضمورتان كما في صلاة، يكون نصف الساعة قد انقضى.وها قد بدأ يطل من النافذة ضوء صباح بيورا الصافي والأبيض.

ضربات قوية على الباب الخارجي قطعت عليه تمرينات الكي جونغ. ذهب ليفتح الباب معتقداً أن ساتورنينا قد جاءت مبكرة هذا الصباح، متقدمة عن موعدها، لأنها لا تصل أبداً قبل الساعة السابعة. ولكن من وجده عند العتبة حين فتح الباب هو لوثيانو.

- أرکض، أرکض يا دون فيليثيتو - كان أعمى الناصية متوتراً جداً -

لقد قال لي أحدهم إن مكتبك في جادة سانتشيث سيررو يحترق، اتصل بالمطافئ واذهب إلى هناك.

## IV

زفاف إسماعيل وأرميدا كان الأقصر والأقل رواداً بين جميع حفلات الزفاف التي يتذكرها ريفوبيرو ولوكريثيا، على الرغم من أنه قدم لهما أكثر من مفاجأة. فقد أقيمت المراسم في وقت مبكر جداً، في بلدية تشوريبوس، حين كان لا يزال يُرى مشهد تلاميذ بالزي المدرسي يتدفعون نحو المدارس، وكان موظفو بارنكو وميرافلوريس وتشوريبوس يتوجهون متوجلين إلى أعمالهم في الفانات والحافلات والأمنبوسات. وقد اتخذ إسماعيل الاحتياطات المتوقعة كيلا يعلم ابناه بالخبر مسبقاً، فأخبر ريفوبيرو في العشية فقط، أنه عليه أن يمثل في مقر عدمة تشوريبوس، ترافقه زوجته إن كانت ترغب في ذلك، في الساعة التاسعة صباحاً بالضبط، وأن يأتيا معهما بوثائقهما الشخصية. وحين وصلا إلى مبني البلدية، وجدا العروسين هناك ومعهما أيضاً نرسيس الذي ارتدى للمناسبة بدلة سوداء وقميصاً أبيض، ووضع ربطة عنق زرقاء مزينة بنحوم صغيرة مذهبة.

أما إسماعيل فكان يرتدي بدلة رمادية، مع تأنقه المعهود. وارتدى آرميدا بدلة مفصلة خصيصاً للمناسبة، وحذاه جديداً، وكانت تبدو مثبطة ومضطربة. وراحت تتوجه بالحديث إلى لوكريثيا بالقول لها «يا سيدتي» على الرغم من أن هذه الأخيرة طلبت منها، حين عانقتها، أن تكلمها برفع الكلفة - «أنت وأنا سنكون صديقتين جيدتين منذ الآن يا

آرميدا» -، ولكن بدا صعباً على العاملة المنزلية السابقة، إن لم نقل مستحيلاً، أن تلبي رغبة لوكريثيا.

جرت المراسم بسرعة كبيرة. قرأ العدة، بتعثر، واجبات الزوجين وحقوقهما؛ وما كادت القراءة تنتهي حتى وقع الشاهدان على السجل. جرت العلاقات والمصالحات المعهودة. لكن كل شيء كان بارداً، هكذا فكر ريفوبيرتو، ومتكلفاً ومتصنعاً. المفاجأة جاءت لدى الخروج من مقر العدة، حين توجه إسماعيل إلى ريفوبيرتو ولوكريثيا بابتسامة ماكرة: «والآن أيها الصديقان، إذا كان لديكم متسع من الوقت، فإنني أدعوكما إلى الطقوس الدينية». سيتزوجان في الكنيسة أيضاً! «الأمر أكثر جدية مما يبدو عليه»، علقت لوكريثيا بينما هم يتوجهون نحو كنيسة «نويسترا سنيورا دل كارمن ديلا ليغوا» القديمة، على ضفاف نهر كاياؤ، حيث أقيمت طقوس الزواج الكاثوليكية.

- التفسير الوحيد هو أن صديقك إسماعيل قد صار أزرق، وقد وقع في الحب حقاً - أضافت لوكريثيا - ألا يكون مختل؟ الحقيقة أنه لا يبدو كذلك. رباه! من يستطيع فهم هذا؟ أنا على الأقل لا أفهمه.

كان كل شيء جاهزاً كذلك في الكنيسة التي يقال إن المسافرين من كاياؤ إلى ليما، في زمن المستعمرة، كانوا يتوقفون فيها دوماً ليطلبوا من عذراء الكارمن أن تحميهم من عصابات السطو التي كانت تع杰 بها الأرضي الخلاء الفاصلة آنذاك بين الميناء ومدينة ليما، مقر نائب الملك. لم يتأخر الكاهن أكثر من عشرين دقيقة في عقد قران الزوجين الجديدين ومنحهما المباركة. ولم يجر أي احتفال أو تبادل أنخاب، اللهم إلا تهنئة ومعانقة كل من نرسيس وريفوبيرتو ولوكريثيا للزوجين. وفي تلك اللحظة فقط كشف لهم إسماعيل أنه هو وآرميدا سيتوجهان إلى المطار فوراً للانطلاق إلى شهر عسلها. وأن أمتعتهم موجودة في حقيبة السيارة. «ولكن لا تسألاني إلى أين

سنذهب ، لأنني لن أخبركما. آه ، قبل أن أنسى. لا تتخلفا جداً عن قراءة صفحة الأخبار الاجتماعية في جريدة الكوميثريو. ستجدان فيها إعلاناً يطلع مجتمع ليما على زواجنا». أفلت ضحكة وغمزهما بخبيث؛ ثم انطلق هو وأرميدا على الفور، يقود السيارة بهما نرسيس الذي كان شاهداً، وعاد من جديد الآن ليكون سائق إسماعيل كاريلا.

- مازلتُ غير مصدقة أن هذا كله يحدث - قالت لوكريثيا مرة أخرى بينما هي وريغوبيرتو يعودان إلى بيتهما في بارانكو على الطريق الساحلي - لا يبدو لك لعباً، مسرحاً، تهريجاً؟ باختصار، لا أدرى كيف أصفه ، ولكنه ليس شيئاً يحدث حقاً في الحياة الواقعية.

- أجل ، أجل ، معك حق - وافقها زوجها - فمشهد هذا الصباح يعطي إحساساً باللواقعية. حسن ، إسماعيل وأرميدا مضيا لقضاء وقت ممتع . وللتحرر مما هو آتٍ. أعني مما سيقع على رؤوسنا نحن المتبقين هنا. من الأفضل لنا أن نغادر نحن أيضاً بأسرع ما يمكن إلى أوروبا. لماذا لا نقدم موعد سفرنا يا لوكريثيا.

- لا ، لا نستطيع ، لا يمكننا الذهاب مادامت مشكلة فونتشيتو تلك موجودة - قالت لوكريثيا - لا يشعرك ذهابنا في هذا الوقت بتأنيب الضمير لتركنا الفتى وحيداً مع المشكلة التي في رأسه؟

-أشعر بذلك طبعاً - صلح دون ريفوبيرتو - لو لا تلك الرؤى اللعينة لكنني قد اشتريت تذاكر السفر. أنت لا تدرين أية بهجة تسببها لي هذه الرحلة يا لوكريثيا. لقد درستُ الطريق الذي سنسلكه بعدها مكيرة ، حتى في أدق التفاصيل. سوف يفتئن ذلك ، وسترين.

- لن يعلم التوأمان بالأمر حتى الغد ، من خلال الإعلان في الجريدة - قدرت لوكريثيا - وحين يعلمان ستكون أنت من سيطلبان منه تفسيرات ، إنني واثقة من ذلك.

- سيطلبونها مني طبعاً - وافقها ريفوبيرتو - ولكن، بما أن ذلك لن يحدث إلا غداً، فسوف يكون لدينا اليوم يوم أمان وهدوء مطلقين. لا أريد العودة إلى الحديث عن الضبعين، أرجوك.

حاولا الالتزام بذلك. ولم يأتيا على ذكر أي شيء عن ابني إسماعيل كاريرا خلال الغداء، ولا في فترة بعد الظهر، ولا على العشاء. وحين رجع فونتشيتتو من المدرسة أخبراه بأمر الزواج. إلا أن الصبي الذي كان يمضي ساهياً، كمن يرکز على مخاوف حميمة منذ لقائه بـإديلبيرتو توريس، لم يبُد عليه أنه أولى أدنى اهتمام للموضوع. استمع إليهما وابتسم تأديباً، ثم ذهب لينزو في غرفته قائلاً إن لديه واجبات مدرسية كثيرة عليه إنجازها. ولكن على الرغم من أن ريفوبيرتو ولوكريثيا لم يذكرا التوأمرين طوال بقية اليوم، إلا أنهما كانوا يعلمان أنه مهما كان ما يفعلنه، ومهما كان ما يتحدثان فيه، فإن هنالك في أعماق ذهنيهما ذلك السؤال المقلق: كيف سيكون رد فعل التوأمرين حين يعلمان بزواجه أبيهما؟ لن يكون رد فعل متحضر وعقلاني، هذا أمر مفروغ منه. لأن الأخوين ليسا متحضررين ولا عقلانيين، فلسبب ما يسمونهما الضبعين، لقب ثابت اكتسابه في حيّهما مذ كانوا يرتديان بناطيل قصيرة.

بعد العشاء، انزو ريفوبيرتو في مكتبه وتهياً، مرّة أخرى، للقيام بواحدة من تلك المقارنات المشغوف بها، لأنها تستحوذ على اهتمامه وتنسيه كل ما عادها. استمع في هذه المرة لتسجيلين يملكونهما لوحدة من مقطوعاته الموسيقية المفضلة: الكونشيرتو رقم 2 للبيانو والأوركسترا 83 لجوهانز براهمز، بعزف فيلهلمونيكا برلين، يقودها في الحالة الأولى كلود آباد مع ماوريز بوليني كمنفرد، وفي الحالة الثانية بقيادة السير سيمونراتيل للأوركسترا ويفين برونفمان منفرداً على البيانو. النسختان كلتاها كانتا رائعتين. لم يتمكن قط من حسم أمر تفضيل إحداها دون

خطاً، ففي كل مرة يجد أنهما، رغم اختلافهما، متماثلتان بحيث لا يمكن المفاضلة بينهما. ولكن حدث له شيء في هذه الليلة مع عزف برونفمان، عند بدء الحركة الثانية – سعادة مؤثرة – حسم اختياره: أحس بعينيه تدمعن. قلما بكى وهو يستمع إلى كونشيرتو: أيكون السبب هو براهمز، أيكون البيانو، تكون الحالة عالية الحساسية التي أوصلته إليها أحداث هذا اليوم؟

عندما حان موعد النوم أحس بضيق في النفس: كان متعباً جداً، وهادئاً تماماً. وبدا كما لو أن إسماعيل وآرميدا والطبعين وإديليبيرتو توريس قد صاروا بعيدين، إلى الوراء جداً، قد أبطل وجودهم. هل سينام إذاً بسرعة؟ يا للأمل. بعد قليل من التقلب في الفراش، في المخدع شبه المظلم، بوجود المصباح الذي إلى جانب السرير من جهة لوكريثيا مضاء، سأل زوجته فجأة وهو مؤرق، ضحية حماسة مbagata:

- ألم يخطر لك التفكير في كيف ستكون قصة إسماعيل مع آرميدا يا قلبي؟ متى وكيف سيبدأن. من سيأخذ زمام المبادرة. أي نوع من الألعاب أو المصادفات أو الملامسات أو المزاح شرعاً به.

- بالضبط. دممت لوكريثيا وهي تستدير كمن تذكرت شيئاً. قربت وجهها وجسدها كثيراً من زوجها وهمست في أذنه: هذا ما كنت أفكر فيه طيلة الوقت يا حبي. منذ اللحظة الأولى التي رويت لي فيها هذه القصة.

- آه، حقاً؟ وما الذي فكرت فيه؟ ماذا خطر لك على سبيل المثال؟ - استدار ريغوبيرتو جانبياً نحوها ومر بيديه على خصرها -. لماذا لا تخبرينني.

خارج الغرفة، في شوارع حي بارانكو، ساد ذلك الصمت الليلي الذي يقطعه، بين حين وآخر، هدير البحر البعيد. تكون هنالك نجوم؟ لا،

إنها لا تظهر أبداً في مثل هذه الفترة من السنة. أما هناك في أوروبا فيرونها تلمع وتتلاّلأً في كل ليلة. ولوكريثيا، بصوت مرخم وبطيء كما في أفضل المناسبات، ذلك الصوت الذي هو موسيقى لريغوبيرتو، قالت بتمهل، كما لو أنها ترتل قصيدة:

«مهما بدا لك الأمر غير معقول، يمكن لي أن أعيد لك بناء قصة حب إسماعيل وآرميدا بكل تفاصيلها. أعرف أن ذلك سيزبح عنك الناس، وسيملؤك بأفكار خبيثة، منذ أن أخبرك صديقك في مطعم «روسا ناوتيكا» أنه سيتزوج. كيف أعرف كل هذا؟ فلتهو مرمياً على ظهرك... أعرفه بفضل خوستينيانا. فهي وآرميدا صديقتان حميمتان منذ زمن. أو بعبارة أدق، منذ بدأ مرض كلوتيلدي وأرسلناها بضعة أيام كي تساعد آرميدا في أعمال المنزل. إنها تلك الأيام الكثيبة، حين انهار العالم على رأس المسكين إسماعيل وهو يفكر في أن رفيقته مدى الحياة وأم ابنيه يمكن أن تموت. ألا تتذكر؟

- إنني أتذكر طبعاً - كذب ريجوبيرتو متهدجاً في أذن زوجته كما لو أن الأمر يتعلق بسرٍ لا يمكن البوح به - كيف لن أتذكر يا لوكريثيا... وما الذي حدث حينئذ؟

«حسنٌ، صارت صديقتين وبدأتا تخرجان معاً. ومنذ ذلك الحين، كما يبدو، كانت آرميدا قد وضعت في رأسها الخطة التي انتهت بها إلى نجاح باهر. فمن عاملة منزلية ترتيب الأسرة وتنظف الغرف، تحولت ليس إلى أقل من زوجة إسماعيل كاريلا، السيد الكبير المحترم والثري في ليما. وهو فوق ذلك سبعيني أو ربما ثمانيني».

- تجاهلي التعليقات وما تعرفي - أثبها ريجوبيرتو لاعباً الآن لعبة الأسى -. فلنذهب مباشرة إلى ما هو مهم حقاً يا حبي. وأنت تعرفي تماماً ما أعنيه. الواقع، الواقع.

«هذا ما أتوجه إليه. لقد خططتْ آرميدا لكل شيء، وبدهاء. وطبعاً، لو لم يكن لدى هذه البيورانية بعض المفاتن الجسدية لما أفادها ذكاؤها ودهاؤها في أي شيء. لقد رأتها خوستينيانا عارية طبعاً. فإذا ما سألتني كيف ولماذا، فإنني لا أعرف. من المؤكد أنهما استحمنا معاً ذات مرة. أو نامتا معاً في الفراش نفسه ذات ليلة، من يدري. إنها تقول إننا سنُفاجأ بكم هي آرميدا متناسقة التكوين حين ترى عارية، وهو أمر لا يلحظ بسبب رداءة ما تلبسه من ثياب البدينات الفضفاضة تلك. خوستينيانا تقول إنها ليست بدينية، وإن وركيها متينان ونهديها منتصبان، وإن حلمتيها صلبتان، وساقيها مسكونان جيداً، وترى أن لها بطناً أملس مثل طبل. وعانتها بلا شعر تقريباً، مثل يابانية».

- أيكون ممكناً أن آرميدا وجوستينيانا قد استثيرتا حين رأت كل منها الأخرى عارية؟ - قاطعها ريفوبيرتو العاري -. أيكون ممكناً أنهما بدأتا اللعب، والتلامس، والتودد وانتهى بهما الأمر إلى ممارسة الحب؟ - كل شيء ممكن في هذه الحياة يا صغيري - المحت دونيا لوكريثيا بحكمتها المعهودة. وكان الزوجان قد التصقا الآن أحدهما بالآخر - ما يمكنني تقديمك هو أن خوستينيانا، حين رأت آرميدا عارية، بلغ بها الأمر حد الإحساس بدغدغة في ذلك الجزء من جسدها، وأنك تعرف ما أعنيه. خوستينيانا نفسها من اعترفت لي بذلك وهي متوردة من الخجلوضاحكة. إنها تمزح كثيراً في هذه الأمور، أنت تعرف ذلك، ولكنني أظن أن رؤية آرميدا عارية قد استثارتها. وهكذا... من يدري، يمكن لأي شيء أن يكون قد حدث بينهما. على كل حال، ما كان يمكن لأحد أن يتخيّل كيف هو، في الحقيقة، جسد آرميدا المخبأ تحت وزرة المطبخ والتنانير العاديّة التي تلبسها. ومع أننا أنا وأنت لم ننتبه، فإن خوستينيانا تعتقد أنه منذ دخول المسكينة كلوتيلدي المرحلة

الأخيرة من مرضها، حين صار موتها أمراً لا مناص منه، بدأت آرميدا تهتم أكثر من السابق بمظاهرها.

- ما الذي كانت تفعله مثلاً؟ - عاد ريفوبيرتو إلى مقاطعتها. كان صوته بطيئاً وقلبه متسرعاً - أكانت تلمح بشيء إسماعيل؟ ما الذي فعلته؟ وكيف؟

«كانت تظهر كل صباح وهي أفضل مظهراً مما كانت عليه في اليوم السابق. مسرحة الشعر مع لسات تفنج صغيرة، يكاد لا ينتبه أحد إليها. وبحركات جديدة باليدين، بالصدر، بالوركين. لكن إسماعيل العجوز كان ينتبه إلى ذلك؛ على الرغم من الحال التي صار إليها بعد موت كلوتيلدي، حال الذهول، السرقة، التمزق حزناً. إذ أضاع البوصلة، ولم يعد يعرف من يكون أو أين هو. ولكنه انتبه مع ذلك إلى أن شيئاً ما يجري حوله. لقد لاحظ ذلك بالطبع».

- ها أنت تبتعدين مرة أخرى عما هو أساسى يا لوكريشيا - تذمر ريفوبيرتو وهو يشدها إليه - ليس هذا هو الوقت المناسب للتحدث عن الموت يا حبي.

«عندئذ، ويا للعجب، تحولت آرميدا إلى الأشد إخلاصاً واهتمامًا وتذللاً. فهي موجودة على الدوام رهن إشارة سيدها كي تحضر له مشروب متنه مع البابونج، فنجان شاي، كأساً من ال威isky، تكوي قفيصه، تخيط له زرأ، تقوم بلمسات لترتب له وضع البدلة، تعطى الحذاء ل الكبير الخدم كي يلمعه، تستعجل نرسيس بإخراج السيارة في الحال لأن دون إسماعيل يتأنب للخروج ولا يحب الانتظار».

- ما أهمية هذا كله - غضب ريفوبيرتو وهو يغض بعض إحدى أذني امرأته - أريد معرفة أشياء أكثر حميمية يا حبي.

«في الوقت نفسه، وبحكمة لا يملكها أحد سوانا نحن النساء، حكمة أتت إلينا من حواء شخصياً، وتكون في أرواحنا، في دمائنا، ويخيل إلى أنها موجودة في قلوبنا وفي أرحامنا أيضاً، بدأت آرميدا بحياة ذلك الفخ الذي سيسقط فيه الأرمل، المحطم بموت زوجته، كملاك وديع». - أي أشياء كانت تفعلها له - توسل رينغوبيرتو متعجلاً - أخبريني بدقة أكبر في التفاصيل يا حبي.

«في ليالي الشتاء، حين يكون إسماعيل منزولاً في مكتبه، ينفجر في البكاء. وكما في أعمال السحر، تظهر إلى جانبه هناك آرميدا، مخلصة، محترمة، متأثرة، متلفظة بعبارات تدليل بتلك النبرة الغنائية الشمالية التي لها رنة موسيقى. وتسكب هي أيضاً بعض الدموع، قريباً جداً من سيد البيت. يستطيع هو الشعور بها وسماعها، لأن جسديهما يتلامسان. وبينما آرميدا تمسح جباهه سيدها وعينيه، دون أن تنتبه، كما يقال، في سعيها لمواساته وتهديته والحنو عليه، تنزلق فتحة صدر ثوبها، ولا تستطيع عيناً إسماعيل التخلّي عن ملاحظة تينك النهددين الطازجين، الأسمرين، الفتبيين وهو يلامسان صدره ووجهه؛ نهداً امرأة لا بد أنها، من وجهة نظر سينه، لا يبدوان نهداً شابة وإنما طفلة. عندئذ تبدأ المرور في ذهنه فكرة أن آرميدا ليست مجرد زوج من الأيدي التي لا تكل في ترتيب الأسرة، ونفض الغبار عن الجدران، وتلميع الأرضيات، وغسل الثياب، وإنما هي كذلك جسد مقتلي، طري، نابض، دافئ، وإنها حميمية شذية، ندية، مثيرة. عندئذ يبدأ إسماعيل المسكين، خلال مظاهر الوفاء والتآثر الحانية تلك التي تبديها عاملته المنزلية، يبدأ بالشعور بأن ذلك الشيء المنكمش والمغطى بين ساقيه، والأقل قليلاً من يائس بسبب عدم الاستعمال، قد بدأ يبدي إشارات حياة، بدأ ينبعث. وهذا ما لم تكن خوستينيانا تعرفه طبعاً، ولكنها

تتكهن به. وأنا أيضاً لا أعرفه، ولكنني متأكدة من أن كل شيء بدأ على هذا النحو. ألا ترى ذلك أنت أيضاً يا حبي؟» .

- عندما روت لكِ خوستينيانا هذا كله، هل كنت أنت وهي عاريتين يا حبي؟ - كان ريفوبيرتو يتكلم بينما هو يغضض بخفة رقبة زوجته، وأذنيها، وشفتيها، وتداعب يداه ظهرها وإليتها وما بين ساقيها.

- كنت أضمنها مثلما تضمني أنت الآن - ردت لوكريثيا وهي تداعبه، تعضضه، تقبله، تتكلم داخل فمه - كنا شبه عاجزتين عن التنفس، لأننا كنا نختنق، كنت أرشف لعابها وهي ترشف لعابي. وتظن خوستينيانا أن آرميدا هي من أقدمت على الخطوة الأولى، وليس هو. فهي من لست إسماعيل أولاً. هنا، أجل. هكذا.

- أجل، أجل، بالطبع، واصلي، واصلي - كان ريفوبيرتو يخرّر، يبذل جهداً، ويقاد صوته لا يخرج منه - هكذا حدث الأمر بالتأكيد، هكذا حدث.

ظلا لبعض الوقت صامتين، متعانقين، يتبدلان القبلات، ولكن ريفوبيرتو توقف فجأة، بازلاً في ذلك جهداً عظيماً. وابتعد بخفة عن زوجته.

- لا أريد أن أنهي بعد يا حبي - همس - إنني أستمتع كثيراً. أرغبُ فيك، أحبك.

- فلنأخذ فاصلاً إذاً - قالت لوكريثيا وهي تبتعد عنه أيضاً - لنتحدث عن آرميدا. لقد كان ما فعلتهُ وتوصلتْ إليه أمراً جديراً بالإعجاب، ألا ترى ذلك؟

- بكل المعاني - قال ريفوبيرتو - ما قامت به عمل فني حقيقي. تستحق عليه الاحترام والتقدير. إنها امرأة عظيمة.

- وبين قوسين - قالت زوجته، مستبدلة صوتها -، إذا ما متُ أنا قبلك، لن يزعجني مطلقاً أن تتزوج من خوستينيانا. فأنت تعرف كل

نزواتها، سواء الجيدة منها أو الخبيثة، ولاسيما هذه الأخيرة. وهكذا،  
ضع هذا الأمر في اعتبارك.

- وتصرين على الحديث عن الموت - توسل إليها رينغوبيرتو -. فلنرجع إلى آرميدا ولا تشردي عن الموضوع كثيراً، أحلفك بأعز ما لديك.

تنهدت لوكريثيا، التصقت بزوجها، بحث فمها عن أذنه وكلمته  
بتمهل شديد:

«مثلما كنت أقول لك، لقد كانت هناك طيلة الوقت في متناول يده،  
قريبة جداً من إسماعيل على الدوام. وعندما كانت تنحنى في بعض  
الأحيان، لتمسح تلك اللطخة عن الأريكة، تنزلق تنورتها وتطل، دون  
أن تلحظ هي ذلك - ولكن إسماعيل كان يلحظه - تلك الركبة المكورة،  
ذلك الفخذ الناعم والمرن، ذلك الكاحل النحيل، أو جزء من الكتف،  
من الذراع، من الرقبة، أو انهدام الصدر بين النهدين. لم يكن، وما كان  
ممكناً أن يكون هناك أدنى أثر من الفجاجة في حركات السهو تلك.  
كل شيء كان يبدو طبيعياً، مصادفة، وغير معتمد على الإطلاق. وكان  
القدر يرتب الأمور بطريقة أن الأرمل، المجرب، صديقنا، الأب  
المرعوب من ابنيه، قد اكتشف من خلال تلك الأحداث الصغيرة أنه لا  
يزال رجلاً، وأن لديه عصفور حي، بالغ الحيوية. مثل هذا الذي  
أمسك به يا حبي. صلب، رطب، راعش».

- يستثيرني تخيل السعادة التي لا بد أن إسماعيل شعر بها حين  
علم أنه ما زال لديه ذلك العصفور، وأن عصفوره على الرغم من توقفه  
عن التغريد لوقت طويل، بدأ يفرد من جديد - هذى رينغوبيرتو وهو  
يتحرك تحت الملاءات -. أشعر بالتأثير يا حبي لدى ما كان عليه  
الموقف من جمال حين بدأ، بعد غرقه في مرارة شيخوخته، بالتوصل إلى

تخيلات غرامية، وشهوة، وانتسابات وهو يفكر في عاملته المنزلية. من  
منهما لمس الآخر أولاً، فلنحزن.

«لم تفكِ آرميدا قطَّ في أن الأمور ستصل بعيداً إلى ذلك الحد. كانت  
تأمل أن يعتاد إسماعيل على قربها منه، ويكتشف بفضلها أنه ليس  
ذلك الحطام البشري الذي يشي به مظهره، وأنه تحت هيئته  
المهزومة، ومشيته المزعزة، وأسنانه المخلخلة وضعف بصره، ما زال  
عضوه متاهياً. وأنه قادر على امتلاك رغبات. وأنه، إذا ما تغلب على  
حسه بأنه شخص مضحك، سيتجراً أخيراً ذات يوم على اتخاذ  
خطوة جريئة. وهكذا يقوم بينهما تواطؤ سري، حميم، في بيته، تلك  
الدارة الكولونيالية الكبيرة التي حولها موت كلوتيلدي إلى ليمبوس.  
ربما تكون آرميدا قد فكرتْ في أن ذلك كلَّه قد يؤدي إلى أن ينقلها  
إسماعيل من مرتبة خادمة إلى عشيقة. وأن يوفر لها بيتاً صغيراً،  
ويقدم لها راتباً شهرياً متواضعاً. هذا ما كانت تحلم به، وأنا واثقة  
من ذلك. لم تكن تحلم بأكثر من هذا. لم تتخيل قطَّ الثورة التي  
راحَتْ تُحدِثُها في إسماعيل الطيب ولا الظروف التي ستتحولها إلى  
أداة انتقام الأب المتألم والساخط».

- ولكن ما هذا؟ من هو هذا الدخيل الذي هنا تحت الملاءات؟ قطعت  
لوكريثيا حكايتها، متقلبة، مبالغة، ممسكة به.

- واصلي، واصلي يا حبي، أحلفك بأعز ما لديك - توسل إليها  
ريغوبيرتو، اختنق، وبلهفة أكبر فأكبر - لا تصفعتي الآن بعد أن صار  
كل شيء على ما يرام.

- أرى ذلك - ضحكت لوكريثيا وهي تتحرك لتنزع عنها قميص  
النوم، وتساعد زوجها للتخلص من البيجامة، وتشابك كل منهما  
بالآخر، مفسدين ترتيب السرير، متعانقين ومتبادلين القبلات.

- إنني بحاجة لأن أعرف كيف كانت مضاجعهما أول مرة - أمر ريفوبيرتو وهو يحتفظ بزوجته مشدودة جداً إلى جسده ويتكلم إليها وشفيه ملتصقين بشفتيها.

- سأخبرك بذلك، ولكن دعني أتنفس قليلاً على الأقل - ردت لوكريثيا بهدوء، آخذة وقتاً لتمر بلسانها على فم زوجها وتتلقي لسانه بلسانها - بدأ ذلك بكاء.

- بكاء من؟ - ارتبك ريفوبيرتو وتبسم - من؟ أكانت آرميدا عذراء؟  
أهذا ما تقصدينه؟ هل افتقضها؟ أجعلها تبكي؟

- بكاء من ذلك الذي ينتاب إسماعيل في الليل أحياناً أيها الأبله - وبخته دونيا لوكريثيا وهي تقرص إلبيته، تربت عليهما، وترك يديها تنزلقان حتى الخصيدين لتحتضنهما برفق - لأنه كان يتذكر كلوتيلي. بكاء قوي، مع إجهاشات تجاوزت الباب والجدران.

- إجهاشات وصلت إلى حجرة آرميدا طبعاً - تحمس ريفوبيرتو. تكلم وهو يدير لوكريثيا حول نفسها ويضعها تحته.

- إجهاشات أيقظتها، أخرجتها من الفراش، دفعتها للخروج راكضة لمواساته - قالت منزلقة بسهولة تحت جسد زوجها، مباعدة ما بين ساقيها، ومعانقة إياه.

- لم يُنْتَحْ لها الوقت لترتدي الروب والخف - تولى ريفوبيرتو الكلام بدلاً منها - ولا لتسرح شعرها ولا أي شيء آخر. ودخلت راكضة إلى حجرة إسماعيل وهي على تلك الحال، شبه عارية. إنني أراها يا حبي.

- تذكر أن الظلام كان يخيم على كل شيء؛ وقد مضت متغيرة بالأثناث، مستدلة بصوت نحيب المسكين إلى سريره. وحين وصلتاحتضنته و...

- واحتضنها هو أيضاً وبحركتين قويتين انتزع عنها قميص النوم الذي عليها. تظاهرت بأنها تقاوم، ولكن ليس لوقت طويل. فما إن بدأت ذلك الجهد حتى عانقته هي نفسها. وقد فوجئت أعظم مفاجأة حين اكتشفت أن إسماعيل كان في تلك اللحظة وحيد قرن، اخترقها؛ جعلها تصرخ...

- جعلها تصرخ - كررت لوكريثا العبارة بدورها وصرخت متضرعة -. انتظر، لا تجيء بعد، لا تكن شريراً، لا تفعل بي هذا.

- أحبك، أحبك - انفجر مقبلاً زوجته من عنقها وهو يشعر أنها تتلبس، ثم تئن بعد ثوان، راخية جسدها لتبقى ثابتة، متصلبة.

ظلا على تلك الحال، ساكنين وساكتين، بضع دقائق، يستعيدان قواهما. بعد ذلك تمازحا، نهضا، اغتسلا، رتبوا الملاءات، وأعادا ارتداء البيجاما وقميص النوم، أطفأا ضوء مصباح القراءة وحاولا النوم. لكن ريفوبيرتو ظل مؤرقاً، يسمع كيف راحت أنفاس لوكريثيا تهدأ وتبتعد مع استغراقها في النوم وثبات جسدها. لقد نامت. أتراها تحلم؟

في تلك اللحظة، وبصورة مرتجلة تماماً وجد سبب ذلك الترابط الذي راح ذهنه ينسجه بطريقة مضطربة ومشوشة منذ بعض الوقت، وبعبارة أدق، منذ بدأ فونتشيتو يخبرهما بتلك اللقاءات المستحيلة، تلك المصادفات غير المحتملة مع ذلك الشخص الغريب المدعو إديلبيرتو توريس. لا بد له من أن يعيد قراءة هذا الفصل من «دكتور فاوست» لتوماس مان. لقدقرأ الرواية منذ سنوات طويلة، ولكنه يتذكر بوضوح تلك الواقعية، فوهة بركان القصة.

نهض دون إحداث ضجة، وذهب حافياً في العتمة إلى حجرة مكتبه، حيزه الصغير الحضاري، متلمساً الجدران في الطريق. أشعل مصباح الكرسي حيث اعتاد الجلوس للقراءة وسماع الموسيقى. كان هناك

صمت مطبق في ليل بارانكو. البحر رجع بعيد جداً. لم يكلفه شيئاً العثور على الكتاب في رف الروايات. إنه هناك. وكان الفصل الخامس والعشرون هو المطلوب: لقد أشر عليه بصليب وإشارتي تعجب. إنه فوهة بركان الرواية، حدث تركيز المعاشات القصوى، والذي يبدل طبيعة القصة بالكامل، يدخله إلى العالم الواقعى بعضاً خارقاً للطبيعة. إنها الواقعه التي يرى فيها ظهور الشيطان وتبادلـه الحديث مع المؤلف الموسيقى الشاب أدريان ليفركوهن، في عزلته الإيطالية ببالسترينا، ويعرض عليه الاتفاق المشهور. ما إن بدأ بإعادة القراءة حتى وجد نفسه مأخوذاً ببراعة الاستراتيجية السردية. فالشيطان يظهر لأدريان كرجل عادى وطبيعى؛ العارض الوحيد الغريب هو، في البداية، البرد الذى ينبعـث منه ويجعل الموسيقى الشاب يشعر بقشعريرة. لا بد له من أن يسأل فونتشيتـو، كمن يوجه سؤالاً فضولياً على شيء من البلاهة، والمصادفة، «أيحدث أنك تشعر بالبرد في كل مرة يظهر لك فيها ذلك الشخص؟». آه، وكان أدريان يعاني أيضاً من حالات صداع وغثيان إنذارية قبل اللقاء الذى سيبدل حياته. «قل لي يا فونتشيتـو هل صادف وأنتك آلام رأس، أو اضطراب معوي، أو توعك بدني من أي نوع في كل مرة يظهر لك فيها ذلك الشخص؟».

وفق رواية ابنه، كان إديلبيرتو توريس شخصاً عادياً أيضاً. أصيب ريفوبيرتو بجفلـة هـلـع مع وصف تلك الضحـكة السـاخـرة التـي تـطلقـها شخصـية الروـاـية، والتـي تـنـفـجـر فـجـأـة في عـتمـة الـبـيـت الـظـلـيلـة بالـجـبـالـ الإـيـطـالـيـة، حيث تدور المحـادـثـة المـثيرـة للـلـقـلـقـ. ولكن... ولكن لماذا ربطـ لاـوعـيه كلـ هذا الـذـي يـقـرـأـه بـفـوـنـشـيـتوـ وإـديـلـبـيرـتوـ توـرـيـسـ؟ ليسـ لهـذاـ الـرـبـطـ منـ معـنىـ. فالـشـيـطـانـ في روـاـية توـمـاسـ ماـنـ يـشـيرـ إلىـ السـفـلـسـ وإـلىـ المـوـسـيـقـىـ باـعـتـبارـهـماـ مـظـهـرـينـ لـسـلـطـتـهـ الخـبـيـثـةـ فيـ الـحـيـاةـ، بيـنـماـ لمـ يـسـمعـ

ابنه ذلك المدعو إديلبيبرتو توريس يتكلم قط عن أمراض أو عن موسيقى كلاسيكية. أيمكن التساؤل عما إذا كان ظهور الإيدز الذي يتسبب بأضرار كبيرة في عالم اليوم مثل تلك التي كان السفلس يتسبب بها، هو مؤشر على الهيمنة الآخذه ببلوغ حضور جهنمي في الحياة المعاصرة؟ من الغباء تصور هذا؛ ومع ذلك، فإنه هو نفسه، غير المؤمن، واللاأدري الراسخ، يشعر في هذه اللحظة، بينما هو يقرأ، أن هذه العتمة الظليلة من الكتب واللوحات المحيطة به، والظلمات التي في الخارج، مضمرة في هذه اللحظات بروح قاسية، عنيفة وخبثة. «هل لاحظت يا فونتشيتو أن ضحكة إديلبيبرتو توريس لا تبدو بشريّة؟ أعني، هل هي لا تشبه الصخب الذي يُحدثه صوت صادر عن حنجرة إنسان، وإنما هي أقرب إلى ولولة مجنون، أو نعيق غراب، أو صفير ثعبان؟». سينفجر الصبي في الضحك مقهقاً وسيظن أن أبوه مجنون. وداهمه القلق مرة أخرى. لقد محا التشاوم في ثوان قليلة تلك السعادة الزخرفة التي تقاسمها للتو مع لوكريثيا، والمتعة التي أمدته بها إعادة قراءة هذا الفصل من دكتور فاواست. أطفأ النور ورجع إلى حجرة النوم مجرجاً قدميه. لا يمكن لهذا الأمر أن يستمر على هذا النحو، عليه أن يستجوب فونتشيتو بحذر ومكر، وإزاحة القناع عما هنالك من حقيقة في تلك اللقاءات، وتبديد الأشباح التي صاغتها مخيّلة ابنه المحمومة مرة واحدة وإلى الأبد. رباء، ليست الأزمة مواتية لأن يبدي الشيطان مجدداً ما يشير إلى أنه حي ويظهر مرة أخرى للناس.

الإعلان الذي دفع فيليثيتو ياناكيه أجره من جيبيه، ونشره في جريدة «التييمبو»، جعله مشهوراً بين ليلة وضحاها في بيورا كلها. صار الناس يوقفونه في الشارع لتهنئته والإعراب عن التضامن معه، ويطلبون منع توقيع أوتوفرافات، وينصحونه بصورة خاصة أن يتوكى الحذر: «ما فعلته حضرتك مرعب يا دون فيليثيتو. تشي غوا! حياتك الآن معرضة للخطر حقاً».

لم يدفع شيءٌ من ذلك صاحب شركة النقل إلى الزهو أو الخوف. أكثر ما أثار ذهوله هو ملاحظة التبدل الذي أحدثه الإعلان المقتضب، المنشور في جريدة بيورا الرئيسة، بالرقيب ليتوما وكذلك بالنقيب سيلفان ب بصورة خاصة. فهذا المفوض المبتذل الذي يستغل أية ذريعة كي يملأ فمه بالحديث عن مؤخرات نساء بيورا، لم يستطعه فيليثيتو قط، وهو يظن أن النفور بينهما متبدل. ولكن موقف المفوض صار منذ تلك اللحظة أقل عجرفة. فبعد ظهر يوم نشر الإعلان بالذات، ظهر الشرطيان كلاهما في بيته بشارع اريكيبيا، وكانا لطيفين ومتملقين. جاءا ليعرجا له عن قلقهما مما يحدث يا سيد ياناكيه. لم يبديا مثل هذا الاهتمام حتى عندما أودى الحريق الذي افتعله لصوص العنكبوت بنصف مقر نارييهولا للنقل. أي ذيابة لسعت الآن هذين الشرطيين؟ إنهم يبدوان متأثرين حقاً بوضعه ومتلهمفين لرمي القفاز في وجه المترzin.

أخيراً أخرج النقيب سيلفا من جيبيه قصاصة «التييمبو» وفيها الإعلان.

- هل جننت حضرتك لتنشر هذا يا دون فيليثيتو - قال نصف مازح ونصف جاد - ألم يخطر لك أنه يمكن لهذه النزوة أن تؤدي بك إلى طعنة سكين أو رصاصة في العنق؟

- لم تكن نزوه، لقد فكرتُ في الأمر كثيراً قبل الإقدام عليه - أوضح صاحب شركة النقل بعذوبة - أردتُ أن يعلم ملعونو فرج أمهاطهم هؤلاء، مرة واحدة وإلى الأبد، أنهم لن ينتزعوا مني سنتاً واحداً. يمكن لهم أن يحرقوا هذا البيت، وجميع شاحناتي وحافلاتي وفناتي. ويمكن لهم حتى أن يقتلوا زوجتي وابني إذا شاؤوا. ولكنني لن أدفع لهم سنتاً عاهراً واحداً!

لقد كان ضئيلاً وراسخاً، وكان يقول ذلك دون تصّع، دون غضب، بينما يداه ساكتتان ونظرته حازمة، وبتصميم هادئ.

- أنا أصدقك يا دون فيليثيتو. وافقه النقيب منزعجاً، وتوجه إلى جوهر الموضوع: المسألة أنك دون أن ترغب في ذلك، ودون أن تنتبه، قد أدخلتنا نحن في مشكلة عويصة. فالكولونييل رسکاتشوتشا، قائدنا المحلي في المنطقة، اتصل صباح اليوم بالفوضية بسبب هذا الإعلان الصغير. أتدرى لماذا؟ أخبره أنت يا ليتموا.

- كي يوجه إلينا اللعنات ويسمينا بغير النافعين والفالشين يا دون - أوضح الرقيب بأسف.

ضحك فيليثيتو ياناكيه. فللمرة الأولى مذ بدأ بتلقي رسائل العنکبوت يشعر أنه في مزاج طيب.

- هذا هو ما أنتما عليه أيها النقيب - دمدم مبتسمًا - . كم يسعدني أن قائدكما قد وبخكم. أهكذا هو اسمه، بكل هذا الوضوح؟ رسکاتشوتشا؟

ضحك الرقيب ليتوما والنقيب سيلفا أيضاً، ولكن بضيق.

- بالطبع لا، ما هذا إلا لقب - أوضح المفوض - فهو يدعى الكولونيال أسوندينيو ريوس باردو. لا أدرى لماذا أطلقت عليه تلك البذاءة ولا من الذي أطلقها عليه كلقب. إنه ضابط جيد، ولكنه شخص عصبي جداً. لا يتحمل برغوثاً، يوجه اللعنات لنصف العالم لأي سبب.

- إنك مخطئ في ظنك بأننا لم نأخذ شکواك على محمل الجد يا سيد ياناكيه - تدخل الرقيب ليتوما.

- كان لابد لنا من انتظار ظهور اللصوص كي تقوم بعملنا - واصل النقيب بحماسة مفاجئة - وبما أنهم قد فعلوا ذلك الآن، فإننا في أوج العمل.

- مواساة ضعيفة لي - قال فيليثيتو ياناكيه بتकشيرة استياء - لا أدرى ما الذي تفعلانه حضرتكما، ولكن في ما يخصني لن يعيد لي أحد مقري الذي أحرقه.

- ألا يتولى التأمين تعويض الأضرار والخسائر؟

- هذا ما يجب عليهم عمله، ولكنهم بدؤوا يتذاكرون. يتعللون بأن التأمين يشمل المركبات وحدها، وليس المنشآت. الدكتور كاسترو بوسو، محامي، يقول إننا قد نضطر إلى الذهاب إلى محكمة. وهو ما يعني أنني سأخرج خاسراً بأي حال. وها أنتم ترون.

- لا تقلق يا دون فيليثيتو - طمأنه النقيب وهو يربت على ظهره - سوف يقعون. عاجلاً أو آجلاً سيقعون. كلمة شرف. سنطلعك على التطورات. إلى اللقاء. وتحياتي إلى السيدة خوسيفيتا، تلك السكرتيرة باهرة الجمال التي لديك، أرجوك.

وكان صحيحاً حقاً أن الشرطيين قد بدأوا منذ ذلك اليوم بإظهار أدلة على اهتمامهما بالقضية. فقد استجوبا جميع سائقي وموظفي نارييهوالا

للنقل. واستبقيا ميغيل وتيبورثيو، ابني فيليثيتو، عدة ساعات في المفوضية خاضعين لوابل من الأسئلة، لم يكن الشابان يعرفان دوماً بماذا يرددان عليها. بل إن الشرطيين أنهمكا لوثيندو الأعمى كي يتعرف على صوت الشخص الذي جاء ليطلب منه إخبار دون فيليثيتو بأن المحل يحترق. فكان الأعمى يحلف أنه لم يسمع من قبل صوت من كلّمه. ولكن صاحب شركة النقل، وعلى الرغم من كل هذا الانكباب الذي أبداه الشرطيان، ظل يشعر بالقطوط والريبة. كان لديه إحساس داخلي بأنهما لن يقپضا على الفاعلين أبداً. وسيواصل المبتزون محاصرته، وأن ذلك كله سينتهي، فجأة، بأساة. ومع ذلك لم تجعله هذه الأفكار القاتمة يتراجع قيد أنملة عن قراره بعدم الاستسلام لتهديداتهم واعتداءاتهم.

أكثر ما أحبطه هو حديثه مع صاحبه، وزميله، ومنافسه الكولورادو فيغنولو. فقد جاء إليه ذات صباح في مقر ناريهولا للنقل، وكان فيليثيتو قد استقر وراء منضدة عمل مرتجلة - لوح خشبي عريض فوق برميلي زيت - في أحد أركان المراقب. ومن هناك كان بإمكانه أن يرى ركام ألواح الصفيح المختلط، والجدران والأثاث المحروق في الوضع الذي خلفت فيه النيران مكتبه القديم. بل إن اللهب أتلف جزءاً من السقف. ومن خلال الفتحة التي حدثت فيه، ثُرى قطعة من السماء العالية والزرقاء. لحسن الحظ أن الأمطار نادراً ما تهطل في بيورا، اللهم إلا في سنوات هبوب إعصار النينيو. كان الكولورادو فيغنولو قلقاً جداً.

- ما كان عليك أن تفعل هذا يا صاحبي - قال له بينما هو يعانيه ويعرض عليه قصاصة «التييمبو» - كيف خطرك أن تقامر بحياتك على هذا النحو! أنت المعروف بهدوئك في كل أمر يا فيليثيتو، أية حشرة

لسعتك هذه المرة. لماذا وُجد الأصدقاء، تشي غوا. لو أنك استشرتني لما تركتك تُقدم على مثل هذه الفظاعة.

- لهذا السبب لم أستشرك يا صاحبي. كنت أشم أنك ستنصحني بعدم نشر الإعلان – وأشار فيليثيتو إلى أنقاض مكتبه القديم - كان لا بد لي من الرد بطريقة ما على من فعلوا هذا بي.

خرجاً لتناول فنجان قهوة في حانة افتتحت حديثاً، عند ناصية ساحة بلازا مايور مع شارع تاكانا، بجوار مطعم صيني. كان المكان مظلماً، تحوم في عتمته الظليلة أسراب من الذباب. ومن هناك تظهر أشجار اللوز المعرفة بالغبار في الساحة الضيقة، وواجهة كنيسة دل كارمن حائلة اللون. لم يكن هناك زبائن واستطاعاً تبادل الحديث بهدوء.

- ألم يحدث لك مثل هذا من قبل قطّ يا صاحبي - سأله فيليثيتو - ألم تصلك قطّ واحدة من هذه الرسائل تبتزك؟

وتفاجأ ببرؤية تبدل غريب في ملامح الكولورادو بيفغولو، بدا متربداً للحظات، لا يدرى بماذا يجيبه. كان هناك وميض إحساس بالذنب في عينيه الغائمتين؛ وكان يرمي دون توقف ويتجنب النظر إليه.

- لا تقل لي يا صاحبي إنك... تلعم فيليثيتو وهو يشد على ذراع صديقه.

- لستُ بطلاً ولا أريد أن أكون بطلاً - أكد الكولورادو فيغنو لو بصوت خافت - أجل، سأقول لك. إنني أدفع لهم إتاوة كل شهر. ومع أن الأمر لا يعنيني، فإنني أقول إن جميع شركات النقل في بيورا، أو جميعها تقريباً، تدفع هذه الإتاوات. وهذا ما كان عليك أن تفعله بدل التهور بمواجهتهم. جميعدنا كنا نظن أنك أنت أيضاً تدفع لهم يا فيليثيتو. أي تهور هذا الذي أقدمت عليه، لا أنا ولا أحد من زملائنا

يفهمه. هل أُصبتَ بالجنون؟ لا يمكن لأحدنا خوض معركة غير قادر على كسبها يا رجل.

- لا أستطيع أن أصدق أنكم تنزلون سراويلكم هكذا في مواجهة أبناء العاهرة هؤلاء - تحسر فيليثيتو -. عقلي لا يتقبل ذلك، أقسم لك. أنت الذي تبدو على الدوام ديكاً يا صاحبي.

- ليس الأمر عظيماً، إنه مبلغ صغير يضاف إلى النفقات العامة - هز الكولورادو كتفيه حَجِلاً دون أن يدرى ما يفعله بيديه وهو يحركهما كما لو أنهما فائضتان عن حاجته - ليس هنالك ما يستحق المجازفة بالحياة من أجل تفاهة يا فيليثيتو. كان يمكن تخفيض هذه الخمسة التي طلبوها منك إلى النصف لو أنك تفاوضت معهم بالحسنى، أؤكد لك. إلا ترى ما الذي فعلوه بمقرك؟ وتأتي فوق ذلك لتنشر هذا الإعلان في «التييمبو». إنك تغامر بحياتك وبحياة أسرتك. وحتى بحياة مابيل المسكينة، ألا ترى ذلك؟ لن تستطيع مواجهتهم أبداً، أؤكد هذا، مثل الواقع ولا تحاول تقويم اعوجاج العالم الذي نعيش فيه. المافيا قوية جداً، وتغلغلة في كل مكان، بدءاً من الحكومة والقضاء. ومن السذاجة العظيمة الوثوق بالشرطة. لا أستغرب أن يكون الشرطيون مشاركين كذلك في الوليمة. ألا تدري في أي بلاد نعيش يا صاحبي؟

كان فيليثيتو لا يكاد يسمعه. الحقيقة أنه يجد صعوبة في تصديق ما سمعه: الكولورادو بيعنلو يدفع إتاوة شهرية للمافيا. إنه يعرفه منذ عشرين عاماً، وكان يظن على الدوام أنه شخص شديد الاستقامة، يا للأم العاهرة، أي عالم هذا.

- أنت متأكد من أن جميع شركات النقل تدفع الإتاوات؟ - ألح وهو يبحث عن عيني صديقه - ألا تبالغ؟

- إذا كنتَ لا تصدقني، أسائلهم. إنني متأكد مثل تأكدي من أنني أدعى فيغنولو. إذا لم يكن الجميع، فإن الجميع تقريباً يدفعون. ليست الأزمنة المناسبة للعب دور البطل يا صديقي فيليثيتو. المهم أن نتمكن من العمل وأن تسير أعمالنا. إذا لم يكن هناك مفر من دفع الإتاوة، فلتُدفع وانتهى الأمر. افعل مثلي ولا تدس يدك في النار يا صاحبي. يمكن لك أن تندم. لا تقامر بما شيدته بكثير من التضحية. ولا يروقني أن أحضر قداس جنازتك.

منذ تلك المحادثة ما عاد فيليثيتو قادرًا على رفع رأسه. كان يشعر بالأسى، بالشفقة، بالغضب، بالدهشة. وحتى في وحدته الليلية، في صالة بيته الصغيرة، وهو يضع أغانيات لسيسيليا باراسا، لم يتوصّل إلى إلهاء نفسه. كيف يمكن لزمائه أن يسمحوا بأن يذلوا بهذه الطريقة؟ لا يدركون أنهم، بتلبية هم رغبات المبتسرين، إنما يقيدون أيديهم وأقدامهم ويرهون مستقبلهم. فالمبتسرون سيطلبون منهم أكثر في كل يوم، إلى أن يُفسلوهم. بدا له كما لو أن بيورا بأسرها قد توافقت على إلحاق الأذى به، بمن في ذلك أولئك الذين كانوا يوقونه في الشارع لمعانقته وتهنئته. ليسوا سوى منافقين داخلين في المؤامرة لينتزعوا منه ما جناه خلال سنوات طويلة من العرق. «مهما يكن ما سيحدث، كن مطمئناً يا أبي. فابنك لن يسمح بأن يُذلَّه أولئك الجبناء أو أي أحد سواهم».

الشهرة التي أكسبه إليها الإعلان في «التييمبو» لم تبدل حياة فيليثيتو ياناكيه العادية والمُجيدة، على الرغم من أنه لم يكن معتاداً على أن يتعرّف إليه الناس في الشارع. فهو يرتبك ولا يدرِّي كيف يردد على عبارات المديح وإشارات التضامن التي يوجهها إليه العابرون. كان ينهض مبكراً جداً كل صباح، يمارس تمارين الكي جونغ، ويصل إلى نارييهوالا للنقل في الثامنة. أقلقه انخفاض شراء التذاكر؛ وبعد الحريق

لم يكن مستغرباً أن يكون بعض الزبائن قد خافوا، خشية أن يتخذ اللصوص إجراءات انتقامية ضد مركبات الشركة، بمهاجمتها وإحراقها على الطرق العامة. الحافلات الذهاب إلى أيا باكا، وعليها أن تصعد مئتي كيلومتر في طريق ضيق ومتعرج على حواف هاويات أنديزية عميقية، فقدت قربة نصف زبائنهما. ولا يمكنه إعادة بناء المكتب مادامت المشكلة مع شركة التأمين لم تُحل. ولكن فيليثيتو لا يهمه أن يواصل العمل على اللوح الخشبي والبرمليين في ركن المستودع. ظل ساعات وساعات مع السيدة خوسيفيتا يراجع ما تبقى من دفاتر الحسابات، والفواتير، والعقود، والإيصالات والمراسلات. لحسن الحظ أنه لم يفقد الكثير من الأوراق المهمة. ولكن سكرتيرته هي من لم تجد مواساة. كانت خوسيفيتا تحاول المداراة، ولكن فيليثيتو كان يلحظ مدى توترها واستيائتها من اضطرارها إلى العمل في الهواء الطلق، على مرأى من السائقين والميكانيكيين، والركاب الواصلين والمغادرين، والناس الذين يصطفون في الدور من أجل معاملات إرسال طرود. وقد اعترفت وهي تمطر شفتيها كطفلة في وجهها كثير النعش:

- هذا العمل أمام كل الناس يسبب لي ما لا أدريه، يبدو لي كأنني أقدم عرض ستريتنيز. ألا تشعر أنت بذلك يا دون فيليثيتو؟

- كثيرون من هؤلاء سيكونون سعداء لو قدمت لهم عرض ستريتنيز يا خوسيفيتا. فقد سمعت عبارات التودد التي يوجهها إليك النقيب سيلفا كلما رأك.

- لا تروق لي بأي حال ظروفات ذلك الشرطي - أحمر وجه خوسيفيتا، وأضافت مفتونة - وأقل من ذلك إعجابي بنظراته تلك التي يوجهها إلى حيث تعرف حضرتك يا دون فيليثيتو. هل تظن أنه منحرف؟ هذا ما يقولونه عنه. يقولون إن النقيب لا ينظر إلا إلى

هذا الجزء في النساء، كما لو أنه ليس لدينا أشياء أخرى في جسدنَا،  
تشي غوا.

في اليوم نفسه الذي ظهر فيه الإعلان في «القىيمبو»، طلب منه ميغيل وتيبورثيو أن يحدد لهما موعداً. كان ابناه يعملان سائقين ومقشسين في حافلات وشاحنات وفانات الشركة. أخذهما فيليثيتو لتناول وجبة سيفيتسي الواقع بحرية سوداء وسمكة شابل مجففة، في مطعم فندق الذهب الأخضر، بمنطقة إلتشيبيه. كان هناك مذيع مفتوح، فاضطرتهم الموسيقى إلى التكلم برفع أصواتهم كثيراً. ومن منضدتهم كانوا يرون عائلة تسبح في المسبح، تحت أشجار النخيل. وبدلأً من البيرة طلب فيليثيتو مياهاً غازية. ومن خلال وجهي ابنيه، تنبأ شرّاً مما لديهما. تكلم أولاً ابنه الكبير، ميغيل. وهو شاب متين البنية، رياضي، أبيض البشرة، له عينان زرقاء وشعر أشقر، يلبس على الدوام بشيء من الاهتمام، على العكس من تيبورثيو الذي نادراً ما يستبدل البلوجنز والقمصان الخفيفة وحذاء الرياضة. كان ميغيل ينتعل حذاء موکاسين وبينطال كوردوري وقميصاً أزرق فاتحاً ومطبعاً برسوم سيارات سباق. لقد كان متأنقاً لا علاج له، لديه استعداد طبيعي لذلك وأساليب راقية. حين أجبره فيليثيتو على أداء الخدمة العسكرية، كان يفكر في أنهم سيخلصونه في الجيش من أساليب الطفل المنعم التي هو عليها؛ ولكن الأمر لم يكن كذلك، فقد خرج من الثكنة مثلما دخلها. وفكّر صاحب شركة النقل مرة أخرى في حياته: «أيكون ابني؟». كان الفتى يضع ساعة بسوار جلدي يداعبة بينما هو يقول:

- لقد فكرت أنا وتيبورثيو في الأمر يا أبي، وقد استشرنا ماماً أيضاً -  
كان متوفراً بعض الشيء، مثلاً يكون دوماً حين يتوجه بالكلام إلى أبيه.

- هذا يعني أنكما تفكران - مازحه فيليثيتو - تسعذني معرفة ذلك،  
هذا خبر طيب. أيمكنني أن أعرف الفكرة اللامعة التي خطرت لكما؟  
آمل ألا يكون ما فكرتما فيه هو الذهاب لاستشارة سحرة هواناكابامبا  
الهنود بشأن مبترizi العنكبوت. فقد قمت باستشارة آديلايدا ولم  
 تستطع هي نفسها التكهن بأي شيء، بل ليس لديها أدنى فكرة عن  
يمكن أن يكونوا.

- الأمر جديّ يا أبي - تدخل تيبيورثيو. في شرایین ابني هذا تجري  
دماؤه هو، لا وجود لأدنى شك في ذلك. إنه يشبهه كثيراً ببشرته  
المحروقة، وشعره السبط والأسود، وبجسده الضعيف - لا تسخر يا  
أبي، أرجوك. استمع إلينا. فهذا من أجل مصلحتك.

- حسن، موافق، إنني أستمع إليكما. ما هو الموضوع أيها الشباب؟  
- بعد هذا الإعلان الذي نشرته في «التييمبو» أصبحت معرضاً لخطر  
كبير - قال ميغيل.

- لا أدرى إن كنتَ مدركاً مدي الخطر يا أبي - أضاف تيبيورثيو -  
يبدو الأمر كما لو أنك قد وضعت الحبل حول عنقك.

- إنني في خطر منذ ما قبل الإعلان - صحق لهما فيليثيتو - بل  
نحن جميعنا في خطر. خيرتروديس وأنتما أيضاً. مذ وصلت الرسالة  
الأولى من أبناء العاهرة هؤلاء الذين يريدون ابتزازي. أتراكم لا تعرفان  
ذلك؟ فهذا الأمر ليس موجهاً إليّ فقط، وإنما إلى أسرتي كلها. أم أنكم  
لستم أنتم من ستثرون عني ناريهوala للنقل؟

- ولكنك الآن معرض للخطر أكثر من السابق، لأنك تحديتهم علينا يا  
أبي - قال ميغيل - سوف يقومون بالردّ، لا يمكنهم البقاء صامتين  
حيال مثل هذا التحدى. سيحاولون الانتقام، لأنك وضعتم في وضع  
مضحك. بيورا بأسرها تقول ذلك.

- الناس يوقفوننا في الشارع لتحذيرنا - أخذ منه تيبيورثيو الكلام - «انتبهوا لأبيكم أيها الشباب، لأنهم لن يغفروا له هذه النزوة». هذا ما يقولونه لنا في الشوارع والساحات.

- أي إبني أنا من يستفز أولئك المساكين - قاطعه فيليثيتو غاضباً -  
يهددوني، يحرقون مكتبي، وأكون أنا المستفز لأنني قلت لهم إبني لن  
أخضع للابتزاز مثل زملائي المسلمين.

- لسنا ننتقدك يا أبي، بالعكس - ألح ميغيل - إننا ندعمك، نشعر  
بالفخر لنشرك هذا الإعلان في «التييمبو». لقد رفعتَ اسم العائلة عاليًا  
جداً.

- ولكننا لا نريد أن يقتلوك، افهمنا، أرجوك - سانده تيبيورثيو -  
سيكون من المناسب أن تتعاقد مع حارس شخصي. لقد تحرينا الأمر،  
هناك شركة جدية جداً. تقدم خدمات لجميع الأشخاص المهمين في  
بيورا: المصرفيون، الزراعيون، النجميون. وليس غالية جداً، لدينا  
هذا الأسعار.

- حارس شخصي؟ - انفجر فيليثيتو في الضحك، ضحكة مفتعلة  
واسخرة -. ويتبعني شخص مثل ظلي ومسديه في جيبه؟ إذا ما  
تعاقدتُ مع حماية، فسيعني ذلك أنني أمنح أولئك اللصوص أكبر  
بهجة. هل في رأسيكما دماغ أم نشارة خشب؟ سيكون ذلك اعترافاً  
بأنني خائف، وأنني أنفق نقودي على هذا الأمر لأنني مذعور. سيكون  
ذلك مماثل لدفع الإتاوة التي يطلوبونها مني. لن نتكلم أكثر في هذا  
الموضوع. تناولا طعامكما، تناولا طعامكما، سوف تبرد سمكة الشابل.  
ولنتحدث في أمر آخر.

- ولكننا نفعل هذا من أجل مصلحتك يا أبي - واصل ميغيل محاولة  
إقناعه - كيلا يحدث لك شيء. استمع إلينا، إننا ابناك.

- ولا كلمة أخرى في هذا الموضوع - أمرهما فيليثيتو -. إذا ما جرى شيء لي، ستكونان على رأس ناريهاولا للنقل، ويمكن لكما عندئذ أن تفعلا ما تريدان. بما في ذلك التعاقد مع حراس شخصيين إن رغبتما. أما أنا فلن أفعل ذلك حتى لو مت.

رأى ابنيه يخوضان رأسهما ويبداآن الأكل، دون رغبة. لقد كانا وديعين جداً على الدوام، حتى في مرحلة المراهقة التي يتمرس فيها الفتيان على السلطة الأبوية. لا يتذكر أنهما سببا له الكثير من أوجاع الرأس، باستثناء بعض الشيطانات المترفة التي تتمحض عن نتائج كبيرة. مثل ذلك الحادث الذي وقع لميغيل وأدى إلى قتل عابر سبيل على الطريق العام إلى كاتاكاوس، أثناء تعلمه سياقة السيارة، حين تصادف مرور ذلك الحمار على الطريق. ومازلا مطيعين إلى حد كبير على الرغم من أنهما صارا رجالين كاملين الرجال. وحتى عندما أمر ميغيل بأن يتقدم متظوعاً إلى الجيش لمدة عام من أجل أن يتصلب، انصاع ابنيه له دون أن ينبس ببنت شفة. وقد كانوا يقومان بعملهما على أحسن وجه، فالحقيقة هي الحقيقة. لم يكن قاسياً معهما قط، ولكنه لم يكن كذلك واحداً من أولئك الآباء المولعين بأبنائهم، يدللونهم ويتحولونهم إلى كسالى ومخنثين. لقد سعى إلى إكسابهما المهارات كي يعرفا كيف يواجهان المصاعب ويكونان قادرين على المضي قدماً بالشركة عندما يصير عاجزاً عن العمل. جعلهما ينهيان المدرسة، ويتعلمان الميكانيك، ويستحصلان على رخص قيادة حافلات وشاحنات. وعمل كلاهما بكلمة المهن في ناريهاولا للنقل وتدرجوا فيها: حارس، كناس، مساعد محاسب، معاون سائق، مفتش، سائق... الخ، إلخ. يمكن له أن يموت مطمناً، فالاثنان مهيأان للحلول محله. وعلاقتهما في ما بينهما جيدة، إنهم متهددان جداً لحسن الحظ.

- أنا لاأشعر بالخوف من أبناء العاهرة أولئك - هتف فجأة وهو يضرب المنضدة. توقف ابناه عن الأكل - أسوأ ما يمكن أن يفعله بي هو قتلي. ولكنني لا أخاف الموت أيضاً. لقد عشتُ خمساً وخمسين عاماً وهذا يكفي. ما يطمئنني أنني سأترك ناريهموala للنقل بين أيدٍ أمينة حين أغادر لأنتحق بأبي.

حدس أن الشابين يحاولان الابتسام ولكنه لاحظ أنهما مرتبكان وعصبيان.

- لا نريدك أن تموت بعد يا أبي - تلعم ميغيل.

- إذا ما ألحق بك هؤلاء أي أذى سنجعلهم يدفعون الثمن غالياً - أكد تيبورثيو.

- لا أظن أنهم يتجرؤون على قتلي - طمأنهم فيليثيتو - إنهم لصوص ومبترون، ليس أكثر. من أجل القتل يجب أن تكون لهم خصى أكثر من مجرد إرسال رسائل عليها رسوم عناكب.

- اشتري مسدساً على الأقل وتسلح به يا أبي - عاد تيبورثيو إلى الهجوم - كي تتمكن من الدفاع عن نفسك في حالة...

- سأفكر في الأمر، سوف نرى - أبدى فيليثيتو اللين - والآن، أريد منكم أن تعاهداني، حين أغادر هذا العالم وتصير ناريهموala بين أيديكما، ألا ترضخا لابتزاز أبناء العاهرات هؤلاء.

رأى ابنيه يتبدلان النظارات وهما بين المتفاجئين والمذعورين.

- أقسم بالله على ذلك، الآن بالذات - طلب منها - أريد أن أكون مطمئناً من هذه الناحية، تحسباً لحدوث أي شيء لي.

وافق كلاهما، ودمدما وهما يرسمان إشارة الصليب: «نقسم لك بالله يا أبي».

أمضوا بقية وقت الغداء في الحديث عن أمور مختلفة. وبدأت تدور في ذهن فيليثيتو فكرة قديمة أخرى. فمنذ أن ذهبا ليعيش كل منهما على طريقته، صار لا يعرف إلا القليل مما يفعله تيبورثيو وميغيل حين لا يكونان في العمل. إنهما لا يعيشان معاً. الكبير أقام في بنسيون بضاحية ميرافلوريس، وهو حي للبيض بالكامل طبعاً. وتيبورثيو استأجر شقة مع صديق في حي كاستيا، بالقرب من stad الجديد. الديهما حبيبستان، عشيقتان؟ أهما عربidan، محبان للنساء؟ أيسكران مع الأصدقاء أيام السبت ليلاً؟ أيرتادان حانات ومطاعم اللهو، أيبحثان عن عاهرات؟ كيف يقضيان أوقات فراغهما؟ خلال أيام الآحاد التي يأتيان فيها أحياناً لتناول الغداء في البيت بشارع اريكيبا لا يتحدثان كثيراً عن حياتيهما الخاصتين، ولا يوجه إليهما هو أو خيرترودليس أسئلة بهذا الشأن. ربما من المناسب أن يتبادل الحديث معهما قليلاً ذات مرة، وأن يعرف المزيد عن حياة الشابين الحميمية.

أسوأ ما في تلك الأيام هي المقابلات التي كان عليه إجراؤها على إثر الإعلان في «التعيمبو». مقابلات مع عدة إذاعات محلية، مع كتبة تحقيقات صحافية بجريدة «الكوريو»، وجريدة «لاريبوبليكا»، ومع مراسل أخبار إزاعة بيبورا. كانت أسئلة الصحفيين توترة. تتبلل يداه بالعرق، ويشعر بحيّات تنسل على ظهره. كان يجib على الأسئلة مع وقوفات صمت طويلة، يبحث عن الكلمات، ينكر بحزم كونه بطلاً مدنياً أو نموذجاً يحتذى لأحد. لا شيء من هذا، يا لهذه الأفكار، إنه لا يفعل شيئاً أكثر من تنفيذ فلسفة أبيه التي تركها له في هذه النصيحة كميراث: «لا تسمح أبداً لأحد بأن يُذلك يابني». فيبتسمون وينظر إليه بعضهم بوجوه متسامحة. لم يكن يهمه ذلك. بل كان يجعل من أحشائه قلباً، ويواصل. فهو رجل محب للعمل، رجل عادي، ولا شيء

أكثر. لقد ولد فقيراً، بل شديد الفقر، على مقربة من تشولوكاناس، في ياباتира، وكل ما يملكه إنما كسبه بالعمل. يدفع ضرائبها، يتقييد بالقوانين. فلماذا سيسمح لبعض اللصوص بأن ينتزعوا منه ما يملكه بإرسالهم تهديدات إليه دون أن يُظهروا له وجوههم؟ إذا لم يستجب أحد لهذه الابتزازات، فسوف يتلاشى المبتزون.

وهو لا يحب كذلك أن يتلقى تمييزاً أو تكريماً، لأنه يتعرق جليداً إذا ما اضطر إلى إلقاء خطابات. إنه يفتخر في أعماقه طبعاً وهو يفكر في مقدار السعادة التي سيشعر بها أبوه، ألينيو ياناكيه، لنيله مدالية المواطن النموذجي التي علقها على صدره نادي الروتري كلوب خلال غداء في المركز البيوراني. ولكن، حين كان عليه الاقتراب من المايكريفون ليقدم الشكر، انعقدت حنجرته واحتفى صوته. وقد حدث له الشيء نفسه عندما أعلنته جمعية إنريكي لوبيث أبوخار المدنية - الثقافية - الرياضية شخصية العام في بيورا.

في تلك الأيام وصلت إلى بيته في شارع اريكيبيا رسالة من نادي غراو، تحمل توقيع رئيسها، الكيميائي - الصيدلاني المعين، الدكتور غارابيتتو ليون سيميناري، تخبره بأن مجلس الإدارة قد وافق بالإجماع على طلبه لنيل عضوية الجمعية. لم يستطع فيليثيتتو أن يصدق عينيه. لقد قدم الطلب منذ سنتين أو ثلاثة سنوات، وبما أنهم لم يردوا عليه قط، فقد فكر في أن طلبه قد أهمل لأنه ليس أبيض، مثلما يعتقد أنهم كذلك أولئك السادة الذين يذهبون إلى نادي غراو للعب التنس، والبيونغ بونغ، والساهو، والكاتشو، والسباحة في المسبح والرقص في أيام السبت مع أفضل فرقة أوركسترا في بيورا. وقد تجراً على التقدم بذلك الطلب منذ رأى سيسيليا بارأسا تغنى في حفلة لنادي غراو، تلك الفنانة الكريولية التي يقدّرها أكثر من أي شيء. ذهب يومذاك مع مابيل وجلس إلى

منضدة الكولورادو بيفنولو الذي كان عضواً في النادي. ولو أنه سُئل عن أسعد يوم في حياته، لاختار فيليثيتو ياناكيه تلك الليلة.

لقد كانت سيسيليا باراسا حبه السري، حتى قبل أن يراها في صورة أو شخصياً. أغرم بها بسبب صوتها. لم يخبر أحداً بذلك، لأنه أمر خاص وحميم. فذات يوم، في مطعم الملكة الذي اختفى، والذي كان يقوم عند ناصية كورنيش إغويغويرا وجادة سانتشيث سيرو، حيث كان يجتمع للعشاء هناك، في أول سبت من كل شهر، مجلس إدارة جمعية السائقين عبر المحافظات في بيورا، وكان عضواً فيه. وبينما هم يرتفعون نخبأً بكؤوس من شراب الخروب سمع فجأة، من مذيع المحل، غناءً أحد أح恨 الفالسات إلى نفسه «روح وقلب وحياة» بظرف وتأثر وإخلاص لم يسمعه بمثله من قبل. فلا خيسوس باسكيل، ولا فريق موروتشوكوس، ولا لوتشا رئيس، ولا أي مغنٍ كريولي آخر من يعرفهم، غنى ذلك الفالس البديع بهذا الإحساس والظرف الذي تؤديه به المغنية التي يسمعها أول مرة. كانت تطبع كل كلمة، كل مقطع صوتي، كل حرف بكثير من الحقيقة والانسجام، بكثير من الحساسية والعذوبة، مما يعني الرغبة في الرقص... وحتى البكاء. سأل عن اسمها فقالوا له: سيسيليا باراسا. سمع صوت تلك الفتاة جعله يفهم كما يبدو بصورة كاملة، أول مرة، الكثير من كلمات الفالسات الكريولية التي كانت تبدو له من قبل غامضة وغير مفهومة:

روح لفزوك  
قلب لحبك  
حياة لعيشها  
إلى جانبك!

أحس بأنه قد غُزِيَ، تأثر، افتن، أحب. منذ ذلك الحين، في الليل، قبل أن ينام، أو في الفجر قبل أن ينهض، يتخيّل نفسه أحياناً أنه يعيش إلى جانب تلك الغنية المدعوة سيسيليا باراثا. ودون أن يخبر أحداً، وبخاصة مابيل طبعاً، عاش بصورة أفلاطونية متعلقاً بذلك الوجه الباسم، ذي العينين بالغتي التعبير والابتسامة شديدة الغواية. لقد جمع مجموعة لا بأس بها من صورها التي كانت تظهر في الصحف والمجلات، واحتفظ بها بغيره وراء قفل في أحد دروج مكتبه. لقد ذهب الحريق بجزء لا بأس به من تلك الصور، ولكن ليس بمجموعة أسطوانات سيسيليا باراسا التي يمتلكها موزعة ما بين بيته في شارع اريكيبيا وبيت مابيل في كاستيا. يظن أنه يملك جميع الأسطوانات التي سجلتها تلك الفنانة التي رفعت، حسب طريقته في الفهم، الموسيقى الكريولية إلى مستويات جديدة، بما فيها الفالسات والمارينيريات والتنوير والبريفون. كان يستمع، بصورة عامة، إلى تلك الأسطوانات في الليل، بعد العشاء، حين تذهب خيرتروديس للنوم، في الصالة الصغيرة حيث يوجد التلفاز وجهاز الموسيقى. الأغانيات تجعل مخيلته تحلق، وكان يتأثر في بعض الأحيان إلى حد يشعر معه بأن عينيه تدمعن مع الصوت العذب والمداعب الذي يضمخ الليل. ولهذا، حين أُعلن أنها ستأتي إلى بيورا لتقنّي في نادي غراو، وستكون الحفلة مفتوحة للجمهور، كان أحد أول من اشتروا تذاكر الدخول. دعا مابيل، وأجلسهما الكولورادو بېغۇلۇ إلى منضدته، حيث تناولوا، قبل الحفلة، وجبة فاخرة مع نبيذ أبيض وأحمر. رؤية الفنانة شخصياً، وإن لم يكن عن قرب كبير، أدخل فيليشتيو في حالة من النشوة. بدت له أكثر جملاً وظرافة وأناقة مما هي عليه في الصور. كان يصفق بحماسة شديدة بعد

كل أغنية، حتى إن مابيل قالت لبيغنولو مشيرة إليه : «انظر كيف صار هذا العجوز المتصابي يا كولورادو».

- لا تكوني سيئة الظن يا مابيليتا - قال لها مدارياً -، ما أصفق له هو فن سيسيليا بaras ، فنها فقط.

وصلت رسالة العنكبوت الثالثة بعد وقت لا بأس به من الرسالة الثانية ، حين كان فيليثيتو يتساءل عما إذا كان المافيويون قد أصيبوا بالذعر بعد الحريق ، والإعلان في «التييمبو» والضجة التي أحدها ، واستسلموا لتركه بسلام. كانت قد انقضت ثلاثة أسابيع على الحريق ولم يكن الخلاف مع شركة التأمين قد حلّ بعد ، حين حدث ذات صباح ، على منضدة المكتب المرتجلة في الكراج ، أن هتفت السيدة خوسيفيتا التي كانت تفتح المراسلات :

- يا للغرابة يا دون فيليثيتو ، رسالة لا تحمل اسم المرسل . انتزعها صاحب شركة النقل من يديها بشدّة واحدة . وكانت ما خشي منه .

عزيزي السيد ياناكيه :

يسعدنا أنك صرت الآن رجلاً مشهوراً ومعتبراً في مدینتنا المحبوبة بيورا . ونتمنى أن تضاعف هذه الشهرة من أرباح نارييهولا للنقل ، وخاصة بعد الضرر الذي تعرضت له الشركة بسبب شدة عنادك . غير أنه من المناسب لك أن تتقبل دروس الواقع وتكون برغماتياً بدلاً من اعتماد العناد كيبل . لسنا راغبين في أن تتعرض لضرر آخر أخطر من السابق . لهذا ندعوك لأن تكون مرناً ، وأن تستجيب لمطالبنا .

لقد اطلعنا ، مثل جميع أهالي بيورا ، على الإعلان الذي نشرته في «التييمبو» . لسنا حاقدين عليك . بل أكثر من هذا ، إننا نتفهم قرارك بنشر

هذا الإعلان نتيجة نوبة انزعاج من الحريق الذي دمر المكتب. لقد نسينا ذلك، فانسأه أنت أيضاً ولنبدأ من الصفر.

إننا نمنحك مهلة أسبوعين - أربعة عشر يوماً بدءاً من هذا اليوم - كي تفكّر، وتعود إلى العقل وتنهي المسألة التي تهمنا. في حالة عدم موافقتك، عليك أن تتحمل النتائج. وستكون أشد خطورة من كل ما عانيته حتى الآن. وخير الكلام ما قل ودل، كما يقول المثل يا سيد ياناكيه.

وليحفظك الله.

الرسالة كانت مكتوبة على آلة كاتبة هذه المرة، ولكن التوقيع هو الرسم نفسه بحبر أزرق كما في الرسائلتين السابقتين: رسم عنكبوت بخمس قوائم طويلة مع نقطة في المنتصف تمثّل الرأس.

- هل تشعر بتوعك يا دون فيليثيتو؟ لا تقل لي إنها واحدة أخرى من تلك الرسائل - ألحت السكريتيرة.

كان رئيسها قد أنزل ذراعيه، ويبدو أنه قد باعد بين ساقيه وهو جالس على كرسيه. وجهه شاحب، وعي睛اه مصوّبتان إلى قطعة الورق. وأخيراً هز رأسه موافقاً ورفع يده إلى فمه، في إشارة لها للاحتفاظ بالصمت. الناس الذين يملؤون المحل لم ينتبهوا. طلب منها كأس ماء شربه ببطء، باذلاً الجهد للتحكم بالاضطراب الذي سيطر عليه. كان يشعر بقلبه مضطرباً وبأنه يتنفس بصعوبة. لم يتراجع أولئك القوادون طبعاً، وسيستمرون بالطبع في موضوعهم. ولكنهم يخطئون إذا كانوا يظنون أن فيليثيتو ياناكيه سيسمح لهم بذلك ذراعه. كان يشعر بغضب، بحدق، بسخط يجعله يرتجف. ربما كان ميغيل وتيبورثيو على حق. ليس في مسألة الخارس الشخصي طبعاً، فهو لن يهدى نقوده في هذا الشأن. ولكنهما ربما كانوا على حق في موضوع المدس. فليس هنالك ما

يسعده في هذه الحياة أكثر من تصفية أولئك البراز إذا ما صاروا في متناول يده. خرقةتهم بالرصاص، بل والبصاق على جثثهم. عندما هداً قليلاً، ذهب ماشياً بسرعة إلى مفوضية الشرطة، ولكن النقيب سيلفا والرقيب ليتوما لم يكونا هناك. لقد خرجا لتناول الغداء وسيرجعان في حوالي الرابعة عصراً. جلس في أحد مقاهي جادة سانتشيث سيرو، وطلب مشروباً غازياً بارداً. اقتربت منه سيدتان لصافحته. إنهما تقدرانه، فهو نموذج ولهم لجميع أهالي بيورا. وودعتاه وهما تباركانه. شكرهما بابتسامة. وفكّر: «الحقيقة أنني لا أشعر الآن بأنني بطل أو أي شيء أقل من ذلك بكثير. بل أقرب إلى أن أكون أبلهاً، تافهاً في مهب الريح، هذا هو ما أنا عليه. فهم يلعبون بي على هواهم بينما أنا لا أحل ولا أربط شيئاً في المسألة المعقّدة».

في طريق عودته إلى المكتب ماشياً ببطء على أرصفة الشارع العالية، وسط صخب المتوكسي والدراجات النارية والمشاة، ووسط قنوطه، أحس برغبة مفاجئة وهائلة في رؤية مابيل. رؤيتها، تبادل الحديث معها، وربما سيشعر شيئاً فشيئاً بالرغبات تأتيه، فيفرق لدقائق في تهيج يدوخه و يجعله ينسى الحريق، والمشاكل مع التأمين التي يتولاها المحامي كاسترو بوسو، ورسالة العنكبوت الجديدة. وربما يتمكن، بعد أن يستمتع، من النوم قليلاً بهدوء، وسعادة. لا يتذكر أنه، خلال هذه السنوات الثمانى الفائتة، قد انقض فجأة وفي منتصف النهار على بيت مابيل الصغير، فدائماً يذهب عند الغروب وفي الأيام المتفق عليها مسبقاً معها. ولكنه يعيش أزمنة استثنائية، ويمكن له أن يكسر العادات. كان متعباً، وكان الجو حاراً، فذهب في سيارة أجرة بدل الذهاب ماشياً. حين ترجل، في شارع كاستيا، رأى مابيل عند باب بيتها. أهي خارجة أم عائدة؟ ظلت تنظر إليه متفاجئة.

- أنتَ في هذه الأنجاء؟ - قالت له على سبيل التحية - واليوم؟ وفي هذا الوقت؟

- لم أشاً إزعاجك - اعتذر فيليثيتو - إذا كان لديك أي التزام فسوف أذهب.

- لدى التزام واحد، ولكنني أستطيع إلغاءه - ابتسمت له مابيل وهي تخرج من وقع المفاجأة - ادخل، ادخل. انتظرني لحظة، سأرتب الأمر وأرجع.

لاحظ فيليثيتو أنها منزعجة على الرغم من كلماتها اللطيفة. أيكون قد وصل في لحظة غير مناسبة. ربما كانت ستخرج من أجل المشتريات. لا، لا. على الأغلب أنها كانت خارجة للقاء صديقة، والتمشي معها قليلاً وتناول الغداء معاً. أو ربما كان ينتظراها رجل شاب، مثلها، يروق لها وتلتقي به خفية. أحس بوخزة غيرة وهو يتخيل مابيل ذاهبة للقاء مع عشيق. شخص يعرinya ويجعلها تصرخ. لقد أحبط خططهما. أحس بتيار شهوة، بدغدغة بين ساقيه، ببداية انتصاب. هيا، بعد كم من الأيام؟ كانت مابيل جميلة هذا الصباح، بذلك الثوب الأبيض الذي يكشف عن ذراعيها وكتفيها، وذلك الحذاء ذي الكعب الرفيع، وهي مسرحة الشعر جيداً، عيناها وشفتها ممكية. أيكون لديها صديق؟ كان قد دخل إلى البيت وخلع عنه الجاكيت وربطة العنق. حين رجعت مابيل وجدته يعيد مرة أخرى قراءة رسالة العنكبوت. لقد غادرها الإنزعاج . فهي تبدو الآن باسمة ومحبة مثلاً اعتادت أن تبدو معه دوماً.

- تلقيتُ رسالة أخرى هذا الصباح - اعتذر فيليثيتو وهو يقدمها إليها - أحسستُ بنوبة غضب عارمة. وفجأة راودتني رغبة في رؤيتها. لهذا أنا هنا يا حبي. اعذرني لأنقضاضي عليك هكذا، دون إشعار مسبق. آمل ألا تكون قد عطلت لك أي مشروع.

- إنك في بيتك يا عجوزي - ابتسمت له مابيل مجدداً - يمكنك المجيء متى تشاء. ولم تعطل لي أي مشروع. كنت ذاهبة إلى الصيدلية لشراء بعض الأدوية.

تناولت الرسالة، جلست إلى جانبه، ومع تقدمها في القراءة كانت ملامحها تكتسي بالمارأة. غطت وجهها سحابة.

- أي إن العينين لا يتوقفون - هتفت بجدية كبيرة - ماذا ستفعل الآن؟

- ذهبت إلى مفوضية الشرطة ولكن الشرطيين غير موجودين. سيعودان عصرًا. لست أدرى لماذا لا يفعل هذان البليدان شيئاً. إنهم يهدهداني، هذا هو الشيء الوحيد الذي يفعلانه. يهدهداني بالكلام الفارغ.

- أي إنك جئت لأهيجك قليلاً - رفعت مابيل من معنوياته مبتسمة - أليس صحيحاً يا عجوزي؟

مرت بيدها على وجهه وأمسكته وقبلته.

- فلنذهب إلى الغرفة يا مابيل - همس في أذنها - لدى رغبة كبيرة، الآن بالذات.

- حسن، حسن، هذا ما لم أكن أنتظره - عادت تضحك متصنة حرکات - في مثل هذا الوقت؟ أكاد لا أتعرف إليك يا عجوزي.

- سترين - قال وهو يعانقها ويقبلها من عنقها، ويشمها - يا لرائحتك الزكية يا حبي. إنني أبدل عاداتي، أستعيد الشباب، تشي غوا.

انتقلإلى غرفة النوم، تعرضاً ومارساً الحب. كان فيليبشيتو متھيجاً إلى حد أنه بلغ النشوة فور دخوله فيها. ظل معانقًا إياها، يداعبها بصمت، يلعب بشعرها، يقبل رقبتها وجسدها، يعضض حلمتيها، يدغدغها، يتلمسها.

- كم أنت حنون يا عجوزي - أمسكته مابيل من أذنيه، ونظرت إلى عينيه عن قرب - سوف تقول لي في أي يوم من هذه الأيام إنك تحبني.
- أولم أقل لك هذا مرات كثيرة يا مجنونتي الصغيرة؟
- تقوله لي وأنت متھیج، وهذا لا نفع فيه - عاتبته مابيل مداعبة - ولكنك لم تقله لي قبل أو بعد قط.
- سأقوله لك الآن إذاً بعدها لم أعد متھیجاً. أنا أحبك كثيراً يا مابيليتا. أنت المرأة الوحيدة التي أحببتها حقاً.
- أتحبني أكثر من سيسيليا باراسا؟
- هي مجرد حلم وحسب، إنها حكايتها عن الحوريات - قال فيليثيو ضاحكاً - أما أنتِ فحبي الوحيد في دنيا الواقع.
- سأصدق كلامك يا عجوزي. بعثرت شعره وهي تكاد تموت من الضحك.

تبادل الحديث لبعض الوقت وهم مستلقيان على السرير، بعد ذلك نهض فيليثيو، اغتسل وارتدى ملابسه. رجع إلى ناريهوala للنقل وظل يدير شؤون المكتب لفترة لا بأس بها من بعد الظهر. وعند خروجه، مرّ مجدداً على المفوضية. كان المفوض والرقيب هناك، استقبلاه في مكتب أولهما. ودون أن يقول لهما كلمة واحدة، قدم إليهما رسالة العنكبوت الثالثة. قرأها النقيب سيلفا بصوت عال، متھيجاً الكلمات، أمام نظرات الرقيب ليتوما المتيقظة الذي كان يستمع وهو يداعب دفترًا بيده الممتثلة.

- حسنُ، كل شيءٍ يجري مثلما هو متوقع - أكد النقيب سيلفا حين انتهى من القراءة. كان يبدو راضياً عن توقعه لكل ما يجري - إنهم لا يسمحون بلي ذراعهم، كما هو متوقع. إصرارهم هذا سيكون سبب دمارهم، لقد قلت ذلك من قبل.

- أَيْجَبُ عَلَيَّ أَنْ أَبْدِي السُّعَادَةَ إِذَاً؟ - سَأَلَهُ فِيلِيثِيتُو سَاخِرًا - لَمْ يَكْتُفُوا بِإِحْرَاقِ مَكْتَبِيِّ، بَلْ يَلْاحِقُونِي بِإِرْسَالِ رَسَائِلٍ مَغْفَلَةَ، وَيَقْدِمُونَ لِي إِلَيْنِي إِنذارًا لِأَسْبُوعَيْنِ، وَيَهْدِدُونِي بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْحَرِيقِ. أَجِيءُ إِلَى هَذَا فَتَقُولُونَ لِي إِنْ كُلَّ شَيْءٍ يَجْرِي فِي مَسَارِهِ الْمُتَوَقِّعِ. الْحَقِيقَةُ أَنَّكُمْ لَمْ تَتَقْدِمُوا مِيلِيمْتَرًا وَاحِدًا فِي تَحْرِيَاتِكُمْ بَيْنَمَا أَبْنَاءُ الْعَاهِرَةِ هُؤُلَاءِ يَفْعَلُونَ بِي مَا يَحْلُو لَهُمْ.

- مَنْ يَقُولُ إِنَّا لَمْ نَتَقْدِمْ؟ - احْتَجَ النَّقِيبُ سِيلِفَا وَهُوَ يَوْمَئِي بِيَدِيهِ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ - لَقَدْ تَقْدَمْنَا كَثِيرًا. فَحَتَّى إِلَيْنَا تَوَصَّلْنَا إِلَى اسْتِبْعَادِ أَنْ يَكُونَ هُؤُلَاءِ مِنْ إِحْدَى الْعَصَابَاتِ الْمُلْعُوفَةِ فِي بَيْورَا بِمَطَالِبِهِمْ بِإِتَّاواتِ مِنَ التَّجَارِ. ثُمَّ إِنَّ الرَّقِيبَ لِيَتَوْمَأْ وَجْدَ شَيْئًا يَمْكُنُ أَنْ يَكُونَ طَرْفَ خَيْطٍ جَيْدًا.

قال ذلك بطريقة صدقها فيليثيتو على الرغم من حسه الارتيابي.  
- طرف خيط؟ حقاً؟ أين؟ ما هو؟

- مَا زَالَ الْوَقْتُ مِبْكَرًا لِإِطْلَاعِكَ عَلَيْهِ. وَلَكِنَّ التَّوْصِلَ إِلَى شَيْءٍ صَغِيرٍ يُعَدُّ إِنْجَازًا. سَتَعْلَمُ بِالْأَمْرِ فُورًا تَأكِّدُنَا مِنْ تَحْدِيدِهِ. صَدِقْنِي يَا سِيدَ يَانَاكيهِ. إِنَّا مُسْتَغْرِقُونَ فِي قَضِيَّتِكَ جَسْداً وَرُوحًا. نَكْرِسُ لَهَا وَقْتًا أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ مَا عَدَاهَا. إِنَّكَ أَوْلَى أُولُويَاتِنَا.

أَخْبَرُهُمَا فِيلِيثِيتُو أَنَّ أَبْنَيْهِ، بِسَبِّبِ قَلْقَهُمَا، اقْتَرَحَا عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَاقِدَ مَعَ حَارِسِ شَخْصٍ وَأَنَّهُ رَفِضَ ذَلِكَ. وَاقْتَرَحَا عَلَيْهِ كَذَلِكَ أَنْ يَشْتَرِي مَسْدِسًا. مَا رَأَيْكُمَا؟

- لَا أَنْصَحُكَ بِذَلِكَ - أَجَابَهُ النَّقِيبُ سِيلِفَا عَلَى الْفُورِ - يَجِبُ حَمْلُ الْمَسْدِسِ فَقَطْ عِنْدَمَا يَكُونُ الْمَرْءُ مُسْتَعْدًا لِاستِخْدَامِهِ، وَلَا يَبْدُو لِي أَنَّ حَضْرَتَكَ قَادِرٌ عَلَى قَتْلِ أَحَدٍ. سَتَعْرَضُ نَفْسَكَ لِلْخَطَرِ دُونَ فَائِدَةٍ يَا سِيدَ يَانَاكيهِ. وَالْأَمْرُ لَكَ فِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ. وَإِذَا كُنْتَ، بِالرَّغْمِ مِنْ نَصِيْحَتِيِّ،

تريد ترخيصاً بحمل سلاح، فسوف نسهل لك الإجراءات. خذ وقتاً للتفكير، إنني أنبهك. سيكون عليك أن تجتاز اختباراً سيكولوجيأً. وباختصار، ناقش الأمر مع وسادتك.

وصل فيليثيتو إلى بيته بعد أن خيم الظلام وبدأت الجداجد تغنى وضفادع الحديقة تتنق. تناول على الفور طبقاً من مرق الدجاج، وسلطة، وهلاماً قدمته إليه ساتورنينا. وبينما هو متوجه إلى الصالة الصغيرة لمشاهدة الأخبار في التلفزيون، لاحظ أن تلك الهيئة الصامتة والمحركة التي هي خيرتروديس تقترب منه. وكانت تحمل جريدة في يدها.

- المدينة بأسرها تتحدث عن هذا الإعلان الذي نشرته في «التييمبو» - قالت امرأته وهي تجلس على المبعد المجاور لمقعده - حتى الكاهن، في قداس الصباح، أتى على ذكره في عظه. ببورة بأسرها قرأته. باستثنائي أنا.

- لم أشاً أن أسبب لك القلق، لهذا لم أقل لك شيئاً - اعتذر فيليثيتو - ولكن هاهو معك. لماذا لم تقرئيه إذا؟

لاحظ أنها تتململ في المبعد بضيق، وتشيح بصرها عنه.

- لقد نسيت - سمعها تقول من بين أسنانها - لأنني لا أقرأ أبداً، بسبب نظري، لم أعد أميز ما أقرأ. الحروف تتراقص أمام نظري. - عليك أن تذهب إلى طبيب العيون كي يفحص بصرك إذا - نبهها - وكيف يمكن أن تكوني قد نسيت القراءة، لا أظن أن هذا يحدث لأحد يا خيرتروديس.

- ولكنه يحدث لي - قالت - أجل، سأذهب لفحص بصري في أحد هذه الأيام. لا يمكنك أن تقرأ لي ما نشرته في «التييمبو»؟ طلبت ذلك من ساتورنينا ولكنها لا تعرف القراءة أيضاً.

قدمت إليه الجريدة، وبعد أن وضع فيليثيتو النظارة، قرأ:

## السادة مبتزو العنكبوت :

على الرغم من أنكم أحرقتم مكتب نارييهوالا للنقل، الشركة التي أقمتها بالجهد الشريف طوال حياتي، فإني أخبركم أمام الملأ بأنني لن أدفع لكم الإتاوة التي تطلبونها لتوفروا لي الحماية. أفضل أن تقتلوني قبل أن أفعل ذلك. لن تتلقوا مني سنتاً واحداً، لأنني أرى أننا نحن الأشخاص الشرفاء، العاملون والمحترمون، يجب علينا ألا نخاف أمثالكم من قطاع الطرق واللصوص، وإنما علينا مواجهتهم بحزم إلى أن نرسلهم إلى السجن، حيث يستحقون أن يكونوا.

أقول هذا وعليه أوقع :

فيليسيتو ياناكيه (وليس لي اسم عائلي من جهة الأم). ظلت الحزمة الأنثوية ثابتة لبعض الوقت، تجتر ما انتهت من سماعه. وأخيراً دمدمت :

- صحيح ما قاله الكاهن في عظته إذاً. أنت رجل شجاع يا فيليسيتو. فليشعلنا شفيينا السيد الكاوتيبو برحمته. إذا ما خرجنا من هذه المحنّة، سوف أذهب إلى أيا باكا لأصلّي له في عيده، في الثاني عشر من تشرين الأول / أكتوبر القادم.

## VI

- لا توجد أية قصة هذه الليلة يا ريفوبيرتو - قالت لوكريثيا عندما اضطجعا وأطفأا النور. وكان في صوت زوجته رنة قلق.

- وأنا أيضاً لست مستعداً للتخيلات هذه الليلة يا حبي.

- هل حصلت أخيراً على أخبار عنهما؟

هز ريفوبيرتو رأسه مؤكداً. وبعد سبعة أيام من زواج إسماعيل وآرميدا، أمضى هو ولوكريثيا الأسبوع كله في قلق، ينتظران رد فعل الضبعين على ما حدث. ولكن كل يوم كان ينقض دون حدوث أي شيء. إلى أن حدث واتصل محامي إسماعيل، الدكتور كلاوديو أرنبياس، بريفوبيرتو قبل يومين ليحذره. لقد تحري التوeman وتوصلا إلى أن مراسم الزواج المدني قد أقيمت في مقر عمدة تشوريبوس، وصارا يعرفان وبالتالي أنه أحد الشاهدين على الزواج. يجب أن يكون مستعداً، فقد يتصلان به في أي لحظة.

فعلا ذلك بعد بعض ساعات.

- طلب ميكى وإسكوبيتا موعداً، واضطررت إلى تحديد موعد لهم - ثم أضاف - سياتيان غداً. لم أخبرك بالأمر فوراً كيلا أمرر يومك يا لوكريثيا. ستنقض علينا المشكلة. آمل أن نخرج من هذا القضية وكل عظامنا سليمة على الأقل.

- أتدري يا ريفوبيرتو؟ لست مهتمة كثيراً بأمرهما، فنحن نعرف

مبقاً أن هذا سيحدث. وكنا ننتظره، أليس صحيحاً؟ لا بد لنا من تجربة تلك الكأس المرة، لا مهرب – ثم غيّرت زوجته الموضوع – زواج إسماعيل وهياج قاطعيّ الطريق لا يهمني مقدار ذرة الآن، فما يقلقني ويعنوني من النوم هو موضوع فونتشيتتو.

– أهو ذلك الشخص مرة أخرى – ذُعر ريفوبيرو – هل عادت إليه الرؤى؟

– لم تتوقف قطّ يا بني – ذكرته لوكريثيا بصوت منكسر – ما يحدث، على ما أعتقد، أن الصبي لم يعد يخبرنا شيئاً لأنّه صار لا يثق بنا. وهذا هو أكثر ما يقلقني. ألا ترى كيف هي حال المسكين؟ إنه كثيّب، ساه، منغلق على نفسه. لقد كان يخبرنا بكل شيء من قبل، ولكنني الآن أخشى من أنه يخفي الأمور عنا. ولهذا ينهشه الفم حياً. ألا تلاحظ ذلك؟ من كثرة تفكيرك في الضبعين، لم تلحظ كم تبدل ابنك خلال هذه الشهور. إذا لم نتصرف بسرعة، قد يصيّبه مكروه، فنندم طيلة ما تبقى من حياتنا. ألا ترى ذلك؟

– إنني أراه جيداً – تقلب ريفوبيرو تحت ملاءات الفراش – المسألة هي أنني لا أعرف ما الذي يمكننا عمله أكثر مما فعلناه. إذا كنت تعرفين، أخبريني به وسنفعله. أنا لم أعد أعرف المزيد. لقد أخذناه إلى أفضل طبيبة نفسية في ليما. وتحدثت مع أساتذته، وفي كل يوم أحاول تبادل الحديث معه وكسب ثقته من جديد. أخبريني ما الذي تريدينني أن أفعله وسأفعله. إنني قلق مثلك على فونتشيتتو يا لوكريثيا. أتظننين أنني غير مهم بأمر ابني؟

– أعرف، أعرف – وافقته – لقد خطر لي... في نهاية الأمر... لا أعرف... لا تضحك مني... إنني مشوشة جداً لما يحدث له، باختصار... حسن، إنها فكرة... لا شيء سوى مجرد فكرة.

- أخبريني بما يخطر لك وستفعله يا لوكريثيا. أي شيء، وسأ فعله، أقسم لك.

- لـاذا لا نتحدث مع صديقك... الأب أودونوفان. أخيراً... لا تضحك، لستُ أدرى.

- أتريدينني أن أذهب للتحدث مع كاهن في هذه القضية؟ - فوجئ ريفوبيرتو. وأطلق قهقة قصيرة - لماذا؟ كي يُخرج الشياطين من فونتشيتو؟ أتأخذين مزحة الشيطان على محمل الجد؟

لقد بدأ ذلك منذ عدة شهور، ربما منذ سنة مضت، وبأشد الطرق ابتدأاً. خلال عشاء نهاية الأسبوع. روى فونتشيتو لأبيه وزوجة أبيه، كمن هو غير راغب، وكما لو أن الأمر ليس مهمّاً، عن لقائه الأول مع ذلك الشخص.

- أنا أعرف ما اسمك - قال له ذلك السيد مبتسمًا بلطف من المنضدة الجانبية - اسمك إبليس.

ظل الصبي ينظر إليه متفاجئاً، دون أن يدرى ما يمكنه أن يقول. كان يتناول زجاجة إنكاكولا من فم القارورة مباشرة، وحقيقة المدرسة على ركبتيه، وقد انتبه في تلك اللحظة إلى حضور ذلك السيد في المقهى الصغير المنعزل في متنه بارانكو، غير بعيد عن البيت. كان سيداً ذا صدغين فضيئين، وعيينين باسمتين، نحيلًا جداً، يلبس بتواضع، ولكن بتناقض شديد. فهو يرتدي كنزة بنفسجية تتخللها أشكال مُعينات بيضاء، تحت سترة رمادية. وكان يتناول فنجان قهوة في رشفات صغيرة.

- لقد منعتك منعاً حاسماً من التكلم مع الغرباء في الشارع يا فونتشيتو - ذكره دون ريفوبيرتو - هل نسيت ذلك؟

- أسمي ألفونسو، وليس إبليس، أجا به، وأصدقائي ينادونني فونتشو.

- أبوك يقول لك هذا من أجل مصلحتك يا صغيري - تدخلت زوجة أبيه -. فلا أحد يدرى أبداً من هم أولئك الأشخاص الذين يتقررون للتحدث مع التلاميذ عند أبواب المدارس.  
- إما أنهم يبيعون مخدرات، أو أنهم خاطفون أو مغتصبو قاصرين.  
لهذا يجب عليك أن تتوكخي الحذر.

- يجب أن تغير اسمك إلى إبليس إذاً - ابتسم له ذلك السيد. وكان صوته البطيء والمذهب ينطق كل كلمة بدقة أستاذ في النحو. وجهه الطويل وبارز العظام يبدو أنه قد حلق للتو. «أقسم لك إنه كان يبدو شخصاً شديداً الاستقامة يا بابا». - أتعرف ما الذي يعنيه إبليس؟  
نفي فونتشيتو بحركة من رأسه. «إبليس، أقال لك هذا؟»، أبدى رينغوبيرتو اهتماماً. «أقلت إبليس؟».

- إنه من يحمل النور، حامل النور - أوضح ذلك السيد بهدوء. «كان يتكلم كما في كاميلا بطيئة يا بابا». وهذا يعني أنك فتى وسيم جداً. عندما تكبر، ستجن بك جميع فتيات ليما. ألم يعلمونك في المدرسة من هو إبليس؟

- إنني أراه يقترب، وأتخيل جيداً ما الذي يسعى إليه - دمدم دون رينغوبيرتو وهو يولي الآن اهتماماً كبيراً لما ي قوله ابنه.  
عاد فونتشيتو إلى النفي بحركة من رأسه.

- كنت أعرف أنه على الذهاب بأسع ما يمكن، إنني أتذكر جيداً كم من المرات قلت لي إنه علينا عدم تبادل الأحاديث مع مجھولين، مثل هذا السيد الذي حاول تعليمي يا بابا - أوضح مومناً بيديه - ولكن، أقول لك، كان فيه شيء، في أساليبه، في طريقةه بالكلام، لا يبدو معه أنه شخص سيئ. ثم إن الفضول لسعني. في المدرسة ماركمام لم يحدثونا، على ما أذكر، عن إبليس.

- لقد كان أجمل الملائكة، الملائكة المفضل لدى الرب هناك في الأعلى  
- لم يكن يمزح، كان يتكلم بجدية تامة، مع ظل ابتسامة حانية في وجهه جيد الحلاقة؛ ويشير بإصبعه إلى السماء - ولكن إبليس، لعرفته أنه باهر الجمال، تكبر، ارتكب خطيئة التكبر. أحس أنه مثل الرب، وليس أقل من ذلك. تصور. عندئذ عاقبه الرب، وتحول من ملاك النور ليصبح أمير الظلمات. هكذا بدأ كل شيء: التاريخ... ظهور الزمن والشر... الحياة البشرية.

- لم يكن يبدو كاهناً يا بابا، ولا واحداً من أولئك المبشرين الإنجيليين الذين يوزعون مجلات دينية متنقلين من بيت إلى بيت. وقد سأله: «هل أنت أب أيها السيد». «لا، لا، كيف أكون كاهناً يا فونتشيتو، لا أدرى لماذا يخطر لك مثل هذا الخاطر». وانفجر ضاحكاً.

- لقد كان تهوراً منك التحدث معه، قد يكون لحق بك حتى هنا - أنبته دونيا لوكريثيا وهي تداعب جبهته - عليك أن تعدني بألا تفعل ذلك أبداً، أبداً يا صغيري.

- يجب أن أذهب إليها السيد - قال فونتشيتو وهو ينهمض - إنهم ينتظرونني في البيت.

لم يحاول السيد استبقاءه. ابتسم له بطريقة أكثر انفتاحاً، على سبيل الوداع، وانحنى له باحترام، ولوح بيده.

- أنت تعرف جيداً من يكون، أليس كذلك؟ - كرر ريفوبيرتو - إنه منحرف. مُغَرِّر بالقاصرين. أظن أنك تعرف ما الذي يعنيه هذا، لست بحاجة لأن أشرح لك ما يعنيه. لقد كان يستدرجك طبعاً. لوكريثيا على حق. فقد أساءت التصرف بالرد عليه. كان عليك أن تغادر فور بدئه الكلام معك.

- لم يبدُ لي أنه شاذ يا بابا - طمأنه فونتشيتو - أقسم لك. فالشاذون

الذين يمضون بحثاً عن الصبيان أعرفُهم فوراً، من طريقتهم في النظر. حتى قبل أن يفهوا فهم، أقول لك بجد. ولأنهم يحاولون دوماً تحسسي. هذا كان مختلفاً تماماً، إنه رجل مؤدب، مهذب جداً. لا يبدو أن لديه نوايا سيئة حقاً.

- هؤلاء هم الأسوأ يا فونتشيتو - أكدت له دونيا لوكريشيا بذعر صريح  
- من يبدون أشبه بذبابة ميتة، من لا يبدو عليهم، ولكنهم كذلك.  
- قل لي يا بابا - غير فونتشيتو الموضوع - ذلك الكلام الذي أخبرني به السيد عن الملائكة إبليس، فهو صحيح؟

- حسن، هذا ما يقوله الكتاب المقدس - تردد دون ريفوبيرتو -. إنه صحيح في نظر المؤمنين على أي حال. من الغريب أنهم في مدرسة ماركهام لا يجعلونكم تقرؤون الكتاب المقدس، كثقافة عامة على الأقل. ولكن دعنا لا نخرج عن الموضوع. أكرر لك مرة أخرى يا بني. معنـعـ منعاً باتاً أن تقبلـ أخذـ أيـ شيءـ منـ غربـاءـ. لاـ دعـواتـ، ولاـ أحـادـيثـ، ولاـ أيـ شيءـ. لقد فهمـتـ ماـ أقولـهـ، أليـسـ كذلكـ؟ـ أمـ أنـكـ تـريدـ أنـ أـمنعـكـ منـ الخـروـجـ إـلـىـ الشـارـعـ بـتـاتـاـ؟ـ

- لقد كبرت على هذا يا بابا. لقد صار عمري خمس عشرة سنة، أرجوك.

- أجل، لقد صرتَ بعمر نوح - ضحكت دونيا لوكريشيا. ولكن ريفوبيرتو سمعها تنهـدـ علىـ الفـورـ فيـ الـظـلامـ - لوـ أـنـناـ عـرـفـناـ إـلـىـ أـينـ سـيـؤـديـ ذـلـكـ المـوـضـوعـ كـلـهـ. ياـ لـلـكـابـوسـ، رـبـاهـ. إـنـهـ مـسـتـمـرـ مـنـذـ سـنـةـ عـلـىـ مـاـ أـقـدـرـ .  
- سنـةـ أوـ أـكـثـرـ قـلـيلـاـ ياـ حـبـيـ.

لقد نسي ريفوبيرتو تقريباً حادثة الغريب الذي تكلم مع فونتشيتو عن إبليس، في مقهى متنزه بارانكو. ولكنه بدأ يتذكره ويقلق بعد أسبوع

من ذلك، عندما رجع ابنه، حسب ما قال له — للعب مباراة كرة قدم في مدرسة سان أغوسطين، وعاد ذلك السيد للظهور.

— كنتُ خارجاً بعد أن أخذت دوشأً في حمامات سان أغوسطين، وكنت ذاهباً للقاء تشاتو بيثولو كي نركب معاً الحافلة إلى بارانكو. وحتى لو كنت لا تصدق، كان هو هناك يا بابا. إنه السيد نفسه. هو بالذات.

— مرحباً يا إيليس — حياة السيد بالابتسامة الودودة كما في المرة السابقة — هل تتذكرني؟

كان جالساً في البهو الفاصل بين ملعب كرة القدم وبوابة مدرسة سان أغوسطين. ومن خلفه يظهر الأفعوان الطويل الذي تشكله السيارات والشاحنات والحافلات المتقدمة من جادة خابير برادو. وكانت بعض السيارات تضيء مصابيحها.

— أجل، أجل أتذكرك — قال فونتشيتو وهو ينهض. وقال له بنبرة حاسمة: — بابا منعني من التحدث إلى غرباء، اعذرني.

— لقد أحسن ريفوبيرتو صنعاً — قال السيد وهو يهز رأسه. وكان يلبس السترة الرمادية نفسها التي في المرة السابقة، ولكن الكنزة البنفسجية كانت واحدة أخرى، من دون الأشكال المعينية البيضاء — ليما تغض بالناس الأشرار. هنالك منحرفون ومنحطون في كل مكان. والصغرى المهدبون من أمثالك هم هدفهم المفضل.

فتح دون ريفوبيرتو عينيه على اتساعهما:

— ذكر اسمي أنا؟ أقال لك إنه يعرفني؟

— وهل تعرف أبي أيها السيد؟

— وأعرف أيضاً إلويسا، أمك — أكد السيد مبدياً الجدية — وأعرف كذلك لوكريثيا، زوجة أبيك. لا يمكنني القول إننا أصدقاء، لأننا لم

نزلق إلا نادراً. ولكنني أعجبتُ بكليهما، ومنذ أن رأيتهما أول مرة بدياً لي ثنائياً رائعاً. يسعدني أن أعلم أنهما يهتمان بك كثيراً ويقلقان عليك. فصبي في مثل جمالك لن يكون آمناً في سدوم وعمورة التي صارت إليها مدينة ليماء.

- أيمكنك أن تخبرني ما تعنيه سدوم وعمورة هذه يا بابا؟ سأل فونتشيتو ولح ريفوبيرتو في عينيه بريقاً ضئيلاً من الخبر.

- إنهم مدینتان قديمتان، فاسدتان جداً، ولأنهما كذلك أبادهما الله - أجاب ساهماً -. هذا ما يؤمن به المؤمنون على الأقل. عليك أن تقرأ الكتاب المقدس قليلاً يابني. كثافة عامة. العهد الجديد على الأقل. فالعالم الذي نعيش فيه يغص بالإشارات التوراتية وإذا لم تفهمها ستعيش في بلبلة وجهل كاملين. لن تفهم، مثلاً، أي شيء من الفن الكلاسيكي، ومن التاريخ القديم. أنت متأكد من أن ذلك الشخص قال لك إنه يعرف لوكريثيا ويعرفني؟

- وقال إنه عرف أمي أيضاً - حدد فونتشيتو -. حتى إنه أخبرني باسمها: إليوسا. وكان يقول ذلك بطريقة من المحال معها عدم تصديق أن ما ي قوله هو الحقيقة يا بابا.

- أقال لك ما هو اسمه؟

- حسنُ، لم يقل هذا - ارتبك فونتشيتو -. لم أسأله ولم أتح له الوقت حتى لأن يقوله لي. بما أنك أمرتني بـلا أتكلم ولو كلمة واحدة معه. فقد هربتُ راكضاً. ولكن من المؤكد أنه يعرفك، أنه يعرفكما. وإلا لما كان أخبرني باسمك، ولما كان يعرف اسم أمي، وأن زوجة أبي تدعى لوكريثيا.

- إذا ما صادف والتقيت به مرة أخرى، لا تنسَ أن تسأله عن اسمه - قال ريفوبيرتو، وهو يمعن النظر في الصبي بعدم ثقة: أهذا الذي يرويه

لهمَا صَحِيقٌ أَمْ إِنَّهُ اخْتِلَاقٌ آخَرُ مِنْ اخْتِلَاقَاتِهِ؟ - . وَلَكِنْ دُونَ أَنْ تَتَوَقَّفَ لِتَبَادِلَ الْحَدِيثَ مَعَهُ، وَأَقْلَ منْ ذَلِكَ أَنْ تَقْبِلَ مِنْهُ كُوكَاكُولاً أَوْ أَيْ شَيْءٍ آخَرَ يُعْرَضُهُ عَلَيْكَ. فَفِي كُلِّ مَرْأَةٍ أَزْدَادٌ قُنَاعَةٌ بِأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْ أُولَئِكَ الْمُنْحَطِّينَ الَّذِينَ يَمْضُونَ طَلَقاً فِي لِيْمَا بَحْثاً عَنْ فَتِيَّةٍ صَغَارٍ. وَإِلَّا مَا الَّذِي يَفْعَلُهُ فِي مَدْرَسَةِ سَانْ أَغْوِسْطِينَ.

- أَتَرِيدُ أَنْ أَخْبُرَكَ أَمْرًا يَا رِيغُوبِيرْتُو؟ - قَالَتْ لَهُ دُونِيَا لُوكَريَشِيا وَهِيَ تَلْتَصِقُ بِهِ فِي الظَّلَامِ، كَمَا لَوْ أَنَّهَا تَقْرَأُ أَفْكَارَهُ - . فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَفْكَرَ فِي أَنْ هَذَا كُلُّهُ مِنْ اخْتِلَاقِهِ. إِنَّهُ أَمْرٌ نَمُوذِجِيٌّ فِي فُونْتَشِيتُو وَتَخْيِيلَتِهِ. لَقَدْ فَعَلَ بِنَا مُثْلُ هَذِهِ الظَّرَافَاتِ مِنْ قَبْلِهِ، أَلِيْسَ كَذَلِكَ؟ وَأَقُولُ لِنَفْسِي إِنَّهُ يَجِبُ عَدْمُ الْقَلْقِ، وَأَنَّ ذَلِكَ السَّيِّدَ لَا يَجُودُ لَهُ وَلَا يَمْكُنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَجُودٌ. وَأَنَّهُ اخْتِلَقَ كَيْ يَضْفِي اهْتِمَاماً عَلَى نَفْسِهِ وَيَقْلِقُنَا وَيَجْعَلُنَا نَتَعَلَّقُ بِهِ. لَكِنَّ الْمُشَكَّلَةَ أَنَّ فُونْتَشِيتُو مُخَادِعٌ عَظِيمٌ. لَأَنَّهُ حِينَ يَرْوِي حَكَايَاتَهُ، يَبْدُو لِي أَنَّهُ مِنَ الْمُحَالِّ أَنْ يَكُونَ مَا يَقُولُهُ غَيْرُ صَحِيقٍ. إِنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِطَرِيقَةٍ بِالْحَقِيقَيْةِ، بِالْغَةِ الْبَرَاءَةِ، بِالْغَةِ الإِقْنَاعِ. وَبِالْخَتْصَارِ، لَسْتُ أَدْرِي. أَلَا تَفْكِرُ فِي مُثْلِ هَذَا أَيْضًا؟

- بَلِي بِالْطَّبِيعِ، مُثْلِمَا يَحْدُثُ لَكَ - اعْتَرَفَ رِيغُوبِيرْتُو وَهُوَ يَحْتَضِنُ امْرَأَتَهُ مُتَدَفِّنًا بِجَسْدِهَا وَمَدْفَنًا إِيَاهُ - . إِنَّهُ مُخَادِعٌ عَظِيمٌ، بِكُلِّ تَأْكِيدٍ. أَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ اخْتَلَقَ كُلُّ هَذِهِ الْقَصَّةِ يَا لُوكَريَشِيا، أَرْجُو ذَلِكَ، أَرْجُو. فِي الْبَدْءِ كُنْتُ آخِذُ الْأَمْرَ بِخَفْفَةٍ، وَلَكِنْ تَلْكَ الرُّؤْيَ بَدَأَتْ تَسْيِطَرُ عَلَى تَفْكِيرِي. أَجْلَسَ لِأَقْرَأُ فِي لِهِيَنِي التَّفْكِيرَ فِي ذَلِكَ الشَّخْصِ، أَحَاوَلَ سَمَاعَ مُوسِيقِيِّ فَأَجْدَهُ هَنَاكَ، أَرِيدُ رُؤْيَةً لَوْحَاتِي، فَيَكُونُ مَا أَرَاهُ وَجْهَهُ، وَهُوَ لَيْسُ وَجْهًا وَإِنَّمَا عَلَامَةٌ اسْتَفْهَامٌ.

- الْحَقِيقَةُ أَنَّهُ لَا يَمْكُنُ لَأَحَدٍ أَنْ يَمْلِأَ أَبْدًا مَعَ فُونْتَشِيتُو - حَاوَلَتْ لُوكَريَشِيا أَنْ تَمْرَحَ - . فَلَنْحاوَلَ النَّوْمَ قَلِيلًا. لَا أَرِيدُ قَضَاءَ اللَّيْلِ سَاهِرَةً مَرَةً أُخْرَى.

مضت أيام عديدة دون أن يعود الصبي للتحدث إليهما عن الرجل المجهول. بدأ ريفوبيرتو يفكر في أن لوكريثيا على حق. وأن كل ذلك كان تخلياً من ابنه ليضفي أهمية على نفسه ويحظى باهتمامها. إلى أن جاء ذلك المساء الشتائي شديد البرودة والرذاذ، واستقبلته لوكريثيا بلامح أثارت فزعه.

- لماذا هذا الوجه - قبّلها ريفوبيرتو -. أسباب تقاعدي المبكر؟ أترى أنها فكرة سيئة؟ أترتعبين من رؤيتي طيلة اليوم هنا في البيت؟

- إنه فونتشيتو - أشارت لوكريثيا إلى الطابق السفلي حيث غرفة الطفل - جرى له شيء في المدرسة ولم يرد أن يخبرني. لقد لاحظت ذلك فور دخوله. جاء شاحباً جداً، ومرتجفاً. ظننت أنه مموم. وضعته له ميزان الحرارة، لم تكن ثمة حرارة مرتفعة. كان كالذاهل، مرعوباً ويكاد لا يستطيع الكلام. «لا، لا، لا أعني شيئاً يا خالي». يكاد صوته لا يخرج منه. اذهب وانظر ما به يا ريفوبيرتو، إنه منزوي في حجرته. فليخبرك بما حدث له. ربما علينا استدعاء الطوارئ الطبية، لم يرق لي الوجه الذي هو عليه.

«إنه الشيطان مرة أخرى»، فكر ريفوبيرتو. ونزل الدرج مسرعاً نحو الطابق السفلي من الشقة. وبالفعل، كان السبب هو ذلك الشخص مرة أخرى. قاوم فونتشيتو قليلاً في البداية - «لماذا سأخبرك مادمت لن تصدقني يا بابا» -، ولكنه استسلم أخيراً لمبررات أبيه العقلانية. «من الأفضل أن تُخرج ما لديك وتشاركني به يا صغيري. سيُشعرك إخباري بما لديك بالتحسن، سوف ترى». كان ابنه شاحباً بالفعل وفقداً تلقائيته. يتكلم كما لو أن الكلمات تُملئ عليه، أو كما لو أنه سينفجر في أي لحظة بالبكاء. لم يقاطعه ريفوبيرتو ولو مرة واحدة؛ استمع إليه دون أن يتحرك، مركزاً بالكامل على ما يسمعه.

حدث ذلك خلال استراحة الثلاثين دقيقة في مدرسة ماركهام، عند العصر، قبل موعد الدروس اليومية الأخيرة. فبدلاً من الذهاب للعب في ملعب كرة القدم، حيث كان زملاؤه يتقابلون كرة، أو يتبادلون الحديث مستلقين على العشب، جلس فونتشيتو في أحد أركان المدرجات الخاوية ليراجع درس الرياضيات الأخير، وهي المادة التي تسبب له أكبر وجع رأس. وكان قد بدأ الغوص في معادلة معقدة، ذات تفرعات وجدور تكعيبية، عندما حدث شيء - «أشبه بالحاسة السادسة يا بابا» - جعله يشعر بأنه مُراقب. رفع بصره وهناك كان السيد جالساً أيضاً، على مقربة منه، على الدرج المفترض. يلبس بالدقة والبساطة المعهودة، مع ربطة عنق وكenza بنفسجية تحت سترته الرمادية. وكان يحمل حافظة وثائق تحت إبطه.

- مرحباً يا فونتشيتو - قال له مبتسمًا بصورة طبيعية، كما لو أنهما صديقان قديمان - أنت تدرس، بينما زملاؤك يلعبون. إنك تلميذ نموذجي، وهذا تصوري عنك. مثلما يجب أن تكون.

- متى جاء وصعد الدرج؟ ما الذي يفعله هناك ذلك السيد؟ الحقيقة أنني أخذت أرتجف دون أن أدرى السبب يا بابا - ازداد شحوب ابنه قليلاً وبداً مشوشاً.

- هل حضرتك أستاذ في المدرسة أيها السيد؟ - سأله فونتشيتو مرعوباً، دون أن يدرى سبب رعبه.

- أستاذ، لا، لستُ أستاذًا - أجابه، ودوماً بذلك الهدوء وتلك الأساليب باللغة التمدن التي لا تغادره - إنني أمد يد المساعدة بين حين وآخر لمدرسة ماركهام في مسائل عملية. أقدم للمديرين نصائح من النوع الإداري. وأحب المجيء إلى هنا حين يكون الجو جيداً، لرؤيتكم أنتم التلاميذ. إنكم تذكرونني بأيام شبابي، وتشعرووني باستعادة الشباب

بطريقة ما. ولكن مسألة الجو الجيد لم تعد نافعة. يا للأسف، فقد بدأ الرذاذ يهطل.

— أبي يريد أن يعرف ما هو اسم حضرتك أيها السيد — قال فونتشيتو، وقد فوجئ بأنه يتكلف مشقة كبيرة في الكلام، وبأن صوته يرتعش بقوة — لأن حضرتك تعرفه، أليس كذلك؟ وأنت تعرف خالي أيضاً، أليس صحيحاً؟

— اسمي إديليبيرتو توريس، ولكن لا يمكن لريغوبيرتو أن يتذكرني، ولا لوكريثيا كذلك، لأننا تعارفنا بصورة عابرة جداً. أوضح السيد بقلة كلامه المعهودة. ولكنه اليوم، وخلافاً لرات أخرى، بدل أن يطمئن فوتشيتو بابتسامته المهدبة تلك، وعينيه اللطيفتين والنفذتين، جعله يشعر بالريبة.

لاحظ ريجوبيرتو أن صوت ابنه يتقطع. وأن أسنانه تصطك.

— أهداً يا صغيري، لسنا في عجلة من أمرنا. أتشعر بأنك لست على ما يرام؟ أتريد أن آتيك بكأس ماء؟ أترغب فيمواصلة رواية هذه القصة لي في ما بعد، أو غداً؟

نفي فونتشيتو بحركة من رأسه. كانت الكلمات تخرج منه بصعوبة، كما لو أن لسانه مخدر.

— أعرف أنك لن تصدق ما أقوله يا بابا، ولكن... ولكن، حدث عندئذ أمر غريب جداً.

أشاح ببصره عن أبيه وصوبيه إلى الأرض. كان يجلس على حافة السرير، وهو لا يزال مرتدياً الزي المدرسي، وشبه منكمش على نفسه، وبملامح ذاهلة. أحس دون ريجوبيرتو بموجة من الحنان والشفقة على الصغير. بدا واضحاً أنه يعاني. ولم يكن يدري كيف يساعده.

— إذا ما قلت لي إنه كلام صحيح و حقيقي، سأصدقك — قال له وهو

يمر بيده على شعره في مداعبة ليست كثيرة التواتر لديه . أنا أعرف جيداً أنك لم تكذب عليّ قطّ، وأنك لن تبدأ بفعل ذلك الآن يا فونتشيتو.

دون ريفوبيرو الذي كان واقفاً، جلس الآن على كرسي مكتب ابنه. كان يرى الجهد الذي يبذله هذا الأخير ليتكلم، ويضايقه أنه ينظر إلى الجدار، يجوب بنظره الكتب التي على الرف، متجنباً النظر إلى عينيه. وأخيراً استجمع قواه واستطاعمواصلة الكلام :

- وهكذا، بينما أنا أتحدث إلى السيد، جاء تشاتو بيثولو، صديقي الذي تعرفه، جاء راكضاً. وكان يصرخ :

- ماذا جرى لك يا فونتشيتو! لقد انتهت الفسحة، الجميع يعودون إلى الدروس. أسرع يا رجل.

نهض فونتشيتو واقفاً بقفزة واحدة.

- المعدرة، يجب أن أذهب، لقد انتهت الفسحة - ودع السيد إديلبيرتو توريس واندفع راكضاً نحو صديقه.

- استقبلني تشاتو بيثولو وهو يتصنّع تكشیرات ويتلمس رأسه كما لو أن برغياً ينقضني يا بابا.

- هل أنت مجنون أم ماذا يا صاحبي فونتشيتو؟ - سأله صديقه بينما هما يركضان نحو مبني قاعات الدرس - أيمكنني أن أعرف أية لعنة كنت تودع؟

- لا أعرف من يكون ذلك الشخص - أوضح له فونتشيتو لاهثاً - يدعى إديلبيرتو توريس ويقول إنه يساعد مدير المدرسة في أمور عملية. هل رأيته أنت هنا ذات يوم من قبل؟

- ولكن عن أي شخص تتكلّم أيها الأبله - هتف تشاتو بيثولو لاهثاً وهو يتوقف عن الركض. والتفت ناظراً إليه - ولكنك لم تكن مع أحد.

كنتَ تتكلّم مع الفراغ، مثل من في رأسهم خلل. ألا تكون قد جننت يا صاحبي؟

كانا قد وصلا إلى قاعة الدرس، ولم يعودا قادرين من هناك على رؤية ملعب كرة القدم.

- ألم تره أنت؟ - أمسكه فونتشيتو من ذراعه -. ألم ترَ ذلك السيد ذا الشيب، والسترة وربطة العنق والكنزة البنفسجية، جالساً هناك، بجانبي؟ أقسم لي بأنك لم تره يا تشاتو.

- لا تزعجي أكثر - ورفع تشاتو بيثولو إصبعه إلى صدغه مرة أخرى -. أنت مجنون تماماً، لم يكن هناك أحد سواك. إما أن تكون مجنوناً أو أنك ترى رؤى. لا تزعجي يا ألفونسو. أنت تريد الخداع، أليس كذلك؟ أؤكد لك أنك لن تستطيع خداعي.

- كنتُ أعرف أنك لن تصدقني يا بابا - همس فونتشيتو وهو يتنهد. توقف عن الكلام قليلاً ثم أكد:- ولكنني أعرف جيداً ما أراه وما لا أراه. ويمكنك أن تكون واثقاً كذلك من أنني لم أتحول إلى مجنون. فهذا الذي أخبرك به هو ما حدث. وقد حدث هكذا بالضبط.

- حسن، حسن - حاول ريفوبيرتو تهدئته -. ربما يكون صديقك بيثولو هو من لم ير المدعو إديلبيرتو توريس. قد يكون واقفاً في زاوية ميتة، أو أن عائقاً حجب عنه الرؤية. لا تُقلب هذا الأمر أكثر. يمكن أن يكون هناك أي تفسير آخر؟ صديقك تشاتو لم يتمكن من رؤيته، وهذا هو كل شيء. لن نبدأ بالاعتقاد بوجود أشباح في هذا المستوى من الحياة، أليس صحيحاً يا بني؟ انس هذا كله، وبخاصة إديلبيرتو توريس. فلننقل إنه لم يوجد قط. إنه قد مضى وراح، مثلما تقولون أنت في هذه الأيام.

- إنها واحدة أخرى من تخيلات هذا الطفل المحمومة - علقت دونيا

لوكريثيا في ما بعد -. لن يتوقف أبداً عن مفاجئتنا. بأن هنالك شخصاً يظهر له ولا يراه أحد سواه، هناك في ملعب الكرة بالمدرسة. رباه، يا لرأسه الصغير المتجاوز لكل الحدود !

ولكنها هي نفسها من حثت ديفوغوبيرتو بعد ذلك على الذهاب إلى مدرسة ماركهام، دون علم فونتشيتو، للتحدث مع مستر ماكفيرسون، المدير. وقد جعلت تلك المحادثة ريفوغوبيرتو يمر بوقت عصيب.

- طبعاً، إنه لم يسمع حتى باسم إديلبيرتو توريس - أخبر لوكريثيا، مع حلول الليل، وهو الوقت الذي يتداولان الحديث فيه عادة -. وفوق ذلك، ومثلكما هو متوقع، سخر مني ذلك الغرينغو على هواه. فمن الحال بالطلاق أن يكون شخص غريب قد دخل إلى المدرسة، وأصعب من ذلك أن يصل إلى ملعب كرة القدم. فمن غير المسموح لمن هو غير أستاذ أو موظف أن يضع قدميه هناك. ويعتقد مستر ماكفيرسون أيضاً أن الأمر برمته لا يعود أن يكون واحدة من تلك التخيلات التي يميل إليها الصبية الأذكياء والحساسون. وقال لي إنه يجب عدم إيلاء أدنى اهتمام للقضية. وإنه من الطبيعي في من هم بمثل عمر ابنك أن يروا شيئاً، بين حين وآخر، اللهم إلا إذا كان الصبي مجنوناً. وقد اتفقنا ألا يتحدث أي منا مع فونتشيتو بشيء عن الحديث الذي دار بيننا. ويبعدو لي أنه على حق. لا مسوغ لواصلة مجاراته في موضوع لا أساس له ولا رأس.

- تصور أن يكون للشيطان وجود، وأنه بيرويُّ ويدعى إديلبيرتو توريس - ضحكت لوكريثيا فجأة. ولكن ريفوغوبيرتو انتبه إلى أنها ضحكة عصبية.

كانا مضطجعين وبدا واضحاً أنه لن تكون هناك، في ذلك الوقت من الليل، لا قصص ولا تخيلات، وأنهما لن يمارسا الحب. وهو ما صار

يحدث لها بكثرة في الفترة الأخيرة. فبدلاً من أن يخلقا قصصاً تهيجهما، صارا يتداولان الحديث وكثيراً ما يستغرقان فيه طويلاً بحيث يأخذ الوقت بالانقضاء إلى أن يتغلب عليهما النعاس.

- أخشى ألا يكون الأمر مضحكاً وحسب - تراجعت هي نفسها عن كلامها بعد لحظة، وأبدت الجدّ من جديد -. فهذه المسألة تتخذ أبعاداً أكبر يا رينوبيرو. علينا أن نفعل شيئاً. لا أدرى ماهو، ولكن يجب أن نفعل شيئاً ما. لا يمكننا أن نشيخ بوجهينا وكأن شيئاً لا يحدث.

- أنا متأكد، الآن على الأقل، من أنها تخيلات، وهو أمر معهود لديه - فكر رينوبيرو -. ولكن، ما الذي يسعى إليه من هذه الحكايات؟ هذه الأمور ليست مجانية، بل لها خلفية، لها جذور في اللاوعي.

- إنني أراه أحياناً شديداً الصمت، فأموت حزناً عليه يا حبي. أشعر أن الصغير يتذمّر بصمت فتنشرط روحياً. لم يعد يروي لنا رؤاه، لأنه يعرف أننا لا نصدقها. وهذا يزيد الوضع سوءاً.

- يمكن أن تكون لديه رؤى، تهيبات - شرد دون رينوبيرو -. وهذا يحدث للناس الطبيعيين، المتيقظين منهم والبلهاء. ربما يظن أنه يرى ما لا يراه، يرى ما هو في ذهنه وحسب.

- أجل بالطبع، من المؤكد أنها اختلاقات - استخلصت دونيا لوكريشيا -. من المفترض أنه لا وجود للشيطان. أنا كنت أؤمن بوجوده حين تعرّفتُ إليك يا رينوبيرو. كنت أؤمن بوجود الرب والشيطان، مثلما تؤمن كل أسرة كاثوليكية عادية. أنت أقنعني بأنها شعوذات، بلاهات أناس جهله. وتبين الآن أن من لا وجود له قد دخل أسرتنا، ما رأيك.

أطلقتْ ضحكة عصبية أخرى وصمتت على الفور. رآها رينوبيرو هادئة وساهمة.

- من أجل أن أكون صريحاً معكِ، لا أدرِي إن كان موجوداً أم لا - وافقها -. الشيءُ الوحيدُ الذي أنا متأكدٌ منهُ الآن هو ما قلتهُ أنت. يمكن أن يكون موجوداً، هذا هو الحدُ الذي يمكنني الوصولُ إليه. ولكنني لا أستطيعُ تقبلُ أن يكون بيروياً، وأن اسمه إديليبيرتو توريس ويقضي وقته في التجول وراء تلاميذ مدرسة ماركهام. لا تزعجيوني بهذا إذاً.

قلباً الأمر كثيراً، وأخيراً قرراً أن يأخذوا فونتشتيتو إلى طبيب نفسي كي يقيّم حالته. قاما بالتحري والاستفسار من أصدقائهم. وذكر لهما الجميع الدكتورة أغوسطا ديلميرا ثيسبيديس. فقد درست في فرنسا، وهي متخصصة بعلم النفس الطفلي، ومن أوكلوا إليها أمر أبنائهم أو بناتهم الذين لديهم مشاكل، كانوا يتكلمون بأعاجيب عن علمها، وعن مهاراتها. خشياً أن يعارض فونتشتيتو ذلك، واتخذا ألف احتياط كي يعرضوا عليه الموضوع بترو. وكانت مفاجأتهما أن الصبي لم يبدِ أي اعتراض. وافق على لقائهما، وذهب عدة مرات إلى عيادتها، وقام بكل الاختبارات التي أخضعته لها الدكتورة ثيسبيديس وتحدى معها بأفضل ما في العالم من قابلية. ذهب ريفوبيرتو ولوكريثيا إلى عيادتها، فاستقبلتهما الدكتورة بابتسامة مطمئنة. إنها مرأة تقارب الستين من العمر، ممثلة بعض الشيء، رشيقه، لطيفة ومحدثة ممتعة :

- فونتشتيتو أكثر طفل طبيعي في العالم - أكدت لهما -. المحزن أنه فاتن إلى حدّ كنت أرغب معه في أن أستبقيه تحت رعايتي لمزيد من الوقت. لقد كانت كل جلسة معه متعة بذاتها. إنه ذكي، حساس، ولهذا السبب بالذات يشعر في بعض الأحيان بأنه ناء عن أترابه. ولكنه بكل تأكيد طبيعي بصورة لا تحتمل المزيد. وإذا كان هنالك أمر يجب عليكم أن تكونوا متأكدين منه بالكامل، فهو أن إديليبيرتو توريس ليس شيئاً، بل شخص من عظم ولحم. واقعي ومحدد بقدر ما أنتما وأنا

واعيون ومحددون. فونتشيتو لم يكذب عليكم. أجل، ربما يكون قد زين الأمور قليلاً. فمن أجل هذا تنفعه المخيلة الخصبة التي يمتلكها. وهو لم يأخذ تلك اللقاءات مع ذلك السيد قط على أنها رؤى سماوية أو شيطانية. أبداً، بالطلاق! يا للبلاهة. إنه طفل راسخ القدمين جيداً على الأرض، ورأسه مستقر تماماً في مكانه. أنتما من اختلقتما ذلك كله، ومن تحتاجان وبالتالي لطبيب نفسي. هل أحدد لكم موعداً؟ أنا لا أعالج الأطفال فقط، بل البالغين أيضاً من يبدؤون في التفكير فجأة بأن الشيطان موجود وأنه يضيع وقته في التجول في شوارع ليما وبارانكو وميرافلوريس.

واصلت الدكتورة ثيسبيديس مزاحها بينما هي ترافقهما حتى الباب. وعند الوداع طلبت من ريفوبيرتو أن يريها ذات يوم مجموعته من اللوحات الإيروتيكية. «لقد قال لي فونتشيتو إنها مجموعة رائعة»، وكانت هذه مزحتها الأخيرة. خرج ريفوبيرتو ولوكريثيا من العيادة غارقين في بحر من التشوش.

ـ قلتُ لك إن اللجوء إلى طبيب نفسي أمر شديد الخطورة - ذكر ريفوبيرتو ولوكريثيا ـ لا أدرى في أية ساعة نحس استجبتُ لطلبك. يمكن للطبيب النفسي أن يكون أكثر خطراً من الشيطان نفسه، لقد عرفتُ ذلك مذ قرأت فرويد.

ـ لك ما تشاء إن كنت ت يريدأخذ هذه القضية على محمل المزاح، مثلما تفعل الدكتورة ثيسبيديس - دافعت ولوكريثيا عن نفسها ـ وأرجو ألا تندم على ذلك.

ـ أنا لا آخذ الأمر على محمل المزاح - أجابها، وكان يتكلم بجد الآن ـ. لقد كان من الأفضل الإيمان بأن إديلبيرتو توريس لا وجود له. أما إذا كان هذا الشخص موجوداً ويلاحق فونتشيتو، فأخبريني أية شياطين يمكننا أن نفعلها الآن.

لم يفعل شيئاً، وخلال وقت لا بأس به لم يعد الصبي إلى الحديث في الموضوع. واصل حياته العادلة، يذهب إلى المدرسة ويعود منها في المواعيد المعتادة، وينزوي في غرفته لساعة وفي بعض الأحيان لساعتين، في المساء، من أجل إنجاز واجباته المدرسية، ويخرج في عطلة نهاية الأسبوع أحياناً مع تشاو بيثلو. ويدهب أيضاً في أحياناً أخرى، وإن يكن بدفع من دون ريفوبيرتو ودونيا لوكريثيا، مع فتية آخرين إلى السينما، أو إلى إستاد كرة القدم، أو للعب الكرة، أو إلى حفلة ما. ولكن ريفوبيرتو ولوكريثيا كانوا يتلقان في أحاديثهما الليلية على أن الصغير لم يعد هو نفسه، وإن كان يُظهر أنه في حالة طبيعية.

ما الذي تغيّر فيه؟ لم يكن من السهل قول ذلك، ولكنها متأكdan من أنه لم يعد هو نفسه. ومن أن التبدل الذي طرأ عليه عميق جداً. أهي مشكلة السن؟ ذلك التحول الصعب بين الطفولة والراهقة، حيث يتبدل صوته في الوقت نفسه، فيصبح خسناً، ويبدا بالظهور في وجهه زغب يشي بلحية مستقبلية، ويأخذ الطفل بالإحساس بأنه لم يعد طفلاً، ولكنه لم يصبح رجلاً كذلك بعد، ويحاول، في طريقة لبسه وجلوسه وإيمائه وتكلمه مع أصدقائه ومع البنات، أن يبدو منذ الآن الرجل الذي سيصيره في ما بعد. يظهر عليه إيجازه في الحديث وكثرة تأمله، ويسير قليل الكلام في رده على الأسئلة، أثناء الجلوس إلى مائدة الطعام، حول المدرسة وأصدقائه.

- أنا أعرف ما بك أيها الصغير - تحدته لوكريثيا ذات يوم - لقد وقعت في الحب ! أليس كذلك يا فونتشيتتو؟ أتعجبك إحدى البنات؟ دون أن يبدو عليه أدنى قدر من تورد الخجل، نفى بحركة من رأسه.

- لا وقت لدي لهذه الأمور الآن - أجاب بمهابة، دون أي أثر من

السخرية – فقربياً سيحل موعد الامتحانات وأريد الحصول على نتائج  
جيدة.

– هكذا تعجبني يا فونتشيتو – أيده دون رينغوبيرتو – سيكون لديك في  
ما بعد متسع من الوقت من أجل البناء.  
وفجأة أشع الوجه الضارب إلى الحمرة بابتسامة وظهر في عيني  
فونتشيتو مكر الخبث في أزمنة أخرى.

– ثم إنك تعرفين أن المرأة الوحيدة التي تعجبني في الدنيا هي أنت  
يا خالتى.

– آى، رباء، دعني أقبلك يا صغيري – صفت دونيا لوكريثيا –  
ولكن ما الذي تعنيه هذه الأيدي يا زوجي؟

– تعنى أنه عند الحديث عن الشيطان تتراجج، فجأة، مخيلتي  
وأشياء أخرى يا حبي.

واستمتعنا خلال بعض الوقت متخيلين أن دعابة الشيطان وفونتشيتو  
تلك قد انتقلت إلى الحياة الأخرى. ولكن لا، لم تكن قد انتقلت بعد.

## VII

حدث ذات مرة أن الرقيب ليتوما والنقيب سيلفا كانوا منكبين على المهمة بحواسهما الخمس - وقد تجاهل الثاني للحظات هوسه بمؤخرات نساء بيورا، وبالسيدة خوسيفيتا بصورة خاصة - يحاولان التوصل إلى طرف خيط يوجه تحقيقاتهما. فالعقيد ريوس باردو، الشهير بلقب راسكاتشوتشا، قائد شرطة المنطقة، عاد لتوبيخهما في العشية، وقد تحول كمن به مس شيطاني، لأن خبر تحدي فيليثيتو ياناكيه للمافياوين في جريدة «التييمبو» قد وصل إلى ليما. واتصل به وزير الداخلية شخصياً ليطالبه بأن تُحل تلك القضية فوراً. فالصحافة وسعت أصواء المسألة ولم تعد الشرطة وحدها، بل الحكومة نفسها، بدت في وضع مضحك أمام الرأي العام. وصار إلقاء القبض على المبتزين والقائم بإجراء عقابي كبير هو شعار المراجع القيادية!

- علينا أن نستعيد سمعة الشرطة، يا للعنة - ز مجر راسكاتشوشوا من وراء شاربه الضخم، بعينين كالجمر - لا يمكن السماح لبعض الأوغاد أن يسخروا منا بهذه الطريقة. عليكم أن تقبضوا عليهم في الحال وإلا ستندمان طوال ما تبقى من مسيركم الشرطية؛ أقسم لكم بالقديس مارتين شفيع الكلاب وبالرب.

تفحص ليتوما والنقيب سيلفا بتمعن أقوال جميع الشهود، أعدا بطاقات بيانات، وقاما بمقارنات، وقاطعاً معلومات، واستعرضوا

فرضيات واستبعادها واحدة بعد أخرى. وحين كانا يتوقفان بين حين وآخر لالتقاط أنفاسهما، اعتاد النقيب أن يطلق صرخات إطراء، مشحونة بحمى جنسية، لتكورات السيدة خوسيفيتا التي أغرم بها. وبجدية كبيرة وإيماءات معقدة، كان يشرح لرؤوسه أن تينك الإليتين ليستا كبارتين ومكورتين ونصفي كرتين وحسب، بل إنهم «تهتزان نافرتين عند الشيء»، وهو أمر يدغدغ قلبه وخصيته في آن واحد. ولهذا، يؤكد، «على الرغم من سنوات عمرها، وجهها المغطى بالنمث، وساقيها الملتويتين بعض الشيء، فإن خوسيفيتا هي أنثى فاخرة بكل معنى الكلمة».

- وإذا ما اضطررتني إلى إجراء مقارنات يا ليتوما، فإبني أعتبرها أكثر متعة في المراجعة من مابيل الوفيرة - حدد وعيناه تقفزان من محجريها كما لو أنه يقف إزاء مؤخرتي السيدتين ويروزهما - أتعرفُ أن لعشيقه دون فيليثيتو جسداً بديعاً، وشهادين حربيين وساقين وزراعين مسكونة وممتلئة، غير أن مؤخرتها، ولا بد أنك لاحظت ذلك، لا تفي بالرغبة. ليست ملموسة جداً، غير مكتملة تماماً، لم تتفتح، كما لو أنها قد ضمرت في لحظة ما. فمؤخرتها وفق نظامي التصنيفي مؤخرة خجولة، أظنك تفهمني.

- لماذا لا تركز على التحريرات أكثر يا نقيبي - طلب منه ليتوما -. لقد رأيتَ كم هو غاضب العقيد ريوس باردو. وإذا ما ظللنا على هذا الإيقاع، فإننا لن نخرج أبداً من هذه القضية، ولن نترفع في رتبتنا.

- لقد تمكنتُ من ملاحظة أنك لا تبدي أي اهتمام بمؤخرات النساء يا ليتوما - أصدر النقيب حكمة متاثراً، ومبدياً وجهاً مكتئباً. ولكنه ابتسם على الفور ومرّ بلسانه على شفتيه مثل هر - هذا الأمر يعتبر خلاً في تكوينك الرجولي، أؤكد لك. فالمؤخرة الجيدة هي الجزء الأكثر

اللوهية مما وضعه الرب في أجساد الإناث من أجل إسعاد الذكور. حتى الكتاب المقدس يعترف بذلك كما قيل لي.

- إنني أهتم طبعاً يا نقيبي. ولكن ما لدى حضرتك ليس اهتماماً فقط، بل هوس وإدمان، وأقول هذا مع كل الاحترام. فلنعد إلى العناكب دفعة واحدة وننسى ما سواها.

أمضيا ساعات عدة في قراءة وإعادة قراءة رسائل المبتزين ورسومها، وتفحصها كلمة وحرفًا حرفًا، والتمعن في قوائم العناكب قائمة قائمة. كانا قد طلبا من المكتب المركزي فحصاً لخطوط الرسائل المغفلة، ولكن الاختصاصي بذلك كان في المستشفى، حيث أجريت له عملية بواسير، ولديه إجازة لمدة أسبوعين. وفي أحد تلك الأيام، بينما هما مستغرقان في مقارنة رسائل مع تواقيع وكتابات مجرمين لهم ملفات في النيابة العامة، بُرِزَ فجأة في رأس ليتوما ذلك الشك، مثل وميض شرارة في الظلام. إنها ذكرى قديمة، تداعي أفكار. وقد لاحظ النقيب سيلفا أن شيئاً يحدث لمساعده.

- لقد بدت فجأة كمن به خبل. ما الذي حدث يا ليتوما؟

- لا شيء، لا شيء يا سيدي النقيب - هز الرقيب كتفيه - . مجرد بلاهة. لقد تذكرتُ للتو شخصاً كنت أعرفه. وكان يرسم عناكب طيلة الوقت، إن لم تخني الذاكرة. إنها مجرد بلاهة بالتأكيد.

- بالتأكيد - كرر النقيب وهو يتفحصه. قرُّب وجهه منه وبذل نبرة صوته - . ولكن، بما أنه لا يوجد لدينا أي شيء، فإن وجود بلاهة أفضل من لا شيء. ومن هو ذلك الشخص؟ هيا، أخبرني.

- إنها قصة قديمة جداً يا نقيبي - لاحظ المفوض أن صوت معاونه وعينيه قد امتلاءاً بالقلق، كما لو أن النبض في تلك الذكري يزعجه، مع أنه لا يستطيع تجنب ذلك - وليس لذلك الشخص أية علاقة بقضيتنا هذه

على ما أتخيل. ولكنني أتذكر جيداً أن ابن العاهرة ذاك كان يرسم دوماً خربشات يمكن لها أن تكون عناكب. كان يرسمها على أوراق، على جرائد. وحتى على أرضية الحانات البائسة أحياناً، باستخدام عود. - ومن كان ابن العاهرة ذاك يا ليتوما؟ أخبرني دفعة واحدة ولا تزعجني بكثرة اللف والدوران.

- هلم بنا لنتناول عصيراً ولنخرج قليلاً من هذا الفرن يا نقيببي - اقترح عليه الرقيب -. إنها قصة طويلة، سأرويها لك إن كنت لا تمل... ولا تقلق، فسوف أدفع أنا ثمن العصير.

ذهبنا إلى درة تشيرا، وهو بار صغير في شارع ليبرتاد، محاذٍ لقطعة أرض خلاء، قال ليتوما لرئيسه معلقاً بأن قطعة الأرض تلك كانت في شبابه ميدان مصارعة ديوك، تجري فيها مراهقات بمبالغ كبيرة. وكان هو نفسه يأتي إليها أحياناً، مع أنه لا يحب مصارعات الديوك، وتحزنه رؤية كيف تمزق تلك الحيوانات المسكينة بعضها بعضاً، بمناقيرها وبالشفرات المثبتة بقوائمها. لم يكن هناك في الحانة مكيف هواء، ولكن المراوح كانت تُبرد المحل. وكان مقرراً من الزبائن. طلباً كأسين من عصير اللوكوما مع كثير من الثلج وأشعلا سيجارتين.

- ابن العاهرة ذاك كان يدعى خوسيفينو روخاس، وهو ابن كارلوس روخاس، صاحب الزورق الذي كان يأتي قدماً بالمواشي من المزارع إلى منطقة المسلح، عبر النهر، في شهور الفيضان -. قال ليتوما -. تعرفت عليه حين كنت صبياً تقريراً. كانت لنا عصبتنا. وكنا نحب العريدة، والجيارات، والبيرة، والنساء. وقد عَمِدْنا أحدهم، أو نحن عَمِدْنا أنفسنا، باسم «المنيعون». ووضعنا نشيدنا الخاص. وبصوت خافت ومجرح، غنى ليتوما متربناً وباسماً:

نحن المنبعون

من لا نحب العمل؛

الشرب فقط!

المضاجعة فقط!

اللواط فقط!

احتفى به النقيب مطلقاً قهقهة ومصفقاً :

- جيد يا ليتوما. أي إنه كان ينتصب معك على الأقل وأنت شاب صغير.

- لقد كنا ثلاثة منْ شكلنا فريق المنبعين في البدء - واصل الرقيب بنوستالجيا وهو مستغرق في ذكرياته - ابنا عمي، الأخرين ليون - خوسيه والمونو - وخدمتك. ثلاثة مانغاتشيين. ولا أدرى كيف انضم إلينا خوسيفينو. فهو لم يكن من حي مانغاتشيريا وإنما من حي غايينثيرا، هناك حيث كان يقوم السوق القديم، ومنطقة المسلح. لستُ أدرى لماذا أدخلناه في الجماعة. فقد كانت بين الحين آنذاك خصومة رهيبة، مع لكمات وضربات سكاكيين. أقول لك إنها حرب أسالت الكثير من الدماء في بيورا.

- يا للعنة، إنك تكلمني بما قبل التاريخ في هذه المدينة - قال النقيب -. أعرف جداً أين كان حي لamanгатшeрия، إنه هناك إلى الشمال، أسفل جادة سانتشيث سيرو، عند مقبرة سان تيودورو القديمة. ولكن ماذا عن حي غايينثيرا؟

- هناك بالذات، قريباً جداً من ساحة السلاح، على ضفة النهر، باتجاه الجنوب - قال ليتوما مشيراً - كان يدعى غايينثيرا بسبب أعداد سور الرحمة التي يجتذبها المسلح، عند ذبح الماشية. وقد كنا نحن المانغاتشيين من أنصار سانتشيث سيرو وكان الغايينثيين من أنصار حزب

الأبرا. وابن العاهرة خوسيفينو كان غايبيناثيًّا وكان يقول إنه كان صبيًّا جزار متدرِّب في صغره.

- كنتم عصابات حينذاك إذاً.

- رعاع وحسب يا نقبي. نقوم بشيطنان فقط، دون أي شيءٍ جديًّا. نوجه لكمات، ولا نتجاوز إلى ما أكثر من ذلك. أما خوسيفينو فتحول في ما بعد إلى قواط. يغوي فتيات ويُدخلهن للدعارة في «البيت الأخضر»، وكان هذا هو اسم الماخور، عند مخرج المدينة في الطريق إلى كاناكاوس، حين لم يكن حيًّا كاستياً يسمى كاستياً بعد وإنما تاكلا. هل تعرفت إلى ذلك الماخور؟ لقد كان مشهوراً.

- لا، ولكنني سمعت الكثير عن «البيت الأخضر» المشهور. إنه أسطورة قائمة بذاتها في بيورا. أي إن خوسيفينو صار قواطًا. فهو من كان يرسم العناكب؟

- هو نفسه يا نقبي. أظن أنها كانت عناكب، ربما تخني الذاكرة. لستُ متأكداً تماماً.

- ولماذا تكره ذلك القواط إلى هذا الحد يا ليتوما إن كان يمكن لي أن أعرف؟

- لأسباب كثيرة - عبس وجه الرقيب الخشن، واحتقنت عيناه من الغضب. كان قد بدأ بارتشاف العصير الكثيف بسرعة كبيرة -. السبب الأساسي ما فعله بي عندما كنت مسجونة. وحضرتك تعرف هذه القصة، فقد سجنوني لأنني كنت ألعب الروليت الروسي مع ملائكة من هنا. في «البيت الأخضر» بالتحديد. وهو أبيض سكير يكنى سيميناري، وقد فجرَ دماغه أثناء اللعب. واستغل خوسيفينو وجودي في السجن، فاستولى على أنثائي وأدخلها كعاهرة تعمل من أجله في «البيت الأخضر». كان اسمها بونيفاثيا. جئت بها من ألتو مارانيون، التابعة

لسانتا مارتا دي نيفي في منطقة الأمازون. وعندما صارت فتاة متعة، أطلقوا عليها اسم سيلفاتيكا.

- آه، حسن، لديك ما يكفي من الأسباب لتكرهه - وافق النقيب وهو يهز رأسه -. هذا يعني أنه كان لك ماضٌ متكاملٌ يا ليتما. لا يمكن لأحد أن يصدق ذلك حين يراك الآن وديعاً هكذا. تبدو كمن لم يقتل ذبابة في حياته قط. الحقيقة أنني لا أستطيع أن أتصورك تلعب الروليت الروسي. أنا لعبتها مرة واحدة، مع زميل لي، في ليلة شراب. ومازالت حتى الآن أشعر بعظامي تتجمد حين أتذكر ذلك. ولماذا لم تقتل خوسيفينو ذاك، إن كان ممكناً لي أن أعرف؟

- ليس بسبب انعدام الرغبة، وإنما كيلاً أذهب إلى السجن مرة أخرى - أوضح الرقيب باقتضاب -. لكنني أوسعته ضرباً إلى حدّ لا بدّ معه أن بدنـه ما زال يتوجع حتى الآن. إنني أكلمك عن أمر مضى عليه عشرون عاماً على الأقل يا نقبي.

- أأنت متأكد من أن ذلك القواد كان يقضى الوقت في رسم عناكب صغيرة؟

- لا أدرى إن كانت عناكب - صحق ليتما مرة أخرى -. ولكنه كان يرسم، أجل، طيلة الوقت. على مناديل ورقية، على قطعة الورق التي توضع أمامه. كانت تلك هي نزواته. ربما لا تكون لها أية علاقة بما نبحث عنه.

- فكرْ وحاول أن تتذكر يا ليتما. ركُنْ، أغمض عينيك وعدْ بالذكرى إلى الوراء. أهي عناكب مثل العناكب التي يرسلونها إلى فيليثيتينا ياناكيه؟

- ذاكرتي لا تقدم المزيد يا نقبي - اعتذر ليتما - إنني أحذّلك عن أمر مضت عليه سنوات طويلة، وقد قلت لك إنها عشرون عاماً، ربما

أكثر. لست أدرى لماذا خطر لي هذا الربط. من الأفضل نسيان الأمر.  
- أتعرف ما الذي حلّ بالقود خوسيفينو؟ ألح النقيب. وقد بدت عليه ملامح الاهتمام ولم يكن يرفع بصره عن الرقيب.  
- لم أره بعد ذلك قطّ، مثلما لم أعد إلى رؤية المنيعين الآخرين، ابني عمي. فمنذ أن أعادوا قبولي في سلك الشرطة، خدمتُ في سلسلة الجبال، وفي الأدغال، وفي ليما. يمكن القول إنني جُلت في كل أنحاء البيرو. ولم أعد إلى بيورا إلا منذ وقت قصير. ولهذا أقول لك إنه من المحتمل ألا يكون ما خطر لي سوى مجرد بلاهة. ولست متأكداً، كما قلت لك، من أنها كانت عناكب. لقد كان يرسم شيئاً، أجل. وكان يفعل ذلك دوماً وكنا نحن في فريق المنيعين نسخر منه.

- إذا كان القواد خوسيفينو لا يزال حياً فإنني أرغب في التعرف إليه  
- قال المفوض وهو يضرب على المنضدة -. تحرى عنه يا ليتوما. لست أدرى السبب، ولكنني أشم رائحة ما. ربما نكون قد عضضنا قطعة لحم. وهي طرية وذات عصارة. أشعر بذلك في لعابي، في دمي وفي خصيتي. أنا لا أخطئ في هذه الأمور. إنني أرى بصيص نور في عمق النفق. حسن يا ليتوما.

كان النقيب سعيداً إلى حدّ ندم معه الرقيب لأنّه أخبره بذلك الخاطر الذي باعته. هل صحيح أن خوسيفينو، في أزمنة المنيعين، كان يرسم دون توقف؟ لم يعد متأكداً جداً من ذلك. وفي هذه الليلة، بعد خروجه من الخدمة، ذهب كالعادة ماشياً في جادة غراو صعوداً باتجاه النزل الذي يعيش فيه، في حي بوينس آيريس، بالقرب من ثكنة غراو؛ وأجهد ذاكرته في محاولة للتأكد من أنها لم تكن ذكرى زائفه. كانت تعود إلى ذاكرته، في موجات متداقة، صورٌ من سنوات الشباب المبكر تلك، في شوارع حي مانغاتشيرا الترابية، حين كان يذهب مع المونو

وخوسيه إلى الرملة الملائمة للمدينة، لينصبوا أفخاخاً للسلاحف عند جذوع أشجار الخروب، ولصيد العصافير بمقلع يصنعونه بأنفسهم، أو الاختباء بين آجام الرملة وكتبانها ليتلقنوا على الغسالات اللاتي يتوجلن عند مصب المجرور في النهر حتى خصورهن لغسل الملابس. فتشف ثيابهن عن صدروهن أحياناً، وتتأجج عيون الفتىـان وفتحات سراويلهن بالإثارة. كيف انضم خوسيفينـو إلى الجماعة؟ لم يعد يتذكر متى حدث ذلك أو سببه. لقد انضم إليـهم على كل حال بعدما لم يعودوا صبية صغـاراً. لأنـهم كانوا يذهبون آنذاك إلى الحانـات، وينفقـون فيها السـولات القليلـة التي يكسبـونـها من القيام بأعمال آنية عـابرة، مثل بيع بطاقـات مراهـنـات سـباقـاتـ الخيـلـ، في دورـ القـمارـ والـعـربـدةـ والـسـكرـ. ربما لم تـكنـ عـناـكبـ، ولكنـ خـوسـيفـينـوـ كانـ يـرسمـ، أـجلـ، ويـفعـلـ ذـلـكـ في كلـ وقتـ. إنه يتـذـكـرـ الأـمـرـ بـوضـوحـ. كانـ يـفعـلـ ذـلـكـ بيـنـماـ هوـ يـتحـدـثـ أوـ يـغـنـيـ، وـحـينـ يـسـتـغـرـقـ فـيـ التـفـكـيرـ بـأـلـاعـبـيـهـ الـخـبـيـثـةـ مـنـعـزـلاـ عـنـ بـقـيـةـ الـجـمـاعـةـ. لـيـسـ ذـكـرىـ زـائـفةـ، رـبـماـ كـانـ يـرسمـ ضـفـادـعـ، أـوـ ثـعـابـينـ، أـوـ فـرـاغـ. دـاهـمـتـهـ الشـكـوكـ. وـبـدـاـ لـهـ فـجـأـةـ أـنـ تـلـكـ الرـسـومـ كـانـتـ صـلـبـانـاـ وـدـوـاـرـاـ فـيـ لـعـبـةـ القـطـ، أـوـ أـنـهـ رـسـومـ كـارـيـكاـتـيرـيةـ لـلـنـاسـ الـذـيـنـ يـرـوـنـهـمـ فـيـ بـارـ لـاتـشـونـغاـ، أـحـدـ أـمـكـنـتـهـ الـمـحـبـبـةـ. لـاتـشـونـغاـ التـشـوـنـغـيـتاـ! هـلـ مـازـالـتـ مـوـجـودـةـ؟ مـسـتـحـيلـ. إـذـاـ كـانـتـ لـاـ تـزالـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ، فـلـاـ بـدـ أـنـهـ صـارـتـ عـجـوزـاـ إـلـىـ حـدـ لـاـ يـمـكـنـهـ مـعـهـ إـدـارـةـ شـؤـونـ بـارـ. وـلـكـنـ مـنـ يـدـريـ. فـقـدـ كـانـتـ اـمـرـأـ لـهـ شـعـرـ فـيـ صـدـرـهـ، لـاـ تـخـشـيـ أـحـدـ، تـواـجـهـ الـمـخـمـورـينـ مـوـاجـهـةـ النـدـ لـلـنـدـ. وـذـاتـ مـرـةـ أـوـقـفتـ خـوسـيفـينـوـ نـفـسـهـ عـنـدـ حـدـهـ حـينـ أـرـادـ أـنـ يـبـدوـ مـرـحاـ مـعـهـاـ.

الـمـنـيـعـونـ! لـاتـشـونـغاـ! يـاـ لـلـعـنـةـ كـيـفـ يـمـضـيـ الزـمـنـ بـسـرـعـةـ. رـبـماـ يـكـونـ الـأـخـوـانـ لـيـونـ وـخـوسـيفـينـوـ وـبـونـيـفـاثـياـ قـدـ مـاتـواـ جـمـيـعـهـمـ وـدـفـنـواـ وـلـمـ يـبـقـ

منهم سوى الذكرى. يا للحزن.

كان يعشى في شبه ظلمة لأن أنوار الإضاءة العامة، بعد تجاوز نادي غراو والدخول في حي بوبينس آيرس السكني، تصبح متباعدة وشحيحة. كان يمضي ببطء، متعرضاً بحفر في الإسفلت، بين بيوت، بعد أن كانت ذات حدائق وطابقين، أخذت تتحول إلى أقل انخفاضاً وأكثر بؤساً. ومع اقترابه من نزله، صارت البيوت تتحول إلى أكواخ، وأبنية فجة، جدرانها من الطين وأغصان الخرب وسقوفها من صفيح، تتوزع على جوانب شوارع بلا أرصفة، وتکاد لا تمر منها سيارات.

لدى عودته إلى بيورا، بعد أن خدم سنوات طويلة في ليما وفي سلسلة الجبال، استقر في غرفة في حي العسكريين السكني، حيث للشرطيين الحق بالإقامة، مثلهم مثل العسكريين. ولكن ذلك الاختلاط مع رفاق السلاح لم يرق له. إذ أحس كما لو أنه يستمر في الخدمة، يرى الأشخاص أنفسهم ويتحدث في الأمور نفسها. لهذا انتقل بعد ستة أشهر إلى بيت آل كالانتشي الذين يملكون خمس غرف للنزلاء. المكان متواضع، وحجرة ليتماما ضيقة جداً، ولكنه يدفع قليلاً ويشعر هناك بأنه أكثر استقلالية. كان الزوجان كالانتشي يشاهدان التلفاز عند وصوله. لقد كان رب البيت معلماً وزوجته موظفة بلدية. وهما متتقاعدان منذ زمن. وكانت أجرة النزل تتضمن الفطور فقط، ولكن يمكن للزوجين كالانتشي، إذا رغب المستأجر، أن يأتياه بالغداء أو العشاء من مطعم صغير مجاور، وهي وجبات طبيخ مغذية جداً. سألهما الرقيب عما إذا كانوا يتذكران، بالصدفة، باراً صغيراً بالقرب من stad القديم تديره امرأة مسترجلة بعض الشيء تدعى، أو يلقبونها، لاتشونغا. نظراً إليه بحيرة وهما يهزان رأسيهما.

ظل تلك الليلة مؤرقاً لوقت طويل، وبشيء من الضيق في بدنـه.

ملعونه الساعة التي خطر له فيها التحدث إلى النقيب سيلفا عن خوسيفينو. إنه متتأكد الآن من أن ذلك القواد لم يكن يرسم عناكب، وإنما كان يرسم شيئاً آخر. تقليل ذلك الماضي يُشعره بالضيق. يحزنه أن يتذكر شبابه، وسنوات العمر التي بلغها – إنه يقارب الخمسين –، وكم كانت حياته متوحدة، والنكبات التي حلّت به، وحمامة الروليت الروسي تلك مع سيميناريو، وسنوات السجن، وقصة بونيفاثيا التي ما إن ترد إلى ذهنه حتى تملأ فمه بطعム المراة.

نام أخيراً، ولكن بصورة سيئة، مع كوابيس خلّفت لديه بعد الاستيقاظ صوراً مشروخة ومرعبة. اغتسل، تناول فطوراً، وقبل السابعة خرج إلى الشارع متوجهاً إلى المكان الذي تفترض ذاكرته أن بار لاتشونغا كان قائماً فيه. لم يكن من السهل عليه التوجه. فتلك الأماكنة، في ذاكرته، كانت خارج المدينة، أكواخ متفرقة من الطين والقصب تتنصب على الرمال. ولكن هنالك الآن شوارع، وإسمنتاً، وبيوتاً من مواد بناء ثمينة، ومصابيح إنارة كهربائية، وأرصفة، وسيارات، ومدارس، ومحطات وقود، و محلات تجارية. يا للتبديلات! الحي البائس القديم صار جزءاً من المدينة الآن ولا يشبه ذكرياته بأي حال. محاولاته مع الجيران – كان يقترب لسؤال أشخاص كبار في السن فقط – لم تفدي شيئاً. لا أحد يتذكر البار الصغير أو لاتشونغا، وأناس كثيرون هناك ليسوا من بيورا في الأصل وإنما ممن نزلوا إليها من سلسلة الجبال. راوده إحساس فظّ بأن ذاكرته تكذب عليه؛ وأنه لا شيء مما يتذكره كان موجوداً قطّ، إنها مجرد تخيلات وقد كانت كذلك على الدوام، محض نتاج من مخيلته. أرعبه التفكير في ذلك.

عند الضحى كره مواصلة البحث ورجع إلى مركز بيورا. وقبل أن يعود إلى المفوضية، تناول شراباً غازياً عند الناصية، وكان يشعر بحر

شديد. كانت الشوارع قد امتلأت بالضجيج والسيارات والحافلات، وبتلاميد بالزي المدرسي. باعة يانصيب وترهات رخيصة ينادون على بضائعهم صارخين، أناس متعرقون ومتجللون يملؤون الأرصفة. عندئذ أعادت إليه الذاكرة اسم ورقم الشارع الذي كان يعيش فيه أبناء العم ليون: شارع موريون، الرقم 17. في قلب مانغاتشيريا بالفسبط. أغمض عينيه ورأى الواجهة حائلة اللون للبيت المؤلف من طابق واحد، والنافذ ذات القسبان الحديدية، وأصص الزهور الشمعية، والراية البيضاء التي تشير إلى أن بيرة تشيشيشا باردة تباع هناك.

ركب موتوكسي حتى جادة سانتشيث سيرُو، وبينما هو يشعر بقطرات العرق تسيل على وجهه وتبلل ظهره، توغل ماشياً في متاهة الشوارع والأزقة والمنحدرات، والأراضي الخلاء التي كانت عليها مانغاتشيريا، ذلك الحي الذي يقال إنه يسمى هكذا لأن من كانوا يسكنونه في العهد الاستعماري هم من العبيد الملايين المستوردين من مدغشقر. لقد تبدل كل ما في ذلك الحي أيضاً من أشكال وأناس ونسيج معماري وألوان. فالدروب الترابية صارت إسفلتية، والبيوت صارت من آجر وإسمنت، وهناك بعض العمارت، وإنارة عامة، ولم تبق ولو حانة تشيشيشا أو مقمرة واحدة في الشارع، وإنما كلاب متشردة فقط. لقد صارت الفوضى منظمة، شارع مستقيمة ومتوازية. لم يعد هناك ما يشبه ذكرياته المانغاتشية. لقد صار الحي محششاً، وتحول إلى حي تافه وبلا هوية. غير أن شارع موريون موجود وكذلك الرقم 17 فيه. ولكنه بدل أن يجد بيت أبني عمه، وجد هناك ورشة ميكانيك كبيرة، وعليها إعلان يقول: «نبيع قطع غيار لكافة ماركات السيارات والشاحنات والحافلات». دخل إلى المحل الفسيح والقائم العاقد برائحة الزيوت، ورأى هيكل سيارات ومحركات نصف مفككة، وسمع ضجة

معدات لـحام ولح ثلاثة أو أربعة عاملين يرتدون أفرهولات زرقاء، وينحنون على آلياتهم. وكانت تنبعث، من مذيع، موسيقى غابية، موسيقى أغنية «لاكونتامانيا». دخل إلى مكتب تئز فيه مروحة. وكانت هناك امرأة شابة تجلس قبالة جهاز كمبيوتر.

- مرحباً - قال ليتوما وهو يخلع قبعته الشرطية.

- بماذا يمكنني خدمتك؟ كانت تنظر إليه بذلك القلق الخفيف الذي ينظر به الناس إلى الشرطيين عادة.

- إنني أقوم بتحريات عن أسرة كانت تعيش هنا - أوضح لها ليتوما مشيراً إلى المحل - حين لم يكن هذا المكان ورشة وإنما بيت أسرة. وكان لقبهم آل ليون.

- حسب ما أتذكر، هذا المكان كان ورشة ميكانيك منذ البدء. قالت الفتاة.

- حضرتكِ ما تزالين فتية جداً، ولا يمكنك أن تتذكرني - رد عليها ليتوما - ولكن ربما يعرف صاحب المحل شيئاً ما.

- يمكنك انتظاره إذا شئت - أشارت له الفتاة إلى كرسي. وفجأة، أضي وجهها: - آyi، كم أنا بلاء. طبعاً! صاحب الورشة نفسه يدعى ليون. دون خوسيه ليون. وربما بإمكانه مساعدتك.

تهاوى ليتوما على الكرسي. كان قلبه ينبض بقوة. دون خوسيه ليون. يا للعنة. إنه هو، ابن عمه خوسيه. يجب أن يكون أحد المنيعين. ومن يمكن أن يكون غيره.

تحول إلى جمرة سيجار متوقدة وهو ينتظر. بدت له الدقائق لانهائية. وعندما ظهر المنيع خوسيه ليون في الورشة أخيراً، وعلى الرغم من أنه تحول الآن إلى رجل مربع وذي كرش، مع لطخات شبّب في شعره الخفيف، ويلبس مثل رجل أبيض، سترة وقميصاً بيأقة وحذاء

ملمعاً كمرآة، فقد تعرّف عليه فوراً. نهض واقفاً بانفعال، وفتح ذراعيه.  
لم يتعرف عليه خوسيه وتحصصه مقرباً وجهه منه كثيراً باستغراب.  
- أرى أنك لم تعرف من أنا يا ابن العم - قال ليتوما - هل التغيير  
كبير إلى هذا الحد؟

وسّعت ابتسامة كبيرة وجه خوسيه.  
- لا أستطيع أن أصدق! - هتف وهو يفتح ذراعيه أيضاً - ليتوما! أي  
مفاجأة يا أخي. بعد كل هذه السنوات، تشي غوا.  
تعانقا، تبادلا التربّيت، أمام أعين الموظفة والعاملين المتفاجئين.  
تفحص كل منها الآخر مبتسمين وسعيددين.

- ألديك متسع من الوقت لتناول فنجان قهوة؟ - سأله ليتوما - أم  
تفضل أن نلتقي في وقت متأخر أو في الغد؟  
- سأنهي أمراً أو اثنين ثم نذهب للتذكر أزمنة المنبعين - قال خوسيه  
وهو يربّط على كتفه مرة أخرى - اجلس يا ليتوما. سأنتهي بسرعة. يا  
للروعه يا أخي.

عاد ليتوما للجلوس على الكرسي، ومن هناك رأى ليون يراجع  
أوراقاً على المكتب، ويتحصص شيئاً في بعض السجلات مع السكرتيرة،  
ويخرج من المكتب ليقوم بجولة على الورشة مراقباً عمل الميكانيكيين.  
لاحظ ليتوما كم هو واثق من نفسه حين يصدر الأوامر، ويلتقي تحيات  
العاملين؛ والطلاقة التي يوجه بها التعليمات أو يعطي حلولاً  
للاستفسارات. وفكّر: «من يتخيلك ومن يراك يا ابن العم». كان يجد  
مشقة في التعرّف على خوسيه رث الثياب في شبابه، يركض حافياً بين  
الماعز والحمير في لامانغاتشيريا، وقد صار أبيض ومالك ورشة ميكانيك  
كبيرة يلبس بدلة وحذاء حفلات في منتصف النهار.  
خرجا معاً، وليتوما يمسك بذراع خوسيه، إلى كافيتريا - مطعم اسمه

«بيورا الجميلة». قال ابن عمه إنه يجب الاحتفال بهذا اللقاء وطلب بيرة. شربا نخب الأزمنة الماضية وظلا لبعض الوقت يقارنان بحنين ذكرياتهما المشتركة. لقد كان المونو شريكًا لخوسيه في الورشة عندما فتحها هذا الأخير. ولكنهما اختلفا في ما بعد وابتعد المونو عن المحل، إلا أن الأخرين ظلا متحدين على الدوام ويلتقيان بكثرة. المونو متزوج وله ثلاثة أبناء. عمل بعض سنوات في البلدية، وأقام بعد ذلك معمل آجر. عمله يمضي على ما يرام، تتصل به عدة شركات بناء في بيورا، ولا سيما الآن، في مرحلة البقرات السمان هذه التي بدأت تُشيد فيها أحياe جديدة. فجميع أهالي بيورا يحلمون بامتلاك بيت خاص، والرائع أن رياحًا جديدة بدأت تهب. ولا يمكن لخوسيه أن يتذمر. لقد كان العمل صعباً في البدء، وكانت هناك منافسة كبيرة، ولكن نوعية الخدمة راحت تفرض نفسها شيئاً فشيئاً، والآن، من دون تبήج، صارت ورشته واحدة من أفضل الورش في المدينة. ولديه فائض من العمل والحمد لله.

- هذا يعني أنك أنت والمونو لم تعودا منيعين ومانغاشيين، وتحولتما إلى أبيضين وغبنيين - مازحه ليتوما -. أنا وحدي من لا زلتُ فقيراً يستحق الشفقة، وسأظل شرطياً إلى أبد الآدبين.

- منذ متى أنت هنا يا ليتوما؟ لماذا لم تبحث عنِي من قبل؟  
كذب عليه الرقيب بالقول إنه هنا منذ وقت قصير، وإن التحريرات التي قام بها عنه لمعرفة أين صار لم تؤد إلى نتيجة، إلى أن خطر له المجيء والقيام بجولة في الأحياء القديمة. وهكذا وصل إلى الرقم 17 في شارع موربون. لم يتخيل قط أن تلك الرملة ذات الأكواخ البائسة قد تحولت إلى هذا الذي هي عليه الآن. مع وجود ورشة ميكانيك تُرفع لها القبعة!

- الأزمنة تتغير، ولحسن الحظ أنها تتغير إلى الأفضل - وافقه خوسيه - هذه فترة جيدة لبيورا وللبيرو بأسرها يا ابن العم. أرجو أن تدوم... فلنمسَ الخشب.

لقد تزوج من فتاة من مدينة تروخيبيو، لكن الزواج كان كارثة. فكانا مثل القط والفار، وانتهيا إلى الطلاق. لهما ابنتان، تعيشان مع أمهما في تروخيبيو. ويدهب خوسيه لزيارتھما بين وقت وآخر، وتأتيان لقضاء العطلات الدراسية معه. إنھما في الجامعة، الكبيرة تدرس طب الأسنان والصغرى تدرس الصيدلة.

- أهنئك يا بن العم. ستكونان مهنيتين كلتھما، يا لحسن الحظ. وعندما كان ليتوما يستعد لأن يتطرق في الحديث إلى اسم القواد، سبقه خوسيه، كما لو أنه قرأ أفكاره:

- هل تتذكر خوسيفينو يا بن العم؟

- كيف يمكن لي أن أنسى ملعون الأم ذاك. تنهد ليتوما، وبعد وقفة صمت طويلة، كمن يود قول شيء، سأله: ماذا جرى له؟ هز خوسيه كتفيه وقام بتكتيره ازدراء.

- منذ سنوات لا أعرف شيئاً عنه. لقد انغمس في الحياة الخبيثة كما تعلم. يعيش على استغلال النساء، لديه مومسات يعملن لحسابه. وقد راح يزداد خبثاً. أنا والملونو ابتعدنا عنه. يأتي بين حين وآخر ليقترض منا نقوداً، ويروي لنا حكاية أمراضه والدائنين الذين يهددونه. بل إنه تورط في قضية قبيحة، بشأن جريمة قتل. اتهموه بالتواطؤ والتستر على الجريمة. ليس من المستغرب أن يظهر ذات يوم مقتولاً في أحد تلك الأمكنة سيئة السمعة التي تروق له كثيراً. ومن يدري، ربما هو يتعرّف الآن في السجن.

- معك حق، فقد كانت الشرور تجذبه مثلما يجذب العسل الذباب

- قال ليتوما -. لقد ولد ذلك الداعر ليكون مجرماً. لا أجد تفسيراً لاجتماعنا معه يا بن العم. لاسيما وأنه غايناثو، بينما نحن مانغاتشيون.

وفي تلك اللحظة، كان ليتوما ينظر مصادفة إلى حركة يدي ابن عمه على المنضدة، فانتبه إلى أن خوسيه يُحدِّث بظفر إيهامه خطوطاً على السطح الخشن المعتلى بكتابات وبقع محروقة ولطخات. كاد يفقد أنفاسه، أمعن النظر وقال وكسر لنفسه إنه ليس مجنوناً، وليس به مس؛ لأن ما يخطه ابن عمه بظفره، دون أن ينتبه، هي عناكب. أجل، إنها عناكب، مثل عناكب رسائل التهديد المغفلة التي يتلقاها فيليثيتو ياناكيه. يا للعنة، فهو لا يحلم ولا يرى رؤى. إنها عناكب، عناكب، يا لابن العاهرة، يا لابن العاهرة.

- لدينا الآن مشكلة ألف شيطان - دمدم موارياً عصبيته ومشيراً باتجاه جادة سانتشيث سيرو - لا بد أن تكون مطلعاً. وأن تكون قد قرأت في «التييمبو» رسالة موجهة إلى المبترzin من فيليثيتو ياناكيه، صاحب شركة ناريهمولا للنقل.

- أفضل خصيتيين راسختين في مكانهما في بيورا بأسرها - هتف ابن عمه. ولعنت عيناه إعجاباً -. لم أقرأ تلك الرسالة وحسب، مثلما فعل جميع أهالي بيورا. بل قصصتها، وأوصيت على إطار لها وعلقتها على جدار مكتبي يا ابن العم. فيليثيتو ياناكيه نموذج يجب أن يحتذى به رجال أعمال بيورا وتجارها الذين ينزلون سراويلهم أمام المafيات ويدفعون لها الإتاوات. إنني أعرف دون فيليثيتو منذ زمن. فنحن في الورشة تقوم بإصلاح وضبط دوزان حافلات وشاحنات ناريهمولا للنقل. وقد كتبت إليه بضعة سطور تهنئة على رسالته في «التييمبو». ووكز ليتوما بمرفقه مشيراً إلى الشرائط على كتفيه.

- عليكم أنتم واجب حماية هذا الرجل يابن العم. ستكون كارثة أن ترسل المafيات قاتلاً لتصفية دون فيليثيتو. لقد رأيت كيف أنهم سارعوا إلى إحرق محله.

كان الرقيب ينظر إليه مؤكداً كلامه. كل هذا السخط والتقدير لا يمكن أن يكون مصطنعاً، إنه هو المخطئ، فخوسيه لم يكن يرسم عناكب بظفر إبهامه، بل خطوط وحسب. مجرد توافق، مجرد مصادفة مثل مصادفات كثيرة. ولكن ذاكرته وجهت إليه، في تلك اللحظة بالذات، صفعة أخرى، أضاءت له ليرى بصورة واضحة وجليه، وذكّرته بصفاء جعله يرتعش، أن من كان يرسم في صغرهم، بقلم أو عود أو سكين، تلك النجوم التي تبدو عناكب هو ابن عمه خوسيه وليس القواد خوسيفينو. طبعاً، طبعاً. لقد كان خوسيه. وقبل زمن طويل من تعرفهم إلى خوسيفينو. خوسيه هو من كان يرسم دوماً. وقد سخر هو والمونو منه مرات كثيرة لتلك النزوة، يا للأم العاهرة، يا للأم العاهرة.

- متى نستطيع تناول الغداء أو العشاء معًا، كي تلتقي بالمونو أيضاً يا ليتوما. سيسعده اللقاء بك حقاً !

- وأنا أيضاً سيسعدني ذلك يا خوسيه. فأفضل ذكرياتي هي ذكرياتي عن بيورا. عن الفترة التي كنا فيها معاً، فترة المنبعين. إنها الأفضل في حياتي على ما أعتقد. في ذلك الزمن كنتُ سعيداً. بعد ذلك جاءت النكبات. ثم إنك أنت والمونو، على ما أتذكر، القريبان الوحيدان المتبقيان لي في هذه الدنيا. ستلتقي عندما تريد، أخبراني بالموعد وسوف أوفق.

- الغداء أفضل من العشاء إذاً - قال خوسيه -. لأن ريتا، زوجة أخي، غيورة جداً، تغار على المونو إلى حد لا يمكنك تصوره. تتسبب له بجرسة كبيرة كلما خرج ليلاً. بل يبدو أنها تضربه كذلك.

- فليكن غداً إذاً، لا توجد مشكلة - كان ليتوما يشعر بالاضطراب إلى حدّ خشيٍّ معه أن يرتاتب خوسيه بما يجول في رأسه، فبحث عن ذريعة ليودعه وينصرف.

رجع إلى المفوضية مختنقاً، مضطرباً ومشوشًا، لا يعرف جيداً أين يضع قدمه، حتى إن عربة باائع فاكهة كانت أن تصدمه عند إحدى النواصي. حين وصل، انتبه النقيب إلى تردي حالته المعنوية فور رؤيته له.

- لا تأتني بمشاكل أخرى زيادة لما هو فوق رأسي يا ليتوما - حذره ونهض واقفاً وراء مكتبه بغضب جعل الحجرة الضيقة تهتز - أي براز حدث لك؟ من مات لك؟

- مات الشك بأن خوسيفينو روخاس هو من كان يرسم العناكب - تلعم ليتوما وهو يخلع القبعة ويمسح العرق بمنديل - تبين الآن أن المشتبه به ليس القواد، بل ابن عمي خوسيه ليون. أحد المنيعين الذين حدثتك عنهم يا نقيبي.

- أتسخر مني يا ليتوما؟ - هتف النقيب مرتباً - أوضح لي قليلاً كيف يمكن ابتلاء هذه البلاهة التي قلتها.

جلس الرقيب محاولاً أن يكون هواء المروحة موجهاً مباشرة إلى وجهه. وروى للمفوض بالتفصيل كل جرى له هذا الصباح.

- أي إن ابن عمك خوسيه الآن هو من يرسم عناكب بظفريه - قال النقيب بغضب - وهو فوق ذلك كله غبي تماماً إلى حدّ أنه يشي بنفسه أمام رقيب في الشرطة، وهو يعلم جيداً أن عناكب فيليثيو ياناكيه وناريهوala للنقل هي حديث الناس جميعاً في بيورا. أرى أن هنالك لحماً مسلوقاً في رأسك يا ليتوما.

- لستُ متأكداً من أنه كان يرسم عناكب بأظفاره - اعتذر مرؤوسه

محزوناً - يمكن أن أكون مخطئاً أيضاً في هذا الأمر، أرجوك أن تعذرني.  
لم أعد متأكداً من أي شيء يا نقبي، لست متأكداً حتى من الأرض  
التي أقف عليها. أجل، معك حق. رأسي أشبه بقدر مملوءة بججاجد.  
ـ بل الأدق أنه أشبه بقدر عناكب ـ ضحك النقيب ـ وانظر الآن من  
أتى. إنه الوحيد الذي كان ينقصنا. صباح الخير يا سيد ياناكيه.  
تفضل، ادخل.

عرف ليتوما من ملامح وجه صاحب شركة النقل أن شيئاً خطيراً قد  
حدث: أهي رسالة أخرى من المافيا؟ كان فيليثيتو شاحباً، تحيط  
بعينيه حالة من الزرقة، وكان فمه مفتوحاً قليلاً بملمح من البلاهة،  
بينما تشي عيناه بالرعب. انتهى من خلع القبعة وبدا شعره مشعشاً كما  
لو أنه نسي تسريحه. وهو الذي كان يمضي دائماً مهندماً على أحسن  
وجه، زرّ صداره بصورة سيئة، بوضعه النز الأول في العروة الثانية. بدا  
مظهره مضحكاً ومهملاً وتهريجياً. لم يكن قادراً على الكلام. لم يردد  
على التحية، واكتفى بإخراج مغلق من جيبه وتقديمه إلى النقيب بيد  
مرتجفة. بدا أكثر ضالة وهشاشة من أي وقت آخر، بل أشبه بقزم.  
ـ يا للعنة العاهرة. قال المفوض من بين أسنانه، وهو يُخرج الرسالة  
من المغلق وببدأ القراءة بصوت عالٍ:

السيد ياناكيه العزيز:

قلنا لك إن عنادك وتحديك في «التييمبو» ستكون له نتائج غير  
لطيفة. قلنا لك إنك ستندم لرفضك أن تكون متعقاً وأن تتفاهم معنا،  
نحن الذين لا نريد إلا تقديم الحماية لأعمالك والأمان لأسرتك. إننا ننفذ  
دوماً ما نقوله. بين أيدينا أحد الأشخاص الأعزاء لديك وسنحتفظ به إلى  
أن تسمح بلي ذراعك وتنتفق معنا.

وعلى الرغم من أننا صرنا نعرف عادتك السيئة بالذهب لتقديم

شكاويك إلى الشرطة، كما لو أن هذه الشرطة تنفع في شيء، إلا أننا نقترح، من أجل مصلحتك، أن تحافظ هذه المرة على التكتم المطلوب. فمن غير المناسب أن يعرف أحد بأننا ناحتجز هذا الشخص لدينا، وخاصة إذا كنت مهتماً بـألا يتعرض للمعاناة نتيجة تهور آخر من جانبك. يجب أن يبقى هذا الأمر بيننا وأن يتم حله بتكتم وسرعة.

ولأنك تحب استخدام الصحافة، عليك أن تنشر إعلاناً في «التييمبو»، تشكر فيه السيد كوتيفو دي آياباكا لتحقيقه العجزة التي طلبتها منه. وهكذا سنعرف أنك موافق على الشروط التي نطرحها عليك، وعلى الفور سيرجع الشخص المذكور سليماً معافي إلى بيته. وفي حالة الرفض، يمكن ألا تعود لعرفة أي شيء عنه.

فليحفظ الله حضرتك.

ومع أن ليتوما لم ير مضمون الرسالة إلا أنه خمن أن رسم العنكبوت يختم تلك الرسالة.

- من هو الشخص الذي اختطفوه يا سيد ياناكيه؟ - سأل النقيب سيلفا.

- مابيل - تلعم صاحب شركة النقل مختنقاً. ورأى ليتوما عيني الرجل الضئيل تبتلان وبضع قطرات من الدموع تسيل على خديه.

- اجلس هنا يا سيد فيليثيتو - تنازل له الرقيب عن الكرسي الذي كان يحتله وساعده على الجلوس.

جلس صاحب شركة النقل وغطى وجهه بيديه. كان يبكي ببطء، دون ضجة. وكان جسده الخائر يهتز في اختلالات مفاجئة. أحس ليتوما بالحزن من أجله. يا للرجل المسكين، لقد وجد أبناء العاهرة الآن حقاً الطريقة لتلبيهن موقفه. ليس لهم حق، يا للظلم.

- يمكنني أن أقترح عليك أمراً يا دون - بدا النقيب متاثراً أيضاً بما

يحدث لفيليسيتو ياناكيه -. لن يمسوا شعرة واحدة من صديقتك. إنهم يريدون إخافتك، ولا شيء أكثر. يعرفون أنه من غير المناسب لهم إلحاق أدنى أذى ببابيل. إن بين أيديهم شخصاً لا يمكنهم المس به . - يا للفتاة المسكينة - تلعم فيليسيتو ياناكيه وسط شهقاته -. أنا المذنب، أنا من أدخلها في هذا الأمر. ماذا سيحل بها، رياه، لن أسامح نفسي أبداً.

رأى ليتوما أن وجه النقيب سيلفا منتفخ الخدين مع ظلال لحية يتحول من الأسى إلى الغضب ثم إلى الشفقة بعد ذلك. رآه يمد ذراعه، يربت على كتف دون فيليسيتو، ويقرب وجهه منه ليقول له بحزن: - أقسم لك بأقدس ما لدى، وهو ذكرى أمي، أنه لن يحدث لها شيء. سيعيدونها سليمة معافاة. وأقسم بقداسة أمي إنني سأحل هذه القضية، وسيدفع أبناء العاهرة هؤلاء، الثمن غالياً. أنا لا أقسم مثل هذا القسم عادة يا دون فيليسيتو. أنت رجل شجاع ثابت الخصيتين، بيورا بأسرها تتقول هذا. لا تضعف الآن، أرجوك بأعز ما لديك.

بدا ليتوما مبهوراً. فما يقوله المفوض حقيقي: إنه لا يقسم أبداً بمثل هذا القسم الذي أقسمه. أحس بمعنوياته ترتفع: سيفعل ذلك، سيفعله. سيقبض عليهم. وسيندم أولئك البراز على اقترافهم مثل تلك النذالة مع هذا الرجل المسكين. - أنا لن أضعف الآن ولا في أي وقت آخر - تلعم صاحب شركة النقل وهو يمسح الدموع عن عينيه.

## VIII

وصل ميكي وإسكونبيتا إلى الموعد بدقة، في الحادية عشرة صباحاً بالضبط. فتحت لهما الباب لوكريثيا نفسها وحيبها بتقبيل خدها. بعد ذلك، بينما هما يجلسان في الصالة، جاءت خوستينيانا لتسألهما أي شيء تقدم إليهما. طلب ميكي قهوة مع قليل من الحليب، وطلب إسكونبيتا كوب مياه معدنية وغازية. كان صباحاً رمادياً انخفضت فيه بعض الغيوم طافية فوق البحر الضارب إلى خضرة قاتمة مع لطخات زيد في خليج ليما. وفي أعلى البحر كانت تُرى بعض مراكب الصيادين. كان ابنها إسماعيل كاريلا يرتديان بدلتين قاتمتين، ويضع كل منهما منديلأً بارزاً في الجيب العلوي الصغير، وتلمع ساعتا رولكس في معصميهم. حين رأيا دخول ريفوبيرتو نهضاً واقفين: «مرحبا يا عما». ففَكَرَ صاحب البيت: «يا للعادة اللعينة». لا يدرى السبب، ولكنه يتضايق من العادة المحدثة التي تنتشر بين شباب ليما منذ بضع سنوات، بالقول «يا عم» و«يا عمّة» لجميع معارف الأسرة وللأشخاص المتقدمين في السن، مختلفين بذلك صلة القرابة لا وجود لها. صافحة ميكي وإسكونبيتا، ابتسموا له، مبديين له مودة باللغة التدفق كي تبدو حقيقة. «كم تبدو في حالة جيدة أيها العم ريفوبيرتو»، «التقاعد جعلك أحسن حالاً أيها العم ريفوبيرتو»، «يبدو أنك رجعت شاباً عدة سنوات مذ رأيناك آخر مرة».

- لديك إطلالة بد菊花ة من هنا - قال ميكى أخيراً وهو يشير إلى الكورنيش وبحر بارانكو - حين يكون الجو صحواً تستطيع رؤية المشهد من ليما حتى تشوريبوس، أليس كذلك أيها العم؟

- أرى ذلك، ويرانا أيضاً جميع أولئك الأشخاص الذين يمارسون رياضة الطيران الشراعي ويلامسون لدى مرورهم نوافذ المبنى - أكد ريفوبيرتو - يمكن لهبة رياح في أي يوم أن تدخل أحد أولئك الطيارين الجريئين إلى البيت.

احتفا «ابنا أخيه» بدعابته بضحكه مبالغ فيها. ففوجي ريفوبيرتو: «إنهم أكثر عصبية مني».

لقد كانوا توأميين ولكنهما لا يتشابهان في شيء سوى طول القامة، والجسدين الرياضيين، وعاداتهما السيئة. أتراهما يمضيان ساعات طويلة بممارسة التمارين، ورفع الأثقال في الصالة الرياضية بنادي بيبيا أو نادي ريفاتاس؟ كيف تتوافق هذه العضلات مع حياة البوهيمية والشراب والكوكائين واللهو المنفلت من عقاله؟ ليكي وجه مدور وسعيد، وفم ثخين بأسنان لاحمة. شديد البياض، كأنه غرينغو، أشقر الشعر، يبتسم بين حين وآخر بصورة آلية، مثل دمية آلية. أما إسكوبيتا بالمقابل فشديد السمرة، له عينان سوداوان نفادتان، وفم بلا شفتين، وصوت نحيل وزاعق. وله سالفان طويلاً كأنهما سالفاً مغني فلامنكو أو مصارع ثيران. «أيهما الأكثر جنوناً؟»، فكر ريفوبيرتو. «ومن منهما الأسوأ؟».

- لا تشتق إلى المكتب الآن وقد أصبح وقتكم كله فراغاً يا عم؟ سأله ميكى.

- الحقيقة أنني لا أشتاق يابن الأخ. فأنا أقرأ كثيراً، وأستمع إلى موسيقى جيدة، وأقضى ساعاتٍ مستغرقاً في كتبى الفنية. فالرسم كان

أحب إلى على الدوام من شركات التأمين، ولا بد أن يكون إسماعيل قد أخبرك بذلك. وصار بإمكانني الآن، أخيراً، أن أكرس له وقتاً طويلاً.  
ـ يا للمكتبة التي تروق لك يا عماه - هتف إسكوبيتا مشيراً إلى الرفوف المرتبة في حجرة المكتب المجاورة ـ. يا لكمية الكتب الشيطانية! هل قرأتها كلها؟

ـ حسن، لم أقرأها كلها بعد ـ «هذا أشدhem فظاظة»، فكر حاسماً الأمر. فبعضها كتب مرجعية فقط، مثل المعاجم والموسوعات التي على ذلك الرف في الركن. ولكن نظريتي تقول إن إمكانية قراءة الكتاب حين يكون موجوداً في البيت أكبر من إمكانية ذلك بوجوده في المكتبات.  
ظل الأخوان ينظران إليه بارتباك، وكانا يتساءلان دون شك عما إذا كان ما قاله دعابة أم أنه يتكلم بجد.

ـ بكل هذه الكمية من كتب الفن التي تملّكها هنا، تكون كمن جلب متاحف العالم كلها إلى مكتبك ـ أصدر ميكي حكمه وهو يبدي وجه رجل ماكر وحكيماً. وأضاف:ـ وهكذا يمكنك زيارة تلك المتاحف دون أن تزعج نفسك بالخروج من البيت، يا للراحة.

ـ حين يُعرف مقدار حماقة ثنائي الأرجل هذين، يُعرف مقدار ذكائهما»، هذا ما خطر لريغوبيرتو. كان من الصعب معرفة أيهما هو الأشد حماقة: هنالك تعادل. ساد صمت ثقيل، بلا نهاية، في الصالة، ولمداراة التوتر، راح الثلاثة ينظرون إلى المكتب. وفكّر ريجوبيرتو: «لقد حان الوقت». هزته رعشة مفاجأة خفيفة، ولكنه كان يشعر بالفضول لعرفة ما الذي سيحدث. راوده إحساس عبشي بأنه محمي بفعل وجوده في ميدانه الخاص، ومحاط بكتبه ولوحاته.

ـ حسن يا عماه ـ قال ميكي وهو يرمي بسرعة كبيرة، وإصبعه في الهواء قبلة فمه ـ، أظن أن الوقت قد حان لنمسك الثور من قرنيه. وأن

ننتقل إلى الحديث في الأمور المؤسفة.

كان إسکوبیتا يواصل شرب المياه المعدنية من كأسه شبه الفارغة مصدرًا لرققة. وكان يحك جبهته دون توقف بينما عيناه الصغيرتان تنظران متقارفتين إلى أخيه وإلى ريفوبيرت.

- مؤسفة؟ لماذا هي مؤسفة يا ميكى؟ - أبدى ريفوبيرت ملامح المفاجأة - ما الذي جرى أيها الشابان؟ هل تورطنا في المشاكل مرة أخرى؟

- أنت تعرف جيداً ما الذي جرى أيها العم - صاح إسکوبیتا برجع غضب في صوته - لا تتظاهر، أرجوك.

- أتعني إسماعيل؟ - تظاهر ريفوبيرت بالبلهة - أتريدان أن نتحدث عنه؟ عن أبيكما؟

- صرنا سخرية ليما وموضع النمائم فيها - أبدى ميكى وجهاً ميلودرامياً، وكان بعض إصبعه الصغرى بهمة. ويتكلّم دون أن يرفع إصبعه من فمه، فيخرج صوته متكلفاً - لا بد أنك لاحظت ذلك، لأن الأحجار نفسها لاحظته. لم تعد هنالك تقولات وثائرات عن أي أمر آخر في هذه المدينة، وربما في البيرو بأسرها. لم أتصور قطًّا، في حياتي، أنه يمكن للعائلة أن تجد نفسها محشورة في مثل هذه الفضيحة.

- وهي فضيحة كان بإمكانك منعها أيها العم ريفوبيرت - أكد إسکوبیتا مكرراً، وبديلاً نوعاً من التبرم بشفتيه. ويبدو أنه انتبه الآن فقط إلى أن كأسه فارغة من الماء. فوضعها على منضدة الوسط الصغيرة بمعبالغة في الحذر.

«الميلودrama أولاً وبعد ذلك التهديد»، قدر ريفوبيرت الوضع. كان قلقاً بكل تأكيد، ولكنه مذهول أكثر فأكثر مما يجري. فهو يراقب التوءمين كمن يراقب ممثلين غير كفوئين، مبدياً ملامح الاهتمام والرصانة. لم

يكن يدرى السبب، لكنه كان يشعر برغبة في الضحك.

- أنا؟ - أبدى الارتباك والتشوش -. لا أدرى ما الذي تعنيه يا ابن أخي.

- أنت الشخص الذى اعتاد أبي الاستماع إليه دائمًا - أكد إسکوبیتا بكثير من التفخيم -. وربما الشخص الوحيد الذى كان يستجيب لنصحه دوماً. أنت تعرف ذلك جيداً يا عماه، فلا تتظاهر. أرجوك. لسنا هنا لنلعب لعبة التكهنات. أرجوك!

- لو أنك نصحته، لو أنك عارضت، لو أنك أريته مدى فظاعة ما سيُقدم عليه، لما تحقق ذلك الزواج - أكد ميكى وهو يضرب على المنضدة. لقد تبدل الآن، ففي عمق عينيه الزرقاء كانت تتلوى أفعى صغيرة. وكان صوته أكثر حدة.

سمع ريفوبيرتو صوت موسيقى آتياً من هناك في الأسفل، من الكورنيش: إنه صفير ناي مجلخ السكاكيين. وهو يسمعه دوماً في الموعد نفسه. إنه رجل دقيق في مواعيده هذا المجلخ. عليه أن يرى وجهه ذات يوم.

- وهو زواح لا يساوي أي شيء على كل حال، لأنه مجرد قمامنة - صحح إسکوبیتا لأخيه - مجرد مهزلة بلا أية قيمة قانونية. وأنت تعرف هذا أيضاً يا عماه، فلسبب ما أنت محام. ولهذا دعنا نتحدث على المكشف، إذا رغبت، وأن نسمى الخبز خبزاً والنبيذنبيذاً.

«ما الذي يحاول قوله هذا السفيه؟»، تسأله دون ريفوبيرتو «كلاهما يستخدم الأمثال على هواه، لسد الفراغ، دون أن يدرك ما تعنيه».

- لو أنك أخبرتنا في الوقت المناسب بما كان يحيكه أبي، لكننا أوقفنا الأمر، حتى لو اقتضى الأمر الاستعانة بالشرطة - ألح ميكى. وكان لا يزال يتكلم بحزن مفتuel، ولكنه لم يستطع الحيلولة دون أن

يُظهر في نبرة صوته بوادر غضب. وقد صارت عيناه شبه العابستين الآن تتوعدان ريفوبيرتو.

ـ لكنك بدلًا من أن تحذرها، ساهمت في تلك المهزلة إلى حدّ أنك وضعت توقيعك كشاهد أيها العم - رفع إسکوبیتا يده وقام بحركة غاضبة في الهواء - وقعت إلى جانب نرسيس. حتى السائق، وهو مجرد أميّ بائس، لطختمه بتلك المؤامرة المشينة، شديدة القبح. عمل سيئ هذا الاستغلال لشخص جاهل. الحقيقة أننا لم نكن ننتظر مثل هذا الأمر منك أيها العم ريفوبيرتو. عقلٍ لا يتقبل أنك ساهمت في ذلك العمل التهريجي السيئ.

ـ لقد خيبت أملنا أيها العم - واصل ميكى وهو يتململ، كما لو أن ملابسه تضغط عليه - هذه هي الحقيقة المحزنة: حي - بـت - أـمل - نـا. مثلما تسمع وقعاها. يحزنني أن أقول لك هذا، ولكن هكذا هي الحال. أقولها لك في وجهك، وبأكبر قدر من الصراحة، لأنها الحقيقة المحزنة. أنت تتحمل مسؤولية رهيبة عما جرى أيها العم. ولكي أكلمك على المكشوف، أنت لا تدري ما الذي تعرض نفسك له. قد تترتب عليك نتائج سيئة في حياتك الخاصة، وفي حياتك الأخرى.

ـ «ما هي حياتي الأخرى؟»، فكر ريفوبيرتو. كان كلاهما قد بدأ برفع الصوت، وتبعثر التوడد المهدب، وتلاشت معه الابتسamas. صار التوءمان الآن جديين جداً، وما عادا يخفيان سخطهما. «هل سيعرضان عليّ أموالاً؟ هل سيهدداًني بقاتل مأجور؟ هل سيُشهران مسدساً في وجهي؟» كل شيء محتمل مع مثل ذلك الثنائي.

ـ لم نأت لتأنيبك - غير إسکوبیتا الاستراتيجية فجأة، وأضفى العذوبة مجدداً على صوته. كان يبتسم، يداعب أحد سالفيه، غير أن ابتسامته بدت ملتوية وحربية.

- إننا نحبك كثيراً يا عماه - أكد ميكي وهو يتنهد -. لقد رأيناك منذ مولدنا، إنك أشبه بأقرب أقربائنا، كل ما هنالك...  
لم يستطع إكمال الفكرة وظل فاغر الفم وبنظرة مرتبكة ، كالمقيد.  
فاختار أن يغض بعض إصبعه الصغرى من جديد ، وبغضب . «أجل ، هذا  
أشدهما جلافة» ، أكد لنفسه دون رигوبيرتو.

- الشعور متبادل يابن الأخ - استغل صمتهم كي يقول جملة -  
اهداً ، أرجوك . ولنتحدث كأشخاص عقلانيين ومحضرين .  
قول هذا سهل عليك وليس علينا - أجابه ميكي رافعاً صوته . وفكـر  
ريغوبيرتو : «طبعاً ، إنه لا يعرف ما الذي يقوله ، ولكنه يصيب في القول  
أحياناً» - فليس والدك وإنما والدنا هو الذي تزوج من خادمتـه ،  
الخلاصية التـشولاـلـجاـهـلـةـ والمـقـمـلـةـ ، وـحـوـلـنـاـ إـلـىـ مـحـطـ سـخـرـيـةـ عـائـلـاتـ  
ليـماـ الـمحـترـمـةـ كـلـهاـ .

- وهو زواج ليست له فوق ذلك أية قيمة ! - تذكر إسکوبیتا من جديد  
وهو يومئ بعصبية - مجرد مهرولة بلا أية قيمة قانونية . وأظن أنك تدرك  
الأمر جيداً أيها العم ريجوبيرتو . لهذا دعك من التظاهر بعدم الفهم ،  
وبأنك لا تلاحظ شيئاً .

- ما الذي على ملاحظته يابن الأخ ؟ - سأله بجدية ، وبفضول يبدو  
ساذجاً - أرغب في أن تشرح لي معنى ما قلتـهـ عن عدم الفهم . إنهـ منـ  
متـرادـفاتـ الغـباءـ ، أـلـيـسـ كـذـلـكـ ؟

- ما أعنيـهـ هوـ أنـكـ قدـ أـدـخـلـتـ نفسـكـ فيـ مشـكـلةـ كـبـيرـةـ بـمـحـضـ  
الـجـهـالـةـ - انـفـجـرـ إـسـكـوبـيـتاـ - مشـكـلةـ اـبـنـةـ عـاهـرـةـ ، إنـ سـمـحـتـ لـيـ  
بـالـفـجـاجـةـ . ربماـ دونـ أنـ تـرـغـبـ فيـ ذـلـكـ ، ولاـعـتـقـادـكـ بـأنـكـ تـقـدـمـ خـدـمـةـ إـلـىـ  
صـدـيقـ مـقـرـبـ . إنـنـاـ نـأـخـذـ بـطـيـبـ نـوـايـاـكـ . ولكنـ هـذـاـ لـاـ يـهـمـ ، لأنـ القـانـونـ  
هوـ القـانـونـ عـلـىـ الجـمـيعـ ، وـفـيـ هـذـهـ القـضـيـةـ أـكـثـرـ مـنـ أـيـ قـضـيـةـ أـخـرىـ .

- يمكن لهذا الأمر أن يتسبب بمشاكل خطيرة، لك ولأسرتك - أبدى ميكي الشفقة بينما هو يتكلم ويدخل في آن واحد إصبعه الصغرى في فمه من جديد -. لا نريد إخافتك، ولكن هكذا هي الأمور. ما كان عليك أن توقع على تلك الورقة بأي حال. أقول لك هذا بطريقة موضوعية ومحايدة. وبكل المحبة طبعاً.

- إننا نقول هذا من أجل مصلحتك أيها العم ريفوبيرتو - حدد أخيه - إننا نفكر في مصلحتك أكثر مما نفكر في مصلحتنا، حتى لو لم تصدق ذلك. ونرجو ألا تنندم على حشر نفسك في هذه الورطة.

«عما قريب سيصلان إلى المستيريا، ولن يتورع هذان الحيوانان عن ضربي»، استنتاج ريفوبيرتو ذلك. فقد كان التوءمان ينساقان للغضب، وصارت نظراتهما وإيماءاتهما وحركاتهما تزداد عدوانية في كل لحظة. فكر: «أيكون عليّ أن أدفع عن نفسي بقبضتي في مواجهة هذا الثنائي؟». لم يعد يتذكر آخر مرة تبادل الكلمات مع أحد. من المؤكد أن ذلك حدث في مدرسة ريكوليكتا، خلال إحدى الفسح بين الدروس.

- لقد قمنا بكل الاستشارات، ومع أفضل المحامين في ليما. ونحن نعرف ما الذي نتحدث فيه. ولهذا نطلب منك أن تؤكد أنك قد تورطت في مشكلة اللعنة العظيمة هذه أيها العم. وآسف لأنني أقول لك هذا بكلام غير مهذب، ولكن علينا نحن الرجال أن ننظر إلى الحقيقة مواجهة. ومن الخير لك أن تكون مطلعاً.

- ستواجه تهمة التواطؤ والتستر - أوضح ميكي بنبرة وقررة، متهدجاً كل كلمة ببطء شديد لمنحها مزيداً من الصبغة القتالية. وكان صوته ناشزاً طوال الوقت وعيناه جمرتين متقدتين.

- قضية إبطال الزواج قد انطلقت ولن يتأخر إصدار الحكم فيها طويلاً - أخبره إسكوبيتا -. ولهذا فإن أفضل ما يمكن أن تفعله هو

مساعدتنا أيها العم ريفوبيرتو. وأعني ما هو أفضل لك طبعاً.

- وبعبارة أخرى، لسنا نريد أن تساعدنا نحن وإنما أن تساعد أبينا أيها العم ريفوبيرتو. أن تساعد صديقك مدى الحياة، الشخص الذي كان أخاً كبيراً لك. وأن تساعد نفسك بالذات، وتخرج من ورطة الألف عاهرة هذه التي أدخلت نفسك وأدخلتنا نحن أيضاً فيها. أدرك هذا؟

- بصراحة، لا يابن الأخ. لست مدركاً أي شيء، اللهم إلا أنكما متواتران - لقد أنبهما ريفوبيرتو في الواقع بجدية، بطريقة محببة، وهو يبتسם لهما -. بما أنكما تتكلمان معاً في وقت واحد، فإبني أعترف لكما بأنكما أصبحتمانى بدوار. لست أفهم جيداً ما تسعين إليه. لماذا لا تهدأ وتوضحا لي بهدوء ما الذي تريدانه مني.

هل ظن التوeman أنهما قد كسبا الجولة؟ لهذا ما يفكرا فيه؟ لأن سلوكهما هدا فجأة. وقد صارا يتأملانه باسمين، وراحوا يهزان رأسيهما ويتبادلان في ما بينهما نظرات التواطؤ والرضي.

- أجل، أجل، اعذرنا، لقد تجاوزنا الحدود قليلاً - اعتذر ميكى -. أنت تعرف أننا نحبك كثيراً أيها العم.

«إن أذنيه كبيستان مثل أذنيّ»، فكر ريفوبيرتو. «ولكن أذنيه تتحركان وأذنيّ لا».

- واعذرنا، بصورة خاصة، إذا كنا قد رفعنا صوتنا عليك - تابع إسكوبيتا وهو يحرك يديه في الهواء بلا مبرر ولا معنى، مثل قرد هائج - ولكن هذا أقل ما يمكن فعله في ظل ما وصلت إليه الأمور، عليك أن تتفهم الأمر. جنون أبي العجوز الخرف أفقدنا صوابنا أنا وميكى.

- الأمر بسيط جداً - أوضح ميكى -. نحن ندرك جيداً أنك، بسبب كون أبي رئيسك في العمل، لم تستطع رفض التوقيع على تلك الورقة كشاهد. وكذلك حال التعيس نرسيس. سيأخذ القاضي ذلك بعين

الاعتبار طبعاً. وسيكون مفيداً كعامل مُخفِّف. لن يحدث لكما أي شيء. المحامون يضمنون ذلك.

«كلمة محامي في فمه أشبه بعصا سحرية»، فكر دون ريفوبيرتو بعرج.

- إنكما مخطئان، فأنا ونرسيس لم نوافق على أن تكون شاهدي أبيكما لأننا مرؤساه في العمل - وبخهما بلطاف -. أنا فعلت ذلك لأن إسماعيل، فضلاً عن كونه رئيسي في العمل، هو صديقي مدى الحياة. وفعل نرسيس ذلك أيضاً للمحبة الكبيرة التي يشعر بها تجاه أبيكما.

- لقد قدمت إذاً جميلاً خبيثاً إلى صديقك المحبب - غصب إسكوبيتا من جديد، وقد صعدت إمارات الغصب الآن إلى وجهه، كما لو أنه أصيب بضربة شمس مفاجئة، فقد صارت عيناه السوداوان تقدحان شرراً - فأبونا العجوز لم يكن يعرف ما الذي يفعله. إنه حرف من ذر زمان. ومنذ زمن لم يعد يعرف أين هو ولا من يكون، وأقل من ذلك معرفته بما يفعله بوقوعه في غواية خلاصية البراز تلك التي يتقدّم معها، إن كنت تسمح لي بهذا التعبير.

«يتنقود؟»، فكر ريفوبيرتو. «لا بد أنها أقبح كلمة في اللغة القشتالية، إنها كلمة تعبق برائحة كريهة ولها شعر».

- أتصدق أن أبي الذي كان سيداً محترماً على الدوام، سيقدم، وهو بكامل قواه العقلية، على الزواج من خادمة. والأدهى أنها أصغر منه بأربعين عاماً؟ - أいでه ميكى فاتحاً فمه كثيراً ومؤهلاً أسنانه الكبيرة.

- أتصدق مثل هذا الأمر؟ - صارت عينا إسكوبيتا الآن حمراوين وصوته منكسرأ -. غير ممكن، أنت رجل ذكي ومتثقف، لا تخدع نفسك، ولا تحاول خداعنا. فلا أنت ولا أحد سواك يمكن له أن يدس إصبعه في فمنا، كي تعرف.

- لو كان لدى شك في أن إسماعيل لا يتمتع بكمال أهليته لما وافقت على أن أكون شاهده يابن الأخ. أرجوكم أن تتركاني أتكلم. أتفهم إنكم متأثرون جداً. وهذا من حقكم بكل تأكيد. ولكن عليكم أن تبدلا جهداً لتقبل الواقع مثلما هي. ليس الأمر كما تظنون. فقد فوجئت كثيراً أيضاً بزواج إسماعيل. مثلما فوجئ الجميع بالطبع. ولكن إسماعيل كان يعرف جيداً ما يفعله، وأنا متأكد تماماً من ذلك. لقد اتخذ قرار الزواج بعقل واع، وبمعرفة مطلقة بما هو مقدم عليه؛ وبنتائج ما فعله.

وبينما هو يتكلم، كان يلحظ تعاظم السخط والعداء في وجهي التوءمين.

- أعتقد أنك لن تتجرأ على أن تردد أمام قاض هذه البلاهات التي تقولها - نهض إسکوبیتا عن المقد وتقدم خطوة نحوه متاججاً. لم يعد الآن محظتناً بل كان يرتجف وجهه شاحب.

لم يتحرك دون ريفوبيرتو من مقعده. كان ينتظر أن يمسك به ويهزه، وربما أن يضرره، ولكن إسکوبیتا كبح نفسه، واستدار وعاد للجلوس. كان وجهه الدور مغطى بالعرق. «ها قد جاءت التهديدات. هل سيأتي الضرب أيضاً؟».

- إذا كنت تريد إخافي فقد توصلت إلى ذلك يا إسکوبیتا - اعترف بهدوئه الثابت -. وبعبارة أدق، توصلتما إلى ذلك كليكم معاً. أتريдан معرفة الحقيقة؟ إنني أموت خوفاً يابني أخي. إنكم شابان، قويان، مندفعان، ولديكم أوراق اعتماد وسابق تبعث الخوف في أشد الناس جرأة. وأنا أعرف سوابقكم جيداً، لأنني كما تتذكرا قد ساعدتكم مرات كثيرة على الخروج من التعقيبات والمخالفات القانونية التي تورطتما فيها منذ شبابكم المبكر. مثلما حدث حين اغتصبتما تلك الفتاة

في بوكوسانا، هل تتذكران؟ أنا مازلت أتذكر حتى اسمها: فلوراليسا روكا. هكذا كان اسمها. ولم أنس كذلك بالطبع أنه كان على أن أقدم خمسين ألف دولار لأبويها، كيلا تدخل السجن بسبب الظرافة التي ارتكبتماها. وأنا أعرف جيداً، أنكم قادران على سحقي إذا قررتما ذلك. وهذا واضح جداً.

تبادل التوءمان النظارات مرتبعين، أبديا الجدية، حاولا الابتسام دون أن يتمكنا من ذلك، وبدا عليهم الغيظ.

- لا تأخذ الأمر على هذا النحو - قال ميكى أخيراً وهو يُخرج إصبعه الصغرى من فمه ويربت على ذراع ريفوبيرتو - إننا في لقاء سادة محترمين أيها العم.

- لن نمد يدنا إليك بالأذى أبداً - أكد إسكونبيتا مذعوراً - نحن نحبك يا عماه، حتى لو لم تصدق هذا. على الرغم من سوء تصرفك معنا بتتوقيعك تلك الورقة المقرفة.

- اتركاني أكمل - هدأهما ريفوبيرتو بحركة من يديه - ولكن على الرغم من خوفي، إذا ما استدعاني القاضي لأصرح بما لدى، فسوف أقول له الحقيقة. إن إسماعيل قد اتخاذ قرار الزواج وهو يعرف تماماً ما الذي يفعله. فإنه ليس مختلاً، وليس خرفاً، ولم تُغير به أرميدا أو أي شخص آخر. لأن أباكم ما زال أكثر فطنة منكم معاً. هذه هي الحقيقة الصارمة يابني الأخ.

сад الغرفة مرة أخرى صمت شوكى كثيف ومشحون. وفي الخارج، كانت الغيوم قد اسودت، وهناك في البعيد، في الأفق البحري، ظهرت أضواء كهربائية يمكن لها أن تكون كشافات سفينة أو بروق عاصفة. كان ريفوبيرتو يشعر باضطراب في صدره. وكان التوءمان لا يزالان شاحبين وينظران إليه بطريقة قال لنفسه معها إنهم يبذلان، دون

شك، جهوداً عظيمة ليكبحا نفسيهما من الانقضاض عليه وسحقه.  
وفكّر: «لقد قدمت لي جميلاً خبيثاً بإدخالي في هذا الأمر يا إسماعيل». كان إسكوبيتا هو أولهما في التكلم. وفعل ذلك خافضاً صوته، كما لو أنه سيخبره بسر، وكان ينظر بثبات إلى عينيه بنظرة تلمع بالازدراة.  
ـ هل دفع لك أبي مقابل هذا؟ هل يمكنني معرفة كم دفع لك أيها العـ؟

باغته السؤال بطريقة أبنته فاغر الفم.

ـ لا تأخذ هذا السؤال على محمل السوء - أراد ميكي إصلاح الأمور، وقد أخفض صوته كذلك وراح يحرك يده لطمأنته - لا داعي لأن تخجل، فلجميع الناس احتياجاتهم. واسكوبيتا يسألك لأنه إذا كان للأمر علاقة بالنقود، فنحن أيضاً على استعداد لأن نكرنك. لأننا في الحقيقة بحاجة إليك أيها العـ.

ـ نحتاج لأن تمثل أمام القاضي، وأن تصرح بأنك وقعت كشاهد تحت الضغط والتهديد - أوضح إسكوبيتا - إذا ما صرحت أنت ونرسيس بهذا، فسوف يمضي كل شيء بطريقة أسرع، وسوف يُلغى الزواج بجرة قلم. ونحن على استعداد طبعاً لكافأتك أيها العـ. وبصورة سخية.

ـ هذه الخدمات يُدفع ثمنها، ونحن نعرف جيداً في أي عالم نعيش - أضاف ميكي - وسيجري كل شيء بتكم مطلق بالطبع.  
ـ أضف إلى ذلك أنك ستقدم جميلاً عظيماً لأبي أيها العـ. فلا بد أن يكون المسكين في حالة من اليأس الشديد الآن، ولا يدرى كيف يفلت من الشرك الذي وقع فيه في لحظة ضعف. نحن سُخرجه من المشكلة وسينتهي به الأمر إلى شكرنا، حقاً.

استمع إليهما ريفوبيرو دون أن يرمش أو يتحرك، كان متـجراً في

المقعد، كما لو أنه مستغرق في تأملات رصينة. وكان التوءمان ينتظران رده متلهفين. تطاول الصمت لما يقارب الدقيقة. وفي البعيد كان يُسمع بين حين وآخر صفير ناي المجلخ الذي صار خافتًا جداً.

- سأطلب منكما أن تخرجا من هذا البيت، وألا تعودا إلى وضع أقدامكما هنا - قال دون رигوبيرتو أخيراً، بهدوئه الدائم نفسه - الحقيقة أنكما أسوأ مما كنت أظنه أيها الشابان. مع أنه إذا كان هناك من يعرفكما جيداً، فهو أنا، مذ كنتما ترتديان البنطلونات القصيرة. - إنك تهيننا - قال ميكي - لا تخطئ يا عماه. إننا نحترم شيبتك، ولكن إلى هذا الحد وليس أكثر.

- لن نسمح لك - أكد إسكوبيتا وهو يضرب المنضدة بقبضته - . ول يكن معلوماً لديك أنك ستختسر في كل الحالات. فتقاعدك نفسه ما زال تحت الدراسة.

- لا تنس من سيكونان صاحبي الشركة فور ارتعاش ساق العجوز المجنون - هدده ميكي.

- طلبت منكما أن تغادرا - قال ريجوبيرتو وهو ينهمض ويشير إلى الباب - ولا تعودا للمجيء أبداً إلى هذا البيت. لا أريد رؤيتكم بعد اليوم.

- أتظن أنك ستطردنا هكذا من بيتك يا شقة القواد؟ - قال إسكوبيتا وهو ينهمض أيضاً ويشد قبضتيه.

- اصمت - قاطعه أخيه وهو يمسكه من ذراعه - . لا يمكن للأمور أن تنحط إلى مشاجرة. اعتذر من العم ريجوبيرتو لشتمك إياه يا إسكوبيتا.

- لا حاجة إلى ذلك. يكفي أن تغادرا ولا تعودا - قال ريجوبيرتو.

- إنه هو من أهاننا يا ميكي. إنه يطردنا من بيته كالكلاب الجرباء. أتراك لم تسمعه؟

- اعتذر منه، يا للعنة! - أمره ميكي وهو ينهض واقفاً أيضاً -. الآن بالذات، اطلب منه العذرة.
- لا بأس - أذعن إسکوبیتا، وكان يرتعش مثل ورقة -. أطلب منك الصفح عما قلتة يا عماه.
- لقد سامحتك - أكد ریغوبیرتو - لقد انتهت هذه المحادثة. شكرأ لزيارتكم أيها الشباب. وطاب صباحكم.
- سنتبادل الحديث مرة أخرى، بهدوء أكبر - قال ميكي مودعاً -. يؤسفني أن الأمر انتهى على هذا النحو أيها العم ریغوبیرتو. كنا نرغب في التوصل إلى اتفاق ودي معك. ونظراً إلى عدم تساهلك، لا بد من نقل القضية إلى السلطة القضائية.
- وليس هذا في مصلحتك، أقولها لك بكل طيب نية لأنك ستندم - قال إسکوبیتا -. من الأفضل أن تعيد التفكير في الأمر.
- هيا يا أخي، اصمت - أمسك ميكي أخيه من ذراعه وسحبه باتجاه الباب الخارجي.
- ما إن خرج التوءمان من البيت حتى رأى ریغوبیرتو ظهور لوکریثیا وخوستینیانا بوجهين مذعورين. وكانت هذه الأخيرة تحمل بين يديها، كسلاح حاسم، مدقّة عجن الدقيق.
- لقد سمعنا كل شيء - قالت لوکریثیا وهي تتأبّط ذراع زوجها -. لو أنهم أقدما على عمل أي شيء لك، كنا جاهزتين للتدخل والانقضاض على الضبعين.
- آه، من أجل هذا تحملين مدقّة خفق العجين - سأّل ریغوبیرتو، فأومأت خوستینیانا بالإيجاب ملوحة في الهواء بهراوتها المرتجلة.
- وأنا كنت أحمل في يدي قضيب تسعير نار المدفأة - قالت لوکریثیا -. كنا سنتنزع عيون هذين المحتالين. أقسم لك يا حبي.

- لقد أحسنتُ التصرف ، أليس كذلك؟ - أبرز دون ريفوبيرتو صدره - لم أسمح لنفسي بالخوف في أية لحظة من ثنائي المتخلفين.
- لقد تصرفت كسيد عظيم - قالت لوكريثيا - وقد هزم الذكاء القدرة البهيمية في هذه المرة على الأقل.
- تصرفت كرجل يعطي الشعر صدره يا سيدتي. قالت خوستينيانا كصدى لقول لوكريثيا.
- لا أريد أن تصل كلمة واحدة من هذا كله إلى فونتشيتو - أمر ريفوبيرتو - لدى الصبي ما يكفي من وجع الرأس وليس بحاجة للغزيد . وافقنا على كلامه، وفجأة، في آن واحد، انفجر الثلاثة في الضحك.

## IX

بعد ستة أيام من نشر إعلان فيليثيتو ياناكيه في جريدة «التييمبو» (وهو إعلان مُغفل، خلافاً لإعلانه الأول)، لم يُبدُّ الحاطفون أثراً لوجودهم. وعلى الرغم من الجهد الذي بذلها ليتوما والنقيب سيلفا، إلا أنهما لم يجدا أي أثر لما بليل. لم يكن خبر الاختطاف قد وصل إلى الصحافة، وكان النقيب سيلفا يقول إن مثل هذه العجزة لا يمكن أن تستمر، فمن الحال، في ظل الاهتمام الذي تحظى به قضية صاحب نارييهوالا للنقل في بيرو بأسرها، لا يحتل حدثاً بمثل تلك الأهمية صدارة أخبار الجرائد والإذاعة والتلفزيون سريعاً. وفي أية لحظة قد يُعرف كل شيء، ويصاب العقيد راسكاتشوتشا بنوبة غضب عظيمة أخرى، مع ما يرافقها من توبيخ وتجریح ورفسات عصبية.

كان ليتوما يعرف رئيسه بما يكفي لأن يدرك مدى القلق الذي يشعر به المفوض، حتى ولو لم يقل ذلك، وأبدي الثقة بالنفس وواصل التفوّه بتعليقاته النابية والداعرة المعهودة. لا بد أن رئيسه يتساءل، مثلاً يتساءل هو نفسه، عما إذا لم تكن يد ما في العنكبوت قد تجاوزت الحد مع تلك السمراء، عشيقة دون فيليثيتو، وصارت في عداد الموتى ومدفونة في إحدى مزابل الضواحي. ففي كل مرة يلتقيان فيها بصاحب شركة النقل الذي تستنزفه تلك النكبة، كان الرقيب والنقيب يتأثران للازرقاق المحيط بعينيه، وارتজاف يديه، ولكيفية انقطاع صوته في منتصف

جملة وتوقفه كمحبول، ينظر إلى الفراغ برعبراء، صامتاً وأسير جنون فظيع يتبدى في عينيه الصغيرتين الحادتين. «في أية لحظة قد تصيبه سكتة قلبية ويظل متختباً هنا»، كان ليتوماً يفكر بخوف. وقد صار رئيسه يدخن الآن ضعف عدد السجائر التي كان يدخنها من قبل، ويستبقي أعقاب السجائر بين شفتيه ويعضها، وهو ما لا يفعله إلا في حالات القلق العظيم.

- ماذا سنفعل إذا لم تظهر السيدة مابيل يا نقبي. أقول لك إن هذه القضية تؤرقني كل ليلة.

- ستنتحر يا ليتوماً - يحاول المفوض أن يمزح -. ستلعب لعبة الروليت الروسية، وهكذا نغادر هذا العالم بخصيتيين قويتين، مثلما حدث لسيميناريو مراهنتك. ولكنها ستظهر، لا تكن متشائماً جداً. فهم يعرفون من الإعلان في «التييمبو»، أو يظنون على الأقل، أنهم قد كسروا إرادة ياناكيه أخيراً. ولا بد أنهم يريدونه الآن أن يعاني قليلاً كي ينجزوا العمل على أحسن وجه. ليس هذا هو ما يقلقني يا ليتوماً. أتعرف ما الذي يقلقني بال مقابل؟ أن يفقد دون فيليشيتو عقله، ويخطر له فجأة أن ينشر إعلاناً آخر يتراجع فيه عن السابق ويقوض الخطة كلها. لم يكن من السهل إقناعه. فقد تطلب الأمر من النقيب عدة ساعات في تقديم السيناريوهات المحتملة من أجل نشر الإعلان في جريدة «التييمبو» ذلك اليوم بالذات. تحدث إليه أولاً في المفوضية، وبعد ذلك في «الرجل الغريبة»، وهي حانة أخذاه إليها، هو ولি�توماً، بما يشبه الجرجرة. رأيه يشرب، واحداً بعد آخر، نصف دستة من أكواب كوكتيل الخروب، على رغم من أنه لا يشرب أبداً، كما كرر لهما عدة مرات. فالكحول يؤذى معدته، يسبب له حرقة وإسهالاً. ولكنه مختلف الآن. فقد عانى انكساراً رهيباً، هو الأشد ألماً في حياته، والكحول يكبح

الرغبة في نوبة بكاء أخرى.

- أرجوك أن تصدقني يا دون فيليثيتو - كان المفوض يشرح له مبدياً المزيد من الصبر - أنا لا أطلب منك أن تستسلم في مواجهة المافيا، أفهم ذلك. لا يمكن أن يخطر لي أن أنسنك بأن تدفع لهم الإتاوة التي يطلوبونها.

- هذا ما لن أفعله أبداً - كرر صاحب شركة النقل مرتجاً وحاسماً - حتى لو قتلوا مابيل واضطربت إلى الانتحار كيلاً أعيش مع هذا الشعور بالذنب في ضميري.

- لست أطلب منك سوى التظاهر، لا شيء أكثر. أجعلهم يعتقدون أنك وافقت على شروطهم - ألح النقيب - ليس عليك أن تتخلى لهم عن سنتٍ واحد، أقسم لك بأمي. وبخوسيفيتا، تلك الجميلة. إننا بحاجة إلى أن يطلقوا سراح الفتاة، ويمكن لهذا أن يجعلنا نلتمس آثارهم. أعرف جيداً ما أقوله لك، صدقني. إنها مهنتي وأعرف بالتفصيل كيف يتصرف أولئك المجرمون. لا تكون عنيداً يا دون فيليثيتو.

- لست أفعل هذا عناداً أيها النقيب - كان صاحب شركة النقل قد هدأ، وبدت على وجهه الآن ملامح تراجيكوميدية، لأن خصلة شعر قد تدللت على جبينه وغطت جزءاً من عينيه اليمنى. وبدا أنه لم ينتبه إليها - أنا أحب مابيل كثيراً، أحبها. قلبي يتمزق لوقوع شخص مثلها، ليس له أية علاقة بهذه القضية، ضحية شرور أولئك المجرمين وجشعهم. ليس الأمر متعلق بي، عليك أن تفهمني أيها النقيب. لا يمكنني أن أسيئ إلى ذكري أبي.

ظل صامتاً لبرهة، يتأمل كأسه الفارغة من شراب الخروب، فظن ليتوما أنه سيبدأ بالتباهي مرة أخرى. لكنه لم يفعل. بل أطرق برأسه، دون أن يراهما، كما لو أنه لا يتوجه إليهما وإنما يكلم نفسه، وراح

الرجل الضئيل المحشور في جاكيته وفي صداره الرمادي يتذكر أبيه. كانت هناك بضع ذبابات زرقاء تزنُّ محومة حول رأسه؛ وفي البعيد يُسمع جدال مرتفع الصوت بين رجلين حول حادث سير. كان فيليثيتو يتكلم بصورة متقطعة، يبحث عن الكلمات لإضفاء التفخيم اللازم على ما يرويه، ويستسلم للعاطفة أحياناً. سرعان ما أدرك ليتوما والنقيب سيلفا أن ذلك الياناكوني المدعو ألينيو ياناكيه، من مزرعة ياباتيرا بتشولوكاناس، هو أكثر شخص أحبه فيليثيتو في حياته. ليس لأن دماءه نفسها تجري في عروقه وحسب، وإنما كذلك لأنه تمكّن بفضل ذلك الأب من الوقوف على قدميه والصعود انطلاقاً من الفقر، أو بعبارة أدق، من البؤس الذي ولد وأمضى طفولته فيه - وهو بؤس لا يمكن لهما حتى أن يتصوراه - إلى أن صار رجل أعمال، يملك أسطولاً كبيراً من السيارات والشاحنات والحافلات، وشركة نقل معتمدة تمنع السمو باسم عائلته المتواضع. لقد اكتسب احترام الناس، ومن يعرفونه يعرفون أنه محترم ونزيه. وقد تمكّن من توفير تعليم جيد لابنيه، وحياة كريمة، ومهنة، وسيترك لهما ناريهولا للنقل، الشركة المحترمة جداً بين زبائنها ومنافسيها. وهذا كله لم يتوصّل إليه بجهوده وحدها، وإنما بتضحيات ألينيو ياناكيه. فهو لم يكن أبوه وحسب، بل كان أمه وأسرته أيضاً، لأن فيليثيتو لم يعرف قط المرأة التي جاءت به إلى الدنيا، كما أنه لم يعرف أي قريب آخر له. بل إنه لم يكن يعرف سبب ولادته في ياباتيرا، وهي قرية زنوج وخلاصيين، حيث كان آل ياناكيه - هو وأبوه - يبدوان غريبين لكونهما كروبيلين، أي خلاسيين تشولو. كانوا يمارسان حياة منعزلة عن الآخرين، لأن زنوج ياباتيرا ما كانوا يتصادقون مع ألينيو وابنه. فقد عاشا وحيدين على الدوام، إما لأنهما بلا أسرة، وإما لأن أباهم لم يكن يرغب في أن يعرف فيليثيتو من

هم أعمامه وأبناء عمومته، وأين يعيشون. إنه لا يتذكر، لأنَّه كان صغيراً جداً عندما حدث ذلك، ولكنه يعرف أنَّ أمه قد ذهبت بعد قليل من ولادته، ومن يدرِّي إلى أين راحت ومع من. ولم تظهر بعد ذلك قطُّ وهو يتذكر، مذ صار في رأسه ذاكرة، أنَّ أباًه كان يعمل كبغل في قطعة الأرض التي قدمها إليه السيد المالك، وفي مزرعة ذلك السيد، دون عطلة يوم أحد أو أعياد، طيلة أيام الأسبوع وطيلة شهور السنة. وكان ألينيو ياناكِيه يُنفق كل ما يتلقاه، وهو قليل، من أجل إطعام فيليثيتو، وذهابه إلى المدرسة، ومن أجل أنْ يوفر له حذاء وملابس ودفاتر وأقلام. وفي بعض الأحيان كان يهدى إليه لعبة ما في عيد الميلاد، أو يعطيه قطعة نقود كي يشتري مصاصة أو حلوي. لم يكن من أولئك الآباء الذين يظلون طيلة الوقت يمنون أبناءهم وينثثرون عليهم بالعجزة. كان أباً قليل الكلام، متقدِّساً، لم يقبله أو يعاقبه قطُّ، ولم يروِ له دعابات لإضحاكه. ولكنه حرم نفسه من كل شيء كيلا يكون ابنه حين يكبر أمياً مثله. لم يكن يوجد في ياباتيرا آنذاك ولو مدرسة صغيرة. فكان على فيليثيتو أن يعشى من بيته حتى تشلوكاناس، حوالي خمسة كيلومترات ذهاباً وخمسة أخرى إياباً، ولم يكن يجد على الدوام سائقاً مُحسناً يسمع له بالصعود إلى شاحنته ويوفِّر عليه تلك المسيرة. لا يتذكر أنه تغيب يوماً واحداً عن المدرسة. وكان يحصل دوماً على درجات جيدة. ولأنَّ أباًه لا يعرف القراءة، كان على فيليثيتو نفسه أن يقرأ له ما يقوله سجله المدرسي، وأن يشعر بالسعادة حين يرى ألينيو ينتفع كطاووس وهو يسمع تعليقات ثناء المعلمين. ومن أجل أن يتمكن فيليثيتو من مواصلة المدرسة الإعدادية، ولأنَّه لا وجود لكان شاغر في مدرسة تشلوكاناس الوحيدة، اضطرا إلى العجيء إلى ببورا. وقد أسعد ألينيو أن ابنه فيليثيتو قد قبل في وحدة سان ميفيل المدرسية في ببورا، وهي

المدرسة الرسمية الأشهر في المدينة. وبأمر من أبيه، أخفى فيليثيتو عن زملائه وأساتذته أن أباه يكسب عيشه من تحويل البضائع وتفریغها في السوق المركزي، هناك في غاينانثيرا، وأنه يعمل في الليل بجمع القمامه في شاحنات البلدية. كل تلك الجهد من أجل أن يتعلم ابنه ولا يكون، حين يكبر، ياناكونياً ولا حملاً ولا زبلاً. والنصيحة التي قدمها إليه ألينيو قبل موته، «لا تسمح لأحد قطّ بأن يُذلك يابني»، كانت تلك هي عملة حياته الصعبه. وهو لن يسمح الآن كذلك بأن يُذلك أولئك اللصوص مشعلي الحرائق والخاطفين وأبناء السبع عاهرات.

- أبي لم يطلب صدقة قطّ، ولم يسمح لأحد بأن يُذلك - أنهى كلامه.  
- لا بد أن أباك كان شخصاً محترماً مثلك يا دون فيليثيتو - مالقه المفوض - . ولن أطلب منك أبداً أن تخونه، أقسم لك بذلك. كل ما أطلبه منك هو القيام بمراوغة، بشراك، أن تنشر في جريدة «التميمبو» هذا الإعلان الذي طلبوه منك. سيظلون أنهم قد تمكنا من لي ذراعك، وسيطلغون سراح مابيل. هذا هو المهم الآن. وهكذا سيكتشفون أنفسهم وستتمكن من القبض عليهم.

وافق فيليثيتو أخيراً. وقام بالتعاون من النقيب بتحرير النص الذي سيظهر منشورةً في صحيفة اليوم التالي.

رسالة شكر للسيد كاوتييفو دي آياباكا

أشكر من أعماق روحي السيد كاوتييفو آياباكا الذي حقق لي، بكرمه اللامتناهي، المعجزة التي طلبتها. وسائل ممتناً له دائمًا ومتابعاً كافة الخطوات التي يشير على بها بحكمته ورحمته العظيمتين.

من مخلص

في تلك الأيام، وبينما هم ينتظرون إشارة ما من مافيوسي العنبوت، تلقى ليتوما رسالة من الأخوين ليون. فقد أقنعا ريتا، زوجة المونو، بأن

تسمح له بالخروج ليلًا، وهذا يعني أنهم بدل الغداء سيتناولون العشاء معاً يوم السبت. التقوا في حانة، بالقرب من دير راهبات مدرسة لورديس. خلع ليتوما زيه الشرطي في نزل الزوجين كالانتشى وذهب بملابس مدنية، بالبدلة الوحيدة التي يملكها. أخذها أولاً إلى المصبحة كي يغسلوها ويكونوها. لم يضع ربطة عنق، لكنه اشتري قميصاً من متجر يقوم بتصفية موجوداته. مع حذاءه عند كشك لبيع الصحف، واستحم في حمام عمومي قبل توجهه إلى الموعد مع ابني عمه.

من أجل التعرف إلى المونو، احتاج إلى جهد أكبر مما تطلبه منه التعرف إلى خوسيه. لأن المونو قد تغير فعلاً. ليس بدنياً فقط، وإن صار أكثر بدانة بكثير مما كان عليه في شبابه، وصار شعره قليلاً، وهناك أكياس بنفسجية تحت عينيه وتتجعدات عند السالفين وحول الفم وفي العنق. وكان يرتدي ملابس «سبور» أنيقة، وينتعل حذاء شديد البياض، ويوضع في معصمه سلسلة ذهبية وتتدلى سلسلة أخرى على صدره. لكن أكبر تبدل طرأ عليه هو أساليبه الطمئنة والهادئة، كشخص واثق ثقة عظيمة بنفسه لأنه اكتشف سر الوجود وطريقة التعايش على أحسن حال مع الجميع. لم يبق فيه أي أثر لحركات العفرة والتهريج التي كان يقوم بها في صباه والتي اكتسب بها لقب المونو [القرد].

عائقه بكثير من المحبة: «يا لروعه اللقاء بك من جديد يا ليتوما!». لم يعد ينقصنا إلا أن نغنى نشيد المنيعين - هتف خوسيه، ثم صفق بيديه طالباً من الصيني أن يأتيهم بزجاجتي بيرة ساحليتين كبيرتين ومبردتين جيداً.

كان اللقاء في بدايته على شيء من الوقار المتكلف والشاق، فبعد كل مقارنة للذكريات المشتركة يسود فاصل طويل من الصمت، ترافقه ضحكات مفتصلة ونظرات عصبية. لقد انقضى زمن طويل، وقد عاش

كل منهم حياته، ولم يكن سهلاً عليهم بعث الرفاقية القديمة. كان ليقوماً يتعلّل بقلق على مقعده، ويقول لنفسه إنه ربما كان من الأفضل تجنب ذلك اللقاء. فهو يتذكّر بونيافاثيا، وييتذكّر خوسيفينو، فينكّمش شيء في معدته. وعلى الرغم من ذلك، ومع توالي إفراغ زجاجات البيرة التي يرفقونها بالرز المقلبي والمعكرونة الصينية ولحم البط ذهبي اللون، وحساء الشيشبرك الصيني، والقرىدس المقلبي، راحت الحماسة تسري في دمائهم، وأخذت ألسنتهم تنفلت. بدؤوا يشعرون بالاسترخاء والراحة. روى خوسيفه والمونو بعض الدعابات، وحثّ ليتوما ابن عمه على القيام ببعض حركات المحاكاة التي كانت طبقة الرئيسي في شبابه. أن يقلد، مثلاً، عظات الأب غارسيا في كنيسته، كنيسة عذراء الكارمن القائمة في ساحة ميرينو. تواني المونو في بادئ الأمر، ولكنه سرعان ما تحمس وبدأ يعظ ويطلق التهديدات التوراتية الصاعقة، مقلداً الكاهن الإسباني العجوز، هاوي جمع الطوابع والنزرق، والذي تتحدث الأسطورة عن أنه قد أقدم مع جماعته من المتدينين الهائجين على إحراق أول ماخور في تاريخ بيورا، وكان يقوم في وسط الرملة في الطريق إلى كاتاكاوس، وكان يديره والد تشونغا تشونغيتا. يا للأب غارسيا المسكين ! كم مرّر المنيعون حياته وهم يصرخون عليه في الشوارع: «حارق ! حارق !». لقد حولوا السنوات الأخيرة من حياة الرجل النزرق إلى جحيم من العذاب. فكان كلما التقى بهم في الشارع، يطلق عليهم سباباً بصوته الحلقى: «كسالى ! سكيرون ! منحلون !». آyi، يا للضحك.

يا لتلك الأزمنة، لقد مضت إلى غير رجعة كما تقول أغنية التانغو. أنهوا العشاء بتناول حلوي برتقال صينية، ولكنهم واصلوا الشرب، كان رأس ليتوما قد تحول إلى دوامة هادئة وبهيجية. كل شيء كان يدور، وتأتيه بين الفينة والفينية ثناوّبات لا يمكن له كبحها، وتوشك

أن تخلع عظام فكيه. وفجأة، وسط ذلك النوع من الإغفاء شبه الوعي، انتبه إلى أن المونو بدأ يتكلم عن فيليثيتو ياناكيه. كان يسأله عن شيء ما. أحس بأن بداية سُكْرِه تلك قد راحت تتبعثر، واستعاد السيطرة على وعيه.

- ماذا جرى للمسكين فيليثيتو يابن العم؟ - كرر المونو - لا بد أنك تعرف شيئاً ما. أما زال مصراً على عدم دفع الإتاوة التي يطلبونها منه؟ ميفيل وتيبورثيو قلقان جداً على أبيهما، فالأمر يشغل بال البنين. إنهم يحبان عجوزهما على الرغم من أنه كان قاسياً جداً معهما. يخشيان أن يقتله المافياويون.

- أنت تعرف أبني دون فيليثيتو؟ سأله ليتوما.

- ألم يخبرك خوسيه؟ - أجابه المونو - إننا نعرفهما منذ وقت طويل. كانوا يأتيان بسيارات ناريهوا لا للنقل إلى الورشة من أجل الإصلاح والصيانة - بدا خوسيه متضايقاً من بوج المونو - إنهم طيبان. هذا لا يعني أننا أصدقاء جداً. إنهم من المعرف وحسب.

- لقد لعبنا القمار معهما مرات عديدة - أضاف المونو - تيبورثيو ماهر جداً بألعاب الفرد.

- أخبراني ببعض الأمور عن هذين الشخصين - ألح ليتوما - لم ألتقي بهما سوى مرتين، حين جاءا لتقديم أقوالهما في المفوضية.

- إنهم شخصان طيبان جداً - أكد المونو - ويعانيان كثيراً مما يتعرض له أبوهما. على الرغم من أن العجوز كان متسلطاً في تعامله معهما كما يبدو. لقد جعلهما يقمان بكل الأعمال في شركته، بدءاً من الأعمال الدنيا. ومازال يستخدمهما كسائقين، ويقال إنه يدفع لهما مثلما يدفع للسائقين الآخرين. لا يقدم لها أي تفضل، على الرغم من أنهم أبناء. لا يدفع لهم ولو قرشاً واحداً زيادة، ولا يقدم لهم أية

مكافآت. وقد أدخل ميغيليتو، كما تعرف، إلى الجيش، ويقال إنه فعل ذلك لتقويته، لأنه كان آخذاً بالانحراف. يا له من عجوز!

- دون فيليثيتو هو واحد من أولئك الأشخاص النادرين الذين لا يظهرون إلا بين فترة وأخرى في الحياة - أُعلن ليتوما - إنه أكثر من عرفتهم استقامة. كان يمكن لأي رجل أعمال آخر أن يدفع تلك الإتاوة ويزبح ذلك الكابوس عن كاهله.

- حسن، على كل حال، ميغيليتو وتيبورثيو سيرثان نارهوا لا للنقل وسيخرجان من الفقر - حاول خوسيه أن يغير الموضوع - وأنت كيف أحوالك يابن العم؟ أعني في الأمور النسائية مثلاً. أليدik امرأة... عشيقة... عشيقات؟ أم أنك تتردد على العاهرات فقط؟

- لا تتجاوز الحد يا خوسيه - أومأ المونو مبالغًا كما في الأزمنة القديمة - انظر كيف أربكت ابن العم بهذا الفضول سيئ الظن الذي تبديه.

- لا تكون مازلت تشعر بالحنين إلى تلك التي حولها خوسيفينو إلى عاهرة يابن العم؟ - ضحك خوسيه - كانوا يدعونها سيلفاتيكا، أليس كذلك؟

- لم أعد أتذكر من تكون - أكيد ليتوما وهو ينظر إلى السقف.

- لا تُذكر ابن العم بأمور حزينة، تشي غوا، يا خوسيه.

- من الأفضل أن نتحدث عن دون فيليثيتو - اقترح عليهمما ليتوما - الحقيقة أنه رجل قوي الشخصية وشجاع. إنه يصيّبني بالذهول.

- ومن لم يصبه الذهول منه، لقد تحول إلى بطل بيورا، وصار مشهوراً مثل الأميرال غراو - قال المونو - ربما بعد أن تحول الآن إلى شخصية واسعة الشعبية لم يعد بإمكان المافيا أن تتجروا على تصفيته.

- بالعكس، سيحاولون تصفيته لأنه صار مشهوراً. لقد جعلهم

أضحوكة، ولا يمكنهم التسامح مع ذلك - قال خوسيه - إن شرف المافياوين في اللعبة يا أخي. إذا ما نجح دون فيليثيتو في ما هو فيه، فسوف يتوقف جميع رجال الأعمال الذين يدفعون عن الدفع غداً بالذات، وسوف تفلس المافيا. أتظنن أنهم سيتحملون ذلك؟

هل صار ابن عمه خوسيه عصبياً؟ وانتبه ليتوما، وسط تلاؤبه، إلى أن خوسيه بدأ مجدداً برسم خطوط بطرف ظفره. لم يركز بصره، كيلا يستوحى أنه يرسم عناكب، مثلما اعتقاد في المرة السابقة.

- ولماذا لا تفعلون شيئاً يابن العم؟ - احتاج المونو - أعني أنتم في الحرس الأهلي. لا تغضب يا ليتوما، ولكن الشرطة، هنا في بيورا على الأقل، ليست إلا مظاهر فارغة. لا تفعل شيئاً في أي شأن ولا تنفع إلا في طلب إكراميات.

- ليس في بيورا وحدها - جarah ليتوما - إننا مجرد مظاهر فارغة في البيرو بأسرها يابن العم. ولكنني أنبهك إلى أمر، فأنا على الأقل، وخلال كل السنوات التي أمضيتها وأنا أرتدي الزي الشرطي، لم أطلب بعد أية إكرامية من أحد. ولهذا أعيش حياة أشد بؤساً من متسلول. فلنرجع إلى الحديث عن فيليثيتو، الحقيقة أن القضية لا تتقدم لأننا لا نملك إلا القليل من الوسائل التقنية. اختصاصي الخط الذي عليه أن يساعدنا، هو في إجازة الآن، إذ أجريت له عملية بواسير. التحقيق برمته متوقف بسبب مؤخرة ذلك السيد المتأذية، فتصور.

- أتعني أنه ليس لديكم حتى الآن أي أثر يقود إلى المافياوين؟ - ألح المونو. وكان يمكن لليتوما أن يقسم بأن خوسيه كان يتسلل بعينيه كيلا يواصل أخوه الحديث في الموضوع نفسه.

- لدينا بعض الآثار، ولكن لا وجود لشيء مضمون منها - حدد الرقيب - لكنهم سيقدموه عاجلاً أو آجلاً على خطوة تكشفهم. المشكلة

أنه لا توجد، في بيورا الآن، مافيا واحدة وإنما عدة مafيات. ولكنهم سيقعون. إنهم يتمادون دوماً وينتهي بهم الأمر إلى كشف أنفسهم. لسوء الحظ أنهم لم يقترفوا أي خطأ حتى الآن.

عاد يوجه إليهما أستلة عن تيبورثيو وميفيليتو، ابني صاحب شركة النقل، وبدا له مجدداً أن خوسيه لا يروقه هذا الموضوع. وفي إحدى اللحظات برع تناقض بين الأخرين:

- الحقيقة أننا تعرفنا عليهما منذ زمن قصير جداً. صار خوسيه يلح بين لحظة وأخرى.

- كيف منذ وقت قصير إذا كنا نعرفهما منذ سبع سنوات على الأقل - صحيح له المونو -. ألم تعد تتذكر تلك المرة التي أخذنا فيها تيبورثيو إلى تشيكلايو في إحدى شاحناته الصغيرة؟ كم مضى على ذلك؟ زمن طويل. حين كنا نحاول تلك الصفقة التي لم تتحقق.

- أي صفقة يابن العم؟

- بيع آلات زراعية للجمعيات والتعاونيات الزراعية في الشمال - قال خوسيه -. لم يكن أولئك العاهرون يدفعون قط. يحتاجون على جميع الكمبيوترات. لقد خسرنا استثمارنا كله تقريباً.

لم يلح ليتوما. وبعد أن ودع المونو وخوسيه في تلك الليلة وشكراهما على المأكولات الصينية، ركب في حافلة نقل عام حتى الثزل، واندنس هناك في الفراش. ظل مستيقظاً لوقت طويل يفكر بابني عمه. ولاسيما خوسيه. لماذا يشعر بالاستياء منه إلى هذا الحد؟ هل بسبب الرسوم التي يُحدثها بظفره على المنضدة فقط؟ أم أن هنالك شيئاً مريباً حقاً في سلوكه؟ لقد كان يبدو غريباً، كمن يجفل، كلما دار الحديث عن ابني دون فيليثيتو. أم أنها محض توجسات منه بسبب ضياعهما هو والنقيب في التحريات؟ أيخبر النقيب سيلفا بشكوكه هذه؟ من الأفضل

الانتظار إلى أن يصبح ذلك كله أقل ضبابية ويتحذشكلاً متكاملاً.

ومع ذلك فإن أول ما فعله في صباح اليوم التالي هو رواية كل ما جرى لرئيسه. استمع إليه النقيب سيلفا باهتمام، دون أن يقاطعه، وهو يدون ملاحظات في دفتر جيب وبقلم رصاص صغير جداً يختفي بين أصابعه. وأخيراً دمم: «يبدو لي أنه لا وجود لشيء جدي هنا. لا يوجد أي أثر يمكن تتبعه يا ليتوما. أبنا عنك ليون يبدوان نظيفين لا غبار عليهم ولا قش». ولكن ظل ساهماً، صامتاً، بعض قلم الرصاص كما لو أنه سيجارة. وفجأة اتخذ قراراً:

- أتدري يا ليتوما؟ سوف نتبادل الحديث مجدداً مع أبني دون فيليثيتو. بعد ما رويته لي صرت أرى أننا لم نستخرج من هذا الثنائي بعد كل ما لديه من عصارة. يجب عصرهما أكثر قليلاً. حدد لهما موعداً في الغد، وكل منهما على حدة بالطبع.

في تلك اللحظة طرق حارس مدخل المفوضية باب المقصورة وأطل بوجهه الشاب والأمرد من فتحة الباب الضيقة: السيد فيليثيتو ياناكيه يتصل هاتفياً يا سيدى النقيب. كان الاتصال مستعجلًا جداً. رأى ليتوما المفوض وهو يرفع سماعة جهاز الهاتف القديم، سمعه يدمدم: «صباح الخير يا دون». ورأى وجهه يشرق كما لو أنه تلقى خبر فوزه بجائزة اليانصيب الكبرى. «ستنوجه إلى هناك فوراً»، صاح وأغلق الهاتف.

- لقد ظهرت مابيل يا ليتوما. إنها في بيتها الصغير في كاستييَا. هيأنا، أسرع. ألم أقل لك؟ لقد ابتلعوا القصة! لقد أطلقوا سراحها! كان سعيداً كما لو أنه قد ألقى القبض على مافيا العنكبوت.



## X

- هذه مفاجأة حقيقة - صاح الأب أودونوفان حين رأى ريفوبيرتو يظهر عند باب حجرة المقدسات، حيث كان الكاهن قد انتهى للتو من خلع الرداء الذي قاد به قداس الساعة الثامنة - أنت هنا يا ذا الأذنين الكبيرتين؟ تأتي إليّ بعد كل هذا الزمن الطويل. لا أكاد أصدق.

كان رجلاً طويلاً، متيناً، بهيجاً، له عينان لطيفتان، تلمعان وراء نظارة إطارها من دروع السلاحف، وصلعة متقدمة. بدا كأنه يشغل كامل الحيز في المكان الضيق ذي الجدران المقرفة، منزوعة الطلاء، والأرضية المثلثة التي يصلها ضوء النهار من خلال نافذة في السقف تتدلى منها شباك عنكبوت.

تعانقا بالحميمية القديمة نفسها؛ فهما لم يلتقيا منذ شهور، ربما منذ عام. لقد تلقيا التعليم معاً في مدرسة ريكوليتا، منذ السنة الأولى الابتدائية حتى السنة الخامسة المتوسطة، كانوا صديقين حميمين، وكانوا في إحدى السنوات زميلين في المهد نفسه. بعد ذلك، حين دخل كلاهما إلى الجامعة الكاثوليكية لدراسة الحقوق، تواصلت لقاءاتهما بكثرة. وكانا عضوين في منظمة العمل الكاثوليكي، كما أنهما كانوا يختاران الفصول الدراسية نفسها، ويدرسان معاً. إلى أن قدم بيبيين أودونوفان، ذات يوم، إلى صديقه ريفوبيرتو مفاجأة حياته.

- لا تقل لي إن ظهورك هنا يعني أنك قد تحولت وجئت إليّ لأن تلقي

اعترافاتك يا كبير الأذنين - قال الأب أودونوفان ساخراً وهو يقوده من ذراعه نحو حجرة مكتبه الصغيرة في الكنيسة. قدم إليه كرسيًا. كانت هناك رفوف كتب وملفات، ورسم للمصلوب، وصورة للبابا وصورة أخرى لأبوي بيبيين. جزء من السقف كان خرباً ويُظهر مزيج القصب والطين اللذين شيد بهما. هل هذه الكنيسة من بقايا العهد الاستعماري؟ إنها متداعية ويمكن لها أن تنهار في أية لحظة.

- جئت لرؤيتك لأنني بحاجة إلى مساعدتك، هكذا بكل بساطة - ترك ريفوبيرتو نفسه يهوي على المهد الذي طقطق وهو يتلقى ثقله، ثم زفر بضيق. بيبيين هو الشخص الوحيد الذي مازال يدعوه بلقب أيام المدرسة: «كبير الأذنين» و«نو الأذنين». وكان اللقب يسبب له عقدة إلى حد ما في مراهقته. ولكن ذلك لم يعد يهمه الآن.

في ذلك الصباح البعيد، في كافيتريا الجامعة الكاثوليكية، مع بدء السنة الثانية من دراستهما الحقوق، حين أعلن له بيبيين أودونوفان فجأة، بتلقائية من يعلق على أحد دروس القانون المدني أو على مباراة كرة القدم الأخيرة بين فريق أليانثا وفريق الجامعة، أنهما لن يتلقيا بعض الوقت، لأنه سيغادر في تلك الليلة بالذات إلى سنتياغو دي تشيلي لبدء حياته كراهب مستجد. ظن ريفوبيرتو أن صديقه يمزح. «أتعني أنك ستتحول إلى كاهن؟ دعك من المزاح يا رجل». صحيح أن كليهما كان عضواً في منظمة العمل الكاثوليكي، ولكن بيبيين لم يلمح قطًّا لصديقه ذي الأذنين الكبيرتين بأنه قد شعر بالنداة. وما يقوله له ليس مزاحاً بأي حال، بل هو قرار فكر فيه بعمق، في الوحدة والصمت، طوال سنوات. ثم عرف ريفوبيرتو في ما بعد أن بيبيين تعرض لمشاكل كثيرة مع أبيه، لأن الأسرة حاولت بكل الوسائل أن تثنيه عن دخول المدرسة الدينية.

- أَجل يا رجل، بالطبع - قال الأب أودونوفان - إذا كان بإمكانني مساعدتك، فسأفعل بكل سرور يا ريفوبيرتو، هذا أقل ما يمكن عمله.

لم يعد بيبين بأي حال واحداً من أولئك الصبية المتدلين الذين يشاركون في كل قداديس المدرسة، ومن كان الكهنة يحثونهم ويحاولون إقناعهم بأن لهم ميلاً دينية، وأن الرب قد اختارهم للكهنوت. لقد كان أحد أكثر الصبيان طبيعية في العالم: رياضي، محظ للحفلات والتودد إلى البنات، بل كانت له محبوبة لبعض الوقت، خوليتا ماير، فتاة كثيرة النمش ولاعبة كرة طائرة، تدرس في مدرسة سانتا أورسولا.

وكان بيبين يقوم بواجب الذهاب إلى القدس، مثل جميع تلاميذ مدرسة ريكوليتا، وكان عضواً مؤوياً في منظمة العمل الكاثوليكي، ولكنه لم يكن، على ما يتذكر ريفوبيرتو، أشد تديناً من الآخرين، ولا كثير الاهتمام بالمناقشات المكرسة للتوجهات الدينية. بل إنه لم يكن يتتردد على الخلوات التي ينظمها الكهنة بين حين وآخر في بيت — مزرعة يملكونه في تشوسيكا. لا، لم يكن مزاحاً، بل قراراً لا رجعة عنه. لقد شعر بالنداء منذ طفولته وفكر بالأمر طويلاً، دون أن يخبر أحداً، قبل أن يخطو الخطوة الكبيرة الحاسمة. والآن لم يعد هناك مجال للتراجع.

وفي تلك الليلة بالذات سافر إلى تشيلي. المرة التالية التي التقى فيها، بعد عدد لا يأس به من السنوات، كان بيبين قد تحول إلى الأب أودونوفان، وكان يرتدي ملابس كاهن، ويضع نظارة، وله صلة مبكرة، ويبداً مسيرته كدراج مهوس. مازال شخصاً بسيطاً ولطيفاً، ويبدو كلما التقى بأنه قد تحول أكثر فأكثر إلى نوع من الإيقاع الثابت، فكان ريفوبيرتو يقول له: «لحسن الحظ أنك لم تتغير يا بيبين، لحسن الحظ أنك لا تبدو كاهناً على الرغم من أنك كذلك». فيرد عليه هذا ساخراً على الدوام من اللقب الذي كانوا ينادونه به في أيام الشباب:

«أنت أيضاً مازالت تنمو لك أذنا الحمار هاتين يا ذا الأذنين الكبيرتين، ما هو السبب يا ترى؟».

- الموضوع لا يتعلّق بي - أوضح له ريفوبيرتو - بل بفونتشيتو. لم نعد أنا ولوكريثيا نعرف ماذا علينا أن نفعل مع هذا الصبي يا بيبين. إنه يتسبّب لنا بظهور شعر شائب أخضر اللون حقاً.

وacialا اللقاء بشيء من التواتر. وكان الأب أودونوفان هو من زوج ريفوبيرتو من إليسيا، امرأته الأولى، أم فونتشيتو المتوفاة، وبعد ترمله، زوجه أيضاً من لوكريثيا، في حفل حميم اقتصر على حفنة من الأصدقاء. وهو من عمد فونتشيتو، كما أنه يذهب بين حين وآخر لتناول الغداء وسماع الموسيقى في بيتهما بارانكو، حيث يستقبلونه بكثير من المودة. وقد ساعده ريفوبيرتو في بعض المرات بتبرعات (منه شخصياً أو من شركة التأمين) لأعمال الإحسان في أبرشيته. وعندما يلتقيان يتحدثان، بصورة خاصة، عن الموسيقى التي أحبها بيبين أودونوفان كثيراً على الدوام. وقد دعاه ريفوبيرتو ولوكريثيا أكثر من مرة إلى حضور حفلات موسيقية تقيمها جمعية ليما الفيلارمونيكا في قاعة سانتا أورسولا.

- لا تقلق يا رجل، ليس هنالك ما يستدعي القلق - قال الأب أودونوفان - جميع الفتياN في العالم لديهم مشكلات ويسبّبون المشاكل في سن الخامسة عشرة. وإذا لم تكن لديهم مشاكل، فلأنهم حمقى. الأمر طبيعي.

- يكون الأمر طبيعياً لو أنه مال إلى السُّكر، أو ذهب إلى المومسات، أو دخن لفافة ماريجوانا، أو قام بفظاعات مثل تلك التي كنا نقوم بها أنا وأنت حين كنا في عمر فرج البط - قال ريفوبيرتو محزوناً - ولكن لا يا صديقي العجوز، فونتشيتو لم يتوجه إلى شيء من ذلك. وباختصار -

أعرف أنك سوف تضحك -، لقد استقر في رأسه منذ بعض الوقت أن الشيطان يظهر له.

حاول الأب أودونوفان كبح نفسه ، ولكنه لم يستطع وأفلت قهقهة مدوية.

- لست أضحك من فونتشيتو، وإنما منك أنت - أوضح وهو لا يزال يضحك -. أضحك من أنك أنت يا ذا الأذنين الكبيرتين تتكلم عن الشيطان. اسم هذه الشخصية يبدو غريباً في فمك. يبدو ناشزاً.

- لا أدري إن كان الشيطان، لم أقل لك قطّ من هو، لم أستخدم قطّ هذه الكلمة، لا أدري لماذا تستخدمنها أنت يا أبي - احتاج فونتشيتو بصوت ضعيف إلى حدّ اضطر معه أبوه، كيلا يفقد كلمة مما يقوله الصبي ، إلى الانحناء وتقريب رأسه منه.

- لا بأس، اغذرني يابني - قال معتذراً -. أطلب منك أن تخبرني شيئاً واحداً فقط. إنني أكلمك بجد يا فونتشيتو. هل تشعر ببرودة في كل مرة يظهر لك فيها إديلبيرتو توريس؟ أتشعر بأن هبة ريح جليدية تصل معه حيث تكون؟

- أية حماقات تقولها يا بابا - فتح فونتشيتو عينيه على اتساعهما، متربداً بين أن يضحك أو يواصل إبداء الجدّ - أنت تسخر مني أم ماذا؟

- هل يظهر له الشيطان مثلما كان يظهر للأب أوراكا المشهور، في هيئة سيدة عارية؟ - وعاد الأب أودونوفان إلى الضحك - أظن أنك قد قرأت هذه القصة التراثية لريكاردو بالما يا ذا الأذنين، إنها من أكثر قصصه متعة.

- حسن ، حسن - اعتذر ريعوبيرو من فونتشيتو مجدداً - أنت على حق ، أنت لم تقل لي قط أن المدعو إديلبيرتو توريس هو الشيطان.

أطلب منك المغفرة، وأعرف أنه يجب عدم المزاح في هذه القضية. مسألة البرد هذه هي من رواية لتوomas مان، وفيها يظهر الشيطان للشخصية الرئيسة، وهو مؤلف موسيقي. انس سؤالي. فأنا لا أدرى كيف أدعو ذلك الشخص يا بني. شخص يظهر ويختفي على هذا النحو، ويتجسد في أماكن لا تخطر على البال، لا يمكن له أن يكون من لحم وعزم، لا يمكن أن يكون مثلك ومثلي. إبني أكلمك وقلبي في يدي. وإذا لم يكن الشيطان، فلا بد أنه ملاك إذا.

- بل إنك تسخر مني بالطبع يا بابا، ألا ترى ذلك؟ - احتج فوتشيتو - لم أقل إنه الشيطان ولم أقل كذلك إنه ملاك. فأنا لدى اعتقاد بأنه شخص مثلي ومثلك، من لحم وعزم بالطبع، وهو طبيعي جداً. إذا رغبت يمكننا قطع المحادثة وعدم العودة إلى الكلام أبداً عن السيد إيديلبيرتو توريس.

- ليس الأمر لعباً، لا يبدو كذلك - قال ريكوبيرتو بجدية تامة. وكان الأب أدونوفان قد توقف عن الضحك وصار يستمع إليه الآن باهتمام - فالصبي متواتر تماماً بسبب هذه المسألة، وإن كان لا يقول ذلك. إنه شخص آخر يا بيبين. لقد كان يتمتع بشهية جيدة على الدوام، ولم يُثر من قبل أية مشاكل بشأن الطعام، وهو الآن يكاد لا يتذوق لقمة واحدة. تخلى عن ممارسة الرياضة، يأتي أصدقاؤه بحثاً عنه فيختلفون ذرائع كيلا يذهب معهم. أضطر أنا ولوكريثيا لدفعه من أجل الخروج. أصبح قليل الكلام، انطوائياً، منعزلاً، بعد أن كان اجتماعياً وثرثاراً. يظل طيلة النهار والليل منطويأ على نفسه كما لو أن هماً عظيمأ ينهشه من الداخل. لم أعد أتعرف على ابني. أخذناه إلى طبيبة نفسانية، أجرت له جميع أنواع الاختبارات. وشخصت الحالة بأنه لا يعني أي شيء، وأنه أكثر طفل طبيعي في العالم. أقسم لك إننا لم نعد نعرف ما علينا عمله يا بيبين.

- إذا ما أخبرتك بأعداد الناس الذين يرون رؤى يا رينغوبيرتو فسوف تهوي ساقطاً على ظهرك - حاول الأب أودونوفان أن يطمئن - إنهن نساء مسنات في معظم الأحيان، أما الأطفال فنادراً ما يحدث لهم ذلك. هؤلاء تنتابهم أفكار خبيثة أكثر من أي شيء آخر.

- لا يمكنك أن تتحدث إليه أيها العجوز؟ - لم يكن رينغوبيرتو في حالة تسمح له بالضحك - لا يمكنك نصحه؟ لا أدرى بماذا ستتصفح في نهاية المطاف. لقد خطرت للوكريثيا فكرة المجيء إليك وليس لي. إنها تفكر في أنه قد يفتح قلبه معك أكثر مما يفعل معنا.

- المرة الأخيرة كانت في سينما لاركومار يا أبي - خفض فونتشيتو نظره وتردد في الكلام - ليلة الجمعة، حين ذهبت مع صديقي تشاتو بيثنولو لمشاهدة فيلم جيمس بوند الأخير. كنت مستغرقاً بعمق في الفيلم، وفجأة، فجأة...

- وفجأة ماذا؟ - حثه دون رينغوبيرتو.

- فجأة رأيته، هناك، جالساً إلى جانبي - قال فونتشيتو وهو يخفض رأسه ويتنفس بعمق - كان هو، بلا أدنى شك. أقسم لك يا بابا، كان هناك. هو نفسه... السيد إديليبيرتو تورييس. كانت عيناه تلمعان، وعندئذ رأيت دموعاً تسيل على خديه. لا يمكن أن يكون الفيلم هو السبب يا بابا، فلم يكن يحدث أي شيء محزن على الشاشة، وكل ما كان هناك كثير من تبادل الضرب، والقبلات وال GAMERAT. أي إنه كان يبكي لسبب آخر. وعندئذ، لا أدرى كيف أقول ذلك، ولكن خطر لي أنه حزين بسببي. أعني أنه يبكي من أجلي.

- من أجلك أنت؟ - صاغ رينغوبيرتو العبارة بصعوبة - ولماذا سيبكي ذلك السيد من أجلك أنت يا فونتشيتو؟ ما الذي سيحزنه فيك؟

- هذا ما لا أعرفه يا بابا، إنني أتكمن وحسب. ولكن لماذا تظنه

كان يبكي وهو جالس إلى جانبي؟

- وعندما انتهى الفيلم وأضيئت الأنوار، ظل إديلبيرتو توريس جالساً في المقهى المجاور لقعدك؟ - سأله ريفوبيرتو وهو يعرف الجواب تماماً.  
- لا يا بابا. كان قد انصرف. لست أدرى في أية لحظة نهض وانصرف. لم أره.

- حسن، حسن، سأتحدث إليه طبعاً - قال الأب أودونوفان - إذا كان فونتشيتتو يريد التحدث معي. يجب ألا تحاول إجباره أولاً وقبل كل شيء. لا يخطر لك إجباره على المجيء إلي. لا شيء من هذا. فليأت برغبته، إن كان يرغب. وستحدث كصديقين، قل له هذا. ولا تضفي على الأمر أهمية كبيرة يا ريفوبيرتو. أراهنك على أنها مجرد حماقة صبيانية، لا شيء أكثر من ذلك.

- لم أول الأمر أهمية في البداية - أكد ريفوبيرتو - كنت أظن أنا ولوكريثيا أنه يختلق تلك القصة، لأنه صبي واسع المخيلات، كي يضفي أهمية على نفسه، ويبقينا معلقين به.

- ولكن هل المدعو إديلبيرتو توريس موجود أم أنه مجرد اختلاق منه؟ - سأله الأب أودونوفان.

- هذا ما أرحب في اكتشافه يا بيبين، ولهذا جئت للقاءك. لم أتوصل إلى معرفة ذلك حتى الآن. أقول أجل أعرف، وفي اليوم التالي أقول لا. يبدو لي في بعض اللحظات أن الصبي يقول لي الحقيقة. وفي لحظات أخرى يخيل إلي أنه يتلاعب بنا... أنه يخدعنا.

لم يفهم ريفوبيرتو قط السبب في أن الأب أودونوفان، بدلاً من أن يتوجه نحو التعليم ويقوم ضمن الكنيسة بمسيرة دارس ثقافي ولاهوتي - وهو المثقف الحساس، المحب للأفكار والمطالعة والفنون، ومن يقرأ كثيراً -، ارتضى لنفسه بعناد مهمته الرعوية في كنيسة تحت الجسر

المتواضعة هذه، ولا بد أن من يقطنون في محيطها هم أناس قليلو التعلم، أي إنه عالمٌ يبدو كما لو أن مواهبه تتعدد فيه. لقد تجرا ذات مرة وحدثه في هذا الشأن، لماذا لا تكتب أو تلقي محاضرات يا بيبين؟ لماذا لا تدرس في الجامعة مثلاً؟ إذا كان هناك شخص بين معارفك يتمتع بميول ثقافية واضحة، وبشغف إلى الأفكار، فإنه أنت يا بيبين.

- لأن المكان الذي يحتاج إلى هو كنيسة تحت الجسر - اكتفى بيبين أودونوفان بهز كتفيه - إننا بحاجة إلى كهنة رعاة؛ أما المثقفون ففائضون عن الحاجة يا ذا الأذنين الكبيرتين. وأنت مخطئ إذا كنت تظن أنني أجد مشقة في عمل ما أقوم به. فالعمل في الكنيسة يشجعني كثيراً، إنه يُدخلني بقدمي وبرأسي في الحياة الواقعية. يمكن للمرء، في المكتبات، أن ينعزل كثيراً في بعض الأحيان عن عالم كل يوم، عن الناس العاديين. أنا لا أؤمن بفضاءاتك المتحضرة التي تُبعدهك عن الآخرين وتحولك إلى ناسك، وقد تحدثنا وناقشتنا هذا الموضوع كثيراً من قبل.

لم يكن يبدو كاهناً، لأنه لا يتطرق أبداً إلى موضوعات دينية في أحاديثه مع زميل مدرسته القديم. وهو يعرف أن ريفوبيرتو لم يعد مؤمناً في سنوات دراسته الجامعية، ولا يبدو عليه أنه يشعر بأدنى ضيق من معاشرة شخص لا أدرى. في المرات القليلة التي ذهب لتناول الغداء في بيت صديقه في بارانكو، كان ينزوئي مع ريفوبيرتو، بعد تنظيف المنضدة، في حجرة المكتب، حيث يضعان قرصاً مضغوطاً، يكون لباغ بصورة عامة، لأن بيبين أودونوفان يفضل موسيقى باخ على الأرغن.

- كنتُ مقتنعاً بأن هذه الرؤى كلها ليست سوى اختلاق منه - أكد ريفوبيرتو -. ولكن تلك الطبيبة النفسية التي عاينت فونتشيشيو، الدكتورة أغلوستا ديلميرا ثيسبيديس، لا بد أنك سمعت عنها، أليس

كذلك؟ يبدو أنها مشهورة جداً، وقد جعلتني أعود إلى الشك. قالت لي وللوكريثيا بطريقة حاسمة إن فونتشيتو لا يكذب، وإنه يقول الحقيقة. فاديلبيرتو توريس موجود. لقد أربكتنا كما يمكن لك أن تتصور.

أخبر ريفوبيرتو الأب أودونوفان أنه، بعد كثير من التردد، قرر هو ولوكريثيا البحث عن وكالة متخصصة. (فأسأله الكاهن ساخراً: «من تلك التي يتعاقد معها الأزواج الغيورون للتجسس على زوجاتهم المتماديات؟»، وأكّد ريفوبيرتو ذلك: «هي نفسها») من أجل متابعة فونتشيتو خطوة خطوة، لمدة أسبوع، كلما خرج إلى الشارع، سواء أكان وحده أم مع أصدقائه. فجاء تقرير الوكالة – «وأقول بالمناسبة إنه كلفني مبلغاً كبيراً» – بليغاً في التعبير ومتناقضاً: لم يحدث في أية لحظة، أو في أي مكان، أن التقى الصبي بأي أشخاص بالغين، لا في السينما، ولا في حفلة آل آرغوييس، لا في طريق ذهابه إلى المدرسة ولا أثناء عودته منها، ولا في زيارته السريعة العابرة كذلك، مع صديقه بيثولو، لإحدى صالات الرقص في سان إسيدرو. ومع ذلك، ففي صالة الرقص تلك، لدى دخول فونتشيتو إلى الحمام للتبول، حدث لقاء غير متوقع: كان هناك ذلك السيد المذكور يغسل يديه. (وهذا ما لم يقله التقرير بالطبع).

– مرحبا فونتشيتو. قال إديلبيرتو توريس.

– في صالة الرقص؟ سأَ دون ريفوبيرتو.

– في حمّام صالة الرقص يا بابا – حدد فونتشيتو. وكان يتكلم بثقة، ولكن لسانه بدا مثلاً، وكان نطق كل كلمة يكلفه جهداً كبيراً.

– هل أتيت للاستمتاع هنا مع صديقك بيثولو؟ بدا السيد مغموماً. كان قد غسل يديه وراح ينشفهما بقطعة ورق انتزعها من العلبة الصغيرة المعلقة على الجدار. وكان يرتدي الكنزة البنفسجية كما في المرات الأخرى، ولكن ليس البدلة الرمادية بل بدلة أخرى زرقاء.

- لماذا تبكي أيها السيد؟ تجراً فونتشيتو على سؤاله.
- هل كان إديلبيرتو تورييس يبكي هناك في الحمام أيضاً؟ - جفل دون ريفوبيرتو . - مثلما حدث يوم رأيته جالساً إلى جانبك في سينما لاركومار؟
- في السينما رأيته في الظلمة، ويمكن أن أكون قد أخطأت - أجاب فونتشيتو دون تردد . - أما في حمّام صالة الرقص فلا. فقد كانت الإضاءة كافية. لقد كان يبكي. تخرج الدموع من عينيه وتسيل على وجهه. كان... كان... لا أدري كيف عبر عن ذلك يا بابا. كان حزيناً، حزيناً جداً، أقسم لك. رؤيته يبكي بصمت، دون أن يقول شيئاً، ينظر إليَّ بأسى شديد. بدا أنه يعاني كثيراً.. ما أشعرني بالحرج.
- المعذرة، عليَّ أن أنصرف إليها السيد . - تلعم فونتشيتو . - صديقي تشاو بيثولو ينتظرنِي في الخارج. إن إحساساً، لا أدري ما هو، ينتابني وأنا أراك تبكي أيها السيد.
- وكما ترى يا بيبين، لا يمكن أخذ الأمر على محمل المزاح - أنهى ريفوبيرتو . - أتراء يروي لنا الحكاية؟ أم أنها هذينات؟ أم رؤى؟ وباستثناء هذا الموضوع، يبدو الصبي طبيعياً جداً حين يتكلم في أمور أخرى. درجاته في المدرسة هذا الشهر كانت جيدة كالعادة. لم نعد أنا ولوكريثيا ندري ماذا نفكر. أتراء آخذ بالجنون؟ أهي أزمة مراهقة عصبية عابرة؟ أتراء يريد تخويفنا ودفعنا إلى التعلق به؟ لهذا السبب جئت إليك أيها العجوز، لهذا فكرنا بك. سأكون ممتنًا إذا مددت لنا يد المساعدة. وكما قلتُ لك، لوكريثيا هي من خطرت لها الفكرة: «يمكن أن يكون الأب أو دونوفان هو الحل». فهي مؤمنة كما تعلم.
- سأساعدك طبعاً، هذا أقل ما يمكن عمله يا ريفوبيرتو . - عاد صديقه للتأكيد . - ولكن إذا وافق الصبي على التحدث معي. هذا هو

شرطى الوحيد. يمكننى الذهاب لرؤيته فى بيتك. ويمكن له أن يأتي إلى الكنيسة. أو يمكن لنا أن نلتقي في مكان آخر. في أي يوم من أيام هذا الأسبوع. أرى أن الموضوع مهم جداً بالنسبة لكما. أعدك بأن أفعل كل ما أستطيعه. والشيء الوحيد الذي أطلبه، ألا تجبره على اللقاء بي. اقترح عليه ذلك، وليقرر بنفسه إن كان يوافق على تبادل الحديث معى أم لا.

- سأكون مستعداً حتى للتحول إلى التدين إذا ما أخرجتني من هذه القضية يا بيبين.

- ولا بأي حال - وقام الأب أودونوفان بحركة كمن يبعد الشيطان عنه - لا نريد في الكنيسة خاطئين مرهفين من أمثالك يا ذا الأذنين. لم يدرى يا كيف يعرضان الأمر على فونتشيتو. وكانت لوكريثيا هي التي تجرأت أخيراً على التحدث معه. ارتبك الصغير قليلاً في البدء، ثم أخذ الأمر على محمل المزاح. «ولكن... كيف ذلك يا خالتي، ألم يكن أبي لأدري؟ فهو من خطر له أن أتحدث إلى كاهن؟ أيريدني أن أعترف؟». أوضحت له أن الأب أودونوفان رجل واسع التجربة في الحياة، وشخص متزع بالحكمة، سواء أكان أسقفاً أم لم يكن. «وماذا إذا تمكنا من إقناعي بدخول المدرسة الدينية لأصير كاهناً، ماذا ستقولان عندئذ أنت وأبى؟»، واصل الطفل المزاح. «هذا أمر غير مقبول يا فونتشيتو، لا تقل هذا ولو مزاهاً. أتصير أنت كاهناً؟ فلينجنا الرب!».

وافق الصبي، مثلما وافق من قبل على لقاء الدكتورة ديلميرا ثيسبيديس، وقال إنه يفضل الذهاب إلى كنيسة تحت الجسر. وقد أوصله ريفوبيرتو نفسه بسيارته. تركه هناك ثم ذهب لأخذه بعد نحو ساعتين.

- صديقك هذا شخص لطيف جداً. اقتصر فونتشيتو على هذا التعليق.

- أيعني هذا أن حديثك معه كان جديراً بالاهتمام؟ حاول ريفوبيرتو تقصي الوضع.

- كان الحديث جيداً جداً يا بابا. لقد كانت فكرتك عظيمة. تعلمتُشيء كثيرة من هذا الحديث مع الأب أودونوفان. لا يبدو كاهناً، فهو لا ينصحك، بل يستمع إليك. لقد كنتَ على حق يا أبي.

ولكنه لم يشأ تقديم أي توضيح آخر له أو لحالته، على الرغم من توسلات كليهما. اكتفى بالعموميات، مثل رائحة بول القطط التي تعبق بها الكنيسة الصغيرة («لم تلحظ ذلك يا بابا؟»)، على الرغم من أن الكاهن أكد له أنه لم يكن لديه أي هرّ قط، بل هنالك فثاران تظهر أحياناً في حجرة المقدسات.

سرعان ما استنتج ريفوبيرتو أن شيئاً غريباً، وربما خطيراً، قد حدث في الساعتين اللتين تبادل فيها بيبين الحديث مع فونتشيتو. وإلا ما السبب في أن الأب أودونوفان ظلّ يتفاداه طيلة أربعة أيام متتلاً بمختلف أنواع الذرائع، كما لو أنه يخشى اللقاء به وإخباره عن حديثه مع الصبي. فهو يتذمّر بأن لديه مواعيد، وواجبات في الكنيسة، واجتماع مع المطران، وبأن عليه الذهاب إلى الطبيب من أجل إجراء فحص. وبlahات من هذا النوع ليتجنب اللقاء به.

- هل تبحث عن ذرائع كيلا تخبرني كيف كان حديثك مع فونتشيتو؟ - واجهه في اليوم الخامس، حين تنازل الكاهن وردّ على اتصاله الهاتفي.

ساد صمتٌ لبعض ثوانٍ في سماعة الهاتف، وأخيراً سمع ريفوبيرتو الكاهن يقول شيئاً أذهله:

- أَجل يا رِيغوبيرتو. في الحقيقة، نعم. لقد كنت أتجنب مقابلتك.  
فما سأقوله لك أمر لا تتوقعه - أكَدَ الأب أودونوفان بغموض -. ولكن،  
بما أنه لا مفر من ذلك، سوف نتحدث في الأمر. سأحضر للغداء في  
بيتكم يوم السبت أو الأحد. أي يوم منهما تفضل؟

- السبت، فمن عادة فونتشيتو الذهاب في هذا اليوم للغداء في بيت  
صديقه بيثولو - قال رِيغوبيرتو -. ما قلته لي سيظل يُؤرقني حتى يوم  
السبت يا بيبين. وستكون الحال أسوأ بالنسبة لـ لوكريثيا.

- وهذا ما ظللتُ أنا عليه مذ خطر لك أن تحدثني عن ابنك - قال  
الكافن بجفاء - إلى اللقاء يوم السبت إذاً يا ذا الأذنين.

لا بد أن الأب أودونوفان هو رجل الدين الوحيد الذي لا يتنقل في  
اتساعات مدينة ليما بحافلات النقل العام أو الفانات الصغيرة، وإنما  
على الدراجة. يقول إنها التمارين الوحيدة التي يمارسها، ولكنه  
يمارسها بمواظبة تبقيه في حالة بدنية ممتازة. أضف إلى ذلك أنه يحب  
تحريك ساقية على الدراجة. وبينما هو يفعل ذلك يفكر في تحضير  
موعظه، وكتابة رسائله، وبرمجة أعماله اليومية. وعليه، مع ذلك، أن  
يكون متيقظاً جداً طيلة الوقت، وبصورة خاصة عند التقاطعات وعند  
إشارات المرور التي لا يحترمها أحد في هذه المدينة، حيث يقود  
السائقون سياراتهم بنية صدم المشاة وراكبي الدراجات أكثر مما بنية  
الوصول بسياراتهم إلى بر السلام. لكنه كان محظوظاً مع ذلك، فخلال  
أكثر من عشرين عاماً من تجواله عبر أرجاء المدينة على عجلتين، لم  
يصادمه سوى مرة واحدة، ودون نتائج خطيرة، وسرقت له دراجة  
واحدة فقط. إنها حصيلة باهرة!

يوم السبت، قرابة منتصف النهار، كان رِيغوبيرتو ولوكريثيا  
يرصدان الشارع من شرفة الطابق الأخير الذي يعيشان فيه، ورأيا ظهور

الأب أودونوفان وهو يقود دراجته بنزق عبر كورنيش بول هاريس في حي بارانكو. أحسا براحة كبيرة. بدا لهما غريباً جداً تأخير رجل الدين كثيراً لوعد إطلاعهما على حدثه مع فونتشتيتو، حتى إنما خشيا أن يختلق ذريعة في اللحظة الأخيرة كيلا يحضر. ما الذي يمكن أن يكون قد جرى في تلك المحادثة حتى يبدي الكاهن كل ذلك التحفظ في إخبارهما؟

نزلت خوستينيانا إلى الشارع لتطلب من البواب أن يسمح للأب أودونوفان بإدخال دراجته إلى العمارة، كي تبقى بمنجى من اللصوص؛ ورافقت الكاهن في المصعد. بادر بيبين إلى معاشرة ريفوبيرتو، ثم قبل خد لوكريثيا واستأنذن للذهب إلى الحمام كي يغسل يديه وجهه، إذ إنه وصل متعرقاً.

- كم من الوقت احتاجت للوصول، على دراجتك، من «تحت الجسر» إلى هنا؟ - سأله لوكريثيا.

- أقل من نصف ساعة - قال الكاهن - في هذه الاحتفانات المزورية في ليما، يصل أحدهنا على الدراجة أسرع من سيارة.

طلب عصير فاكهة لفتح الشهية، ونظر إليهما ببطء وهو يبتسم.

- أعرف أنكم كنتما تتفوهان بكلمات قبيحة عنِّي، لأنني لم أخبركم كيف كان الأمر - قال لهما.

- أجل يا بيبين، هكذا بالضبط، كلمات قبيحة وضفادع، وأفاع أيضاً. أنت تعرف كم ثبقينا هذه المسألة متواترين. إنك سادي.

- كيف جرى الأمر؟ - سأله دونيا لوكريثيا بجزع - هل تحدث إليك بصرامة؟ هل أخبرك بكل شيء؟ ما رأيك في الحالة؟

تنفس الأب أودونوفان بعمق، وقد اتخذ مظهراً جدياً الآن. ودمدم قائلاً إن نصف الساعة ذاك في قيادة الدراجة قد أتعبته أكثر مما يزيد

تقبله. ثم صمت طويلاً.

- أتريدان أن أخبركم شيئاً؟ - نظر إليهما بوجه ما بين محزون ومتحمّلاً. الجقيقة أنني لاأشعر بأي قدر من الراحة في هذه الحديث الذي سنخوض فيه.

- وأنا أيضاً يا أبناه - قال فونتشيتوا - لا يوجد ما يسوغ الراحة. فأنا أعرف جيداً أن أعصاب والدي متوتة بسببي. إذا كنت ترغب قُمْ بما عليك عمله، وأعنني مجلة أتصفحها، حتى لو كانت مجلة دينية. وبعد ذلك سنقول لأبي وخالتى بأننا تبادلنا الحديث معاً، ونختلق أي شيء يمكن له أن يطمئنهم. وينتهي الأمر.

- ما هذا، ما هذا - قال الأب أودونوفان - هذا الغصن من ذلك الجذع يا فونتشيتوا. أتعرف أن أباك وهو في مثل سنك، في مدرسة لاريكوليتا، كان مخادعاً كبيراً؟

- هل توصلت إلى التكلم معه في الموضوع؟ - سأله ريفوبيرتو دون أن يخفى جزعه - هل فتح قلبه لك؟

- الحقيقة أنني لا أعرف - قال الأب أودونوفان - هذا الصبي مثل الزئبق، بدا لي أنه ينزلق متسلقاً طيلة الوقت. ولكن اطمئنا. فهناك أمر واحد على الأقل أشعر بأنني متأكد منه. إنه غير مجنون، وهو لا يهذي، ولا يسخر. بدا لي أنه أكثر الصبيان سلامنة ذهنية وتركيزًا في الدنيا. وتلك الطبيبة النفسية التي التقت به أخبرتكما بالحقيقة الصارمة: إنه لا يعاني من أية مشكلة نفسية. هذا ما يمكنني الحكم به، ضمن حدودي طبعاً، فأنا لست طبيباً نفسانياً، ولست متخصصاً في علم النفس.

- ولكن... حالات ظهور ذلك الشخص له - قاطعته لوكريثيا - هل استطعت الخروج بشيء واضح بشأنه؟ هل لإديلبيرتو توريس وجود أم

- مع أن القول إنه طبيعي ليس بالتصويف الدقيق تماماً - صحيح الأب أودونوفان لنفسه متهرباً من الإجابة - لأن في هذا الطفل شيء استثنائي، شيء يميّزه عن الآخرين. ولست أعني أنه ذكي وحسب. إنه كذلك، أجل. وأنا لا أبالغ مقدار ذرة واحدة يا رينغوبيرتو، ولا أقول هذا الكلام لأتملكك. ولكن لدى الصبي فوق ذلك، في ذهنه، في روحه، شيء يلفت الانتباه. لديه حساسية خاصة جداً، ينفرد بها ولا نمتلكها نحن البشر الفانون العاديون. مثلما تسمعان. ولا أدرى إن كان ذلك سبباً للسعادة أم الفزع. ولست أستبعد كذلك أنه رغب في أن يبهرني، وقد توصل إلى ذلك، مثلما يمكن لمثل بارع أن يفعل. لقد ترددتُ كثيراً في المجيء لقول هذا الكلام لكم. ولكنني رأيت أنه من الأفضل أن أفعل.

- أيمكننا التوجه إلى لب الموضوع يا بيبين؟ - فقد دون رينغوبيرتو صبره - دعك من التقلّت من الحديث في الموضوع. ومن أجل أن تقول ما يجب قوله بوضوح، لا تواصل هذه الفهلوبيات ولنتوجه إلى جوهر المشكلة. تكلم بوضوح ودعك من إزاحة الإلية لتجنب إبرة الحقيقة، أرجوك.

- ما هذه الكلمات يا رينغوبيرتو - وبخته لوكريشيا - المشكلة أنها قلقان جداً يا بيبين. اعذره. أظن أنها المرة الأولى التي أسمع فيها صديقك ذا الأذنين يتكلم كحوذى.

- حسن، المعذرة يا بيبين، ولكن أخبرني دفعة واحدة يا صديقي - ألح رينغوبيرتو - هل للمدعو إديلبيرتو توريس وجود؟ أيظهر له في السينما، وفي حمامات صالة الرقص، وفي ملعب المدرسة؟ أيمكن أن تكون كل تلك البلاهة حقيقة؟

بدأ الأب أدونوفان يتعرق بغزارة من جديد، وفك ريفوبيرتو بأن سبب تعرقه الآن ليس ركوب الدراجة، وإنما التوتر الذي يسببه له اضطراره إلى إصدار حكم حول الموضوع. ولكن، أي شياطين هذه؟ ما الذي يحدث له؟

ـ فلتنقبل الأمر على هذا النحو يا ريفوبيرتو ـ قال الكاهن منتقيناً كلماته بحذر بالغ، كما لو أن فيها أشواكاً ـ فونتشيتو يعتقد أنه يراه وأنه يتكلم إليه. هذا أمر يبدو لي غير قابل للجدال. حسن، أظن أنه يؤمن بذلك إيماناً راسخاً، مثلما يؤمن بأنه لا يكذب حين يخبرك بما رأه وبما تبادله من كلام معه. وإن كان ذلك الظهور والاختفاء يbedo عبيشاً، وهو كذلك حقاً. هل تفهمان ما أحاو قوله لكم؟

نظر ريفوبيرتو ولوكريثيا إلى الأب أدونوفان بصمت. وبدا الكاهن الآن في حالة من الارتباك لا تقل عما هما فيه. لقد كان مغموماً وبدا عليه أنه هو أيضاً غير راض عن إجابته. ولكن بدا واضحاً كذلك أنه لا وجود لديه لإجابة أخرى، وأنه لا يعرف، ولا يستطيع، أن يقدم تفسيراً أفضل مما قدمه.

ـ إنني أفهم، طبعاً، ولكن هذا الذي تقوله لي لا يعني شيئاً يا بيبين ـ قال ريفوبيرتو شاكياً ـ القول إن فونتشيتو لا يحاول خداعنا هو افتراض قائم بالطبع. وأنه يخدع نفسه، يقوم بالإيحاء لنفسه. هل هذا هو ما تظنه؟

ـ أعرف أن ما أقوله يخيب أملكما، وأنكما تنتظران شيئاً أكثر تحديداً، أكثر حسماً ـ واصل الأب أدونوفان ـ متأسف، ولكنني لا أستطيع أن أكون أكثر دقة يا ذا الأذنين. لا أستطيع ذلك. وهذا هو كل ما استطعت التوصل إليه. إن الصبي لا يكذب. إنه مؤمن بأنه يرى ذلك السيد، وربما يكون من المحتمل أنه يراه. وأنه يراه هو وحده ولا

يراه الآخرون. لا يمكن الذهاب إلى ما هو أبعد في هذا الشأن. هذا مجرد افتراض. وأكرر أنني لا أستبعد أيضاً أن يكون ابنك قد خدعني. وبكلمات أخرى أن يكون أكثر مكرًا وبراعة مني. ربما يكون قد خرج على شاكلتك يا ذا الأذنين. هل تتذكر أن الأب لاغنير، في مدرسة ريكوليتا كان يدعوك مختلف الأكاذيب؟

- ولكن ما استنتجته ليس فيه أي وضوح، بل هو أشد غموضاً يا بيبين - دمدم ريفوبيرتو.

- أتراءها تكون رؤى؟ أوهام؟ - حاولت لوكريثيا أن تحدد الحالة.

- يمكن تسميتها هكذا، ولكن هذه الكلمات لا تعني عدم الاتزان، ولا تعني مرضًا ذهنياً - أكد الكاهن - الانطباع الذي تشكل لدى هو أن فونتشيتو يسيطر تماماً على قواه الذهنية والعصبية. إنه طفل متزن، يميز بوضوح بين الواقع والخيال. هذا أمر يمكنني تأكيده حقاً، ومستعد لوضع يدي في النار مؤكداً على سلامته الذهنية. وبكلمات أخرى، هذه حالة لا يمكن حلها عند طبيب نفسي.

- أعتقد أنك لا تتحدث عن معجزات - قال ريفوبيرتو بنزق وسخرية - لأنه إذا كان فونتشيتو هو الشخص الوحيد الذي يرى إديلبيرتو توريس ويتكلم معه، فإنه تحدثني عن قدرات إعجازية. هل سقطنا إلى هذا الدرك يا بيبين؟

- لست أتكلم عن معجزات طبعاً يا ذا الأذنين، ولا فونتشيتو يتكلم عنها كذلك - قال الكاهن بدورة بنزق -. إنني أتكلم عن شيء لا أدرى كيف أسميه بكل بساطة. هذا الطفل يعيش تجربة خاصة جداً. وهي تجربة، لا أقول إنها دينية، لأنك لا تعرف ولا تري أن تعرف شيئاً في هذا الشأن، فلنستبدل كلمة دينية إذاً بروحية. وبحساسية، أو بتحسس مفرط. إنه شيء ليست له إلا علاقة غير مباشرة جداً بالعالم المادي

والعقلاني الذي نتحرك فيه. إديلبيرتو توريس يرمي في نظره إلى المعاناة البشرية كلها. أعرف أنك لا تفهمي. ولهذا السبب كنت أخشى كثيراً المجيء لإخبارك عن حديثي مع فونتشيتوا.

- تجربة روحية؟ - كررت دونيا لوكريثيا -. ما الذي تعنيه بالضبط؟  
ألا يمكنك أن توضح ما تعنيه يا بيبين؟

- أتعني أن الشيطان يظهر له، وأنه يُدعى إديلبيرتو توريس وهو بيروي - اختصر ريفوبيرتو بسخرية وغضب -. هذا هو في العمق ما تقوله لنا بكل هذه الثرثرة التافهة، إنها ثرثرة كاهن معجزات، يا بيبين.

- الغداء جاهز - قالت من عند الباب خوستينيانا التي تأتي دوماً في الوقت المناسب -. يمكنك الانتقال إلى المائدة متى شئتم.

- في البدء لم يكن يزعجي، كان يفاجئني وحسب - قال فونتشيتوا -. أما الآن فبلى. وإن تكون كلمة إزعاج ليست هي الكلمة الدقيقة يا أبا تاه. من الأدق القول إنه يسبب لي الغم، يجعلني أمر بلحظة عصيبة، يثير في الأسنان. مذ بدأت أراه يبكي، هل تلحظ ذلك؟ ففي المرات الأولى لم يكن يبكي، كان يريد تبادل الحديث وحسب. ومع أنه لا يقول لي لماذا يبكي، إلا أنتي أشعر أن السبب في بكائه هو كل ما يحدث من شرور. وأنه يبكي من أجلي أيضاً. وهذا ما يسبب لي المزيد من الحزن. ساد صمت طويل، وأخيراً قال الأب أدونوفان إن القريديس كان لذيداً جداً، ويبدو واضحاً أن مصدره نهر ماحيس. هل يجب تهنئة

لوكريثيا أم خوستينيانا على إعداد هذا الطبق الشهي؟

- ليس أياً منها، وإنما الطاهية - أجبت لوكريثيا -. اسمها ناتيفيداد، وهي من اريكيبا طبعاً.

- متى كانت آخر مرة رأيت فيها ذلك الشخص؟ - سأله الكاهن.  
وكان قد فقد المزاج الواثق والآمن الذي ظل يحتفظ به حتى تلك

اللحظة، وصار يبدو عصبياً بعض الشيء. وقد وجه السؤال بتذلل عميق.

- يوم أمس، حين كنت أجتاز جسر التنهدات، في بارانكو يا أبتاباه - رد فونتشيتو على الفور -. كنت أمشي على الجسر وكان هناك ثلاثة أشخاص آخرين حولي، حسب تقديرى. وفجأة، رأيته هناك، يجلس على حاجز الجسر.

- وكان يبكي كالعادة؟ سأله الأب أودونوفان.

- لا أدرى، فقد رأيته للحظة فقط، لدى مروري. لم أتوقف، واصلت طريقي بخطىء مسرعة - أوضح الصغير وقد بدا مذعوراً الآن - لا أدرى إن كان يبكي. ولكنني أعرف أنه كان بذلك الوجه شديد الحزن. لا أدرى كيف أعبر عن ذلك يا أبتاباه. لم أر مثل حزن السيد توريس على أحد، أقسم لك. إن عدواه تنتقل إلى، أظل مضطرباً لوقت طويل، أكاد أموت حزناً، دون أن أدرى ما يمكنني عمله. أحب أن أعرف سبب بكائه. أحب أن أعرف ما الذي يريدني أن أفعله. أقول لنفسي أحياناً إنه يبكي من أجل الناس الذين يعانون جميعاً. من أجل المرضى، من أجل العمياء، من أجل من يطلبون الصدقات في الشوارع. حسن، لست أدرى، تخطر لذهني أشياء كثيرة كلما رأيته. والأمر الوحيد الذي لا أعرفه هو كيف أعبر عن تلك الأشياء يا أبتاباه.

- إنك تعبر عنها بصورة جيدة يا فونتشيتو - اعترف الأب أودونوفان - لا تقلق بهذا الشأن.

- ولكن، ماذا علينا أن نفعل؟ سأله لوكريشيا.

- انصحنا يا بيبين - أضاف ريفوبيرتو -. أشعر بأنني مشلول تماماً. إذا كان الأمر مثلما تقول، فإن هذا الطفل يملك نوعاً من الموهبة، ولديه نوع من الحساسية العالية، بحيث يرى ما لا يراه أحد سواه. هذه هي

الحال، أليس كذلك؟ هل عليّ أن أكلمه في الموضوع؟ هل عليّ أن أظل صامتاً؟ القضية تقلقني، تخيفني. لا أدرى ماذا أفعل.

- منحه الحنان واتركه بسلام - قال الأب أودونوفان - من المؤكد أن ذلك الشخص، سواء أكان له وجود أم لم يكن، ليس بالشخص المنحرف الفاسد، وهو لا يريد إلهاق أي أذى بابنك. وسواء أكان له وجود أم لم يكن، فإن له علاقة بروح فونتشيتوا، حسن، له علاقة بنفس فونتشيتوا إن كنت تفضل هذا القول، أكثر مما له علاقة بجسده. - أهي مسألة صوفية؟ - تدخلت لوكريثيا - أ تكون هكذا؟ ولكن فونتشيتوا لم يكن متديناً قطّ. بل يمكنني القول إنه على العكس من ذلك تماماً.

- أرغب في أن أكون أكثر دقة، ولكنني غير قادر - اعترف الأب أودونوفان مرة أخرى وهو يبدي ملامح الهزيمة - هنالك شيء ليس له تفسير عقلاني يحدث لهذا الصغير. إننا لا نعرف كل ما فينا نحن بالذات يا ذا الأذنين. فنحن الكائنات البشرية، كل شخص منا، هاويات عميقية متربعة بالظلال. لدى بعض الرجال، وبعض النساء، حساسية أشد زخماً مما لدى غيرهم، يشعرون وينتجسون أموراً تمر دون انتباه على الآخرين. يمكن أن تكون ناتجة عن تخيلاتهم وحسب؟ ربما نعم. ولكنها قد تكون شيئاً آخر لا أجرؤ على تسميته يا ريفوبيرتو. ابنك يعيش هذه التجربة بزخم شديد، وبحقيقة بالغة إلى حدّ لا أريد أن أصدق معه أن المسألة محض تخيلات. ولست أريد أن أقول أكثر من هذا.

صمت وراح ينظر إلى طبق سمك غراب البحر والرز نظرة هجينة ما بين الخبر والحنان. لم تتذوق لوكريثيا ولا ريفوبيرتو لقمة واحدة منه. - أشعر بأنني لم أقدم لكمافائدة تذكر - أضاف الكاهن محزوناً - فيبدل أن أساعدكم على الخروج من هذه المتابهة، علقتُ بها أنا نفسي أيضاً.

ظل صامتاً لبعض الوقت ونظر إلى أحدهما ثم إلى الآخر بحزن.

- لست أبالغ إذا قلت لكم إنها المرة الأولى في حياتي التي أواجه فيها أمراً لست مهياً له - ددم بجدية كبيرة - إنه أمر ليس له، في نظري، تفسير عقلاني. ومع هذا فقد أخبرتكم من قبل بأنني لا أستبعد كذلك أن تكون لدى الصبي قدرة استثنائية على الخداع، وأنه جعلني أصدق قصة محكمة الحبكة. ليس هذا مستحيلاً لقد فكرت كثيراً في الأمر. ولكن لا، لا أظن ذلك. أعتقد أنه صادق.

- لن تتركنا مطمئنين جداً ونحن نعلم أن لابني تجارة يومية من عالم الغيب - قال ريفوبيرتو وهو يهز كتفيه - وأن فونتشيتو هو أشبه براعية لورديس التي ظهرت لها السيدة العذراء. لقد كانت راعية، أليس كذلك؟

- أنت سوف تضحك، أنتما الاثنان ستضحكان - قال الأب أودونوفان وهو يداعب الشوكة، دون أن ينقض على سمكة غراب البحر - ولكنني لم أتوقف في هذه الأيام عن التفكير لحظة واحدة في هذا الطفل. فمن بين جميع الأشخاص الذين عرفتهم طيلة حياتي، وهم كثُر، أظن أن فونتشيتو هو الأقرب إلى ما نسميه، نحن المؤمنين، الكائن النقى. وليس ذلك لوسامته فقط.

- ها قد ظهر الكاهن الذي فيك يا بيبين - غضب ريفوبيرتو - هل تريد الإيحاء إلى أنه يمكن لابني أن يكون ملاكاً؟

- إنه ملاك بلا أجنحة على أي حال. ضحكت لوكريثيا، وقد فعلت ذلك الآن بسعادة صريحة وبعينين تتأرجحان خبثاً.

- أقول هذا وأكرره حتى لو أضحككم - أكد الأب أودونوفان وهو يضحك أيضاً - أجل يا ذا الأذنين، أجل يا لوكريثيا، مثلما تسمعان. حتى لو بدا الأمر لكم ظرافـة: إنه ملاك صغير، ولم لا.



حين وصلا إلى «البيت الصغير» في كاستييا، على الضفة الأخرى للنهر، حيث تعيش مابيل، كان الرقيب ليتوما والنقيب سيلفا يتعرقان بغزاره. فالشمس تضرب بقسوة من سماء بلا غيوم، حيث ترسم نسور الرحمة دوائر في تحليقها. ولم تكن هناك ولو هبة نسيم خفيفة تخفف من حدة الحر. على امتداد الطريق كله منذ خروجهما من المفوضية، كان ليتوما يتساءل. في أي حال سيجدون الفتاة الفاتنة؟ أ يكون أولئك الأوغاد قد أساوا إلى عشيقة فيليثيتو ياناكيه؟ أ يكونون قد ضربوها؟ أ يكونون قد اختصبوها؟ هذا احتمال وارد جداً بالنظر إلى جمال الشابة، وكيف لن يستغلوا الفرصة وهم يحتجزونها تحت رحمتهم ليلاً ونهاراً. فتح لها السيد فيليثيتو نفسه بباب بيت مابيل الصغير. وقد بدا منشراً، سعيداً. لقد تبدل وجهه العابس الذي كان يراه عليه ليتوما دوماً، وتلاشت الملامة التراجيكوميدية التي كان عليها في الأيام الأخيرة. إنه يبتسم الآن ابتسامة تملأ وجهه وتمتد ما بين أذنيه، وتلمع عيناه من السعادة. يبدو كمن استعاد شبابه. كان بلا جاكيت البدلة، وأزرار صداره مفتوحة كلها. كم هو نحيل، يكاد صدره وظهره أن يتلاصقا، ويا له من شرغوف ضئيل؛ فقد بدا ليتوما أشبه بقزم. ما إن رأى الشرطيين حتى أقدم على شيء غير مألوف من رجل غير معتمد على إظهار مشاعره: فتح ذراعيه وعانق النقيب سيلفا.

- لقد جرت الأمور مثلما توقعتها أنت أيها النقيب - وكان يربت على ظهره بانشراح - . لقد أطلقوا سراحها ، أفلتوها. كنت محقاً أيها السيد المفوض. لا أجد كلمات كافية لشكرك. إنني أحيا من جديد بفضلك. وبفضلك أنت أيضاً أيها الرقيب. الشكر لكما، أشكركم أنتما الاثنين.

كانت عيناه مخلعتين بدموع التأثر. مابيل تستحم، ستخرج الآن. أجلسهما في الصالة الصغيرة، تحت صورة قلب يسوع، قبالة المنضدة الصغيرة حيث توجد منحوتة لاما وعلم البيرو. كانت هناك مروحة مشغلة تصدر صريراً غير منتظم بينما تيار الهواء الصادر عنها يهز الزهور البلاستيكية. كان صاحب شركة النقل يجب على أسئلة الضابط بانفتاح وسعادة: أجل، أجل، إنها على ما يرام، لقد كان رباعاً عظيماً بالطبع، ولكنهم لم يضربوها لحسن الحظ، والحمد لله أنهم لم يغتصبواها. أبقوها معصوبة العينين ومقيدة اليدين طيلة هذه الأيام، يا لهم من قساة، جلفين. ستخبرهما مابيل نفسها كل التفاصيل حين تخرج الآن. وبين لحظة وأخرى، كان فيليثيتو يرفع يديه إلى السماء: «لو أن شيئاً أصابها لما سامحتُ نفسي إلى الأبد. يا للمسكينة! درب الآلام هذا كله بسببي. لم أكن متدينًا قطّ، ولكنني عاهدت الله على أنني لن أتخلف، منذ الآن، عن الذهاب إلى القدس كل يوم أحد». وفكري ليتوما: «إنه مغرم بها حتى النخاع». لا ريب في أنه يضاجعها بصورة رائعة. وذكرته هذه الفكرة بوحنته، وبالوقت الطويل الذي أمضاه بلا امرأة. أحس بالحسد تجاه دون فيليثيتو وبالغضب من نفسه. خرجت مابيل لصافحتهما برداء حمام مزين بأزهار، وكانت تنتعل خفافاً، وتضع منشفة على شكل عمامة فوق رأسها. بدت ليتوما وهي على تلك الحال، بلا مكياج وشاحبة وبعيينين مازالتا

مذعورتين، أقل جمالاً مما كانت عليه يوم ذهبت إلى المفوضية لتدلي بأقوالها. ولكنه أُعجب بارتعاشة فتحتني أنفها المدبب، وبكاحتها الحساسين، وانحناء ظاهر قدميها. وبدت له بشرة ساقيها أكثر بياضاً من يديها وذراعيها.

- يؤسفني أنني لا أستطيع أن أقدم أي شيء لكما - قالت وهي تؤمن إليهما أن يجلسا. بل إنها حاولت أن تقدم إليهما دعاية: - يمكنكم أن تخيلوا أنني لم أستطع القيام بمشترياتي خلال هذه الأيام، ولم يبق في ثلاجتي ولو علبة كوكاكولا واحدة.

- يؤسفنا جداً ما حدث لك يا سيدتي - وانحنى لها النقيب سيلفا انحناء احترام بالغة الاحتفالية - . لقد أخبرنا السيد ياناكيه بأنهم لم يسيئوا إليك، أليس كذلك؟

قامت مابيل بتكتشيره غريبة، نصف ابتسامة ونصف تكشيره.

- حسن، إلى حد معين وحسب. لم يضر بيوني ولم يغتصبني لحسن الحظ. ولكن لا يمكن القول إنهم لم يسيئوا إلي. لم أشعر قط بمثل ذلك الخوف في حياتي أيها السيد. لم أنم قط كل ذلك العدد من الليالي وأنا على الأرض، بلا فراش ولا وسادة. بعيدين معصوبتين ويدين مقيدتين. أليس هذا كله سوء معاملة؟ ولكنني مازلت حية في نهاية المطاف، أجل.

كان صوتها يرتعش ويطل من عينيها السوداين، للحظات، خوف عميق تبذل جهداً للسيطرة عليه. «التحلّ اللعنة عليهم أبناء العاهرة» فكر ليتوما. كان يشعر بالحزن والغضب لما تعرضت له مابيل. «يجب أن يدفعوا الثمن، يا للعنة».

- أنت لا تعلمين كم نشعر بالأسف لمجيئنا وازعاجك في هذه اللحظات، لأنك ترغبين في الراحة - اعتذر النقيب سيلفا وهو يلعب

بقيعته - ولكن أرجو أن تتفهمي وضعنا. لا يمكن لنا إضاعة الوقت يا سيدتي. هل يزعجك أن نوجه إليك بعض الأسئلة الصغيرة؟ إنها مسألة لابد منها، قبل أن تخفي آثار أولئك الأشخاص تماماً.

- طبعاً، طبعاً، أتفهمك جيداً - وافقت مابيل وهي تبدي ملامح الرضا، ولكن دون أن تخفي معارضتها تماماً - اسأل ما تريد أيها السيد.

كان ليتوما مبهوراً بحركات الحنان التي يبديها فيليثيتتو ياناكيه تجاه أنثاه. فهو يمر بيده على وجهها بعذوبة، كما لو أنها كلبه المدللة؛ يزبح خصل الشعر المفلترة على جبها ويدسها تحت المنشفة العمامة، يهش الحشرات الطيارة التي تقترب منها. ينظر إليها بحنان ولا يرفع بصره عنها. أمسك إحدى يديها واستبقها بين يديه.

- هل استطعت رؤية وجههم - سألهما النقيب - هل يمكنك التعرف عليهم إذا ما رأيتمهم مجدداً؟

- لا أظن ذلك - نفت مابيل برأسها، ولكنها لم تكن تبدو متأكدة مما تقوله -، لم أر سوى واحدٍ منهم، وبصورة خاطفة. من كان يقف بجانب الشجرة، شجرة البونثيانا ذات الأزهار الحمراء، حين وصلت إلى البيت تلك الليلة. لم أكُن أدقق في ملامحه. كان يقف جانبياً، هكذا بدا لي، وفي الظلام. وفي تلك اللحظة بالذات، حين استدار ليقول لي شيئاً واستطاعت النظر إليه، ألقوا غطاء فوق رأسي. كمموني. ولم أعد أرى شيئاً حتى صباح هذا اليوم، حين...

قطعتْ كلامها بوجه ممتعق وأدرك ليتوما أنها تبذل جهوداً كبيرة كيلا تجهش في البكاء. كانت تحاول مواصلة الكلام ولكن صوتها لم يكن يخرج. راح فيليثيتتو يتضرع إليهما بعينيه بأن يشفقا على مابيل.

- اهدئي، اهدئي - واسها النقيب سيلفا - . أنت امرأة شجاعة جداً

يا سيدتي. لقد مررت بتجربة رهيبة ولم يستطعوا كسرك. أطلب منكِ فقط أن تبذل مجهوداً أخيراً، أرجوك. كنا نفضل طبعاً عدم التحدث في الأمر، ومساعدتك على دفن ذكرياتك السيئة. ولكن المجرمين الذين اختطفوك يجب أن يكونوا وراء القضبان، وأن يُعاقبوا على ما فعلوه. وأنت وحدك من تستطيعين مساعدتنا في الوصول إليهم.

هزت مابيل رأسها موافقة وهي تبتسم ابتسامة مغمومة. وتابعت الكلام متغلبة على كربها. بدت قصتها للبيتوما متماسكة ومتدفقة، وإن كانت تتناطها بين حين وآخر ارتعاش وخزات رعب يجعلها تصمت مرتجفة لبضع ثوان. فيشحب وجهها، وتصطك أسنانها. أتراها تستعيد لحظات الكابوس، ذلك الرعب العظيم الذي لا بد أن تكون قد أحسست به نهاراً وليلاً على امتداد أسبوع مضته في قبضة المafia؟ ولكنها تعود بعد ذلك لسرد قصتها، يقاطعها بين فينة وأخرى النقيب سيلفا، و(«بأي تهذب شديد الأدب»، فكر ليتوما متفاجئاً) يطلب منها تفصيلاً معيناً حول ما ترويه.

عملية الاختطاف جرت قبل سبعة أيام، بعد الحفل الموسيقي لكورال الأخوية المريمية بكنيسة سان فرانثيسكو في شارع ليما، وقد حضرته مابيل مع صديقتها فلورا دياث التي تملك محل ملبوسات في شارع خونين، يسمى محل إبداعات فلوريتا. إنها صديقتان منذ زمن وتذهبان معاً إلى السينما في بعض الأحيان، أو لتناول وجبة خفيفة وللمشتريات. ومن عادتهما في مساء أيام الجمعة أن تذهبا إلى كنيسة سان فرانثيسكو، وهي المكان الذي أُعلن فيه استقلال بيورا، إذ تقام هناك حفلات موسيقية، وكورالات، ورقص وعروض فرق محترفين. وفي يوم الجمعة ذاك أنشد كورال الأخوية المريمية أناشيد دينية، كثيرة منها باللاتينية، أو هكذا كانت تبدو. فشعرت فلورا ومابيل بالضجر،

وخرجتا قبل انتهاء الحفل. تبادلتا الوداع عند الجسر المعلق، ورجعت مابيل إلى بيتها ماشية، لأنها كانت قريبة جداً. لم تلحظ شيئاً غريباً أثناء سيرها، لم تلحظ أحداً، ولم تلاحظ أن إحدى السيارات تتبعها. لا شيء مطلقاً. كلاب الشوارع وحدها، وأسراب صبية صغار يلهون، وأناس يستمتعون ببرودة الجو ويتبادلون الحديث على كراس عادية وكراس هزازة، أخرجوها أمام أبواب البيوت والحانات والدكاكين والمطعم، مع الزبائن وأجهزة راديوهاتهم التي تطلق بأعلى صوت موسيقاها، فتختلط مائة الجو بصخب يبعث على الصم. («أكان هناك قمر؟» سأل النقيب سيلفا، فارتبت مابيل للحظات: «أكان؟ المعدنة، لا أتذكر»).

كان شارع بيتها مقفراً، تظن أنها تتذكر. ولم تكن تلاحظ تلك الهيئة الذكرية شبه المستندة إلى شجرة البونثيانا. كانت تحمل مفتاح البيت في يدها، ولو أن ذلك الشخص حاول الاقتراب منها لكان صرخت طالبة النجدة وانطلقت راكضة. لكنها لم تلحظ قيامه بأي حركة. أدخلت المفتاح في قفل الباب وكان عليها أن تعالجة بشيء من القوة - «وقال لها فيليتيتو عندئذ إن المفتاح يعاند قليلاً على الدوام» - وحين أحسست بظل يقترب منها. لم تجد وقتاً للقيام بأي رد فعل. أحسست بأنهم يُلقون غطاء على رأسها، وأن عدة أذرع تمسك بها في الوقت نفسه. («كم كان عدد تلك الأذرع؟»، «أربع أذرع... ست، لا أدرى»). ثم حملوها وكمموا فمها ليُخمدوا صراخها. بدا لها أن ذلك كله قد حدث في ثانية واحدة. كان ذلك أشبه بزلزال، وكانت هي في مركز تلك الهزة الأرضية. وعلى الرغم من هلعها العظيم، حاولت أن ترفس بقدميها وأن تحرك ذراعيها، إلى أن أحسست بأنهم يطرحونها أرضاً في سيارة، يمكن أن تكون سيارة كبيرة أو شاحنة صغيرة؛ وكبح أولئك

الأشخاص حركتها بتثبيتها من قدميها ويديها ورأسها. عندئذ سمعت تلك الجملة التي مازالت ترن في مسامعها: «التزمي الهدوء والصمت إذا أردت البقاء حية». أحسست بمرور شيء بارد على وجهها، ربما هي سكين، وربما مقبض مسدس أو سبطانته. انطلقت السيارة؛ ومع اهتزازها راح بدنها يُدفع بالأرضية. عندئذ تكوت على نفسها وظلت صامتة تفكّر: «سأموت». لم تكن لديها حماسة حتى للصلاة. وبلا شكوى أو مقاومة، سمحت بأن يربطوا عصابة على عينيها، ويلبسوا رأسها كيساً، وأن يقيدوا يديها. لم ترَ وجههم لأنهم فعلوا ذلك كلَّه في الظلام، بينما هم يمضون، ربما، على الطريق العام. لم تكن هناك أنوار كهربائية وكان كل شيء ظلاماً مطبقاً. لابد أن الجو كان ضبابياً، إذ لم يكن هناك حتى قمر. قاموا بجولات وجولات لوقت بدا لها ساعات... قروناً، وربما لم تكن سوى دقائق قليلة. فبعينيها الملعوبتين ويديها المقيدتين وخوفها، فقدت الإحساس بالزمن. ومنذ تلك اللحظة لم تعد تعرف في أي يوم هي، وما إذا كان الوقت ليلاً، وإذا كان هناك من يحرسها أم أنهم تركوها وحدها في تلك الحجرة. الأرضية التي مددوها عليها كانت قاسية جداً. وكانت تشعر أحياناً بحشرات تمشي على ساقيها، ربما هي تلك الصراصير الفظيعة التي تكرهها أكثر من كرهها للعناكب والفتران. أنزلوها من الشاحنة. معسكسين بها من ذراعيها، ومشت متلمسة موطن قدميها ومتعرّثة، فدخلت بيته حيث كان مذيع بيت موسيقى كريولية، نزلت درجاً. وبعد أن طرحوها أرضاً على حصیر، تركوها وانصرفوا. ظلت ترتجف هناك في الظلام. لقد تمكنت عندئذ من الصلاة. طلبت من السيدة العذراء ومن جميع القديسين الذين تتذكرهم، ومنهم القديسة روسا دي ليما وسيد أياباكا الكاوتيفو طبعاً، أن يحموها. وألا يتركوها تموت بتلك الحال، وأن ينتهي ذلك العذاب.

خلال أيام اختطافها السبعة، لم يجر أي حديث بينها وبين خاطفيها. لم يُخرجوها قطًّا من تلك الحجرة. لم تعد لرؤيه الضوء قطًّا لأنهم لم ينزعوا العصابة عن عينيها مطلقاً. كان هناك إماء أو دلو يمكنها أن تقضي فيه حاجتها، بالتلمس، مرتين في اليوم. أحد ما كان يأخذه ويعيده نظيفاً دون أن يتوجه إليها بالكلام. مرتان في اليوم، الشخص نفسه أو شخص مختلف، يظل صامتاً دوماً، يأتيها بطبق أرز مع يخنة خضار ولحم وحساء، ومرطب مياه غازية شبه ساخنة أو قارورة مياهمعدنية. ومن أجل أن تتمكن من الأكل، كانوا ينزعون الكيس عن رأسها ويفكونون قيد يديها، ولكنهم لا ينزعون العصابة عن عينيها أبداً. وكلما توسلت مابيل إليهم متضرعة أن يخبروها ماذا سيفعلون بها، ولماذا اختطفوها، يردّ عليها دوماً الصوت القوي والامر نفسه: «اصمتني! إنك تقامررين بحياتك حين تسألين». لم تستطع الاستحمام قطًّا، ولا حتى أن تغسل. ولهذا كان أول ما فعلته، حين استعادت حريتها، هو الدخول للاستحمام والبقاء تحت ماء الدوش طويلاً، وذلك بدنها بالليفة والصابون إلى أن تسلخت بشرتها، وبعد خلعها كل تلك الملابس التي كانت ترتديها خلال تلك الأيام الرهيبة. ستضعها كلها في حزمة - بما في ذلك الحذاء - وتقدمها هدية لفقراء سان خوان دي ديوس.

في صباح هذا اليوم دخل إلى حجرة سجنها عدة أشخاص، قدرت ذلك من وقع الخطوات. ودون أن يقولوا أي شيء، كالعادة، أوقفوها في ما بينهم على قدميها وجعلوها تمشي، تصعد درجاً، وأعادوا طرحها على أرضية عربة، لا بد أنها السيارة أو الشاحنة نفسها التي اختطفوها فيها. وظلت السيارة تقوم بجولات وجولات لوقت طويل، بينما عظام بدنها كلها تتخلع من الاهتزاز المتواصل، إلى أن توقفت

أخيراً. فكوا وثاق يديها وأمروها: «عدي حتى المئة قبل أن تنزع عن العصابة عن عينيك. إذا ما نزعتها قبل ذلك ستقتضي عليك رصاصه». انصاعت لما طلبوه. وحين رفعت العصابة اكتشفت أنهم تركوها في وسط الرملة بالقرب من لا ليغوا. مشت أكثر من ساعة حتى وصلت إلى أول البيوت في حي كاستيا. وهناك تمكنت من العثور على سيارة أجرة أوصلتها إلى البيت.

بينما مابيل تروي أوديستها، كان ليتوما يتبع قصتها باهتمام شديد، ولكن دون أن يهمل مظاهر المحبة التي يبديها دون فيليثيتو لعشيقته. كان هناك شيء طفلية، مراهق، ملائكي، في الطريقة التي يمر بها صاحب شركة النقل بيده على جبهتها، وينظر إليها بورع ديني، ويتمتم «مسكينة، مسكينة يا حبي». في بعض اللحظات كان ليتوما يشعر بالضيق من تلك الحركات، وتبدو له مبالغة فيها، ومضحكة بعض الشيء في مثل تلك السن. وفكّر: «لا بد أنه أكبر منها بثلاثين عاماً. يمكن لهذه الفتاة أن تكون ابنته». لقد كان العجوز يرتجف حتى النخاع. أ تكون مابيليتا من الناريات أم من الباردات؟ إنها من الناريات طبعاً.

ـ لقد اقترحتُ عليها أن تنتقل من هنا لبعض الوقت ـ قال فيليثيتو ياناكيه للشرطيين ـ أن تذهب إلى تشيكلايو، أو تروخيو أو إلى ليما. إلى أي مكان. ربّما تنتهي هذه القضية. لا أريد أن يحدث لها أي شيء. إلا تبدو لك فكرة جيدة أيها النقيب؟

ـ هز الضابط كتفيه.

ـ لا أظن أنه سيحدث لها أي شيء ببقائها هنا ـ قال مفكراً ـ الجناء يعرفون أنها محمية الآن ولن يكونوا مجانيين بالاقتراب منها وهم يعرفون ما الذي يعرضون أنفسهم له. أشكوك يا سيدة مابيل على

شهادتك. أؤكد لك أنها ستكون مفيدة لنا. هل تسمحين بأن أوجه إليك بعض الأسئلة الأخرى؟

- إنها متعبة - احتج دون فيليشيتو -. لماذا لا تتركها الآن بهدوء أيها النقيب؟ ولتستجوبها غداً أو بعد غد. أريد أخذها إلى طبيب، وإدخالها المستشفى بضعة أيام لإجراء فحوصات شاملة.

- لا تقلق يا عجوزي، سأستريح في ما بعد - تدخلت مابيل -. أسألكي ما تشاء أيها السيد.

بعد عشر دقائق، قال ليتوما لنفسه إن رئيسه يبالغ. فصاحب شركة النقل على حق؛ لأن المرأة المسكينة تعرضت لتجربة رهيبة، اعتقادت أنها ستموت، لقد كانت تلك الأيام السبعة بالنسبة لها عذاباً فظيعاً. كيف يريد النقيب من مابيل أن تتذكر التفاصيل التافهة، شديدة البلاهة، التي يركز أسئلته عليها؟ إنه لا يفهم ذلك. لماذا يريد رئيسه أن يعرف إن كانت قد سمعت وهي في سجنها صياح ديكاً أو صوت دجاج، أو مواء قطط أو نباح كلاب؟ وكيف ستتمكن مابيل من أن تحدد عدد الخاطفين من خلال أصواتهم، وإذا كانوا جميعهم من بيورا أم أن بينهم من يتكلم بلهجة ليما، أو اللهجة الجبلية أو بلهجة شرق البلاد؟ كانت مابيل تفعل كل ما بوسعها، تفرك يديها، تتشكل، ومن الطبيعي أن تلتبس عليها الأمور أحياناً وتبدى ملامح الذهول. هذا شيء لا أتذكره يا سيدى، لم أدقق في هذا الأمر، يا للأسف. وتعذر وهي تهز كتفيها، وتفرك يديها: «كم كنتُ بلهاه، كان عليّ أن أفكر في هذه الأمور، وأن أحارث الانتباه والتذكر. ولكن... لقد كنت في حالة ذهول شديد أيها السيد».

- لا تقلقي، من الطبيعي أن يكون ذهنك مشغولاً، ومن المستحيل حفظ كل شيء في الذاكرة - شجعها النقيب سيلفا -. ولكن حاوي القيام

مع ذلك بجهد أخير. فكل ما تتذكرينه سيكون مفيداً جداً لنا يا سيدتي. قد تبدو لك بعض أسئلتي مجرد كلام لافائدة منه، ولكن لا تنظني بذلك، ففي بعض الأحيان يظهر من هذه التفاهات عديمة الأهمية طرف خيط يقودنا إلى الهدف.

وما بدا لليتوما أكثر غرابة هو أن النقيب سيلفا كان يلح كثيراً على أن تتذكر مابيل ظروف وتفاصيل الليلة التي اختطفت فيها. هل هي متأكدة من أن أحداً من جيرانها لم يكن يستمتع ببرودة الجو في الشارع؟ ولم تكن أي جارة تطل بنصف جسدها من نافذة مستمعة إلى سيرناتا أو تتبادل الحديث مع حبيبها؟ تظن مابيل أن لا، ولكن ربما نعم، لا، لا، لم يكن هناك أحد في ذلك الركن من الشارع لدى عودتها من حفلة الأخوية المريمية. ربما كان هناك أحد، أمر ممكن، كل ما في الأمر أنها لم تدقق، لم تنتبه، يا لي من بلهاء. لليتوما والنقيب كانوا يعرفان جيداً أنه لم يكن هناك أي شاهد على عملية الاختطاف لأنهما كانوا قد استجعوا جميع الجيران. لم ير أحد أي شيء، لم يسمع أحد شيئاً غريباً في تلك الليلة. ربما كان ذلك صحيحاً، أو ربما، كما قال النقيب، لا أحد يريد التورط. «الجميع يرتجفون خوفاً أمام المافيا. ولهذا يفضلون عدم رؤية أو معرفة أي شيء، هكذا هم هؤلاء الأنذال المغلقين على أنفسهم».

أخيراً منح المفوض نفساً لمالك شركة النقل، وانتقل إلى سؤال عادي.  
ـ ما الذي تظنين، يا سيدتي، أن الخاطفين كانوا سي فعلونه بك لو

لم يُشعرون دون فيليشيتو بأنه سيدفع الفدية؟

فتحت مابيل عينيها على اتساعهما، وبدل أن تجيب على سؤال الضابط، التفتت إلى عشيقها:

ـ هل طلبوا منك فدية مقابل؟ لم تخبرني بذلك يا عجوزي.

- لم يطلبوا مني فدية مقابلك - أوضح لها وهو يقبل يدها مرة أخرى -. لقد اختطفوك كي يجبروني على دفع الإتاوة التي يطلبونها من ناريهوا لا للنقل. وأطلقو سراحت لأنني جعلتهم يعتقدون أنني وافقت على ابتزازهم. كان عليّ أن أنشر إعلاناً في «التييمبو»،أشكر فيه معجزة حققها لي السيد كاوتيفو دي أبياباكا. كانت هذه هي الاشارة التي ينتظرونها. ولهذا أطلقو سراحت.

رأى ليتوما أن وجه مابيل قد شحب من جديد. كانت ترتجف وراحت أسنانها تصطك مرة أخرى.

- أتعني أنك ستدفع لهم تلك الإتاوة؟ تلعثمت.

- لن أفعل ولو مت ياحبيبتي - شخر دون فيليثيتو وهو ينفي بحركة نشطة من رأسه ويديه -. لن أفعل ذلك أبداً.

- سوف يقتلونني إذاً - همست مابيل -. وأنت أيضاً يا عجوزي. ما الذي سيجري الآن أيها السيد؟ هل سيقتلوننا نحن الاثنين؟ أفلتت إجهاشة نحيب رافعة يديها إلى وجهها.

- لا تقلقي يا سيدتي. ستتوافق لك حماية على مدار الأربع والعشرين ساعة يومياً. ولن يكون ذلك لوقت طويل، لأنه لن يكون ضرورياً، وسوف ترين. لقد صارت أيام هؤلاء اللصوص معدودة، أقسم لك.

- لا تبك، لا تبك يا حبيبتي - واساها دون فيليثيتو وهو يحنو عليها ويحتضنها - أقسم لك إنه لن يصيبك أي سوء مرة أخرى. لن أسمح بحدوث ذلك أبداً. أقسم لك يا حياتي، صدقيني. الأفضل أن تغادرني هذه المدينة لبعض الوقت مثلما طلبت منك، اعملني بنصيحتي.

نهض النقيب سيلفا واقفاً، وحذا ليتوما حذوه. «سنخصص لك حماية دائمة»، أعاد المفوض التأكيد على سبيل الوداع. «اطمئني يا سيدتي». لم يرافقهما أي من مابيل أو دون فيليثيتو حتى الباب؛ بل

ظلّ كلاهما في الصالة، هي تبكي وهو يواسيها.  
وفي الخارج، كانت تنتظر الشرطيين شمس حارقة والمشهد المعهود:  
صبية بثياب رثة يتبادلون ركل كرة، وكلاعب أليفة تنبج، وأكواكب زبالة  
عند النواصي، وباعة متجلولون، وصف عربات وشاحنات ودرجات  
نارية ودرجات هوائية تتنازع الطريق. لم تكن طيور الرخمة تحلق في  
السماء فقط، بل إن اثنين من تلك الطيور حطت أرضاً وراحت تبش في  
أكواكب القمامات.

- ما رأيك يا سيادة النقيب؟

أخرج رئيسه علبة سجائر تبغ أسود، قدم واحدة للرقيب، وأخذ  
واحدة لنفسه وأشعل الاثنين بولاعة قديمة خضراء ضاربة إلى السواد.  
أخذ نفساً طويلاً، ثم أطلق الدخان على شكل حلقات. وكانت تبدو  
عليه ملامح الرضا.

- لقد وقعوا يا ليتوما - قال وهو يوجه لكتمه زائفة إلى مساعدته -. لقد  
اقترف الأندال خطأهم الأول، وهو ما كنتُ أنتظره. وأوقعوا أنفسهم!  
هلم بنا إلى «التشارلان»، إنني أدعوك إلى عصير فواكه مع كثير من الثلج  
للاحتفال المناسبة.

كانت ابتسامته تمتد من أذن إلى الأخرى وهو يفرك يديه مثلاً يفعل  
حين يكسب جولة في لعب البوكر أو النرد، أو حين يكسب جولة في  
الداما.

- اعترافات هذه الأنثى تبر ذهب خالص يا ليتوما - أضاف وهو  
يدخن ويطلق الدخان باستمتاع -. وأعتقد أنك قد لاحظت ذلك.

- لم لااحظ أي شيء يا سيادة النقيب - اعترف ليتوما مشوشًا - هل  
تتكلم بجد أم أنك تريد السخرية مني؟ إذا كانت المرأة المسكينة لم  
تتمكن حتى من رؤية وجههم.

- يا للعنة العاهرة! كم أنت شرطي سيئ يا ليتوما، وأنت أكثر سوءاً في الأمور النفسانية - قال النقيب ساخراً وهو ينظر إليه من أعلى إلى أسفل ويضحك بارتياح -. لا أدرى كيف وصلت إلى رتبة رقيب، يا للعنة. وأن تصير فوق ذلك مساعدك، وهو أمر يعني الكثير.

ثم تتمت لنفسه من جديد: «تبُّر ذهب خالص، أجل يا سيد». كانا يجتازان الجسر المعلق ورأى ليتوما جماعة صبيان يسبحون ويلعبطون في الماء عند ضفاف النهر الرملية. هذه الأمور نفسها كان يقوم بها مع أبني عمه ليون، منذ كثير من السنوات.

- لا تقل لي إنك لم تتنبه إلى أن هذه المدعوة مابيليتا لم تنطق بكلمة حقيقة واحدة يا ليتوما - أضاف النقيب وهو يبدي الجدية التامة. وكان يمجد السيجارة، وينفث الدخان كمن يتحدى السماء، وفي صوته وعينيه حسُّ الانتصار -. إنها لم تفعل شيئاً سوى التناقض ورواية حكاية خرقاء. لقد أرادت أن تخدعنا وأن تدس إصبعها في فمها... وفي مؤخرتنا أيضاً. كما لو أنا، أنا وأنت، مجرد زوج من البلياء يا ليتوما. توقف الرقيب فجأة وقد سيطر عليه الذهول.

- هذا الذي تقوله لا تعنيه بجد يا سيادة النقيب، أو إنك تخدعني؟

- لا تقل لي إنك لم تتنبه إلى ما هو جلي وشديد الواضح يا ليتوما - أدرك الرقيب أن رئيسه يتكلم بكل جدية، وبقناعة مطلقة. يفعل ذلك بحماسة وسعادة وهو ينظر إلى السماء، ويرمش دون توقف من الشمس -. لا تقل لي إنك لم تتنبه إلى أن مابيليتا ذات المؤخرة الكثيبة لم تكن مخطوفة قط. وأنها متواطئة مع المبتزين، وشاركت في مسرحية الاختطاف التهريجية من أجل تلبيين موقف دون فيليثيتو المسكين الذي تزيد هي أيضاً أن تنتف ريشه. لا تقل لي إنك لم تتنبه إلى أنه بفضل تمادي أبناء العاهرة هؤلاء، صارت القضية شبه محلولة عملياً يا ليتوما.

يمكن الآن لرسكاتشوتشا أن ينام مطمئناً ويتوقف عن إزعاج صبرنا. لقد  
صار الفراش مرتبأً ولم يبق علينا الآن سوى مداهمتهم والقبض عليهم.  
ألقي عقب السيجارة إلى النهر وبدأ يضحك مقهقاً وهو يهرش  
إبطيه.

كان ليتوما قد خلع قبعته وراح يمسد شعره.

- إما أنني غبي أكثر مما أبدو عليه أو أنك أنت عبكري يا سيدى  
النقيب - أكد بمعنويات موهنة -. أو أن حضرتك أكثر جنوناً من عنزة،  
أقول هذا مع الاعتذار.

- إنني عبكري يا ليتوما، عليك أن تقنع بذلك، كما أنني أتقن  
دراسة سيكولوجية الناس - أكد النقيب مبهجاً -. يمكن لي أن أقدم  
لك تنبؤاً إذا أنت رغبت. في اليوم الذي ستنلقي القبض على هؤلاء  
العتاة، وهو يوم قريب جداً، سوف أمزق فرج السيدة خوسيفيتا حبيبة  
روحى، وأسأجعلها تصرخ طيلة الليل. فلتحيا الحياة، يا للعنة !



## XII

- هل وجدت نرسيس المسكين؟ - سألته السيدة لوكريثيا -، ماذا جرى له؟  
أكد دون ريفوبيرتو ذلك بهز رأسه وانهار على مقعد الصالة في بيته مستنفداً.

- أوديسة حقيقة - قال متنهداً - يا لهذا الجميل العظيم الذي قدمه لنا إسماعيل بإدخالنا في مشكلة فراشه وابنيه، يا حبي. كان أحد أقرباء نرسيس، سائق إسماعيل كاريلا، قد حدد له موعداً في محطة الوقود الأولى عند مدخل تشينتشا. قاد ريفوبيرتو السيارة في الطريق إلى هناك طوال ساعتين، ولكنه حين وصل لم يجد أحداً بانتظاره في محطة الوقود المذكورة. وبعد أن وقف تحت الشمس لوقت لا يأس به وهو يرى مرور الشاحنات والحافلات، ويبتلع الغبار الذي تحمله ريح خفيفة ساخنة تهب من الجبال وتتصفع به وجهه، وحين أصابه الضجر والتعب، وكان على وشك اتخاذ طريق الرجوع إلى ليما، ظهر صبي قال إنه ابن أخي نرسيس. كان زنجياً صغيراً، نزقاً وحافياً، له عينان واسعتان ثرثارتان ومتآمرتان. تحدث إليه متخدأ الكثير من الاحتياطات، بحيث لم يكن دون ريفوبيرتو يفهم جيداً ما يقوله. وأخيراً اتضح أن هناك تغييراً في الخطط؛ فعمه نرسيس ينتظره في غروسيو برادو، عند باب البيت نفسه الذي عاشت فيه، وحققت

معجزاتها، وماتت فيه الراهبة ميلتشوريتا (حين نطق الصبي اسمها رسم إشارة الصليب). نصف ساعة أخرى من قيادة السيارة في طريق يعج بالتراب والحفر، وسط كروم عنب وبساتين فواكه للتصدير. عند باب بيت- متحف- مصلى الراهبة التقية في ساحة غروسيو برادو، ظهر سائق إسماعيل أخيراً.

- كان شبه متذكر بنوع من العباءة وبقلنسوة متعبد كيلا يتعرف عليه أحد، ويكان يموت خوفاً بالطبع - تذكر ريفوبيرتو باسماً - لقد كان ذلك الزنجي أبيض شاحباً من الرعب يا لوكريثيا. والحقيقة أن هذا أقل ما هو متوقع. فالسبعين يلاحقانه نهاراً وليلأ، وأكثر مما كنت أتوقعه.

لقد أرسلوا إليه في أول الأمر محامياً، أو متشدقاً ثرثراً بعبارة أدق، في محاولة لرشوته. إذا ما مثل أمام القاضي وقال إنه قد أجبر على أن يكون شاهداً على زواج رب عمله، وأنه يرى أن السيد إسماعيل كاريرا لم يكن بكامل قواه العقلية يوم زواجه، فسوف يقدمون له مقابل ذلك مكافأة بمبلغ عشرين ألف سول. وعندما أجابه الزنجي بأنه سيفكر في الأمر، ولكنه يفضل بادئ ذي بدء ألا تكون له أية علاقة بالسلطة القضائية ولا بالحكومة، عندئذ جاءت الشرطة إلى منزل عائلته في تشينتشا، لتدعوه إلى المثول في مفوضية الشرطة. فقد رفع التوeman شكوى ضده بتهمة التواطؤ وجنايات أخرى، منها تهمة التآمر واختطاف رب عمله !

- لم يبق أمامه سوى الاختفاء من جديد - أضاف ريفوبيرتو -. لحسن الحظ أن لنرسيس أصدقاء وأقرباء في كل أنحاء تشينتشا. ومن حسن حظ إسماعيل أن هذا الزنجي هو الشخص الأكثر نزاهة ووفاء في العالم. وعلى الرغم من الرعب الذي يشعر به، إلا أنني أشك في أن يتمكن الجلفان من كسر إرادته. لقد دفعتُ له راتبه، وتركت له مبلغاً

إضافياً تحسباً لأي أمر غير متوقع. هذه القضية ستتعقد أكثر فأكثر كل يوم يا حبي.

تمطى دون ريفوبيرتو وثناءب على أريكة الصالة الصغيرة، وبينما كانت دونيا لوكريثيا تُعد له كأس ليموناده، استغرق مطولاً في تأمل بحر بارانكو من النافذة. كان مساء بلا رياح وكان في الجو عدد من هواة التحليق الشراعي يقومون بحركات بهلوانية. مر أحدهم قريباً جداً من النافذة، إلى حدّ تمكن معه ريفوبيرتو من أن يرى بوضوح رأسه الغاطس في خوذة. يا للمسألة اللعينة. وتأتي لتسقط عليه الآن بالذات، مع بدء تقادعه. كان يظن أنه سيكون في راحة، يمضي الوقت بين فن ورحلات، أي في متعة خالصة. الأمور لا تجري أبداً مثلما تم التخطيط لها: إنها قاعدة بلا استثناءات. «لم أتصور قط أن الصداقة مع إسماعيل ستكون باهظة الكلفة إلى هذا الحد»، فكر «ولم أتصور بأي حال أنه سيكون علىّ أن أضحي من أجلها بحيزي الحضاري الصغير». لو كانت هنالك شمس، لكان هذا الوقت هو الساعة الساحرة في ليما. دقائق من الجمال المطلق. كرة النار تغطس في البحر هناك في الأفق وراء جزر سان لورينثو والفرونتون، مشعلة السماء، وصابحة العيون بلون وردي وعارضه، لبعض دقائق، ذلك المشهد الذي يجمع ما بين السكينة والقيمة ليعلن بدء الليل.

- ماذا قلت له؟ - سألته دونيا لوكريثيا وهي تجلس إلى جانبه - يا لنرسيس المسكين من هذا الوضع الذي ورط نفسه فيه لمجرد كونه شخصاً طيباً مع رب عمله.

- حاولتْ طمأنته - أخبرها دون ريفوبيرتو وهو يتذوق الليموناده بتلذذ - . وطلبت منه ألا يرتعب، فلن يحدث أي شيء له أو لي بسبب كوننا شاهدين على الزواج. وأننا لم نرتكب أية جنائية بذلك. ثم إن

إسماعيل سيخرج منتصراً من هذا الصراع مع الضبعين. وأن حملة اسكونبيتا وميكى وغضبهما لا يستندان إلى أية قاعدة قانونية. وأنه إذا أراد الشعور بمزيد من الطمأنينة، فليستشر بشأن وضعه محامياً من تشينتشا يثق به ويرسل إلى الفاتورة. وباختصار، فعلت كل ما استطعته. إنه رجل صلب الإرادة، وأكرر القول لك إن هذين الجلفين لن يقدرا عليه. ولكنهما يجعلانه يمر بلحظات عصيبة، هذا صحيح.

- ونحن، أنسنا كذلك؟ - قالت دونيا لوكريثيا شاكية -. أقول لك إنني، منذ بدأت هذه المزحة الثقيلة، صرت أخاف حتى من الخروج إلى الشارع. الجميع يسألونني عن العريسين، كما لو أنه ليس هناك ما هو أكثر أهمية لأهالي ليما. صرت أرى أن للناس جميعاً وجه صحفي. لا تعرف كم أكرههم حين أسمع أو أقرأ تلك البلاهات والخبريات الزائفة التي يكتبونها.

«إنها مذعورة أيضاً»، فكر دون ريفوبيرتو. امرأته تبتسم له ولكنها يستطيع أن يلمح ذلك البريق الخافت المتهرب الذي يطل من عينيها، والطريقة القلقة التي تفرك بها يديها طيلة الوقت. مسكينة لوكريثيا. لم تُلْغِ رحلتها إلى أوروبا وكل ما بنته عليها من أحلام وحسب، بل جاءت هذه الفضيحة لتحلّ بها فوق ذلك. بينما العجوز إسماعيل مازال يقضي شهر عسله في أوروبا، دون أن يرسل أية إشارة تدل على أنه حي، وبينما ابنياه في ليما يجعلون الحياة مستحيلة على نرسيس وعليه هو نفسه وعلى لوكريثيا، ويضعون شركة التأمين نفسها في حالة من الاضطراب.

- ماذا جرى لك يا ريفوبيرتو - فوجئت لوكريثيا -. من يضحك على انفراد، فإنه إنما يتذكر أعماله الخبيثة.

- أضحك من إسماعيل - أوضح ريفوبيرتو -. يكاد يكمل شهرًا في

رحلة شهر العسل. وهو قد تجاوز الثمانين! لقد تأكّدتُ من الأمر، فهو ليس سبعينيًّا بل ثمانينيًّا! هل تلاحظين يا لوكريثيا؟ كثرة الفياغرا ستؤدي إلى جفاف دماغه، وسوف يتم إثبات صحة ادعاء الضبعين بأنه مختل العقل. لا بد أن تكون آرميدا متوجهة.. إنها تجففه!

- لا تكن مبتذلاً يا ريفوبيرتو - تظاهرت زوجته بانتقاده ضاحكة.

«إنها تُحسن إظهار وجه مرح في الأجواء السيئة»، فكر ريفوبيرتو بحنان. فلوكريثيا لم تُبَدِّل الجزء خلال هذه الأيام، بينما حملة التخويف التي شنها التوْعَمَان تملأ البيت باستدعاءات قضائية وبوليسية وبأخبار سيئة - وأسوأ الأخبار: لقد تمكنا من وقف إجراءات تقاعده في شركة التأمين عبر حيلة قانونية -. إنها لم تُبَدِّل أدنى مظاهر الضعف. فقد دعمته روحًا وجسداً في قراره بعدم الرضوخ لابتزاز الضبعين والحفاظ على وفائه لصديقه ورئيسه في العمل.

- الشيء الوحيد الذي يزعجي - قالت لوكريثيا قارئة أفكاره - هو أن إسماعيل لم يقم ولو باتصال هاتفي أو بإرسال بضعة سطور. ألم يلفت انتباحك ذلك؟ أتراه يعلم بأوجاع الرأس التي تصيبنا؟ هل يعلم بما يحدث للمسكين نرسيس؟

- إنه يعرف كل شيء - أكَدَ ريفوبيرتو -. فأرنبياس على اتصال به ويُطلع على كل شيء. وقد أخبرني بأنهما يتداولان الحديث كل يوم. الدكتور كلوديو أرنبياس هو محامي إسماعيل كاريلا منذ سنوات طويلة، وهو الآن الوسيط بين ريفوبيرتو ورئيسه السابق. وحسب قوله فإن إسماعيل وآرميدا يتجلون في أوروبا، وسوف يرجعان قريباً إلى ليما. ويؤكد أن استراتيجية ابني إسماعيل كاريلا لإبطال الزواج، والحصول على قرار حجز على شركة التأمين، لأنها محكمة بأعظم فشل مدوٍ بسبب عجز أبيهما وإصابته بحرف الشيخوخة. ويكتفي أن

يحضر إسماعيل، ويخضع للفحوص الطبية والنفسية المطلوبة حتى تسقط تلك الدعوى بصورة تلقائية.

- ولكن، إذا كان الأمر على هذه الحال، فأنا لا أفهم لماذا لا يقوم به وننتهي يا دكتور أرنبياس - هتف دون ريفوبيرتو -. لا بد أن هذه الفضيحة ستكون أشد وطأة على إسماعيل مما هي علينا.

- أوتدرى لماذا؟ - أوضح الدكتور أرنبياس متخدًا نبرة ميكافيلية، بينما إبهاما يديه يندسان تحت حمالتي السروال اللتين تثبتان بنطاله -، لأنه يريد أن يواصل التوءمان إنفاق ما لا يملكانه. النقود التي لا بد أنهم يستدینونها من هنا وهناك كي يدفعوا لهذا الجيش من المحامين الفاشلين، والرши التي تسهل لهم الطريق لدى الشرطة والمحاكم... لا بد أنهم يسلخونهما حبّين، وهذا هو الاحتمال الأكبر، وإسماعيل يريدهم أن يفلسوا تماماً. هذا أمر خطط له السيد كاريرا بكل تفصيل، هل أدركت ذلك؟

لقد صار دون ريفوبيرتو يدرك جيداً الآن أن ضغينة إسماعيل كاريرا على الضبعين، منذ ذلك اليوم الذي اكتشف فيه أنهما ينتظران موته بفارغ الصبر، ويتلهفان لوراثته، هي ضغينة مرضية ولا رجعة عنها. لم يتصور قط أن تكون لدى إسماعيل الوديع القدرة على حقد انتقامي بهذا الحجم، وأقل من ذلك أن يكون حقده موجهاً ضد ابنيه بالذات. هل سيصل الأمر بفونتشيتو إلى تمني موته ذات يوم؟ وبالمناسبة، أين هو الصبي؟

- لقد خرج مع صديقه بيثولو إلى السينما على ما أظن - أخبرته لوكريثيا -. ألم تلاحظ أنه صار أحسن منذ أيام؟ كما لو أنه قد نسي إديلبيريتو توريس.

أجل، فمنذ أسبوع على الأقل لم يعد يرى تلك الشخصية الغامضة.

هذا ما قاله لهما على كل حال، ودون ريفوبيرتو لم يكتشف كذبة واحدة في كلام ابنه.

- كل هذه التعقيبات ضيّعت علينا الرحلة التي خططنا لها طويلاً - تنهدت دونيا لوكريثيا محزونة فجأة -. إسبانيا، إيطاليا، فرنسا. يا للأسف يا ريفوبيرتو. كنت أحلم بالقيام بها. وهل تعرف لماذا؟ أنت المذنب. بسبب الطريقة التفصيلية، شديدة النزوية، التي تخبرني بها بالرحلة. الزيارات إلى المتاحف، والحفلات الموسيقية، والمطاعم. ولكن ليس بيدها عمل أي شيء... الصبر.

وافقها ريفوبيرتو:

- إنه تأجيل فقط يا حبي - واسهاها، وقبل شعرها - بما أننا لن نستطيع الذهاب في الربع، فسوف نذهب في الخريف. إنها فترة بدعة أيضاً، مع الأشجار المذهبة وأوراق الشجر التي تشكّل سجادة على الشوارع. إنها أجمل فترة في العام من أجل ارتياح دور الأوبرا والحفلات الموسيقية.

- أعتقد أن مشكلة الضبعين ستكون قد انتهت حتى تشرين الأول؟ - إنهم لا يملكان أموالاً، وبينما ينفقان القليل المتبقى لديهما في محاولة إبطال هذا الزواج وإعلان الحجر على أبيهما - أكيد ريفوبيرتو -. لن يتوصلا إلى ذلك وسوف يُفلسان. أتعلمين أمرأ؟ لم أتصور قط أن إسماعيل قادر على فعل ما يقوم بفعله. أولاً، زواجه من آرميدا. ثانياً، التخطيط لانتقام متقن من ابنيه، ميككي وإسكوبيتا. صحيح بالفعل أنه من غير الممكن معرفة الأشخاص بعمق، فللجميع أعمق لا يمكن سبر غورها.

ظلا يتبدلان الحديث لوقت لا بأس به، وحين بدأ الظلام يخيم، راحت تضاء أنوار المدينة. لم يعودا قادرين على رؤية البحر والسماء،

وامتلاً الليل بأضواء صغيرة كأنها الحبابب. روت لوكريثيا لريغوبيرتو أنها قد قرأت موضوع تعبير كتبه فونتشيتو للمدرسة، وقد أذهلها. لا يمكنها نزعه من رأسها.

- هل عرضه عليك هو نفسه؟ - استفزها ريجوبيرتو - أم أنك كنت تنبشين في منضدته؟

- حسن، كنت هناك، ورأيت الموضوع، فاستثار فضولي. ولهذا قرأته.

- تصرف سيئ قراءتك لأشيائه دون إذن منه ومن وراء ظهره. تظاهر ريجوبيرتو بتأنيبها.

- لقد دفعني إلى التفكير - واصلت لوكريثيا، دون أن تعيره اهتماماً - إنه نصٌّ نصف فلسفية ونصف ديني. حول الحرية والشر.

- أهو في متناول يدك؟ - أبدى ريجوبيرتو اهتماماً - . أحب أنا أيضاً أن ألقى عليه نظرة.

- لقد استنسخته أيها السيد النعام - قالت لوكريثيا - وقد تركت النسخة لك على منضدة مكتبك.

انزوى دون ريجوبيرتو بين كتبه ولوحاته ليقرأ موضوع إنشاء فونتشيتو. «الحرية والشر» كان نصاً قصيراً جداً. يؤكّد على أنه من المحتمل أنّ الرب حين خلق الإنسان، قرر ألا يكون كائناً آلياً، حياته مبرمجة منذ الولادة حتى الممات، مثلما هي حيوانات النباتات والحيوانات، وإنما أراده كائناً مزوداً بحرية الاختيار، وقدراً على تقرير أفعاله بمشيئته الخاصة. وبهذه الطريقة ولدت الحرية. لكن هذه القدرة التي زُود بها سمحت للائد البشري اختيار الشر، وربما خلقه، وفعل أشياء تتناقض مع كل ما يصدر عن الرب، وهي أقرب إلى أن تكون تمثيلاً لسبب وجود الشيطان، ومسوغاً لوجوده. وهكذا إذاً يكون الشر

ابناً للحرية، وقد خلق على يد البشر. وهذا لا يعني أن الحرية سيئة بذاتها؛ لا، لقد كانت هبة سمحت باكتشافات علمية وتقنية عظيمة، وبالتقدم الاجتماعي، وباختفاء العبودية والاستعمار، وبحقوق الإنسان، وغيرها. ولكنها كانت كذلك الأصل في القسوة والمعاناة الفظيعة التي لا تتوقف أبداً بل هي ترافق التقدم كظلله.

ظل دون ريفوبيرتو قلقاً. خطر له أن أفكار هذا النص كلها تلتقي بطريقة ما مع حالات ظهور إديليبرتو توريس ونواحه. أم أن هذا النص هو نتيجة محادثات فونتشيتو مع الأب أودونوفان؟ هل عاد بيبين للقاء بابنه؟ وفي هذه اللحظة اقتحمت خوستينيانا غرفة المكتب منفعلة جداً. جئت لأخبرك أن «العرис الجديد» يتصل بك هاتفياً.

- هذا ما قال لي أن أخبرك به يا دون ريفوبيرتو - أوضحت الفتاة -  
«قولي له يا خوستينيانا إن العريس الجديد يتصل بك».  
- إسماعيل! - خرج دون ريفوبيرتو مسرعاً من مكتبه - ألو؟ ألو؟  
أهذا أنت؟ هل عدت إلى ليما؟ متى رجعت؟

- لم أرجع بعد يا ريفوبيرتو - قال صوت لعوب عرف فيه صوت رئيسه في العمل - إنني أتصل من مكان لن أخبرك به طبعاً، لأن عصفوراً أخبرني بأن هاتفك مراقب من قبل من تعرفهم. ولكنني في مكان جميل، ولتمت أنت حسداً.

أطلق ضحكة سعادة مجلجلة، فباغت ريفوبيرتو المذعور إحساس شك مفاجئ بأن رئيسه وصديقه مخبول حقاً، وأنه خرف تماماً. أیكون الضبعان قد كلفا إحدى وكالات التجسس بأن تراقب هاتفه؟ مستحيل، المادة الرمادية لا تسمع له بكل هذا. أم أنها تتيح ذلك ربما؟

- حسن، حسن، ماذا تريد أكثر من هذا - رد عليه - هذا أفضل لك يا إسماعيل. أرى أن شهر العسل يمضي مع رياح مواتية، وأنه مازال

لديك بعض قوة النفع. أو أنك ما تزال حياً على الأقل. وهذا يسعدني أيها العجوز.

- إنني في كامل لياقتي يا ريفوبيرتو. دعني أقول لك أمراً: لم أشعر من قبل قط بأنني أفضل حالاً وأكثر سعادة مما أنا عليه في هذه الأيام.

- رائع إذاً - كرر ريفوبيرتو - حسن، لا أريد أن أبلغك أخباراً سيئة، ولا سيما بالهاتف. ولكنني أفترض أنك على علم بما أشعلته هنا. وما الذي يمطر علينا هنا.

- كلوديو أرنبياس يطعنني على الأمور أولاً بأول مع أدق التفاصيل، ويرسل لي قصاصات الصحف. إنني أستمتع كثيراً بقراءة أخبار عن أنه جرى اختطافى، وأننى أعانى خرف الشيخوخة. ويبدو أنك أنت ونرسيس كنتما من المتواطئين في عملية اختطافى، أليس كذلك؟

أطلق قهقهة أخرى، طويلة وساخرة جداً.

- كم هو جيد أنك تأخذ هذه الأمور بمزاج طيب - ددمد ريفوبيرتو -. أنا ونرسيس استمتعنا كثيراً، كما يمكنك أن تتصور. الأخوان أوصلا سائقك إلى حافة الجنون بمكائدhem وتهديداتهم. وقد نلنا نحن أيضاً مثل ذلك.

- متأسف جداً لللازعاجات التي سببتها لكم يا أخي - حاول إسماعيل إصلاح الموقف بإبداء الجد - لقد أوقفوا إجراءات تقاعده، وألغوا رحلتك إلى أوروبا. إنني أعرف كل شيء يا ريفوبيرتو. أطلب ألف معذرة منك ومن لوكريثيا بسبب هذه المشاكل. لن يستمر هذا كله لوقت طويل، أقسم لك.

- وما أهمية التقاعد والرحلة إلى أوروبا بالمقارنة مع صداقة شخص مثلك - قال دون ريفوبيرتو بسخرية -. ومن الأفضل لا أخبرك بالاستدعاءات إلى المحكمة لتقديم أقوالي كمتواطئ مزعوم في التستر

والاختطاف، كيلاً أفسد عليك شهر عسلك البديع. وباختصار، آمل أن يتحول هذا كله قريباً إلى مادة لإضحاكنا ولرواية طرائف.

أطلق إسماعيل قهقهة أخرى، كما لو أن ذلك كله أمر لا علاقة له به.  
- أنت من أولئك الأصدقاء الذين لم يعد لهم وجود يا رينغوبيرتو. لقد كنتُ أعرف ذلك على الدوام.

- لا بد أن أزنيبياً أخبرك بأن سائقك قد اضطر إلى الاختباء. لقد أرسل التوءمان إليه الشرطة، ولا أستغرب، في حالة الاختلال التي هما عليها، أن يرسلوا إليه كذلك اثنان من القتلة المأجورين ليقطعوا له ذلك الذي تعرفه.

- لن يتورعوا عن عمل ذلك - اعترف إسماعيل -. هذا الزنجي يساوي وزنه ذهباً. طمئنه بآلا يقلق. قل له إن وفاءه سيلقى المكافأة المستحقة يا رينغوبيرتو.

- هل سترجع قريباً أم ستواصل شهر عسلك إلى أن ينفجر قلبك وترتعش ساقك؟

- إنني أنهى مسألة ستعجبك جداً يا رينغوبيرتو. وفور إنهائها سأعود إلى ليما كي أعيد الأمور إلى نصابها. وسترى كيف أن هذه المشكلة ستحل بكل سهولة. متأسف حقاً لأوجاع الرأس التي أسببها لك. لهذا السبب اتصلت بك فقط. سئلتني قريباً. قبلاتي للوكريثيا وعناق كبير لك.

- ومثله مني إليك، وقبلاتي لآرميدا - قال دون رينغوبيرتو مودعاً. وعندما أغلق الهاتف، ظل يتأمل الجهاز. فينيسي؟ كوستا ثالوث؟ كابري؟ أين هما فرخا الحمام؟ أيكونان في مكان غرائبي مثل أندونيسيا أو تاييلندا؟ هل إسماعيل سعيد جداً مثلما يقول؟ أجل، دون شك، إذا ما حكمنا من خلال قهقهاته الشبابية. لقد اكتشف في الثمانين أن

الحياة ليست عملاً وحسب، وإنما اقتراف أعمال جنونية كذلك.  
الجموح وتجاوز الحدود، تذوق متع الجنس والانتقام. هذا أفضل له.  
وبينما هو يفكر في ذلك دخلت لوكريثيا إلى غرفة مكتبه متلهفة:

- ماذا جرى؟ ماذا قال لك إسماعيل؟ أخبرني، أخبرني.

- يبدو أنه سعيد جداً. يأخذ كل شيء على محمل المزاح والضحك،  
ما رأيك - أوجز لها. وعادت الشكوك تداهمه -: أتدررين يا لوكريثيا؟  
وماذا إذا كان قد أصيب بحرف الشيخوخة حقاً؟ وإذا كان لا يدرك  
حقيقة الأعمال الجنونية التي يقترفها؟

- أتكلم بجد أم تمزح يا رينوبيرت؟

- حتى الآن يبدو لي أنه واع تماماً ومسيطر على نفسه - قال متشككاً  
- ولكنني حين كنت أسمع قهقهاته في الهاتف، رحت أفك. لماذا هو  
مبتهج جداً بكل ما يحدث، كما لو أنه لا يهتم قدر قلامة ظفر  
بالفضيحة وبالمشكلة التي أدخلنا فيها. باختصار، لا أدرى، ربما أكون  
متاثراً بعض الشيء. أتدركين الوضع الذي سنكون فيه إذا ما كان خرف  
الشيخوخة قد أصاب إسماعيل بين ليلة وضحاها؟

- إنك تدس هذه الفكرة في رأسي في أسوأ وقت يا رينوبيرت. لن  
أتخلص منها طيلة الليل. سيكون الحال أسوأ بالنسبة إليك إذا ما  
أصابني الأرق، إنني أحذرك.

- لا تهتمي بما قلت، إنها مجرد حماقات، إنها تعويذات كيلا  
يحدث ما أقول إنه ممكن الحدوث - طمأنها رينوبيرت - ولكنني لم  
أكن أنتظر في الحقيقة أن أجده غير قلق إلى هذا الحد. كما لو أنه لا  
علاقة له بهذا كله. اعتذرني، اعتذرني. لقد عرفت الآن ما جرى له.  
إنه سعيد. هذا هو السر في كل شيء. فلأول مرة في حياته عرف  
إسماعيل ما هي المراجعة الحقيقة يا لوكريثيا. لأن ما كان يفعله مع

كلوتيلدي لم يكن سوى تمضية وقت في واجبات زوجية. أما مع آماندا فدخلت الخطيئة أيضاً، وهذا يجعل الأمر أفضل.

- مرة أخرى مع قذاراتك - اعترضت امرأته -. ثم إنني لا أدرى ماذا لديك ضد تمضية الوقت في واجبات زوجية. أنا أرى أن علاقتنا تمضي على خير ما يرام.

- طبعاً يا حبي، إنها تمضي بصورة رائعة - قال وهو يقبل يد لوكريثيا وأذنها -. من الأفضل لنا أن نفعل مثله، ولا نولي الموضوع أي اهتمام. أن نتسلح بالصبر وننتظر مرور العاصفة.

- ألا تريد أن نخرج يا رينغوبيرتو؟ فلنذهب إلى السينما أو لتناول شيء في الخارج.

- فلنشاهد فيلماً هنا، أفضل من الخروج - أجابها زوجها -. فمجرد فكرة أن يظهر واحد من أولئك الصحفيين مع آلة تسجيله، ويلتقط لي صوراً ويوجه أسئلة عن إسماعيل والتوءمين، يسبب لي ارتخاءً في المعدة.

منذ استحوذت الصحافة على خبر زواج إسماعيل من آماندا، وعلى أعمال ابنيه لدى الشرطة والقضاء من أجل إبطال زواجه واعتباره غير مؤهل لذلك، لم يعد هناك أي حديث آخر للصحف والإذاعات وبرامج التلفزيون، وكذلك شبكات التواصل الاجتماعي والمدونات. الواقع تختفي تحت الدوي الجنوبي للمبالغات والاختلافات والنمائم والافتراءات والندالات، حيث خرج إلى السطح على ما يبدو كل ما في الناس من خبث، وجهل، وفساد، وأحقاد، وضغائن. ولو لم يجد دون رينغوبيرتو نفسه منساقاً إلى أن يكون جزءاً من ذلك الهياج الصحفي، ومطلوباً على الدوام من قبل صحفيين يعوضون عن جهلهم بقتورهم وعجزتهم، لقال إن هذا الاستعراض الذي تحول فيه إسماعيل كاريلا

وأرميدا إلى تسلية المدينة الكبرى، حيث يغرقان في القذارة المكتوبة والمذاعة والتلفزة، ويشويان دون توقف في محارق أشعالها ميكى وإسكوبيتا اللذان يؤجحانها يومياً بتصريحات ومقابلات وتخيلات ودورات، لكان الأمر مسلياً له، إضافة إلى كونه تعليمياً وتدربياً. حول هذه البلاد، وهذه المدينة، وحول الروح البشرية بصورة عامة. حول هذا الشر نفسه الذي يُقلق الآن فونتشيتو من خلال ما يتبدى في موضوعه. «تعليمي وتدربي، أجل»، فكر من جديد. حول أمور كثيرة. وظيفة الصحافة في هذا الزمان، أو على الأقل في هذا المجتمع، ليس تقديم الأخبار، وإنما إخفاء أي شكل من أشكال التمييز بين الكذب والحقيقة، استبدال الواقع بخيال تتبدى فيه الكتلة الهائلة من العقد، والإحباط، والأحقاد والصلوات النفسية لجمهور تنهشه الضغينة والحسد. وهذا دليل آخر على أنه لا يمكن لفضاءات الحضارة الصغيرة أن تتغلب أبداً على الهمجية الراسخة.

المحادثة التليفونية مع رئيسه السابق وصديقه خلفته مكتئباً. لم يكن نادماً لأنّه قدم له المساعدة بقبوله أن يكون شاهداً على زواجه. ولكن بدأت تنتقل عليه نتائج توقيعه على وثيقة الزواج تلك. فليسَت التعقيدات القانونية والبوليسية، ولا تأخير إجراءات تقاعده هي ما يضايقه، لأنّه يفكر (بلمس خشب، يمكن لكل شيء أن ينقضى) أن ذلك كلّه، مهما بلغ سوءه، يمكن حلّه. ويمكن له وللوكريشيا أن يقوما بالرحلة إلى أوروبا. لكن الأسوأ هو الفضيحة العامة التي يجد نفسه مدفوعاً إلى التورط فيها. فهو يظهر الآن بصورة شبه يومية في صحفة المغارير، ملوثاً بنتانة صفراء. وتساءل بمرارة: «بماذا أفادك هذا الملجأ الصغير الذي يضم الكتب واللوحات والأسطوانات، وكل هذه الأشياء الجميلة، المرهفة، الذكية التي جمعتها بكثير من الدأب معتقداً أنك في هذا الفضاء الحضاري الضيق

ستكون محصناً ضد الجهل والتفاهة والبلادة والفراغ؟». فكرته القديمة بأنه يجب إقامة هذه الجزر والمحصون الثقافية وسط العاصفة، بغض النظر عن همجية المحيط، ليست مجده. فالفضيحة التي أثارها صديقه إسماعيل والضبعان قد تسربت أحماضها، وقيحها، وسمومها إلى مكتبه، إلى هذا الحيز الذي يعتزل فيه، منذ سنوات طويلة - أهي عشرون، خمسة وعشرون، ثلاثون عاماً؟ -، كي يعيش الحياة الحقيقة. الحياة التي تعوضه عن بoval الص التأمين وعقود الشركة، عن مكاييد ودناءات السياسة المحلية، عن أكاذيب وبلاهة الناس الذين عليه التعامل معهم كل يوم. والآن، مع الفضيحة، لم يعد ينفعه في شيء البحث عن عزلة مكتبه. لقد فعل ذلك عشية أمس. وضع في الغراموفون تسجيلاً بدليعاً، عمل أرثر هونغر الموسيقي الملحمي الديني *أوراتوريو الملك داود*، المسجل في كاتدرائية نوتردام باريس والذي طالما أثر فيه. لم يستطع في هذه المرة التركيز على الموسيقى ولو لحظة واحدة. كان يسهو، تعينه ذاكرته إلى صور وقلق الأيام الأخيرة، المفاجأة، الاستياء الصفراوي في كل مرة يجد اسمه في الأخبار، مع أنه لا يشتري تلك الصحف، لكن أصدقاءه يوصلونها إليه أو أنهم يأتون على ذكرها بصورة لجوجة، مسممين بذلك حياته وحياة لوكريثيا. اضطر إلى إطفاء جهاز الموسيقى والبقاء هادئاً، مغمض العينين، يسمع نبضات قلبه، مع طعم ملوحة في فمه. واستخلص: «في هذه البلاد لا يمكن إقامة فضاء حضاري ولو بأضيق الحدود. سينتهي الأمر بأن تكون الهمجية كل شيء». وقال لنفسه مرة أخرى، مثلما يفعل كلما أحس بالإحباط، كم كان مخططاً في شبابه حين قرر عدم الهجرة والبقاء هنا، في ليما الفظيعة؛ مقتنعاً بأنه حتى لو اضطر لأسباب تتعلق بعملية التغذية إلى قضاء ساعات طويلة من اليوم غارقاً في الصخب الدنيوي لبيرو بي الطبقة العليا، إلا أنه سيتمكن من تنظيم حياته

بطريقة تتبع له العيش حقاً في هذا الحيز النقي، الجميل، الرافي، المكون من أشياء سامية يصنعها بنفسه كبديل للنير اليومي. وكان أن أنته حينذاك فكرة الفضاءات الإنقاذية، فكرة أن الحضارة لم تكن قط حركة أو حالة أمور عامة، ولم تكن جوًّا يحتضن كل المجتمع، وإنما قلاع صغيرة جداً، مقامة على امتداد الزمان والمكان، تصد الهجوم المتواصل لتلك القوة الغريرة، العنيفة، الفظة، القبيحة، المدمرة، البهيمية التي تسيطر على العالم والتي دخلت الآن إلى بيته بالذات.

في تلك الليلة، بعد الانتهاء من تناول الطعام، سأله فونتشيتو عما إذا كان متعباً.

- لا - أجاب ابنه - لماذا يا بابا؟

- أحب أن أتحدث معك قليلاً إذا لم يكن هذا يضايقك.

- إذا لم يكن للأمر علاقة بـ ديلبيرتو توريـس، فسوف يسعدني - قال فونتشيتو بخبث - لم أعد أراه، فاطمئن.

- أعدك ألا نتحدث عنه. أجابه دون ريفوبيرتو، وفعل مثلما اعتاد أن يفعل وهو صغير، قاطع إصبعين على شكل صليب وقبلهما قائلاً: أقسم بالله.

- لا تستخدم اسم الله باطلًا، فأنا مؤمنة - أنتبه دونيا لوكريثيا - اذهبـا إلى حجرة المكتب. وسأقول لخوستينيانـا أن تأخذ لكمـا المثلجـات إلى هناك.

وبينما هـما يتذوقان مـثلجـات لوكريـثـيا في غـرفةـ المـكتبـ، كان دون ريفوبـيرـتو يراقب فـونـتشـيـتوـ بين لـقـمةـ وأـخـرىـ. إنهـ يـجلسـ أـمامـهـ، مـتقـاطـعـ السـاقـيـنـ، يـتناولـ مـثـلـجـاتـهـ بـمـلاـعـقـ بـطـيـئـةـ، وـيـبـدـوـ مـسـتـغـرـقاـ فيـ فـكـرـةـ بـعـيـدةـ ماـ. لمـ يـعـدـ طـفـلاـ. مـنـذـ متـىـ بدـأـ يـحـلـقـ ذـقـنـهـ؟ وجـهـهـ حـلـيقـ، وـشـعـرـ رـأـسـهـ مشـعـثـ؛ إنـهـ لـاـ يـمـارـسـ الـرـياـضـةـ كـثـيرـاـ، وـلـكـنـهـ يـبـدـوـ كـذـلـكـ، لأنـ لـهـ جـسـداـ

نحيلًاً ورياضياًً. إنه فتى وسيم، لا بد أن البنات يمتن من أجله. الجميع يقولون ذلك. ولكن ابنه لا يبدو مهتماً بهذه الأمور، بل يمضي مشغولاً بتهيؤات واهتمامات دينية. أهذا جيد أم سيئ؟ أكان يفضل أن يكون فونتشيتو صبياً عاديًّا؟ «عاديًّا»، فكر متخيلاً ابنه يتكلم بعامية تحذف حروفًا من الكلمات، وشبيهة بلغة القردة التي يتكلماها فتيان من جيله، ومن يسكون في نهاية الأسبوع، ويدخون لفافات ماريجوانا، ويتنشقون الكوكائين أو يبتلون حبوب النشوة في صالات رقص مركز الاستجمام الأسيوى، عند الكيلومتر مئة على الطريق العابر لأميركا، مثلما يفعل كثيرون من الأولاد المرفهين في ليما. جابت بدنـه قشعريرة. أفضـل ألف مرة أن يرى ابني أشباحاً أو يرى الشيطان نفسه وأن يكتب مقالات عن الحرية والشر.

- قرأتُ ما كتبته عن الحرية والشر - قال له - كان هناك، على منضديـك وأصابني الفضول. آمل ألا يضايقـك تصـرـفي. لقد أتـرـ فيـ ما كتبـه كثـيراً، أقولـ الحـقـيقـةـ. إنهـ مـكتـوبـ بـطـرـيقـةـ جـيـدةـ وـمـتـلـئـ بـأـفـكـارـ شخصـيـةـ. منـ أـجـلـ أـيـةـ مـادـةـ درـاسـيـةـ كـتـبـتهـ؟

- منـ أـجـلـ مـادـةـ اللـغـةـ - قالـ فـونـتشـيـتوـ دونـ أنـ يـوليـ الـأـمـرـ أـهـمـيـةـ - طـلـبـ منـ الـأـسـتـاذـ إـتـورـيـاغـاـ كـتـابـةـ مـوـضـوـعـ حرـ. فـخـطـرـ لـيـ هـذـاـ الـمـوـضـوـعـ. وـلـكـنـهـ مـسوـدـةـ فـقـطـ. مـازـالـ عـلـيـ أـنـ أـصـحـحـ كـلـهـ.

- لقدـ فـاجـأـنـيـ، لأنـيـ لمـ أـكـنـ أـعـرـفـ أـنـكـ مـهـتـمـ إـلـىـ هـذـاـ الحـدـ بالـدـيـنـ. - هلـ بـدـاـ لـكـ نـصـاـ دـيـنـيـاـ؟ - استـغـرـبـ فـونـتشـيـتوـ - كـنـتـ أـظـنـ أـنـهـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـفـلـسـفـةـ. حـسـنـ، لاـ أـدـريـ، فالـفـلـسـفـةـ وـالـدـيـنـ يـخـتـلـطـانـ، أـلـيـسـ كـذـكـ. أـولـمـ تـهـتـمـ أـنـتـ قـطـ بـالـدـيـنـ يـاـ بـابـاـ؟

- لقدـ درـسـتـ فـيـ مـدـرـسـةـ لـارـيـكـولـيـتاـ، وهـيـ مـدـرـسـةـ رـهـبـانـ - قالـ دونـ رـيـغـوـبـيرـتوـ - وـكـنـتـ بـعـدـ ذـلـكـ فـيـ «ـالـعـلـمـ الـكـاثـوـلـيـكـيـ»ـ، معـ بـيـبـيـنـ

أودونوفان، لبعض الوقت. لقد أثار الدين اهتمامي كثيراً بالطبع، حين كنت شاباً. ولكنني فقدت الإيمان ذات يوم، ولم أستعده بعدها قط. أظن أنني فقدته حين بدأت أفكـر. فلـكي تكون مؤمناً لا يناسبكـ أن تـفكـر كثيراً.

- هذا يعني أنكـ ملحدـ. تـعتقد أنه لا وجود لأي شيء قبل هذه الحياة أو بعدها. هـكـذا تكون ملـحدـاً، أليس كذلكـ؟

- إنـنا نـتوغل عمـيقـاً - هـتف دون رـيغوبيرـتوـ. أنا لـست مـلـحدـاً، فـالـملـحدـ مـؤـمنـ أـيـضاًـ. يـؤـمنـ بـأنـ الـربـ لا وجودـ لهـ، أـلـيسـ هـذـاـ صـحـيـحاًـ؟ـ أناـ لاـ أـدـريـ،ـ هـذـاـ إـذـاـ مـاـ كـنـتـ شـيـئـاًـ.ـ إـنـنيـ شـخـصـ يـعلـمـ أـنـهـ حـائـرـ،ـ غـيرـ قادرـ عـلـىـ الإـيمـانـ بـأنـ الـربـ مـوـجـودـ أـوـ بـأنـهـ غـيرـ مـوـجـودـ.

- لاـ خـمـرـ وـلاـ لـيـمـونـادـةـ -ـ قـالـ فـونـتشـيـتوـ ضـاحـكاًـ.ـ إـنـهاـ طـرـيـقـةـ مـرـيـحةـ جـداـ لـلـتـخلـصـ مـنـ المـشـكـلةـ يـاـ بـابـاـ.

إـنـ لـهـ ضـحـكةـ طـازـجةـ،ـ صـحـيـةـ،ـ وـفـكـرـ دـونـ رـيـغـوبـيرـتوـ بـأـنـهـ فـتـيـ جـيدـ.ـ إـنـهـ يـعـرـ بـأـزـمـةـ مـراـهـقـةـ،ـ يـعـانـيـ مـنـ شـكـوكـ وـعـدـمـ يـقـيـنـ حـولـ الـمـاـوـرـائـيـاتـ وـالـوـاقـعـ الـذـيـ يـتـكـلـمـ عـنـهـ جـيدـاـ.ـ كـمـ هوـ رـاغـبـ فيـ مـسـاعـدـتـهـ.ـ وـلـكـنـ كـيـفـ،ـ كـيـفـ يـمـكـنـهـ فـعـلـ ذـلـكـ.

- شـيءـ مـنـ هـذـاـ القـبـيلـ،ـ وـإـنـ تـكـنـ السـخـرـيةـ زـائـدـةـ -ـ قـالـ موـافـقاًـ -ـ أـتـرـيدـ أـنـ أـخـبـرـكـ شـيـئـاًـ يـاـ فـونـتشـيـتوـ؟ـ أـنـاـ أـحـسـدـ الـمـؤـمـنـيـنـ.ـ وـلـكـنـ غـيرـ الـمـتـعـصـبـيـنـ بـكـلـ تـأـكـيدـ،ـ لـأـنـ الـمـتـعـصـبـيـنـ يـسـبـبـونـ لـيـ الرـعـبـ.ـ وـلـكـنـيـ أـعـنـيـ الـمـؤـمـنـيـنـ الـحـقـيـقـيـيـنـ.ـ مـمـنـ لـدـيـهـمـ إـيمـانـ وـيـحـاـوـلـونـ تـنـظـيمـ حـيـاتـهـمـ بـمـاـ يـتـقـعـ مـعـ مـعـقـدـاتـهـمـ.ـ بـاعـتـدـالـ وـدـونـ تـظـاهـرـ أـوـ تـهـرـيـجـ.ـ لـأـعـرـفـ كـثـيـرـيـنـ،ـ وـلـكـنـيـ أـعـرـفـ الـبـعـضـ.ـ وـهـمـ يـبـدـوـنـ لـيـ مـثـيـرـيـنـ لـلـحـسـدـ.ـ وـبـالـمـنـاسـبـةـ،ـ هـلـ أـنـتـ مـؤـمـنـ؟ـ اـتـخـذـ فـونـتشـيـتوـ مـظـهـراًـ جـديـاـ وـفـكـرـ لـحـظـةـ قـبـلـ أـنـ يـجـيبـ.

- أحب أن أعرف شيئاً عن الدين، لأنهم لم يعلمني قطّ أي شيء من ذلك - تفادي الإجابة بنبرة تأنيب -. ولهذا انضممنا أنا وتشاتو بيثولو إلى جماعة القراءة الكتاب المقدس. نحن نلتقي أيام الجمعة، بعد انتهاء الدروس.

- فكرة رائعة - ابتهج دون ريفوبيرتو -. الكتاب المقدس كتاب رائع، على الجميع أن يقرؤوه، سواء أكانوا مؤمنين أو غير مؤمنين. كثافة عامة قبل أي شيء آخر. ولكن من أجل فهم أفضل كذلك للعالم الذي نعيش فيه. أشياء كثيرة تحدث في ما حولنا تأتي مباشرة أو بصورة غير مباشرة من الكتاب المقدس.

- وهذا هو الموضوع الذي تريد أن نتحدث فيه يا بابا؟  
- في الواقع، لا - قال دون ريفوبيرتو -. كنت أريد الحديث عن إسماعيل والفضيحة التي نحن فيها. لا بد أن يكون هذا الأمر قد وصل إلى مدرستك أيضاً.

عاد فونتشيتتو إلى الضحك.  
- لقد سألوني ألف مرة عما إذا كان صحيحاً أنك ساعدته على الزواج من طاهيته، مثلما تقول الصحف. وأنت تظهر على الدوام في المدونات عالقاً في هذه الورطة.

- آرميدا لم تكن طاهيته قطّ - أوضح دون ريفوبيرتو -. بل كانت مديرة بيته. تتولى تنظيف البيت وإدارته. وخاصة منذ ترمل إسماعيل.  
- لقد كنتُ في بيته مرتين أو ثلاث مرات ولا أتذكرها بأي حال -

قال فونتشيتتو -. هل هي جميلة على الأقل؟

- فلنلقي إنها مقبولة - أقر دون ريفوبيرتو بطريقة سليمانية -. وأكثر شباباً بكثير من إسماعيل. لا أظنك تصدق كل البلاهات التي تقولها الصحافة. عن أنه قد اختطف، وأنه خرف، وأنه لا يعرف ما الذي

يفعله. فإسماعيل بكامل قواه العقلية، ولهذا وافقتُ على أن أكون شاهده. ولم أكن أتوقع بالطبع أن المشكاة ستتکبر إلى هذا الحجم. لكن كل شيء سينقضى. كنت أريد أن أخبرك بأنهم قد أوقفوا إجراءات تقادعي في الشركة. التوءمان قدما شکوى يتهمانني فيها بالتوطؤ في عملية اختطاف لم تحدث قط. ولهذا فإنني الآن مقيد هنا، في ليمار، باستدعاءات ومحامين. هذا هو الموضوع. إننا نمر بمرحلة صعبة، وإلى أن يتم التوصل إلى حلّ، سيكون علينا أن نشد الأحزمة قليلاً. لأنه من غير المناسب أيضاً تصفية كافة المدخرات التي يعتمد عليها مستقبلنا نحن الثلاثة. وبصورة خاصة مستقبلك أنت. أريدك أن تكون على اطلاع.

- أجل بالطبع يا بابا - قال فونتشيتو مشجعاً إيه - لا تقلق. وإذا تطلب الوضع يمكنك أن توقف مصروفي إلى أن تمر هذه المرحلة.

- ليس إلى هذا الحد - ابتسم دون ريفوبيرتو - . فمن أجل نقاطك لدينا ما يكفي ويزيد. عندك في المدرسة، ما الذي يقال بين الأساتذة والتلاميذ حول هذا الموضوع.

- الأغلبية العظمى تقف مع التوءمين بالطبع.

- مع الضبعين؟ من الواضح أنهم لا يعرفونهما.

- كل ما في الأمر أنهم عنصريون - أكد فونتشيتو - لا يغفرون للسيد إسماعيل أنه تزوج من خلاصية تشولا. يعتقدون أنه لا يمكن لشخص عاقل أن يفعل ذلك وأن الشيء الوحيد الذي تريده آرميدا هو الاستحواذ على الأموال. أنت لا تدري مع كم منهم تشاجرت دفاعاً عن زواج صديقك يا بابا. بيثولو وحده هو الذي يدعمني، ولكنه يفعل ذلك بداعع الصداقة وليس لأنه مؤمن بأنني على حق.

- إنك تدافع عن قضية حميدة يابني - ربت دون ريفوبيرتو على

ركبتيه - حتى لو لم يصدق أحد ذلك، فإن زواج إسماعيل كان بداع الحب.

- هل يمكنني أن أوجه إليك سؤالاً يا بابا؟ - قال الصبي فجأة، حين بدا أنه يستعد للخروج من المكتب.

- طبعاً يا بني. يمكنك أن تسأل ما تشاء.

- هناك شيء لا أفهمه - غامر فونتشيتتو بقلق - بشأنك أنت يا بابا. لقد كنتَ محباً على الدوام للفن، للرسم، للموسيقى، للكتب. وهذا هو الأمر الوحيد الذي تتحدث عنه بشغف شديد. فلماذا إذاً صرت محامياً؟ لماذا كرست حياتك كلها للعمل في شركة تأمين؟ كان عليك أن تكون رساماً، موسيقياً، وباختصار... لا أدرى. لماذا لم تتبع ميولك؟ هز دون ريفوبيرتو رأسه موافقاً، وفكّر هنيهة قبل أن يجيب.

- لأنني جبان يا بني - دمدم أخيراً - لعدم إيماني بنفسي. لم أؤمن قط بأن لدى موهبة أن أكون فناناً حقيقياً. أو ربما أن هذا الاعتقاد كان ذريعة لعدم المحاولة. قررت ألا أكون مبدعاً، وإنما مجرد مستهلك للفن، ومتلذذ بالثقافة. لأنني كنت جباناً، هذه هي الحقيقة المحزنة.وها أنت تعرفها الآن. لا تتبع مثالي. ومهما كانت ميولك، اتبعها بعمق ولا تفعل مثلي، لا تخن ميولك.

- أرجو ألا أكون قد أزعجتك يا بابا. إنه سؤال رغبتُ بتوجيهه إليك منذ زمن.

- وهو سؤال أوجهه لنفسي منذ سنوات طويلة يا فونتشيتتو. لقد أجبرتني على الإجابة عنه، وأنا شاكر لك هذا. هيا، امض، طابت لي ليلتك.

ذهب للنوم بمعنويات أفضل بعد حديثه مع فونتشيتتو. روى لدونيا لوكريثيا كم شعر بالتحسن في استماعه إلى ابنه، شديد التعقل، بعد أن

كان معك المزاج، ومدى الضيق الذي كان يشعر به طيلة المساء. لكنه تجنب إخبارها بالجزء الأخير من الحديث مع ابنه.

- لقد أُعجبت برؤيته هادئاً جداً وناضجاً يا لوكريثيا. إنه منضم إلى جماعة لقراءة الكتاب المقدس، تصوري. كم من الفتية في مثل عمره يفعلون أشياء كهذه؟ قلة قليلة جداً. هل قرأتِ أنتِ الكتاب المقدس؟ أعترف لك أنني لم أقرأ سوى مقاطع منه، ومنذ سنوات طويلة. لا ترغبين في أن نقرأه، كمن يلعب، ونناقشه؟ إنه كتاب بديع.

- سأفعل ذلك بكل سعادة، فلربما تحول ثانية وترجع إلى الكنيسة - قالت لوكريثيا، ثم أضافت بعد بعض ثوان من التفكير: - آمل إلا تكون قراءة الكتاب المقدس متعارضة مع ممارسة الحب يا ذا الأذنين الكبيرتين.

- الكتاب المقدس هو أكثر الكتب إبروتية في العالم - سمعته يقول باندفاع -. سوف ترين، حين نقرأ نشيد الإنشار، الممارسات الرهيبة التي يقوم بها شمشون مع دليلة، ودليلة مع شمشون، سوف ترين.

### XIII

- على الرغم من أننا نرتدي الزي الرسمي، إلا أن زيارتنا هذه ليست زيارة رسمية - قال النقيب سيلفا وهو ينحني انحناء تهذب نفخت كرشه وجعلت قميص زيه الخاكي - إنها زيارة أصدقاء يا سيدتي.

- طبعاً، حسن جداً - قالت مابيل وهي تفتح لهما الباب. كانت تنظر إلى الشرطيين متواجهة مذعورة، وبعينين ترمشان - تفضل، تفضل، رجاء.

لقد وصل النقيب والرقيب فجأة، بينما هي مستغرقة في التفكير، تعرف مرة أخرى، بأنها متأثرة لما يبديه العجوز من مظاهر العاطفية. إنها تشعر بالمحبة دوماً نحو فيليثيتو ياناكيه. أو إنها لم تشعر نحوه بالرهاب قطّ، على الرغم من مرور ثمانية أعوام على كونها عشيقته، ولم تشعر بالانزعاج البدني أو المعنوی الذي كان يدفعها، في الماضي، إلى قطع علاقتها فجأة مع عاشقين أو حمّاء عابرين كانوا يسببون لها أوجاع رأس بغيرتهم، أو بمطالبهم ونزاولهم، أو بسبب زعلهم واستيائهم. وكان قطع بعض تلك العلاقات يعني لها خسارة مادية جسيمة. لكن الأمر كان أقوى منها. فعندما تصل بها الحال إلى الضجر من رجل، لا تعود قادرة على مواصلة النوم معه. تصاب بحساسية، وتأتيها أوجاع رأس ونوبات قشعريرة، وتبدأ بتذكر زوج أمها، وتتمكن بصعوبة من كبح رغبتها في التقى كلما وجدت نفسها مضطرة إلى التعري

من أجله، والانصياع لرغباته في الفراش. ولهذا، كانت تقول لنفسها، على الرغم من أنها قد ضاجعت رجالاً كثيرين مذ كانت صبيحة صغيرة - فقد هربت من بيتها إلى حيث يقيم أقارب لها، حين حدثت تلك القصة مع زوج أمها -، ولكنها لم تكن قطًّا ما يسمونها عاهرة. لأن العاهرات يعرفن كيف يتصنعن وهنَّ في الفراش مع زبائنهنَّ، أما هي فلا. فمن أجل أن تضاجع مابيل أحدهم يجب أن تشعر على الأقل بشيء من الإلفة مع الرجل، إضافة إلى الانسجام المسبق بطريقة ما، كما يقول أهالي بيورا بالعامية: دعوات، نزهات، هدايا، وأساليب ترتيب المضاجعة، وإضفاء مظهر العلاقة العاطفية عليها.

- شكرأً سيدتي - قال النقيب سيلفا رافعاً يده إلى واقية قبعته في محاكاة لتحية عسكرية -. سناحول ألا نأخذ الكثير من وقتك.

وقام الرقيب ليتوما بمحاكاة صدى لقول قائده: «شكراً سيدتي». أجلستهم مابيل في الصالة وجاءتهما بزجاجتي إنكاكولا باردين. وكى تخفي عصبيتها، كانت تحاول ألا تتكلم؛ وأن تكتفي بالانتظار مبتسمة. خلع الشرطيان قبعتيهما، واستقرَا على المقعدتين. انتبهت مابيل إلى أن العرق يبلل جبهتي الشرطيين وشعريهما. فكرت في أنه عليهما أن تشغل المروحة، ولكنها لم تفعل؛ كانت تخشى، إذا ما نهضت عن المهد، أن يلحظ النقيب والرقيب الارتتجاف الذي بدأ يهز ساقيهما ويديهما. أي تفسير ستقدم لهما إذا ما بدأت أسنانها تصطرك أيضاً؟ «إنني شبه مريضة ولدي قليل من الحرارة، بسبب... بسبب ما يصيبنا نحن النساء... حضرتكم تعرفان ما الذي أعنيه».

هل سيصدقانها؟

- ما نريده يا سيدتي - أضفى النقيب سيلفا بعد العذوبة على صوته -، ليس استجوابك، وإنما إجراء محادثة ودية. وهما أمران مختلفان

تماماً، حضرتكِ تفهميني. لقد قلتُ وديّة وأكرر ذلك.

خلال السنوات الثمانى الماضية لم تصل قط إلى الشعور بالحساسية من فيليثيو. لأن العجوز كان دون شك شخصاً طيباً جداً. أجل، إذا كانت تشعر في يوم زيارته بأنها متوعكة بعض الشيء، بسبب الدورة الشهرية أو لأنها لا تجد، بكل بساطة، رغبة في فتح ساقيها للسيد، فإن صاحب شرفة ناريهموالا للنقل لم يكن يلح عليها. بل على العكس تماماً؛ كان يقلق عليها، يريد أخذها إلى الطبيب، يذهب إلى الصيدلية لشراء أدوية لها، يأتيها بميزان الحرارة. هل كان واقعاً في حبها؟ لقد فكرت مابيل ألف مرة أنه كذلك. فالعجز على كل حال لم يكن يدفع الإيجار الشهري لهذا البيت ويقدم لها بضعة آلاف سول كل شهر، من أجل مرة أو مرتين كل أسبوع. وإضافة إلى قيامه بواجباته تلك، فإنه يأتيها دوماً بهدايا، في عيد ميلادها، وفي أعياد الميلاد، وكذلك في مناسبات لا يقدم أحداً فيها أية هدايا، كالاعياد الوطنية أو خلال الاحتفالات بأسبوع مدينة بيورا في شهر تشرين الأول/أكتوبر. وحتى في طريقته بالنوم معها، كان يثبت لها في كل مرة بأن ما يهمه ليس الجنس وحده. كان يهمس في أذنها بكلمات عاشق، ويقبلها بحنان، ويظل ينظر إليها مفتوناً، وبامتنان بينما هو يجثو أمامها كما لو أنه فتى أمرد. أليس هذا حباً؟ لقد فكرت مابيل مرات كثيرة في أنه يمكن لها، إذا ما حاولت، أن تتوصل إلى جعل فيليثيو يترك زوجته، تلك الخلاصية التشولا المترهلة التي تبدو أشبه بشبح منها بكاين بشري، وأن يتزوج منها. ويمكن أن يكون ذلك سهلاً جداً. يكفي أن تحبل مثلاً، وتنفلت في البكاء، وتضعه في المرمى: «أعتقد أنك لا ترغب في أن يكون ابنك نغلاً؛ أليس كذلك يا عجوزي؟». ولكنها لم تحاول ذلك قط ولن تحاوله، لأن مابيل تقدر كثيراً حريتها، استقلالها. ولن تصحي

بها مقابل أمان نسبي: أضف إلى ذلك أنها لا تجد ظرافة في تحولها بعد سنوات قليلة إلى ممرضة وراعية لعجوز يجب تنظيف رياته وملاءات فراشه التي يبول عليها أثناء نومه.

- أعدك ألا تأخذ الكثير من وقتك يا سيدتي - كرر النقيب سيلفا، وهو يلف ويدور دون أن يتهمس لأن يشرح لها بوضوح سبب هذه الزيارة المفاجئة. وكان ينظر إليها بطريقة، فكرت مابيل، تكذب أسلوب كلامه المذهب - وفي اللحظة التي تشعرين بالتعب منا، أخبرينا بذلك بكل صراحة وستنصرف ونذهب بإزاعاجنا إلى مكان آخر.

لماذا يبالغ الشرطي في التهذب إلى هذه الحدود المضحكة؟ ما الذي يحمله على ذلك؟ إنه يريد طمأنتها طبعاً، ولكن تكلفه وأسلوبه المعسول وابتساماته المتصنعة تزيد من ارتياح مابيل. ما الذي يريد هذا الثنائي؟ ولم يكن الرقيب قادراً، خلافاً لقائده، على مواراة أنه قلق بعض الشيء. يتأملها بطريقة غريبة، غير مطمئنة، وبحذر، كما لو أن لديه شيء من الخوف مما يمكن أن يحدث، وهو يروز لغده دون توقف، بحركة شبه عصبية من أصابعه.

- كما يمكنك أن ترى بعينيك، لم نأت معنا بأية آلية تسجيل - أضاف النقيب سيلفا وهو يفتح يديه ويربت بهما على جيوبه بطريقة مسرحية -. ولا حتى بورقة وقلم. يمكنك أن تكوني مطمئنة: لن يبقى أي أثر لما نقوله هنا. سيكون سرياً. بين حضرتك وبيننا. ولا أحد سوانا.

في الأيام التي تلت أسبوع الاختطاف، بدا فيليثيو حنوناً وودوداً بصورة غير معقولة، حتى إن مابيل صارت تشعر بالإرهاق. تلقت باقة ورود حمراء ضخمة ملفوفة بورق سيلوفان مع بطاقة مكتوبة بخط يده تقول: «مع كل حبي، ومع حزني للتجربة القاسية التي جعلتكم تمرین

بها يا مبابيليتا الحبيبة. يرسل لك هذه الورود الرجل الذي يحبك: حبيبك فيليثيتو». كانت تلك أكبر باقة أزهار رأتها في حياتها. وحين قرأت البطاقة أغورقت عينها وتبليلت يداها، وهو شيء لا يحدث لها حين تأتيها كوابيس. اتفاق على عرض العجوز بمعادرة بيورا إلى أن تنقضي هذه المشكلة برمتها؟ لديها شكوك. لقد كانت مطالبة ملحة أكثر من كونها عرضًا. كان فيليثيتو مرتعباً، يعتقد أنه يمكن لهم إلحاق الأذى بها، ويتوسل إليها أن تسفر إلى مدينة تروخيبيو، إلى تشيكلايو، إلى ليما، أو الذهاب للتعرف على مدينة كوسكو إذا كانت تفضل ذلك، أو أي مكان ترغب في الذهاب إليه لتكون بعيدة عن مبتزى العنكبوت اللعينين. كان يعدها بالذهب والفضة: لن ينقصها شيء، ستتمتع بكل وسائل الراحة طيلة رحلتها. لكنها لم تحسم أمرها. ليس لأنها لم تكن خائفة، لا شيء من هذا القبيل. فالخوف - خلافاً لكتير من الناس الخوافين الذين عرفتهم - شيء شعرت به مبابيل مرة واحدة فقط من قبل، حين كانت صبية صغيرة، يوم دخل زوج أمها حجرتها مستغلًا ذهاب الأم إلى السوق، ودفعها إلى السرير وحاول أن يعريها. لقد دافعت عن نفسها، خمسة، وخرجت راكضة وهي شبه عارية إلى الشارع مطلقة اللولات. في تلك المرة عرفت ما هو الرعب حقاً. ولم تعد بعد ذلك إلى تجربة شيء مشابهة.. حتى الآن. الخوف أصبح في هذه الأيام هلعاً شديداً، عميقاً، دائماً، استقر مجدداً في حياتها. طوال الأربع والعشرين ساعة. نهاراً وليلاً، مساء وصباحاً، نائمة ومستيقظة. كانت مبابيل تفك في أنها لن تستطيع التخلص منه أبداً حتى موتها. حين تخرج إلى الشارع يراودها الإحساس بأنها مُراقبة؛ وحتى حين تكون في البيت، حبيسة جدرانه وراء أربعة أقفال، تداهمها أحاسيس مفاجئة تجمد جسدها وتقطع أنفاسها. فتسيطر عليها عندئذ فكرة أن دمها قد

توقف عن الدوران في أوردتها. على الرغم من معرفتها أنها محمية، وربما بسبب ذلك. أكانت محمية حقاً؟ لقد أكد لها فيليشيو ذلك، بعد أن تحدث مع النقيب سيلفا. صحيح أن هنالك حارس أمام بيتهما، وحين تخرج إلى الشارع يتبعها، على مسافة معينة، شرطيان بملابس مدنية، رجل وامرأة، دون أن يُتيحَا لأحد ملاحظة وجودهما. ولكن هذه الحراسة بالذات، المتواصلة على امتداد أربع وعشرين ساعة يومياً، هي ما تضاعف من حدة عصبيتها، وكذلك ثقة النقيب سيلفا من أن من اختطفوها لن يكونوا متهررين ولا مغفلين ليحاولوا مهاجمتها مرة أخرى، وهم يعرفون أن الشرطة تحيط بها ليلاً ونهاراً. وعلى الرغم من ذلك كله لم يكن العجوز يصدق أنها بمنجى من الخطر. لأن الخاطفين، حسب رأيه، حين يدركون أنه قد كذب عليهم، وأنه نشر إعلان جريدة «التييمبو» الذي يشكر فيه معجزة السيد الكاوتبو دي اياباكا من أجل أن يطلقوا سراحها وحسب، وأنه لا يفكر في أن يدفع لهم الإتاوة، سوف يغضبون ويحاولون الانتقام بالنيل من أحد أعزائه المقربين. ولأنهم يعرفون أشياء كثيرة عنه، فإنهم يعرفون أن أعز الأشخاص إلى فيليشيو في الدنيا هي مابيل. ولهذا يجب أن تغادر بيورا، وأن تخفي بعض الوقت، لأنه لن يغفر لنفسه قط إذا ما ألحق بها أولئك التعساء الأذى من جديد.

ظلت مابيل صامتة لإحساسها بأن قلبها سيخرج من مكانه. ومن فوق رأس الشرطيين، وتحت رسم قلب يسوع، رأت وجهها معكوساً في المرأة وفوجئت بشحوبه. كانت بيضاء شاحبة مثل واحد من تلك الأشباح التي تظهر في أفلام الرعب.

- أرجوك أن تستمعي إلى بلا عصبية ولا رعب - أضاف النقيب سيلفا بعد وقفة صمت طويلة. كان يتكلم بنعومة، خافضاً صوته كثيراً

كما لو أنه سيبوح لها بسر . لأن هذا الإجراء الخاص الذي جئنا من أجله ، وأكرر: الخاص ، هو لمصلحتك حتى لو لم يبُدُ كذلك.

- قل لي دفعة واحدة ما الذي جرى ، ما الذي تريده - تمكنت مابيل من القول وهي تختنق. فقد أغضبها لف ودوران النقيب وتحفظاته المنافقة . - قل لي ما الذي جئت تخبرني به . أنا لست بلهاه . فلا تُضيّع مزيداً من الوقت أيها السيد .

- فلندخل في الموضوع إذاً يا مابيل - قال المفوض متحولاً . واختفت فجأة أساليبه الطيبة ومزاجه السخي . لقد رفع صوته ونظر الآن بحزن ، وبطريقة فوقية وآمرة . والأدهى من ذلك أنه توجه إليها من دون كلفة : - متأسف جداً من أجلك ، ولكننا نعرف كل شيء ، مثلما تسمعين يا مابيليتا . كل شيء ، الأمر كله ، كله . نحن نعرف مثلاً أنك لا تكتفين ، منذ زمن لا بأس به ، بالسيد فيليثيتو ياناكيه عشيقاً ، بل لديك شخص آخر . شخص أكثر وسامة وشباباً من العجوز ذي القبعة والصدر الذي يدفع لك نفقات هذا البيت .

- كيف تتجرا حضرتك على هذا الكلام ! - احتجت مابيل وقد احمر وجهها بشدة - لا أسمح لك بهذا ! ولا بمثل هذا الافتراء !

- من الأفضل أن تتركييني أكمل ، وألا تكوني كثيرة الاعتراض - قاطعها بجفاء صوت النقيب سيلفا وإيماءاته المتوعدة . - ستقولين في ما بعد كل ما ترغبين فيه ، وسيكون بإمكانك أن تبكي وأن تضربي الأرض بقدميك كما تشاءين ، إذا كنت أزعجك . أما الآن فاصمتي . أنا وحدي من له حق الكلام الآن ، وعليك أن تطبقي فمك . مفهوم يا مابيليتا ؟

ربما سيكون عليها أن تغادر بيورا . ولكن فكرة العيش وحيدة ، في مدينة لا تعرفها تحبط معنوياتها - لم تكن قد خرجت من هذه المدينة إلا للذهاب إلى سويانا ولوبيتوس وبaitا وياسيل ، لم تتجاوز قط حدود

المقاطعة، لا باتجاه الشمال ولا باتجاه الجنوب، ولم تصعد سلسلة الجبال ... ما الذي ستفعله روحها وحيدة في مكان لا أقارب لها فيه ولا أصدقاء؟ ستكون الحماية المتوافة لها هناك أقل مما هي عليه هنا. هل ستقضى الوقت وهي تنتظر مجيء فيليثيتو لزيارتها؟ ستعيش في فندق، تعاني الضجر صباحاً مساءً، ولا سلوى لها سوى التلفزيون، إذا كان هناك تلفزيون، والانتظار والانتظار. ولا يرور لها كذلك أن يكون هناك، ليلاً ونهاراً، شرطي رجل أو امرأة، يراقب خطواتها، يسجل مع من تتكلم، ومن تحسي، من يقترب منها. فأكثر من شعورها بالحماية، ستشعر بأنها هدف للتجسس، وبدل أن يطمئنها ذلك، يجعلها متوتة وغير آمنة.

صمت النقيب سيلفا لحظة كي يشعل سيجارة بهدوء. وأطلق دون تسع دفقة طويلة من الدخان الذي طفا في الجو وملا الصالة الصغيرة برائحة تتبع لاذعة.

- هذا شأنك يا مابيل، فالشرطة لا تهمها حياتك الخاصة بأي حال - واصل المفوض وهو ينفض الرماد على الأرض ويتخذ مظهراً يجمع بين الفيلسوف والقاتل ... ليس ما يهمنا هو أن يكون لك عشيقان أو عشرة عشاق؛ بل اقترافك جنون الاتفاق مع واحد منهم لابتزاز دون فيليثيتو ياناكيه، العجوز المسكين الذي يحبك كثيراً جداً فوق هذا. كم كنت جاحدة يا مابيليتا !

- ماذا تقول ! ماذا تقول ! - نهضت واقفة، وكانت ترتجف الآن من الغضب، ورفعت صوتها أيضاً، وقبضة يدها ... لن أنطق بأية كلمة أخرى قبل أن يكون هناك محام إلى جانبي. عليك أن تعلم أنني أعرف حقوقني. أنا ...

يا لشدة عناد فيليثيتو ! لم تخيل مابيل قط أن العجوز مستعد

للموت قبل أن يعطي الإتاوة للمبتهرين. إنه يبدوليناً، شديد التفهم، ولكنه أثبت فجأة، أمام بيورا بأسرها، أنه ذو إرادة فولاذية. في اليوم التالي لتحررها، دار بينها وبين فيليثيتو حديث طويل. وفي إحدى اللحظات، سأله مابيل فجأة و مباشرة:

— لو قال لك الخاطفون إنهم سيقتلونني إذا لم تعطهم الإتاوة الشهرية، هل كنت ستتركهم يقتلونني؟

— أنت ترين أن الأمر لم يكن كذلك يا حبي. تلعم صاحب شركة النقل بضيق شديد.

— أجبني بصراحة يا فيليثيتو — ألحت عليه — هل كنت ستتركهم يقتلونني؟

— وكنت سأقتل نفسي بعد ذلك مباشرة — أكد بصوت محزن وهو يبدي ملامح مثيرة للأسى جعلتها تشفع عليه — اعذرني يا مابيل. ولكنني لن أدفع إتاوة أبداً لأي مبتز. حتى لو قتلوني أو قتلوا أعز من لدي في الدنيا، وهي أنت.

— ولكنك أنت نفسك قلت لي إن جميع زملائك في بيورا يدفعون لهم. ردت عليه مابيل.

— وكثيرون من التجار ورجال الأعمال أيضاً، على ما يبدو — اعترف فيليثيتو — أجل، لقد علمت بذلك الآن من فيغنو. هذا شأنهم. لا أنتقدهم. كل شخص يعرف ما يفعله وكيف يحمي مصالحه. ولكنني لستُ مثلهم يا مابيل. لا يمكنني عمل ذلك. لا أستطيع خيانة ذكري أبي.

وعندئذ، بعينين مغرورقتين بالدموع، راح صاحب شركة النقل يتكلم عن أبيه أمام مابيل المتجائحة. لم تسمعه قطْ خلال السنوات التي أمضياها معاً يتكلم بتلك الطريقة الحساسة عن أبيه. بتأثير، بحساسية،

مثلاً يفعل وهو يقول لها كلمات رقيقة تطفح بالعذوبة في علاقاتهما الحميمة. لقد كان رجلاً فقيراً جداً، رجلاً ريفياً ذا أصول هندية، من ريف تشولوكاناس. وصار في ما بعد، هنا في بيورا، حمالاً وزبالةً بلدياً. لم يتعلم القراءة والكتابة قطٌّ، وقد أمضى الشطر الأعظم من حياته بلا حذاء، وهو أمر كان يلحظ فيه حين تركا تشولوكاناس وجاءا إلى المدينة كي يتمكن فيليشيتو من الذهاب إلى المدرسة. عندئذ اضطر إلى انتعال حذاء، ولوحظ كيف أنه يبدو غريباً في مشيته، وأن قدميه تؤلمانه لأنهما حُبستا في الحذاء. لم يكن رجلاً يظهر عاطفته بمعانقة ابنه وتقبيله، ولا بالقول له تلك العبارات الحانية التي يقولها الآباء عادة لصغارهم. كان صارماً، قاسيًا، وحتى إنه طويل اليد أيضاً حين يغضب. ولكنه أثبت له أنه يحبه بدفعه إلى الدراسة، وتوفير الملبس والمأكل له، على الرغم من أنه هو نفسه لم يكن لديه ما يلبسه أو ما يضعه في فمه، ثم أدخله إلى أكاديمية لتعليم السائقين كي يتعلم فيليشيتو السيارة ويستخرج رخصته. بفضل ذلك الريفي الأمي وجدت شركة ناريوموا للنقل. صحيح أن آباءه كان فقيراً، ولكنه كان عظيماً باستقامة روحه، لأنه لم يسبب الأذى لأحد قطٌّ، ولم يخالف القوانين، ولم يحقد على المرأة التي هجرته تاركة له طفلًا حديث الولادة ليتولى تربيته. وإذا كان صحيفاً ذلك الذي يقال عن الخطيئة والشر والحياة الأخرى؛ فلا بد أنه الآن في الفردوس السماوي. لم يكن لديه الوقت حتى لاقتراف الشر، فقد كان عليه طيلة حياته أن يعمل مثل حيوان، في أسوأ الأعمال أجرًا. يتذكر فيليشيتو أنه كان يراه ينهر كالبيت تعباً في الليل. لكنه لم يكن يسمح لأحد بأن يذله. لأن ذلك، حسب رأيه، هو ما يجعل للإنسان قيمة ما أو يجعله مجرد خرقة بالية. وهذه هي النصيحة التي وجهها إليه قبل موته على سرير بلا فراش في المستشفى العمالي: «لا تسمح أبداً لأحد

بأن يُذلك يا بني». وقد عمل فيليثيتو بنصيحة ذلك الأب، بالرغم من أنه لم يستطع، لافتقاره إلى النقود، من دفنه في قبر، ولا الحيلولة دون أن يلقوا به في قبر جماعي.

- أترین يا مابيل؟ ليس المهم هي الخمسينية دولار التي يطلبها مني هؤلاء المافياويون. ليست هذه هي المسألة. ولكنني إذا أعطيتهم إياها، فإنني أكون قد سمحت بأن يُذلوني، وأن يحولونني إلى خرقـة. أخبريني ما رأيك يا حبي.

لم تستطع مابيل فهمه، ولكنها تأثرت وهي تسمعه يقول تلك الأشياء. وعندئذ فقط، على الرغم من أنها قد أمضت معه زمناً طويلاً، انتبهت إلى أن تحت مظهره كرجل ضئيل القيمة، شديد النحول، وبالغ الضآلـة؛ هنالك في فيليثيتو طبع صارم وإرادة لا يثنـيها الرصاص. ومن المؤكد أنه كان سيتركـهم يقتـلـونـها دون أن يسمـحـ لهم بـلـيـ ذـراعـه.

- أصمتـي واجلسـي - أمر الضابـطـ وصمتـتـ مابـيلـ، ثم تـهـاـوتـ مـجـدـداً على المقـعدـ مـهـزـومـةـ - لـسـتـ بـحـاجـةـ إـلـىـ أيـ محـامـ حتـىـ الآـنـ. فـهـذـهـ مـحـادـثـةـ وـديـةـ وـسـرـيـةـ، لـقـدـ نـبـهـتـكـ إـلـىـ ذـلـكـ. وـخـيرـ لـكـ أـنـ تـضـعـيـ هـذـاـ الـأـمـرـ فـرـأـكـ دـفـعـةـ وـاحـدـةـ. وـهـكـذـاـ، دـعـيـنـيـ أـتـكـلـمـ يـاـ مـابـيلـيـتاـ، وـاسـتـوـعـبـيـ جـيـداـ ماـ أـقـولـهـ لـكـ.

ولـكـنـهـ قـبـلـ أـنـ يـواـصـلـ الـكـلـامـ، أـخـذـ نـفـساـ طـوـيـلاـ أـخـرـ منـ سـيـجـارـتـهـ وأـعـادـ نـفـثـ الدـخـانـ بـبـطـهـ، مشـكـلاـ بـهـ حلـقـاتـ. «يرـيدـ تعـذـيبـيـ، وـمـنـ أـجـلـ هـذـاـ جـاءـ»، فـكـرـتـ مـابـيلـ. كـانـ تـشـعـرـ بـالـنـعـاصـ وـبـأـنـهـ مـسـتـنـفـدـةـ الـقـوـيـ، كـماـ لوـ أـنـ يـمـكـنـ لـهـ أـنـ تـغـفـوـ فـيـ أـيـةـ لـحـظـةـ. وـبـيـنـمـاـ هوـ جـالـسـ عـلـىـ المـقـعـدـ، كـانـ الرـقـيبـ ليـتـوـماـ يـنـحـنـيـ قـلـيـلاـ إـلـىـ الـأـمـامـ وـكـانـهـ لـاـ يـرـيدـ أـنـ يـضـعـ حـرـفـاـ وـاحـدـاـ مـاـ يـقـولـهـ رـئـيـسـهـ، لـمـ يـكـنـ يـتـكـلـمـ وـلـاـ يـتـحـركـ. وـلـمـ يـكـنـ يـرـفـعـ بـصـرـهـ كـذـلـكـ عـنـهـاـ وـلـوـ ثـانـيـةـ وـاحـدـةـ.

- التّهم عديدة وبالجملة - واصل النقيب وهو ينظر إلى عينيها كمن يريد تنويمها مغناطيسياً -. لقد حاولت أن يجعليننا نصدق أنك قد اختطفت، ولم يكن ذلك كله سوى تهريجاً، دبرته أنت ورفيقك من أجل الضغط على فيليثيتو، الرجل الشهم الذي يموت حباً بك. لم تنجحا، لأنكما لا تتمتعان بتصميم هذا السيد على عدم الرضوخ للابتزاز. عندئذ، ومن أجل تلiven موقفه، أحرقتما مقر شركة نارييهوالا للنقل في جادة سانتشيث سيرُو. ولكن محاولتكم لم تنجح أيضاً.

- أنا أحرقتها؟ لهذا ما تفهمني به؟ بإشعال حريق أيضاً؟ - اعتربت مابيل وهي تحاول دون جدو الوقوف من جديد، ولكن كان يمنعها ضعفها أو نظرة النقيب الحربية وإيماءاته العدوانية. انهارت مرة أخرى على المهد وانكمشت على نفسها مقاطعة ذراعيها. فإضافة إلى النعاس، صار لديها حرارة الآن وأخذت بالتعرق. كانت تشعر أن يديها تقطران خوفاً وعرقاً - أنا إذاً من أحرق مقر نارييهوالا للنقل؟

- لدينا تفاصيل أخرى، ولكن هذه التّهم هي الأخطر في ما يتعلق بك - قال النقيب، والتفت بهدوء إلى مرؤوسه - هيا أيها الرقيب، أخبر السيدة بالتّهم التي يمكن تحاكم عليها وما العقوبة التي يمكن أن تتلقاها.

تحمس ليتوما، تململ في مقعده، بلل شفتيه بلسانه، أخرج ورقة صغيرة من جيب قميصه، فتحها، تنهنح. ثم قرأ مثل تلميذ يتلو درساً أمام معلم:

- مشاركة في جمعية غير شرعية لتنفيذ جريمة اختطاف مع إرسال رسائل مغفلة وتهديدات ابتزاز. مشاركة في منظمة غير شرعية لتدمير مقر تجاري بالتفجيرات، مع المجازفة بتعریض بيوت ومحلات وأشخاص في الجوار للخطر. المشاركة الفعالة في اختطاف مزيف

لتخويف رجل أعمال بهدف إجباره على دفع الإتاوة الشهرية المطلوبة.  
التستر والتزييف والخداع أمام السلطات خلال التحقيق حول عملية  
الاختطاف الزائفية - أعاد الورقة إلى جيبه وأضاف: - هذه التهم  
الأساسية ضد السيدة، أيها النقيب. ويمكن للنيابة العامة أن تضيف  
تهماً أخرى أقل خطورة، مثل الممارسة السرية للدعارة.

- وما هو المدى الذي يمكن أن تصله العقوبة إذا ما أدينت السيدة يا  
ليتوما؟ - سأله النقيب وعيناه الساخرتان مصوبتان إلى مابيل.  
- بين ثمانية وعشرة أعوام سجن - أجاب الرقيب - حسب الوسائل  
المخففة أو المتشددة طبعاً.

- أنتما تحاولان إخافتني، ولكنكم مخطئين - تلعمت مابيل وهي  
تقوم بجهود هائل من أجل أن يتمكن لسانها الجاف والخشن كلسان  
عظاءة إغوانا من الكلام - لن أرد على أي من هذه الافتراضات ما لم  
يحضر محام.

- لم يوجه أحد إليك أسئلة حتى الآن - قال النقيب سيلفا ساخراً -  
الشيء الوحيد الذي طلب منه الآن هو الاستماع. مفهوم يا مابيليتا؟  
ظل يراقبها بنظرة خبيثة اضطرتها إلى إنزال عينيها. وبباس وهزيمة  
هزت رأسها موافقة.

وبسبب الأعصاب، والرعب، وفكرة أن الشرطيين سيكونان وراءها في  
كل خطوة تخطوها، ظلت خمسة أيام دون أن تخرج من البيت عملياً.  
كانت تصل إلى الشارع لتذهب راكضة إلى حيث الصيني الذي عند  
الناصية من أجل مشترياتها، وإلى مصبغة الكواه وإلى المصرف. وترجع  
راكضة لتفرق في غمّها وأفكارها القلقة. وفي اليوم السادس لم تعد قادرة  
على تحمل المزيد. فالعيش في تلك الحال هو أشبه بالعيش في سجن،  
ولم تكن مابيل تصلح لأي شكل من أشكال الحبس. إنها بحاجة إلى

الشارع، بحاجة لرؤية السماء، لشم المدينة وسماعها والمشي فيها، والإحساس بجلبة الرجال والنساء، ونهيق الحمير ونباح الكلاب. لم تكن ولن تكون أبداً راهبة معتكفة. اتصلت هاتفياً بصديقتها زويلا واقترحت عليها الذهاب إلى السينما، حفلة بعد الظهر.

- وأي فيلم سترى يا تشوليتا - سألتها زويلا.

- أي فيلم، ما يعرضونه - أجابتها مابيل - أحتاج إلى رؤية ناس، التحدث قليلاً. إنني أختنق هنا.

التقيتا قبالة فندق لوس بورتاليس، في ساحة السلاح. تناولتا وجبة خفيفة في التشalan، ودخلتا إلى مجمع دور السينما في مركز أوين بلازا التجاري، المجاور لجامعة بيورا. شاهدتا فيلماً قوياً بعض الشيء، فيه نساء عاريات. وزويلا التي تتصنّع العفة كانت ترسم إشارة الصليب كلما ظهرت مشاهد في الفراش. إنها سمنجة، لأنها في حياتها الشخصية تمنّح نفسها الكثير من الحريرات، تبدل خطيبها كل شهرين أو ثلاثة شهور، بل إنها تتباهي بعمليات التبديل تلك: «طالما الجسد يتحمل، يجب استغلاله يا بنية». لم تكن جميلة جداً ولكنها ذات جسد جيد، وتتحمل بتألق وذوق حسن. لهذا السبب، ولأساليبها المتحررة والمنفتحة، كانت تحقق نجاحاً مع الرجال. عند خروجهما من السينما، اقترحت على مابيل أن تذهبا لتناول شيء في بيتها، لكن هذه لم توافق، لأنها لا تريد العودة وحيدة إلى حي كاستييا في وقت متأخر.

ركبت سيارة أجراة، وبينما السيارة العتيقة تغوص في الحي شبه المظلم، قالت مابيل لنفسها إنها محظوظة في نهاية المطاف، لأن الشرطة أخفت واقعة الاختطاف عن الصحافة. فهم يعتقدون أنهم يُرتكبون المبتزين بذلك، ويصير اصطيادهم أسهل. لكنها كانت تعيش مقتنة بأن الخبر سيصل في أية لحظة إلى الصحف، والإذاعة

والتلفزيون. ما الذي ستتحول إليه حياتها إذا ما انفجرت الفضيحة؟ ربما من الأفضل العمل بنصيحة فيليثيتو ومجادرة بيورا لبعض الوقت. لماذا لا تذهب إلى تروخيبيو؟ يقولون إنها مدينة كبيرة، حديثة، قوية، وذات شاطئ بديع وبيوت وحدائق كولونيالية. ومسابقة رقصة المارينيرا التي تقام هناك في صيف كل عام تستحق أن تُرى. أ يكون الشرطيان اللذان بملابس مدنية يلاحقانها الآن في سيارة أو على دراجة نارية؟ نظرت من خلال نافذة السيارة الخلفية ثم إلى الجانبين ولم ترَأية مركبة. ربما تكون مسألة الحماية كلها مجرد أكذوبة. لا بد أن تكون بلهاء بالكامل كي تصدق وعد الشرطيين.

نزلت من سيارة الأجرا، دفعت للسائق ومشت العشرين خطوة من الناصية حتى بيتها في منتصف شارع خاو، مع أن أضواء الحي الشاحبة كانت تلمع في جميع أبواب ونوافذ البيوت المجاورة. كانت تلمع أشباح الناس في الداخل. وكان مفتاح البيت جاهزاً في يدها. فتحت الباب، دخلت، وحين مدت يدها نحو مفتاح النور، أحسست أن يداً آخرى تتعرضها، توقفها، تغلق فمها، تخنق صرختها، بينما جسد ذكوري يلتصق في الوقت ذاته بجسدها وصوت معروف يهمس في أذنها: «إنني أنا، لا تخافي».

- ما الذي تفعله هنا؟ - احتجت مايل مرتجلة. كانت تشعر بأنها ستنهار على الأرض لو لم يكن يمسك بها ويثبتتها - هل رجعت أيها الجنون، يا شقة الـ...؟ هل رجعت يا مجنون؟

- أحتاج إلى مضاجعتك - قال ميغيل، وأحسست مايل بشفتيه المحمومتين في أذنها، في عنقها، مندفعتين، نهمتين، وبذراعيه القويين يشدانها ويداه تلمسان كل أنحاء جسدها.

- أبله، أحمق، أيها القمامنة الغليظ - احتجت، دافعت عن نفسها

غاضبة. كانت تشعر بارتدادات السخط والرعب الذي سيطر عليها .  
ألا تعلم بأن هناك حارس يراقب البيت؟ ألا تدري ما يمكن أن يحدث  
لنا بسببك أيها البراز الغبي؟

- لم يرني أحد وأنا أدخل، الشرطي في حانة الناصية يتناول قهوة،  
لم يكن هناك أحد في الشارع - وكان ميغيل يواصل احتضانها وتقبيلها  
وإلصاق جسده بجسدها والاحتراك بها . - تعالى، فلنذهب إلى الفراش،  
سأضاجعك وأغادر. تعالى يا تشوليتا.

- أيها الوغد التعيس السافل، كيف تجرأت على المجيء، أنت  
مجنون - كانوا في الظلام، وكانت تحاول المقاومة وإبعاده عنها، غاضبة  
ومذعورة، بينما هي تشعر، على الرغم من الغضب، بأن جسدها بدأ  
يتراخي . - ألا تلاحظ أنك تدمّر حياتي أيها اللعين؟ وتدمّر حياتك أنت  
أيضاً أيها الشقي التعيس.

- أقسم لك إن أحداً لم يرني أدخل، اتخذت كل الاحتياطات - كان  
يردد وهو يشد ملابسها كي يعرّيها . - تعالى، تعالى. لدى شهوة، لدى  
جوع إليك، أريدك أن تصرخي ، أحبك.

توقفت عن المقاومة أخيراً. وبينما هي ضجرة، ومنهوبة في الظلام،  
سمحت له أن يعرّيها، وأن يطرحها على الفراش، واستسلمت بضم  
دقائق للمتعة. هل يمكن تسمية ذلك متعة؟ لقد كان شيئاً مختلفاً جداً  
عن المرات الأخرى على أي حال. إنه شيءٌ مجهد، متشنج، مؤلم.  
حتى وهي في ذروة النشوة، حين كانت على وشك الانتهاء، لم تستطع  
أن تزيح من ذهnya صورة فيليثيتو، والشرطين اللذين استجوباهما في  
المفوضية، والفضيحة التي ستتفجر إذا ما وصل الخبر إلى الصحافة.

- انصرف الآن، ولا تعد لوضع قدمك في هذا البيت إلى أن تنتهي  
هذه المسألة كلها - أمرته حين أحسست أن ميغيل يفلتها ويستلقى على

السرير -. إذا ما أردت أعمالك الجنونية هذه إلى معرفة أبوك بالأمر، فسوف أنتقم. أقسم لك إنك ستتضرر. أقسم إنك ستندم طوال حياتك يا ميفيل.

- قلتُ لكِ إن أحداً لم يرني. أقسم لك لم يرني أحد. أخبريني على الأقل إذا كان ما فعلناه قد أعجبك.

- لم يعجبني أي شيء، وصرت أكرهك من أعماق روحي، يجب أن تعرف هذا -. قالت مابيل وهي تتخلص من يدي ميفيل وتنهمض -. هيا انصرف ولا تدع أحداً يراك وأنت تخرج. لا ترجع إلى هنا أبداً أبله. سيرسلونك إلى السجن أيها التعيس، كيف لا تلاحظ ذلك.

- حسن، سوف أذهب، لا تغضبي هكذا -. قال ميفيل وهو ينهمض -. أتحمل شتائمك لأنك في حالة عصبية. وإلا لكونك جعلتك تتبعين هذه الشتائم كلها أيتها الصغيرة.

شعرت وهي في شبه الظلمة بأن ميفيل يرتدي ملابسه. وأخيراً انحني ليقبلها بينما هو يقول لها، بالفظاظة التي تنضح من كل مسامات جسده في تلك المناسبات الحميمية :

- طالما أنت تروقين لي سوف آتي كلما طلب مني السفود ذلك أيتها التشوليتا.

- من ثمانية إلى عشرة أعوام سجن هي سنوات طويلة يا مابيليتا -. قال النقيب سيلفا مبدلاً صوته مرة أخرى؛ فهو يبدو الآن حزيناً ومشفقاً - ولاسيما إذا أمضيت العقوبة في سجن سويانا للنساء. إنه جحيم. أنا أستطيع أن أخبرك بوضعه، إنني أعرفه مثلما أعرف راحة يدي. لا وجود للماء والكهرباء في معظم الأوقات. السجينات ينمن مكدسات كل اثنتين أو ثلاث في سرير ضيق واحد، ومعهن أبناءهن، وكثيرات ينمن على الأرض العابقة برائحة البراز والبول، ولأن الوصول إلى الحمامات

صعب المنال في معظم الأحيان، فإنهن يقضين حاجاتهن في دلاء أو في أكياس بلاستيكية يمكنهن رميها مرة واحدة في اليوم. لا وجود لجسم قادر على تحمل ذلك النظام لوقت طويل. فما بالك بامرأة مثلك، معتادة على نوع آخر من الحياة.

على الرغم من رغبتها في الصراخ والشتم، إلا أن مابيل ظلت صامتة. لم تدخل قط إلى سجن سويانا للنساء، ولكنها رأته من الخارج لدى مرورها. وحدست أن النقيب لا يبالغ ولو قليلاً في وصفه.

- بعد سنة أو سنة ونصف في مثل تلك الحياة، بين عاهرات، وقاتللات، ولصات، وتجارات مخدرات، كثيرات منهن أصابهن الجنون في السجن، تتحول امرأة شابة، وجميلة مثلك، إلى عجوز قبيحة وعصابية. لا أتمنى لك ذلك يا مابيليتا.

تنهد النقيب مشفقاً من ذلك المصير المحتمل لصاحبة البيت.

- ستقولين إنه من الخبر قول هذه الأمور لك وتصوير مثل هذا المشهد - واصل المفوض دون هوادة -. إنك مخطئة. فلست أنا ولا الرقيب ساديين. لا نريد إخافتكم. ماذا تقول أنت يا ليتوما.

- طبعاً لا، بل على العكس تماماً - أكد الرقيب وهو يتفلمل مرة أخرى في المبعد -. لقد جئنا بنوايا حميدة أيتها السيدة.

- نريد أن نوفر عليك هذه الأهوال - كسر النقيب بطريقة شوهت وجهه، كما لو أنه يرى تهيجات مروعة، ورفع يديه مرعوباً: - الفضيحة، المحاكمة، الاستجوابات، الوقوف وراء القضبان الحديدية. هل تتخيلين ذلك يا مابيل؟ ما نريده هو ألا تدفعي عقوبة التواطؤ مع أولئك اللصوص، وأن تظلي نظيفة من الغبار والقذى، وتواصلي الحياة المريحة التي تعيشينها منذ سنوات. أتدركين لماذا قلت لك إن زيارتنا من أجل مصلحتك؟ إنها كذلك يا مابيليتا، اقتنعي بما أقول.

كانت ته jes ، ماذا في الأمر. لقد تحولتْ من الرعب إلى الغضب ، ومن الغضب إلى القُنوط. شعرت بثقل جفونها ، وشعرت مجدداً بنعاس يجبرها على إغماض عينيها للحظات. كم هو رائع النوم ، فقدان الوعي ، الإحساس بأن شيئاً من هذا كله لم يحدث ، وأن الحياة تتواصل كما في السابق.

قررت مابيل وجهها من زجاج النافذة ورأت ، على الفور ، خروج ميغيل من باب بيتها ، ثم رأته يختفي ، تبتلعه الظلمة ، بعد أمتار قليلة. راقبت محيط المكان بحذر. إنها لا ترى أحداً. لكن ذلك لم يطمئنها. قد يكون الحراس متربصاً في مدخل بيت مجاور ، ويكون قد رآه من هناك. سيقدم تقريراً إلى رؤسائه ، وستبلغ الشرطة دون فيليثيتو ياناكيه : «ابنك والموظف لديك ميغيل ياناكيه ، يزور في الليل بيت عشيقتك». ستتفجر الفضيحة. ما الذي سيحدث لها؟ وبينما هي تفتسل في الحمام ، وبينما هي تبدل شراشف السرير ، وبعد ذلك ، بينما هي منبطحة ، والصبح الذي بجانب السرير مضاء ، كانت تتساءل مرة أخرى ، مثلما تساءلت كثيراً خلال السنطين ونصف السنة الأخيرة التي اعتادت أن تلتقي فيها خفية بميغيل ، كيف سيكون رد فعل فيليثيتو إذا علم بالأمر. فهو ليس من أولئك الذين يستلون سكيناً أو مسدساً لغسل العار ، ليس منمن يؤمنون بأن عار الفراش لا يمحى إلا بالدم. ولكنه سيتخلى عنها. وستنتهي إلى الشارع. مدخلاتها تقاد لا تكفي معيشتها لأكثر من بضعة شهور ، مع تقلص شديد في النفقات. لن يكون من السهل عليها ، بعد هذا كله ، أن تجد علاقة مريحة مثل علاقتها مع صاحب شركة نارييهوا لالنقل. لقد كانت غبية. بلها. هي المذنبة. كانت تعرف أنها ، عاجلاً أو آجلاً ، ستدفع ثمن ذلك غالياً. كانت قانطة إلى حدٍ غادرها معه النعاس. ستكون ليلة أخرى من الأرق والكتابيس.

نامت للحظات متفرقة، تتخيلها نوبات رعب. إنها امرأة عملية، لم تضيع الوقت قط في الرثاء لحالها أو الندم على أخطائها. الشيء الوحيد الذي تندم عليه في الحياة هو رضوخها للإلحاح الذي لاحقها وبعث عنها وعشقاها به هذا الرجل الشاب الذي انصاعت له دون يخامرها الشك في أن يكون ابن فيليبيتو. لقد بدأ الأمر قبل سنتين ونصف، حين لاحظت أنها تصادف بكثرة في طريقها، في شوارع وسط بيورا ومتاجرها ومطاعمها ومقاهيها، هذا الشاب الأبيض، الرياضي، الوسيم وحسن الملبس الذي يوجه إليها نظرات موحية وابتسمات مغازلة. لم تعرف من هو إلا حين قبلت منه، بعد كثير من التوسل، عصير فاكهة في كافيتيريا، والخروج لتناول الطعام معه، والذهاب للرقص مرتين في صالة رقص بجوار النهر، ووافقت على الذهاب إلى الفراش معه في نزل بأutarخيا. لم تقع في حب ميغيل قط. حسن، مابيل لم تحب أحداً منذ كانت بنت صغيرة، ربما لأن طبعها هكذا وربما بسبب ما حدث لها مع زوج أمها وهي في الثالثة عشرة من عمرها. لقد تعرضت لكثير من الخيبات في صباها مع عشاقها الأوائل، ومنذ ذلك الحين اقتصرت علاقاتها على مغامرات، بعضها أطول أمداً من غيرها، وبعضها قصيرة جداً، ولكن قلبها لم يكن يشارك مطلقاً في تلك المغامرات، وإنما جسدها وعقلها فقط. وظلت أن مغامرة ميغيل ستكون على ذلك المنوال نفسه، وأن المغامرة ستنتهي حين تقرر هي ذلك، بعد لقائين أو ثلاثة. ولكن الأمر لم يكن كذلك في هذه المرة. لقد وقع الشاب في الحب. تعلق بها مثل حلزون بقوعته. انتبهت مابيل إلى أن هذه العلاقة قد تحولت إلى مشكلة وأرادت قطعها. لم تستطع. المرأة الوحيدة التي لم تستطع التخلص فيها من عشيق. عشيق؟ ليس هكذا بالضبط، لأنه فقير أو بخييل، لم يقدم لها هدايا إلا نادراً، ولم يأخذها إلى أمكنة جيدة، حتى

إنه نبهما إلى أنهما لن يصلا أبداً إلى علاقة رسمية، لأنه ليس من أولئك الرجال الذين يحبون التكاثر وتأسيس أسرة. أي إنها لا تهمه إلا في الفراش.

حين أرادت القطيعة قسراً، هددها بأنه سيخبر أباها بكل شيء. منذ تلك اللحظة أدركت أن هذه القصة ستنتهي نهاية سيئة، وأنها ستكون الخاسر الأكبر بين الثلاثة.

- تعاون فعال مع العدالة - أوضح النقيب سيلفا وهو يبتسم بحماسة -. هكذا تسمى باللغة الحقوقية يا مابيليتا. الكلمة المفصلية ليست التعاون وإنما كلمة «فعال». هذا يعني أنه لا بد للتعاون من أن يكون مفيداً ويعطي نتائج. إذا ما تعاونتي بإخلاص وأتاحت لنا مساعدتك أن نلقي القبض على المجرمين الذين ورطوك في هذه الطبخة، فسوف تتخلصين من السجن، وتستخلصين حتى من الخضوع للمحاكمة. والسبب جلي جداً، لأنك أنت أيضاً ضحية أولئك اللصوص. ستكونين نظيفة من الغبار والقش يا مابيليتا! تصوري ما الذي يعنيه هذا!

أخذ النقيب مجتين من سيجارته، ورأة هي كيف كانت سحب الدخان تزيد من كثافة جو الصالة المخلخل ثم تنقشع شيئاً فشيئاً.

- لابد أنك تتساءلين عن نوع التعاون الذي نريده منك. لماذا لا تشرح لها ذلك يا ليتوما.

هز الرقيب رأسه موافقاً.

- ما نريده منك حالياً هو أن تواصلني التظاهر يا سيدتي - قال باحترام شديد -. مثلما كنت تتظاهرين طيلة هذا الوقت مع السيد ياناكيه ومعنا. مثلما كنت بالضبط. ميغيل لا يعرف أننا صرنا نعرف كل شيء، وبدل أن تخبريه حضرتك، ستواصلين التصرف كما لو أن أحداً ينكرنا هذه لم تحدث قط.

- هذا هو بالضبط ما نريده منك - دخل النقيب سيلفا على الخط -. سأكون صريحاً معك، وأقدم لك دليلاً آخر على الثقة. يمكن لتعاونك معنا أن يكون مفيداً جداً لنا. ليس للقبض على ميغيل ياناكيه. فهذا صار عالقاً تماماً ولا يمكنه القيام بخطوة واحدة دون أن نعلم بها. ولكن ليس واضحًا لدينا بالمقابل ولا نعرف من هم المتواطئين. وبمساعدتك سننصب لهم فخاً ونرسلهم إلى حيث يجب أن يكون المافياويون، في السجن وليس في الشارع يعرقلون حياة الناس المحترمين. ستقدمين لنا خدمة عظيمة. وسنعاملك بالمثل، وننسب إليك خدمة عظيمة أخرى. وبلسانني هذا لا تتكلم الشرطة الوطنية وحدها، وإنما العدالة كذلك. اقتراحي يحظى بتأييد النائب العام. مثلما تسمعين يا مابيليتا. تأييد السيد النائب العام الدكتور إرناندو سيمولا! لقد كسبت اليانصيب معي يا فتاة.

منذ ذلك الحين، ظلت مع ميغيل فقط كيلا ينفذ تهديده بالوشية بغرامياتها لفيليثيتو «حتى لو وصل الأمر بالعجز إلى إطلاق رصاصة عليه ورصاصة أخرى على يا تشوليتي». وهي تعرف الحماقات التي يمكن أن يقدم عليها رجل غيور. كانت تنتظر في أعماق قلبها أن يحدث شيء ما، حادث، مرض، أي شيء يُخرجها من هذه الورطة. حاولت إبقاء ميغيل بعيداً، وكانت تختلق الذرائع كيلا تخرج معه وكيلا تمنعه. ولكن لم تكن تجد مناصاً بين وقت وآخر، وإن كانت تفعل ذلك دون رغبة وبخوف. كانا يخرجان لتناول الطعام في أمكنة بائسة، والرقص في صالات رقص تعيسة، النوم في فنادق تؤجر غرفها بالساعة في الطريق إلى كاتاكاووس. وفي مرات قليلة جداً سمحت له بزيارتها في بيتها الصغير بحي كاستيبيا. وفي مساء أحد الأيام، دخلت مع صديقتها زوليا إلى كافيتريا التشالان لتناول الشاي، فوجدت مابيل

نفسها وجهاً لوجه مع ميغيل. كان مع فتاة صغيرة وغريبة الظاهر، وكانا يبدوان مغرمين جداً ويمسك كل منهما بيدي الآخر. ورأت كيف ارتبك الشاب واحمر لونه وأدار وجهه كيلا يسلم عليها. وبدل إحساسها بالغيرة، شعرت مابيل بالراحة. فسوف تكون القطيعة معه الآن سهلة جداً. ولكنها حين التقى في في المرة التالية، أخذ ميغيل يتباكي، وطلب منها المغفرة، وأقسم إنه يشعر بالنندم، وأن مابيل هي حب حياته، إلى آخره. فغفرت له هي البلاهاء.

في هذا الصباح، ودون أن تكون قد أغمضت عينيها تقيياً، مثلما هي حالها في الفترة الأخيرة، كانت مابيل تشعر بالانهيار، رأسها معتلى بالترقب. كانت تشعر بالأسى كذلك على العجوز. فهي لم تكن تريد إلحاق الأذى به. وما كانت لترتبط قطًّا بميغيل لو عرفت أنه ابنه. ولكن هو غريب أن يكون قد أنجب ابناً أبيض ووسيماً إلى هذا الحد. لم يكن العجوز من صنف الرجال الذين يمكن لأمرأة أن تعشقه، ولكنه يمتلك الصفات التي يمكن أن تدفع امرأة إلى أن تحب رجلاً. وقد اعتادت عليه. إنها لا تنظر إليه كعشيق، وإنما كصديق ثقة. يمنحها الأمان، يجعلها تفكر في أنه، مدام قريباً منها، سُيخرجها من أية مشكلة تقع فيها. إنه شخص وقور وطيب المشاعر، واحد من أولئك الرجال الذين يمكن الثقة بهم. يؤسفها جداً أن تسبب له المرأة، أن تجرمه، أو تُغضبه. لأنه سيعاني كثيراً حين يعلم أنها قد نامت مع ميغيل.

وفي حوالي منتصف النهار، حين طرقوا الباب، أحسست بأن التهديد الذي كانت ته jes به منذ الليلة السابقة سوف يتجسد الآن. ذهبت لتفتح الباب ووجدت نفسها أمام النقيب سيلفا والرقيب ليتو ما عند العتبة. رياه، رياه، ما الذي سيحدث.

- أنت تعرفين ما هو الاتفاق يا مابيليتا - قال النقيب سيلفا. ثم نظر

إلى الساعة كما لو أنه قد تذكر شيئاً، ونهض واقفاً - لست مضطراً إلى أن تردي على الآن طبعاً. سأمنحك وقتاً حتى الغد، في مثل هذه الساعة. فكري بالأمر. وإذا جاء المجنون ميغيل في زيارة أخرى لك، لا تفكري في أن تخبريه بما تحدثنا فيه. لأن إقدامك على ذلك يعني أنك قررت الوقوف إلى جانب المافياويبين ضدنا. وهذا سيزيد من خطورة

لائحة الاتهام ضدك يا مابيليتا. أليس كذلك يا ليتوما؟

حين توجه النقيب والرقيب نحو الباب، سألتهما:

- هل يعلم فيليثيو بأنكم قد جئتما لتقديم هذا العرض لي؟

- السيد ياناكيه لا يعلم أي شيء عن مجيتنا، ولا يعرف بعد أي شيء عن أن مبتز العنكبوت هو ابنه ميغيل، وأنك أنت شريكه المتواطئة معه - رد عليها النقيب - عندما سيعلم بالأمر سيفهم عليه. ولكن هكذا هي الحياة، وأنت تعرفين ذلك أكثر من الجميع. فعند اللعب بالنار، سيحترق أحد ما. فكري في عرضنا، تشاوري بشأنه مع وسادتك وسترين أنه مناسب لك. سوف نتحدث غداً يا مابيليتا.

عندما انصرف الشرطيان، أغلقت الباب وأسندة ظهرها إلى الجدار. كان قلبها ينبض بقوة. «لقد وقعت. لقد وقعت. أوقعت نفسك يا مابيل». ومستندة إلى الجدار، جرجرت نفسها حتى الصالة - كانت ساقها ترتجفان، ومازال النعاس يثقل عليها بصورة لا تقاوم - وتهاوت على أقرب أريكة. أغمضت عينيها ونامت على الفور أو أغumi عليها. رأت كابوساً كانت قد رأته في مرات سابقة. رأت نفسها تقع في رمال متحركة وتأخذ بالغوص في ذلك السطح الترابي الذي غارت فيه ساقها، وراحـت تلتف عليهما خيوط لزجة. وببذلها جهوداً عظيمة تتمكن من التقدم باتجاه أقرب ضفة إليها، ولكن ذلك لم يكن الخلاص بأي حال، إذ كان يقبع على الضفة، بانتظارها، وحش

كثيف الشعر، تنين أفلام له أسنان حادة وعينان واخزتان لا تتوقفان  
عن رصدها وانتظارها.

حين استيقظت، كانت تشعر بالآلام في حلقها ورأسها وظهرها وكانت مبللة بالعرق. ذهبت إلى المطبخ وشربت كأس ماء على جرعات. «يجب أن تهدئي. وأن يكون رأسك بارداً. عليك أن تفكري بهدوء في ما ستفعلينه». ذهبت ل تستلقي على السرير، دون أن تخلع عنها سوى الحذاء. لم تكن لديها رغبة في التفكير. كانت تريد أن تركب سيارة، حافلة، طائرة، وأن تغادر إلى أبعد مكان ممكناً عن بيورا، إلى مدينة لا يعرفها فيها أحد. وأن تبدأ حياة جديدة من الصفر. لكن ذلك مستحيل، فأينما ذهبت ستصل الشرطة إليها، وسيزيد الهروب من خطورة ذنبها. أليست ضحية أيضاً؟ لقد قال النقيب ذلك، وهذهحقيقة خالصة. أهي صاحبة الفكرة؟ لا شيء من هذا. بل إنها جادلت المجنون ميفيل حين عرفت بما جاء يعرضه عليها. ولم تقبل الاستماع إلى تهريم عملية الاختطاف إلا بعد أن هددها - مرة أخرى - بأنه سيخبر العجوز بغرامياتهما: «سيرميك مثل كلبة يا تشوليتا. وكيف ستعيشين حياة منعة كالتي تعيشينها الآن؟».

لقد أجبرها، وليس لديها أي سبب لأن تكون وفيه لابن عاهرة مثله. ربما الشيء الوحيد المتبقى لها هو التعاون مع الشرطة والنائب العام. لن تكون حياتها سهلة بالطبع. سيكون هناك انتقام، ستتحول إلى هدف، سيطلقون عليها رصاصة أو يطعنونها بخنجر. أيهما أفضل؟ هذا أم السجن؟

ظلت طوال ما تبقى من النهار وتلك الليلة دون خروج من البيت، تنهشها الشوك. كان رأسها عش جُداجد. الشيء الوحيد الواضح لديها هو أنها قد تخوزقت وستبقى كذلك بسبب خطئها في التواطؤ مع

ميغيل والقبول بذلك التهريج.

لم تأكل شيئاً في الليل، على الرغم من أنها أعدّت سندوتش جامبون وجبن دون أن تتدوّقه. استلقت للنوم وهي تفكّر في أن الشرطيين سيعودان في الصباح ليسألها ما هو جوابها. أمضت الليل كله تفكّر، تبدل في خططها. كان النوم يأتيها في بعض اللحظات، ولكنها لا تكاد تغفو حتى تستيقظ مذعورة. عندما داهمت بيت كاستييّا أول أنوار اليوم الجديد، أحسّت بأنها تهداً. بدأت ترى بوضوح. وبعد قليل، كانت قد اتخذت قرارها.

## XIV

ذلك الثلاثاء من شتاء ليمما الذي سيعتبره دون ريفوبيرتو ودونيا لوكريثيا أسوأ يوم في حياتيهما، أشرق السماء صافية وبإعلان عن ظهور الشمس، بعد أسبوعين من ضباب لجوج ورطوبة ورذاذ مطر لا يكاد يبلى، لكنه يتسلل إلى العظام. مثل هذا الاستيقاظ يبدو فالأ طيباً.

كان الموعد في مكتب قاضي التحقيق في الساعة العاشرة صباحاً. مر الدكتور كلاوديو أرنبياس في الساعة التاسعة، بحملات بنطاله المزركشة المعهودة وخطوات مشيته العرجاء، لمرافقه ريفوبيرتو مثلما اتفقا مسبقاً. كان هذا الأخير يظن أن التحقيق الجديد أمام القاضي سيكون مجرد إضاعة وقت مثل التحقيقات السابقة، أسئلة بلها حول وظائفه وكفاءاته كمدير في شركة التأمين، يجيب عنها بما يناسبها من عبارات التعقل الجلية وببلاغات معادلة لها. لكنه في هذه المرة وجد أن التوءمين قد رفعا من وتيرة الحصار القضائي؛ ففضلاً عن إيقاف إجراءات تقاعده بحججة فحص مسؤولياته ومداخيله خلال سنوات عمله في الشركة، وجد أنهما فتحا ضدّه تحقيقاً قضائياً جديداً حول عملية تدليس مزعومة تضر بشركة التأمين، وأنه هو نفسه كان متستراً عليها ومستفيداً منها ومتواطئاً فيها.

يكاد دون ريفوبيرتو لا يتذكر تلك الواقعة التي حدثت قبل ثلاث سنوات. فالزبون هو مكسيكي مقيم في ليمما، يملك قطعة أرض زراعية

ومصنعاً لشتقات الحليب في وادي تشيبيون، وقد وقع ضحية حريق أودى بمتلكاته. وبعد التقرير الشرطي وحكم القاضي، جرى تعويضه عن الخسائر التي تعرض لها وفق التأمين الذي لديه. وعندما اتهم الرجل، من خلال شريك له، بأنه هو نفسه من افتعل الحريق كي يتقاضى بصورة احتيالية قيمة بوليصة التأمين، كان ذلك الشخص قد غادر البلاد دون أن يخلف أثراً يدل على مستقره الجديد، ولم تستطع الشركة تعويض تلك الخديعة. ويقول التوءمان الآن إن لديهما أدلة على أن ريفوبيرتو، مدير الشركة، قد تصرف بطريقة متهاونة ومريبة في القضية كلها. والأدلة تمثل في شهادة موظف سابق في الشركة، فصل من العمل فيها بسبب عدم الكفاءة، ويؤكد أنه قادر على إثبات أن المدير قد تصرف بما يتناسب مع مصلحة المحتاب. لم يكن الأمر برمته سوى أكذوبة لا سند لها، وقد أكد له الدكتور أرنبياس الذي رفع دعوى افتراء وتشهير معاكسة ضد التوءمان وشهادهما المزيف، أكد له أن تلك القضية ستنهار كأنهيار قلعة من رمل؛ وسيكون على ميكى وإسكوبيتا أن يدفعا عطلاً وضرراً لإهانتهما كرامته، وتقديمهما شهادة مزيفة ومحاولتهما تضليل العدالة.

شغلت الإجراءات طيلة فترة الصباح. كانت القاعة الضيقة والخانقة تغلي حراً وتغص بالذباب، وجدرانها تغض بكتابات وتشطيب لكتابات. كان ريفوبيرتو جالساً على كرسي صغير ومخلع، يكاد لا يتسع لنصف إليتيه، بينما هو يحاول طيلة الوقت التوازن كيلا يقع على الأرض، ويرد على أسئلة القاضي شديدة التعسف والسخافة إلى حد تدفعه إلى القول بينه وبين نفسه إنه لا هدف لها سوى تعكير مزاجه وهدر وقته وصبره. أ يكون هذا القاضي مرتشياً من ابني إسماعيل أيضاً؟ فهذا الماجنان يضيفان إليه كل يوم مزيداً من المضايقات لـإجباره

على الشهادة بأن أباهما لم يكن بكمال قواه العقلية حين تزوج من خادمته. ففضلاً عن تجميد إجراءات تقاعده، هاهما يخرجان له الآن بهذه القضية. التو، مان يعرفان جيداً أنه يمكن لهذا الاتهام أن ينقلب ضدهما. لماذا يتقدمان به؟ هل كل هذا الحقد الأعمى، والرغبة العنيفة في الانتقام منه لا سبب آخر لها سوى أنه تواطأ في ذلك الزواج؟ ربما هي عملية تحول فرويدية؟ كانوا مغتاظين وخارجين عن طورهما، يستشرسان ضده لأنهما لا يستطيعان عمل شيء لإسماعيل وأرميدا اللذين يستمتعان على هواهما، هناك في أوروبا. إنهم مخطئان. لن يستطيعا إجباره على الرضوخ. ولنر من الذي سيضحك أخيراً في هذه الحرب التي أعلنها.

كان القاضي رجلاً ضئيلاً، مشوشًا، يلبس بصورة بائسة، يتكلم دون أن ينظر إلى عيني محدثه، وبصوت شديد الخفوت والتrepid ما ضاعف من استياء دون ريفوبيرتو للحظات. هل هناك من يسجل الاستجواب؟ ظاهرياً لا. هناك كاتب ينزلوي بين القاضي والجدار، رأسه غارق في ملف ضخم، ولكن لا تظهر أي آلة تسجيل. وليس لدى القاضي من جهته سوى دفتر صغير يدون فيه، بين حين وآخر، ملاحظة سريعة لا يمكن لها أن تكون حتى تلخيصاً مقتضاً لأقواله. أي إن هذا الاستجواب كله ليس سوى مهزلة، ولا هدف له سوى إزعاجه. كان مستفزاً إلى حد اضطر معه إلىبذل مجهد كبير للتجاوب مع تلك التمثيلية الإيمائية المضحكة، وكيلا ينفجر في نوبة غضب. ولكن الدكتور أرنبياس قال له، لدى الخروج، إنه عليه أن يكون سعيداً وليس غاضباً، فإبداء قاضي التحقيق الكثير من الضجر في الاستجواب، يشير بوضوح إلى أنه لا يأخذ اتهامات الضبعين على محمل الجد. وسوف يعتبرها باطلة وغير متوافقة بكل تأكيد.

وصل ريفوبيرتو إلى بيته متعباً، معكر المزاج، وبلا رغبة في تناول الغداء. وكانت تكفيه رؤيته وجه دونيا لوكريثيا المتقع كي يدرك أن خبراً سيئاً آخر ينتظره.

- ماذا جرى؟ - سألهما بينما هو يخلع الجاكيت ويعلقه في خزانة الملابس بغرفة النوم. ولأن زوجته تأخرت في الرد عليه، التفت لينظر إليها.

- ما هو الخبر السيئ يا حبي؟

فتلعثمت دونيا لوكريثيا بصوت مكتوم ومرتعش:

- إديلبيرتو توريس، تصور. أفلتت منها شبه شكوى وأضافت: لقد ظهر له في حافلة. مرة أخرى يا ريفوبيرتو. رباء، مرة أخرى!  
- أين؟ متى؟

- في حافلة ليما- تشوريبوس يا خالي - رو فونتشيتو بهدوء شديد، متسللاً إليها ألا تعطي الموضوع أية أهمية - صعدت إلى الحافلة الصغيرة في باسيو ديلا ريبوبليكا، بالقرب من شارع غراو. وفي الموقف التالي، موقف الثانخون، صعد هو.

- هو؟ هو نفسه؟ هو؟ - صاحت وهي تقرّب وجهها منه متفرحة إياه - هل أنت متأكد مما تقوله لي يا فونتشيتو؟

- تحية أيها الفتى الصديق - حيّاً السيد إديلبيرتو توريس، وهو ينحني له بواحدة من انحناءاته احترامه المعهودة - يا للمصادفة، انظر أين نلتقي. تسعذني رؤيتك يا فونتشيتو.

- كان يرتدي ملابس رمادية، مع جاكيت وربطة عنق، وكنزته ذات اللون الرماني - أوضح الصبي - وكان شعره مُسرّحاً وذقنه حلقة على أحسن وجه، وشديد اللطف. لقد كان هو طبعاً يا خالي. ولحسن الحظ أنه لم يبكِ هذه المرة.

- يبدو لي أنك كبرت قليلاً عما كنت عليه في آخر مرة التقينا بها -  
أكد إديلبيرتو توريس وهو يتفحصه من أعلى إلى أسفل -. ليس بدنياً  
فقط. فأنت لك الآن نظرة أكثر صفاء مما كنت عليه من قبل، وأكثر ثقة  
بالنفس. نظرة شخص شبه راشد يا فونتشيتو.

- لقد منعني أبي من التكلم مع حضرتك أيها السيد. متأسف، ولكن  
يجب عليّ أن أطيعه.

- وهل أخبرك بسبب هذا المنع؟ - سأله السيد توريس، دون أن يبدو  
عليه أدنى تأثر. كان يتأمله بفضول، وبابتسامة خفيفة.

- أبي وزوجة أبي يظنون أنك الشيطان يا سيدي.  
لم يبدُ على إديلبيرتو توريس أنه قد فوجئ كثيراً، ولكن المفاجأة  
بدت على سائق الحافلة. فقد داس قليلاً على مكبح السيارة، والتفت  
ليلقي نظرة إلى الراكبين في المقعد الخلفي. وحين رأى وجهيهما،  
اطمأن. اتسعت ابتسامة السيد توريس أكثر، ولكنه لم يفلت قهقهة.  
وهز رأسه معتبراً الأمر مزاحاً.

- كل شيء ممكن في هذه الأزمنة التي نعيشها - علق بالطريقة المتقنة  
بالنطق كمحاضر وهو يهز كتفيه -. بما في ذلك أن يكون الشيطان طليقاً  
في شوارع ليما، ويتنقل بحافلة نقل صغيرة. وبمناسبة الحديث عن  
الشيطان، لقد علمتُ أنك توصلت إلى تفاهم جيد مع الأب أودونوفان يا  
فونتشيتو. أجل، كاهن الكنيسة الصغيرة تحت الجسر، ومن سيكون  
سواء. هل أنت على تفاهم جيد معه؟

- لقد كان يسخر منك، ألم تلاحظي ذلك يا لوكريثيا؟ - أكد دون  
ريغوبيرتو -. الأمر مزاح منذ اللحظة الأولى لظهوره له مجدداً في تلك الحافلة.  
ولأنه من المستحيل تماماً أن يذكر الرجل اسم بيبيين. لقد كان يسخر منك  
بكل بساطة. وقد كان يسخر منا منذ بداية القصة، هذه هي الحقيقة.

- ما كنت لتقول هذا لو أنكرأيت كيف كان وجهه يا ريفوبيرتو.  
أظن أنني أعرفه جيداً بحيث يمكنني أن أعرف متى يكذب ومتى لا  
يكذب.

- هل تعرف الأب أودونوفان أيها السيد؟

- إنني أذهب في بعض أيام الآحاد لل الاستماع إلى قداسه، على الرغم  
من أن كنيسته بعيدة جداً عن مكان سكني - أجابه إديلبيرتو توريس -.  
قطع المسافة إلى هناك لأن مواعظه تروق لي. إنها مواعظ رجل مثقف،  
ذكي، يتكلم إلى الجميع، وليس إلى المؤمنين وحدهم. ألا يعطوك هذا  
الانتباع حين تتحدث معه؟

- لم أسمع مواعظه قط - أوضح فونتشيتو -. ولكن بدأ لي ذكياً جداً  
بالفعل. لديه خبرة في الحياة، ولاسيما في أمور الدين.

- يجب أن تسمعه حين تتحدث على النبر - نصحة إديلبيرتو  
توريس - ولاسيما الآن، بعد أن صرت تهتم بشؤون روحانية. إنه  
متحدث بارع، أنيق وكلماته مفعمة بالحكمة. لابد أنه أحد آخر  
الخطباء الجيدين لدى الكنيسة. لأن الخطابة المقدسة التي كانت مهمة  
جداً في الماضي، دخلت في مرحلة انحطاط منذ زمن طويل.

- ولكنه لا يعرف حضرتك - تجرا فونتشيتو على القول -. لقد كلمتُ  
الأب أودونوفان عنك، ولم يكن يعرف حتى من تكون.

- إنني بالنسبة إليه لستُ سوى وجه آخر بين رواد كنيسته - ردَّ  
إديلبيرتو توريس دون أن يطرأ عليه أي تبدل -. وجه ضائع بين وجوه  
كثيرة أخرى. كم هو جيد أن تكون مهتماً الآن بالدين يا فونتشيتو. لقد  
سمعت أنك انضمت إلى جماعة تجتمع مرة كل أسبوع لقراءة الكتاب  
المقدس. هل تجد متعة في عمل ذلك؟

- إنك تكذبُ عليَّ يا قلبي - قالت له دونيا لوكريثيا مؤنبة بمحبة،

ومحاولة مداراة مفاجأتها -. لا يمكن أن يكون قد قال لك هذا. لا يمكن أن يكون السيد توريس عارفاً بأمر فريق دراسة الكتاب المقدس.

- بل إنه يعرف كذلك أننا أنهينا الأسبوع الماضي قراءة سفر التكوين وبدأنا بسفر الخروج - وأبدى الصبي في هذه اللحظة ملامح قلق عظيم. فقد بدا هو نفسه مذهولاً أيضاً - إنه يعرف حتى هذا التفصيل، أقسم لك. لقد فاجأني بطريقة لم أستطع معها إلا أن أقول له ذلك يا خالي.

- يجب ألا تفاجأ يا فونتشيتو - ابتسم له إدiliberto توريس - إنني أشعر نحوك بتقدير كبير ويهمني أن أعرف كيف تمضي أمورك، في المدرسة، في أسرتك، وفي الحياة. ولهذا أهتم بالتحري عما تفعله ومع من تلتقي. إنه إعراب عن المحبة لك، لا شيء أكثر. يجب عدم البحث عن ثلاثة قوائم للقط ونحن نعرف أن له أربع قوائم: هل تعرف هذا المثل؟

- سوف يسمع تأنيباً مني حين يرجع من المدرسة -. قال دون ريفوبيرتو، وقد داهمه الغضب فجأة -. لا يمكن لفونتشيتو أن يواصل اللالعب بنا بهذه الطريقة. لقد تعبتُ من أنه يريدنا أن نبتلع كل هذه الخدع والاحتيالات.

توجه منزعجاً إلى الحمام وغسل وجهه بماء بارد. كان يشعر بشيء مثير للقلق، ويحدس بمضائقات جديدة. لم يعتقد قط أن قدر البشر مكتوب، وأن الحياة ما هي إلا سيناريو مهيأ مسبقاً، يمثله البشر دون أن يطلعوا عليه، ولكنه منذ زواج إسماعيل المنحوس، وعودة ظهور إدiliberto توريس المزعومة في حياة فونتشيتو، صار لديه إحساس بأنه قد ضبط إطلالة مسبقة في حياته. أيمكن لأيامه أن تكون مشاهد قررتها مسبقاً قوة حارقة مثلما يعتقد الكلفينيون؟ وأسوأ ما في هذا الثلاثاء المسؤول هي أوجاع الرأس العائمة التي بدأت للتو.

جلسا إلى المائدة. ظل ريغوبيرتو ولوكريثيا صامتين وبوجهين مأتيبين، ينبعشان في طبق السلطة بلا رغبة، فاقدين الشهية تماماً. وفي هذه الأنثاء اقتحمت خوستينيانا غرفة الطعام دون استئذان:

- اتصال هاتفي يا سيدى - كانت منفعلة جداً، وعيناها تطلقان شرراً، كما في المناسبات الكبرى -. إنه السيد إسماعيل كاريلا بالذات! نهض ريغوبيرتو قافزاً. شبه متعرّ، وذهب لتلقي المكالمة في مكتبه.

- إسماعيل؟ - سأل بجزع -. أنت إسماعيل؟ من أين تتكلم؟

- من هنا، من ليما، من أين سيكون - رد عليه رئيسه السابق وصديقه بالنبرة المستهترة والمرحة نفسها التي كلمه بها في مكالته الأخيرة -. وصلنا في الليل ونحن ننتظر رؤيتكم بفارغ الصبر. ولكن بما أن لدينا، أنت وأنا، أشياء كثيرة يجب التكلم فيها، فلماذا لا نلتقي نحن وحدنا فوراً. هل تناولت الغداء؟ حسن، تعال لتناول القهوة معى إذاً. أجل، الآن، إنني بانتظارك في بيتي.

- سأريك طائراً - ودعه ريغوبيرتو كإنسان آلي. «يا له من يوم، يا له من يوم».

لم ينشأ تناول ولو لقمة واحدة أخرى. خرج كدوامة وهو يعد لوكريثيا بأن يرجع فوراً ليخبرها بحديثه مع إسماعيل. فعودة صديقه الذي هو مصدر كل النزاعات التي يجد نفسه غارقاً فيها مع التوءمين، جعلته ينسى اللقاء مع قاضي التحقيق، وعودة ظهور إديلبيرتو توريس في حافلة ليما - تشوريريُوس.

لقد عاد العجوز وزوجته الجديدة أخيراً من شهر عسلهما. أهو مطلع حقاً على كل المشاكل التي يلاحقه بها الضبعان، ويخبره بها يومياً كلوديو أرنبياس؟ سيتحدث إليه بكل صراحة؛ سيقول له كفى، لأنه مذ وافق على أن يكون شاهده، تحولت حياته إلى كابوس قضائي

وبوليسي، وعليه أن يفعل شيئاً على الفور كي يوقف ميكى وإسكونبيتا حصارهما له.

ولكنه حين وصل إلى الدار الكبيرة المشيدة على الطراز النيوكلونيالى في حي سان إيسيدرو، وشبه المحاصرة بعمارات شاهقة في ما حولها، استقبله إسماعيل وأرميدا بكثير من مظاهر المودة، بحيث انهارت نواياه المسبقة في التكتم بوضوح وحزن. أذلهته طمأنينة الزوجين وسعادتهما وأناقتها. كان إسماعيل يرتدي ملابس سبورت، مع منديل حريري حول عنقه وصندل يبدو كفاز لقدميه؛ وسترته الجلدية تتناسب مع القميص ذي الياقة المفتوحة الذي يبرز منه وجهه الباسم، الحليق لتوه والمعطر بعطر يانسون خفيف. غير أن التحول الذي طرأ على آرميدا كان أعظم. فقد بدت كما لو أنها خارجة للتو من بين يدي مصففات شعر، وخبيرات مكياج ومنيكور. شعرها الأسود القديم صار الآن كستانائياً مع تموجات لطيفة حللت محل الشعر المترهل الذاوي. وترتدي ثوباً خفيفاً من قطعتين، مُطَبِّعاً بأزهار ملونة، مع شال ليكى على الكتفين وحذاء بيتي من اللون نفسه بنصف كعب. كل شيء فيها: يداها المعتنى بهما، أظفارها المطلية بطلاء أحمر شاحب، القرطان، السلسلة الذهبية، والميدالية المتدرية على الصدر، وحتى أساليبها التلقائية - كانت قد سلمت على ريفوبيرتو وهي تقرب خدعاً منه ليقبله - بدت أساليب سيدة أمضت حياتها بين أناس جيدي التربية، أثرياء ووجوه مجتمع، لا هم لها سوى العناية بجسدها وأناقتها. لم يكن قد بقي فيها، للوهلة الأولى، أي أثر من العاملة المنزلية القديمة. أتراها كرست شهور شهر العسل هذه في أوروبا لتلقي دروساً في الأساليب الراقية؟

ما إن انتهوا من تبادل التحية حتى أدخلوه إلى الصالة الصغيرة المجاورة لغرفة الطعام. من خلال النافذة الواسعة كانت تظهر الحديقة

المتلةة بنباتات زينة من الكروتينيات والجهنميات والخباريات والزنبقيات. لاحظ ريفوبيرو أنه إلى جانب المنضدة حيث توجد الفناجين وإبريق القهوة وطبق البسكويت والحلويات، هناك عدة حزم وعلب ملفوفة بعناية بأوراق وشرائط ملونة. أهي هدايا؟ أجل. لقد أحضرها إسماعيل وآرميدا لريفوبيرو ولوكريثيا وفونتشيتو، وحتى لخوستينيانا كذلك، في لفترة امتنان لما أبدوه من محبة للعروسين: قمصان وبيجاما من الحرير لريفوبيرو، بلوزات وشالات للوكريثيا، ملابس وأحذية رياضية لفونتشيتو، مئزر وصندل لخوستينيانا، إضافة إلى أحزمة وأزارار قمصان ومفكرات ودفاتر مذكرات مصنوعة يدوياً، ولوحات وشكولاتة وكتب فن ولوحة رسم غزلي لتعليقها في الحمام أو الحجرة الحميمة في البيت.

كان يراهما كمن استعادوا الشباب، واثقين من نفسيهما، سعيدين وهادئين إلى حد أحس ريفوبيرو بعده طمأنينة وطيب مزاج العروسين تنتقل إليه. لا بد أن إسماعيل يشعر بثقة تامة بما يفعله، وأنه بمنجي من كل مكايد ابنيه. ومثلما قال له سابقاً خلال ذلك الغداء في مطعم «روسا ناوتيكا»، لا بد أنه ينفق نقوداً أكثر منها من أجل إحباط مؤامراتهما. ولا بد أنه يتحكم بكل شيء. لحسن الحظ. لانا يقلق هو إذاً؟ فمع وجود إسماعيل في ليما، سوف تُحل المشكلة التي أثارها التوءمان. ربما بمصالحة إذا ما وافق رب عمله السابق على تقديم بعض الأموال الإضافية إلى الأرعنين. وستنتهي كافة المكايد التي تنقل عليه خلال أيام قليلة، وسيستعيد حياته السرية، وحيزه المتحضر. وفكّر: «أستعيد سيادي وحربيتي».

بعد تناول القهوة، استمع ريفوبيرو إلى بعض طرائف رحلة العروسين إلى إيطاليا. فآرميدا التي يكاد لا يتذكر أنه سمع صوتها من

قبل، استعادت الآن موهبة اللغة. إنها تعبّر عن نفسها بطلاقه وتدفق، وبقدر أقل من الأخطاء في الصياغة اللغوية وبمزاج ممتاز. بعد قليل انسحبت «كي يتكلم الرجالن في شؤونهما المهمة». أوضحت أنها لم تتم أية قيلولة في حياتها قطّ، ولكن إسماعيل علّمها الآن الاستلقاء حوالى خمس عشرة دقيقة بعينين مغمضتين بعد الغداء، وأنها تشعر بعد ذلك أنها على ما يرام بفضل هذه الاستراحة القصيرة.

- لا تقلق لأي شيء يا عزيزي ريفوبيرتو - قال له إسماعيل، وهو يربّت على كتفه فور بقائهما وحيدين - أتريد فنجان قهوة آخر؟ كأس كونياك صغير؟

- تبهجني رؤيتك سعيداً هكذا يا إسماعيل - رفض ريفوبيرتو العرض بحركة من رأسه - تبهجني رؤيتكما أنتما الاثنين على أحسن حال. الحقيقة أنكم، أنت وأرميدا، مُشرقين. وهذا دليل على أن الزواج يمضي على خير ما يرام. يسعدني هذا كثيراً بالطبع، ولكن، ولكن...

- ولكن هذين الشيطانين جعلا شيئاً شعرك أخضر، أعرف ذلك جيداً - أكمل إسماعيل كاريلا جملة صديقه وهو يربّت على كتفه من جديد، دون أن يتوقف عن الابتسام له وللحياة - لا تقلق يا ريفوبيرتو، صدقني. إنني هنا الآن وسوف أتولى الأمور كلها بنفسي. أعرف كيف أواجه هذه المشاكل وأحلّها. أطلب منك ألف معذرة على الإزعاجات الكثيرة التي جلبها لك كرمك معى. غداً سأعمل طيلة اليوم في هذه القضية مع كلاوديو أرنبيا والمحامين الآخرين في مكتبه. سأزدح عن كاهلك دعاوى المحاكمات والمشاكل، أعدك بهذا. أما الآن فاجلس واستمع. لدى أخبار أقدمها إليك، وهي تهمك. ألا تريد أن نتناول هذا القليل من الكونياك يا صديقي العجوز؟

سارع هو نفسه إلى سكب كأسين. رفع كأسه. قرع الكأسين وبلا

شاههما ولسانيهما بالمشروب الذي يلمع قرمزيًّا في قاع الكريستال، وله شذى ذكرى خشب سنديان البرميل. انتبه ريفوبيرتو إلى أن إسماعيل يراقبه بمكر. وأن ابتسامة خبيثة، ساخرة، تبث الحماسة في عينيه المجنعتين. أتراه أصلح أسنانه الاصطناعية في أثناء شهر عسله؟ لقد كانت تتحرك في فمه من قبل، أما الآن فتبعد ثابتة جداً على لثتيه.

- لقد بعثتُ أسمهي في الشركة كلها لشركة أسيغورزيوني جنرالي، أفضل وأكبر شركة تأمين إيطالية يا ريفوبيرتو - هتف وهو يفتح ذراعيه ويطلق قهقهة صاحبة -. أنت تعرفها جيداً، أليس كذلك؟ لقد عملنا معهم مرات عديدة. مقرها الرئيسي في تريستي، لكنها موجودة في العالم كله. صفة ممتازة. ها أنت ترى، شهر عسلني لم يكن رحلة متعة وحسب. وإنما رحلة عمل أيضاً.

كان يحتفي بالأمر بفرح وسعادة طفل يفتح هدايا بابا نويل. لم يكن دون ريفوبيرتو قد استوعب الخبر بعد. وتذكر بصورة غامضة أنه كان قدقرأ، قبل أسبوع، في الإيكونوميست، أن لدى شركة أسيغورزيوني جنرالي خطط للتمدد في أميركا الجنوبية.

- أبعث الشركة التي أسسها أبوك، والتي عملت فيها طيلة حياتك؟ - سأله أخيراً وهو مشوش - بعثتها إلى شركة إيطالية عابرة للقارات؟ منذ متى وأنت تتفاوض معها على هذا الأمر يا إسماعيل؟

- منذ حوالي ستة أشهر - أوضح صديقه وهو يهز كأس الكونيك بيده -. لقد كانت مفاوضات سريعة، بلا تعقيدات، وجيدة جداً، أكرر لك. لقد أنجزت صفة جيدة. خذ راحتك واستمع. لأسباب معروفة وجليلة، وقبل الوصول إلى نهاية حميده، كان لا بد لهذا الموضوع من أن يظل سرياً. هذا هو سبب تدقيق الحسابات الذي فوضت الشركة الإيطالية به وكان قد لفت اهتمامك كثيراً في العام الماضي. ها أنت

تعرف الآن ما الذي كان وراء ذلك: أرادوا أن يتفحصوا شركتنا بعدها مكثرة. لم أوصي أنا بتلك المهمة ولم أدفع تكاليفها، وإنما أسيغورزيوني جنرالي هي من فعلت ذلك. وبما أن انتقال الملكية قد أنجز، فإني أستطيع أن أخبرك الآن بكل شيء.

تكلم إسماعيل كاريرا قرابة الساعة دون أن يقاطعه ريفوبيرتو، اللهم إلا في مرات قليلة ليطلب منه بعض التوضيحات. كان يستمع إلى صديقه معجبًا بذكريته، إذ راح يشرح أمامه بإسهاب، ودون أي تردد، كمن يبسط طيات رق جلدي، أحداث تلك الشهور بما فيها من عروض وعروض مضادة. كان مذهولاً بدا له من غير العقول أن مفاوضاتِ بتلك الحساسية أمكن لها أن تتحقق، وأن تصل إلى نهايتها بكل تلك السرية، بحيث لم يستطع هو نفسه، المدير العام للشركة، أن يعلم بها. كانت لقاءات المتفاوضين تتم في ليماسول وبريشتي ونيويورك ومilan؛ وكان يشارك فيها محامون ومساهمون رئيسيون ووكلاء مفوضون ومستشارون ومصرفيون من عدة بلدان، غير أنه جرى استبعاد جميع موظفي إسماعيل كاريرا البيروفيين بصورة خاصة، وكذلك ميكى وإسكوبيتا طبعاً. فهذا اللذان تلقيا ميراثهما سلفاً، حين طردتهما دون إسماعيل من الشركة، كانا قد باعا جزءاً كبيراً من أسهمهما، ولم يعلم ريفوبيرتو إلا الآن بالذات أن من اشتراها، من خلال أشخاص آخرين، هو إسماعيل نفسه. وما زال الضبعان يحتفظان بحصة ضئيلة من الأسهم، وقد تحولا الآن إلى مساهمين صغارين (بل صغيرين جداً في الواقع) في الفرع البيروي لشركة أسيغورزيوني جنرالي. كيف سيكون رد فعلهما؟ هز إسماعيل كتفيه بازدراء: «سيكون شيئاً بالطبع. وماذا في ذلك؟». فليصرخوا. عملية البيع التزمت بكل الإجراءات الرسمية الوطنية والأجنبية. وقد صادقت على نقل الملكية الأجهزة الإدارية في إيطاليا

والبيرو والولايات المتحدة. وتم تسديد الضرائب المترتبة حتى آخر سنت منها. كل شيء قانوني ونظامي.

- ما رأيك يا ريفوبيرتو؟ - أنهى إسماعيل كاريرا عرضه. وفتح ذراعيه مجدداً كأنه مهرج يحيي الجمهور وينتظر التصفيق -. هل ما أزال حياً وأتصرف كرجل أعمال أم لا؟

هز ريفوبيرتو رأسه موافقاً. كان مشوشًا لا يدري ما الذي يمكنه قوله. بينما صديقه ينظر إليه باسماً وراضياً عن نفسه.

- الحقيقة أنك لا تتوقف عن إثارة إعجابي يا إسماعيل - قال أخيراً -. إنك تعيش مرحلة شباب ثانية، هذا ما أراه. هل آرميدا هي من أعادت بعثك؟ مازال رأسي لا يتسع لمسألة أنك قد تخلصت بكل هذه السهولة من الشركة التي أسسها أبوك، وواصلت أنت ترسيخها باذلاً الدم والعرق والدموع على امتداد نصف قرن. قد يبدو لك كلامي سخيفاً، ولكنني أشعر بالحزن، كما لو أنني فقدت شيئاً يخصني. بينما أنت سعيد كمخموراً

- لم يكن الأمر سهلاً - صرح له إسماعيل مبدياً الجدية -. خامرتنى شكوك كثيرة في البدء. وقد أحزنني الأمر أيضاً. ولكنه الحل الأخير في ظل الوضع الذي صارت إليه الأمور. لو كان لي ورثة آخرون... ولكن، لماذا الحديث في أمور حزينة. أنت وأنا نعرف جيداً ما الذي كان سيحدث لو أن ابني ورثا الشركة. سيفرقانها قبل صياغة الديك. وفي أحسن الحالات سيبعيانها بطريقة سيئة. بين أيدي الإيطاليين ستواصل الشركة وجودها وازدهارها. يمكن لك أن تتقاضى تقاعديك دون أية حسميات، بل مع مكافآت يا صديقي العجوز. لقد رتبت كل شيء.

بدا لريفوبيرتو أن ابتسامة صديقة تحولت إلى الكآبة. تنهد إسماعيل واجتاز عينيه ظل قاتم.

- ما الذي ستفعله بكل هذه النقود يا إسماعيل؟

-قضاء سنواتي الأخيرة بهدوء وسعادة - أجاب على الفور -. وأمل أن أقضيها معافي كذلك. أستمتع قليلاً بالحياة إلى جانب زوجتي. فالوصول متأخراً أفضل من عدم الوصول يا ريفوبيرتو. أنت تعرف أكثر من أي شخص آخر أنني لم أعش، حتى الآن، إلا من أجل العمل.

- إنها فلسفة جيدة، فلسفة اللذة يا إسماعيل - وافقه ريفوبيرتو -. إنه مذهبى فوق ذلك. لم أستطع تطبيقه إلا جزئياً حتى الآن في حياتي. لكنني أمل أن أجاريك حين يتركني التوءمان بسلام ونستطيع، أنا ولوكريثيا، القيام برحلتنا التي خططنا لها إلى أوروبا. لقد أصيّبت لوكريثيا بخيبة أمل حين اضطررنا إلى إلغاء خططنا بسبب دعاوى أبنيك.

- غداً سأتوّل هذا الأمر، مثلما قلت لك. إنه أول بند في مفكري يا ريفوبيرتو - قال إسماعيل وهو ينهض واقفاً -. سأتصل بك بعد الانتهاء من الاجتماع في مكتب المحامي أرينينياس. ولنر إن كنا نحدد يوماً لتناول الطعام معاً، ومعنا آرميدا ولوكريثيا.

بينما هو في طريق العودة إلى بيته، مستنداً إلى مقود السيارة، كانت كل أنواع الأفكار تفور مختلطة في ذهن دون ريفوبيرتو مثل مياه نافورة. كم من الأموال حصل عليها إسماعيل من بيع أسهمه؟ ملايين كثيرة. ثروة على أي حال. ومهما كانت أعمال الشركة سيئة في الأزمنة الأخيرة، إلا أنها تظل مؤسسة قوية، ذات محفظة عظيمة، وسمعة من الطراز الأول، في بيرو وفي الخارج. ومن الصحيح فعلاً أن شخصاً ثمانينياً مثل إسماعيل لم يعد قادراً على تحمل مسؤوليات الأعمال. لقد وضع رأس ماله في استثمارات آمنة، سندات خزينة، صناديق تقاعد، مؤسسات في أفضل الجنان الضريبية المعتمدة. إمارة

ليختنستاين، أو جزيرة غيرنزي أو جزيرة جيرسي. وربما سنغافوراً أو دبي. الفوائد وحدها تكفيه هو وآرميدا لأن يعيشَا كملκين في أي مكان من العالم. ما الذي سيفعله التوءمان؟ الصراع مع المالكين الجدد؟ إنهم معتوهان إلى حد لا يمكن معه استبعاد ذلك. سيتم سحقهما كصرصارين. لقد حان الوقت. لا، ربما سيحاولان قضم بعض النقود من ثمن البيع. لابد أن إسماعيل يحتفظ بالنقود في مكان آمن. ولا شك في أنهما سيُذعنان إذا ما لان أبوهما وألقى إليهما ببعض الفتايات كي يتوقفا عن الإزعاج. عندئذ سيجري كل شيء على ما يرام. وربما يتم ذلك بأسرع ما يمكن. فهكذا سيتمكن من تجسيد خططه بتقاعد ممتع، غني بالملذات المادية والفكرية والفنية.

ولكنه لا يستطيع، في دخيلة نفسه، الاقتناع بأن كل شيء سيخرج على ما يرام لإسماعيل. فالشك يخامره في أن الأمور ستزداد تعقيداً بدلاً من تسويتها، وأنه بدل الإفلات من العقائد الشرطية والقضائية التي احتجزه فيها ميكى وإسكوبيتا، سيجد نفسه عالقاً أكثر فأكثر حتى آخر أيام حياته. أم أن سبب هذا التشاوم هو عودة ظهور إدلبيرو تو توريس المفاجئة في حياة فونتشتيتو؟

ما إن وصل إلى بيته في حي بارانكو حتى قدم تقريراً مفصلاً لزوجته عن آخر الأحداث. يجب عدم القلق لبيع شركة التأمين إلى شركة تأمين إيطالية، لأنه يمكن لهذا التحول، في ما يتعلق بهما، أن يساعد في حل الأمور، إذا ما أقدم إسماعيل، بالاتفاق مع المالكين الجدد، على تهدئة التأمين ببعض النقود لكي يتركا ريفوبيرتو وزوجته بسلام. ما أثر في لوكريشيا أكثر هو معرفتها أن آرميدا قد رجعت من رحلة زفافها وقد تحولت إلى سيدة اجتماعية، أنيقة، وراقية. «سأتصل بها لتهنئتها بالعودة وترتيب موعد غداء أو عشاء بأسرع وقت يا حبي. أكاد أموت

تلهاً لرؤيتها متحولة إلى سيدة راقية».

اعتكف ريفوبيرتو في مكتبه ليراجع على كمبيوته كل ما هو موجود حول شركة أسيغورزيوني جنرالي ش.م. بالفعل، إنها أكبر شركة تأمين في إيطاليا. وقد كان هو نفسه على اتصال بها، وبشركات تابعة لها، في عدة مناسبات. لقد توسيع كثيرةً خلال السنوات الأخيرة في شرق أوروبا، وفي الشرقين الأوسط والأقصى، وبصورة محدودة أكثر في أميركا اللاتينية، حيث تتركز عملياتها في بناها. إنها فرصة جيدة للشركة من أجل الدخول إلى أميركا الجنوبية مستخدمة البيرو كمنصة. فالبلاد

تمضي الآن على ما يرام، بقوانين مستقرة واستثمارات متزايدة.

كان غارقاً في هذه الأبحاث حين سمع وصول فونتشيتو عائداً من المدرسة. أغلق الكمبيوتر وانتظر بفارغ الصبر مجيء ابنه ليحييه تحية المساء. حين دخل الصبي إلى المكتب واقترب منه ليقبله، بينما لا تزال حقيبة مدرسة ماركهام معلقة على كتفيه، قرر ريفوبيرتو أن يدخل في الموضوع مباشرةً.

- لقد عاد إديلبيرتو توريis إلى الظهور إذاً - قال له متضايقاً -

ظننت أننا قد تحررنا منه إلى الأبد يا فونتشيتو.

- وأنا أيضاً يا بابا - رد ابنه بصراحة مثيرة للذعر. نزع الحقيبة عن ظهره ووضعها على الأرض، ثم جلس قبالة منضدة مكتب أبيه - لقد جرت بيننا محادثة قصيرة جداً. ألم تخبرك خالي؟ الوقت الذي احتاجته الحافلة للوصول إلى ميرافلوريس. فقد نزل عند الطريق المحوري، بجانب الحديقة. ألم تخبرك؟

- بلى، أخبرتني طبعاً، ولكنني أحب أن تخبرني أنت أيضاً - لاحظَ أن هناك لطحات حبر على أصابع فونتشيتو، وأن ربطه عنقه مفلترة - ماذا قال لك؟ عمَّ تحدثتما؟

- عن الشيطان - ضحك فونتشيتو -. أجل، أجل، لا تضحك. إنها الحقيقة يا بابا. وفي هذه المرة لم يبلغ لحسن الحظ. قلت له إنك أنت وحالتي تظنون أنه الشيطان شخصياً.

كان يتكلم بتلقائية شديدة الوضوح، وكان فيه شيء هادئ و حقيقي جعل ريفيرتو يفكر، كيف يمكن عدم تصديقه.

- أمازلا يؤمنان بالشيطان حتى الآن؟ - فوجن إديلبيرتو توريس. وكان يتوجه إليه بصوت خافت -. يبدو لي أنه لم يعد هناك أناس كثيرون يؤمنون بوجود هذا السيد في أيامنا. هل أخبرك أبواك لماذا لديهما مثل هذه الفكرة البائسة عنّي؟

- بسبب أنك تظهر وتحتفظ بصورة غامضة جداً أيها السيد -. أوضح فونتشيتو وهو يخفض صوته أيضاً، لأن الموضوع استحوذ كما يبدو على اهتمام ركاب الحافلة الصغيرة الآخرين الذين راحوا يراقبونهما بطرف أعينهم خفية -. يجب ألا أخوض في هذا الحديث معك. فقد أخبرتك بأنهما حظرا علي ذلك.

- قل لهم على لساني أن ينزعوا عنهما هذه المخاوف، وأنه يمكن لهم أن يناما مطمئنين جداً -. أكد إديلبيرتو توريس بصوت يكاد لا يُسمع -. لستُ الشيطان ولا أي شيء شبيه بذلك، وإنما أنا شخص عادي، مثلك ومثلهما. ومثل جميع الأشخاص في هذه الحافلة. أسف إلى ذلك أنك مخطئ، فأنا لا أظهر وأحتفظ بصورة إعجازية. فلقاءاتنا تحدث دون ترتيب. بمحضر الصدفة.

- سأكلمك بكل صراحة يا فونتشيتو -. ظل ريفيرتو ينظر مطولاً إلى عيني الصبي الذي تحمل نظراته دون أن يرمش -. أرغب في أن أصدقك. أعرف أنك لست كاذباً، وأنك لم تكن كذلك قط. أعرف جيداً أنك كنت تقول لي الحقيقة على الدوام، حتى لو كانت تضر بك. ولكن

في هذه الحالة، أعني في حالة إديلبيرتو توريس اللعينة...

ـ لماذا هي لعينة يا بابا؟ ـ قاطعه فونتشيتتو ـ ما الذي فعله لك هذا الرجل حتى تقول عنه مثل هذه الكلمة الرهيبة؟

ـ ماذا فعل لي؟ ـ هتف دون ريفوبيرتو ـ لقد توصل لدفعي إلى الشك ببابني لأول مرة في حياتي، وإلى أنني غير قادر على الاعتقاد بأنك مازلت تقول لي الحقيقة. هل تفهمني يا فونتشيتتو؟ هكذا هو الأمر. في كل مرة أسمعك تحدثني عن لقاءاتك مع إديلبيرتو توريس، لا أستطيع أن أصدق أن ما تقوله صحيح، مهما بذلت من جهد لإقناع نفسي بأنه كذلك. ليس هذا تأنيباً، حاول أن تفهمني. هذا هو ما يحدث لي الآن معك، وهو يحزنني... يُحبطني كثيراً. انتظر، انتظر، دعني أكمل. أنا لا أقول إنك تريد أن تكذب عليّ، وأن تخدعني. أعرف أنك لن تفعل ذلك أبداً. لا، لن تفعل ذلك، على الأقل بصورة قصدية ومتعمدة. ولكنني أرجوك أن تفك لحظة في ما سأقوله بكل المحبة التي أكتها لك. فكر في الأمر. لا يمكن أن يكون هذا الذي ترويه لي وللوكريثيا عن إديلبيرتو توريس مجرد تخيل.. نوع من حلم اليقظة يا فونتشيتتو؟ هذه أمور تحدث للناس أحياناً.

صمت لأنه رأى شحوب ابنه. وأن وجهه قد اكتسى بكآبة كاسحة. أحس ريفوبيرتو بتأنيب الضمير.

ـ هذا يعني أنني صرت مجنوناً وأرى رؤى.. أشياء لا وجود لها. أهذا ما تقوله لي يا بابا؟

ـ لم أقل إنك مجنون، لا طبعاً ـ هتف ريفوبيرتو ـ لم يخطر ذلك بيالي. ولكن ليس من المستحيل يا فونتشيتتو أن يكون ذلك الشخص مجرد فكرة ثابتة متسلطة على العقل، مجرد كابوس تراه وأنت مستيقظ. لا تنظر إلى بهذه الطريقة الساخرة. أؤكد لك أن ما أقوله

ممکن. وسأخبرك السبب. في الحياة الواقعية، في العالم الذي نعيش فيه، لا يمكن حدوث أن يظهر لك شخص هكذا، فجأة، في أمكنة متفرقة ومختلفة، في ملعب كرة القدم بمدرستك، في دورة المياه بصالات للرقص، في حافلة ليما- تشوريبوس. وأن يكون هذا الشخص عارفاً كل شيء عنك، وعن أسرتك، ما تفعله وما لا تفعله. هذا غير ممکن، أليس كذلك؟

- ماذا سأفعل إذا كنت لا تصدقني يا بابا - قال الصبي بتاثير وأسى - . وأنا أيضاً لا أريد أن أسبب لك الحزن. ولكن كيف سأوافقك الرأي في أنني مُهَلَّس؟ أنا متأكد من أن السيد توريس من لحم وعظم وليس شبحاً. سيكون من الأفضل ألا أحدهك عنه بعد اليوم.

- لا، لا يا فونتشيتو، أريد منك أن ثبقيني على اطلاع حول هذه اللقاءات - ألح ريفوبيرتو -. على الرغم من أنني أجد صعوبة في تقبيل ما تقوله عنه، إنني واثق من أنك تعتقد بأنك تخبرني بالحقيقة. كن على ثقة من هذا. وإذا كنت تكذب عليّ، فإنك تفعل دون رغبة منك ودون أن تنتبه إلى ذلك. حسن، لديك واجبات مدرسية عليك إنجازها، أليس كذلك؟ اذهب لإنجازها إذاً، سنواصل الحديث في ما بعد.

القطف فونتشيتو حقيبته المدرسية عن الأرض وخطا خطوتين نحو باب حجرة المكتب. ولكنه قبل أن يفتحه، وكما لو أنه تذكر شيئاً، التفت نحو أبيه :

- أنت لديك فكرة باللغة السوء عنه، بينما لدى السيد توريس بالمقابل فكرة طيبة جداً عنك يا بابا.

- لماذا تقول هذا يا فونتشيتو؟

- لأنني أظن أنني عرفت أن أباك لديه مشاكل مع الشرطة، ومع العدالة، أنت على علم بها - قال إديلبيرتو توريس على سبيل الوداع،

بعد أن كان قد أشار إلى السائق أنه سينزل في الموقف التالي -. أنا واثق من أن ريفوبيرتو رجل نظيف ومتاكد من أن ما يحدث له فيه إجحاف كبير. إذا كان بإمكانني عمل أي شيء من أجله، فسوف أكون سعيداً بمد يد المساعدة إليه. انقل إليه هذا عندي يا فونتشيتو.

لم يدرِ دون ريفوبيرتو كيف يرد. كان يتأمل، بصمت، الصبي الذي مازال هناك ينظر إليه بهدوء وينتظر رد فعله.

- أقال لك هذا؟ - تلعم بعد لحظات -. هذا يعني أنه أرسل إليَّ رسالة. وأنه على علم بورطاطي القضائية ويريد مساعدتي. أليس كذلك؟ - هكذا بالضبط يا بابا.وها أنت ترى كيف أن لديه رأي طيب فيك. - قل له إنني موافق؛ وبكل سعادة على قبول مساعدته - استعاد ريفوبيرتو أخيراً السيطرة على نفسه - بكل تأكيد. حين يظهر لك في المرة القادمة، قدم إليه شكري وقل له إنه يسعدني تبادل الحديث معه. حيث يشاء. وليتصل بي هاتفياً. ربما لديه طريقة لم يد المساعدة إليَّ، في ساعة طيبة. فأكثر ما أرغب فيه هو رؤية إديليبيرتو توريس شخصاً والتحدث إليه يابني.

- أوكى يا بابا، سأخبره إذا ما رأيته مجدداً. أعدك بذلك. وسوف ترى أنه ليس روحًا وإنما هو لحم وعزم. سأذهب الآن لإنجاز واجباتي المدرسية، لدي واجبات كثيرة جداً.

حين خرج فونتشيتو من المكتب، حاول ريفوبيرتو أن يفتح الكمبيوتر من جديد، ولكنه أعاد إغلاقه على الفور. لقد فقد أدنى اهتمام بشركة أسيغورزيوني جنرالي ش.م. وبعمليات إسماعيل المالية الأفعوانية. أيمكن أن يكون إديليبيرتو توريس قد قال ذلك لفونتشيتو؟ أيمكن أن يكون مطلاعاً على ورطاته القضائية؟ غير ممكن بالطبع. لقد نصب له هذا الصبي فخاً جديداً هذه المرة،وها هو يقع فيه كأبله. وماذا لو حدد له

إدي لبيرو تورييس موعداً؟ وفكـر: «سأعود عندئذ إلى الدين، سأتحول وأدخل دير رهبان كرتوزيين طوال ما تبقى من حياتي». ضحك وهو يمدـم بين أسنانه: «يا للضجر اللامتناهي. كـم من أقيانوسات البلاهة في هذا العالم».

نهض وذهب ليـلقي نـظرة على أقرب رـفٌ إـلـيهـ، حيث تـوـجـدـ كـتـبـ وكتـالـوغـاتـ الفـنـ المـفـضـلـةـ لـديـهـ. وـبـيـنـماـ هوـ يـتـفـحـصـهاـ رـاحـ يـتـذـكـرـ المـعـارـضـ الـقـيـاشـتـراـهـاـ مـنـهـاـ. نيـويـورـكـ، بـارـيسـ، مدـريـدـ، مـيـلانـ، مـكـسيـكـوـ. كـمـ هوـ شـاقـ تـبـدـيـدـ الـوقـتـ فـيـ اللـقاءـ مـعـ مـحـامـيـنـ وـقـضاـةـ وـالـتـفـكـيرـ فـيـ هـذـيـنـ الـأـمـيـنـ الـوـظـيفـيـيـنـ، التـوـءـيـنـ، وـالـاستـمـاعـ إـلـىـ مـوـسـيـقـىـ جـيـدةـ، وـالـتـخـيـيلـ مـعـهـاـ، وـالـلـوـحـاتـ وـالـ تصـامـيمـ، وـالـاستـمـاعـ إـلـىـ مـوـسـيـقـىـ جـيـدةـ، وـالـتـخـيـيلـ مـعـهـاـ، وـالـسـفـرـ فـيـ الزـمـنـ، وـعـيـشـ مـغـامـرـاتـ اـسـتـثـنـائـيـةـ، وـالـانـفـعـالـ، الحـزـنـ، الـاسـتـمـاعـ، الـبـكـاءـ، التـحـمـسـ وـالـتـهـيـجـ. وـفـكـرـ: «بـفـضـلـ دـيـلاـكـرـواـ شـهـدـتـ مـوـتـ سـارـدـنـيـالـ مـحـاطـاـ بـنـسـاءـ عـارـيـاتـ، وـبـفـضـلـ جـورـجـ كـروـسـتـسـ الشـابـ ذـبـحـتـهـنـ فـيـ بـرـلـينـ وـأـلـوـطـ بـهـنـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ بـعـضـوـ ذـكـرـيـ ضـخمـ. وـبـفـضـلـ بوـتشـيلـيـ كـنـتـ سـيـدةـ مـنـ عـصـرـ النـهـضـةـ. وـبـفـضـلـ غـوـيـاـ كـنـتـ مـسـخـاـ شـهـوـانـيـاـ يـلـتـهـمـ أـبـنـاءـ بـدـءـاـ مـنـ رـيـلاتـ سـيـقـانـهـ. وـبـفـضـلـ أوـبـرـيـ بـيـارـدـسـليـ كـنـتـ حـلـقةـ مـعـ وـرـدةـ فـيـ الـمـؤـخـرـةـ. وـبـفـضـلـ بـيـاتـ مـونـدـرـيـانـ كـنـتـ مـثـلـاـ مـتـساـوـيـ السـاقـينـ».

بدأ يستمتع، ولكن دون أن يعي ذلك تماماً بعد، هـاـ قـدـ وـجـدـتـ يـدـاهـ ماـ كـانـ يـبـحـثـ عـنـهـ، بدـأـ تـفـحـصـ الرـفـ: كـاتـالـوغـ المـعـرـضـ الـاستـعـادـيـ الـذـيـ أـقـامـتـهـ الأـكـادـيمـيـةـ الـمـلـكـيـةـ تـكـرـيـعاـ لـتمـارـاـ دـيـ ليـمـبـيـكـاـ مـنـ أـيـارـ/ـماـيوـ حتىـ آـبـ/ـأـغـسـطـسـ 2004ـ وزـارـهـ هوـ شـخـصـيـاـ فـيـ الـمـرـةـ الـأـخـيـرـةـ الـتـيـ ذـهـبـ فـيـهـاـ إـلـىـ إنـكـلـتـرـاـ. وـهـنـاكـ، بـيـنـ سـاقـيـ بـنـطـالـهـ، أـحـسـ بـبـداـيـةـ دـغـدـغـةـ وـاعـدـةـ فـيـ حـمـيـمـيـةـ خـصـيـتـيـهـ، بـيـنـماـ هوـ يـتـأـثـرـ وـيـمـتـلـئـ فـيـ الـوقـتـ

نفسه بالحنين والامتنان. الآن، إضافة إلى الدغدغات، أحس بحرقة خفيفة في مقدمة عضوه. اتجه الكتاب بين يديه ليستقر على أريكة القراءة وأضاء المصباح الذي يتبع له نوره أن يستمتع بكل تفاصيل صور اللوحات. وكانت عدسة التكبير في متناول يده. أ يكون صحيناً أن رماد الفنانة البولونية - الروسية تمارا دي ليمبيكا قد ثُر من طائرة هيلوكبتر، وفق رغباتها الأخيرة، بواسطة ابنتها كيزيت، على فوهة ذلك البركان المكسيكي، برakan بوبوكاتيبيتل؟ إنها طريقة أولمبية، كارثية، عظيمة لوداع هذا العالم من قبل تلك المرأة التي لم تكن تتقن الرسم وحسب وإنما الاستمتاع أيضاً، مثلما تشهد لوحاتها، إنها فنانة تبثُّ أصابعها شبقاً مهيجاً - وجليدياً في الوقت نفسه - في لوحات الأجساد العارية المطواعة، المتلوية، البصلية، المنعمة التي تمر تحت عينيه: روشم، رفائيلا الجميلة، ميروت، الوريل، السلافية. لوحاته الخمس المفضلة. من قال إن الآرت ديكو والأيروسية لا يلتقيان؟ في سنوات العشرينات والثلاثينات عمِّدت الروسية - البولونية ذات الحاجبين المنتوفين والعيينين المتأججتين والنهمتين والفم الحسي واليدين الغليظتين، إلى ملء لوحاتها بشهوانية زخمة، جلدية في المظهر فقط، لأن مخيلاً وحساسيةً مشاهِدٍ مُتنبه تلاشي جمود اللوحة النحتي، وتدب الحيوية في الشخصيات، فتختلط، وتتزاحم، وتتبادل المداعبة، وتلتاحم، وتحابب، وتستمتع بفجور كامل. إنه جميل، أو بديع، ومثير مشهد أولئك النساء اللاتي رسمتهن تمارا دي ليمبيكا أو اختلقتهن في باريس، وميلان، ونيويورك وهوليود، ثم في عزلتها الأخيرة في كويرناباكا. منقوشات، لحميات، ممثليات، أنيقات، يعرضن بفخر سرزنهن المثلثة التي لا بد أن تمارا تشعر نحوها بتفضيل خاص، كذلك الإلهام الذي توحى لها به الأفخاذ الوافرة، الغضة،

لالأستقراطيات الماجنات اللواتي تعريهن كي تلبسهن الشبق والمجون الجسدي. «هي من منحت جداره وسمعة حسنة للسحاق ولأسلوب «الغارسون»، وجعلتهما مقبولين وراقيين بعرضهما في الصالونات الباريسية والنيويوركية»، وفكّر. «لا أستغرب أبداً أن ينتصب من أجلها العضو المجنون لغابرييلي دي أنونزيو ويحاول اغتصابها في بيته بفيتورiali، في بحيرة غاردا، حيث أخذها بذرية رسم صورة له، ولكنه في أعماقه كان مجنوناً بالرغبة في مضاجعتها. هل تراها ستهرب عبر إحدى النوافذ؟». كان يقلب صفحات الكتاب ببطء، متمهلاً قليلاً عند الأستقراطيين المتكلفين ذوي الآذان الزرقاء المتدرنة، ومتوقفاً عند الشخصيات الأنثوية البدعية، ذات العيون الناثنة، الناعسة، والشعور المكبسة كأنها قلنوسات والأظفار القرمزية، والنهدود المنتصبة والأرداف المهيّبة، اللاتي يظهرن على الدوام تقريباً متلويات مثل قطط في نزواتها. ظلَّ وقت طويل مستغرقاً في الوهم، يشعر بعودة فيض تلك الرغبة التي تلاشت منذ أيام عديدة وأسابيع، مذ بدأت هذه المشاكل السوقية مع الضبعين. كان منتاشياً بجمال أولئك السيدات المزدانت بأثواب شفافة وواسعة فتحة الصدر، مع مجواهرات زاهية البريق، وجميعهن تستحوذ عليهن رغبة عميقه تصارع للخروج عبر بريق عيونهن الكبيرة. فكر: «انتقالٌ من الآرت ديكو إلى التجرييد، يا له من جنون يا تمارا». على الرغم من أن لوحات تمارا دي ليمبيكا تعكس أيضاً حسيّة سرية غامضة. وبتأثير وسعادة، أحس بحركة خفيفة في أسفل بطنه، إشارة إلى بداية انتصار.

وفي تلك اللحظة، عاد إلى الواقع الدنيوي، ورأى أن دونيا لوكريثيا قد دخلت إلى حجرة المكتب دون أن يشعر بأنها فتحت الباب. ماذا حدث؟ إنها تقف بجانبه، بعينين مضمختين وشفتين منفرجتين

ومرتعشتين. تحاول أن تتكلم واللسان لا يطأوها، لا تخرج منها كلمات وإنما لعثمات غير مفهومة.

— أي خبر سيني لديك يا لوكريثيا؟ — سأل مرعوباً وهو يفكري بـ إديلبيرتو تورييس، بفونتشيتو. مرة أخرى؟

— لقد اتصلتْ آرميدا باكية كمحنة — أجهشت دونيا لوكريثيا. بعد وداعك إسفاعيل ومغادرتك بيته، أغمي عليه في الحديقة. نقلوه إلى المستشفى الأمريكي. وقد توفى للتو يا ريفوبيرتو! أجل، أجل، لقد مات للتو!



## XV

- مَاذَا جرِيْ يَا فيليثيتو - كررت التقية وهي تنحني باتجاهه وتهوي بمروحة يدوية من القش، عتيقة ومثقوبة - ألا تشعر بأنك على ما يرام؟ كان صاحب شركة النقل يرى القلق الذي تشي به عينا آديلايدا الكبيرتين، ووسط ضبابية رأسه، خطر له أن يفكر بأنه لا بد لها، باعتبارها عرافة، من أن تعرف جيداً ما جرِيْ له. لكنه لم يجد القوة ليبرد عليها؛ كان دائحاً ويشعر بأنه سيفوت عن الوعي في أية لحظة. لم يهتم. الاستغراق في نوم عميق، نسيان كل شيء، عدم التفكير: يا للروعه. فكر بتتشوش في طلب عون السيد الكاوتيفو دي اياباكا الذي تؤمن خيرتوديس بقدراته. ولكنه لم يعرف كيف يفعل ذلك.

- أتريد أن أحضر لك كأس ماء بارد خارج للتوك من حجر التقطير يا فيليثيتو؟

لماذا تكلمه آديلايدا بصوت مرتفع جداً، كما لو أنه قد أصيب بالصمم؟ وافق بهز رأسه ورأى - وهو ما يزال في ضبابيته - الخلاصية المختلفة بعباءتها التي بلون الطين تهرع راكضة بقدميها الحافيتين إلى عمق دكان الأعشاب والقديسين. أطبق عينيه وفك: «عليك أن تكون قوياً يا فيليثيتو. لا يمكنك أن تموت الآن يا فيليثيتو ياناكيه. يا للعنزة يا رجل! يا للعنزة!». كان يشعر بفمه جافاً وبقلبه يدفع بقوة كي يكبر أكثر وسط أربطة صدره وعظامه وعضلاته. ففك: «إنه يكاد يخرج من

فمي». وانتبه على الفور إلى مدى دقة تلك العبارة. ليس الأمر مستحيلاً، تشي غو. فقلبه، هذا الحشى، يُدَوِّي باندفاع شديد وبصورة غير منضبطة داخل قفصه الصدرى، بحيث يمكن له أن يفلت فجأة، ويهرب من السجن الذي هو بدنـه، ويصعد عبر الحنجرة ليخرج مقنوفاً إلى الخارج مع قيء مراة ودم عظيم. سيرى قلبه الصغير يرتطم بالأرض الترابية في بيت التقى، مفلطاً، ساكناً، عند قدميه، وربما محاطاً بصراصير متحركة لها لون الشوكولاتة. وسيكون هذا هو آخر ما يتذكره من الحياة. وحين تنفتح عيون الروح، ستكون أمام الـرب. أو ربما أمام الشيطان يا فيليثيو.

- ما الذي يحدث؟ - سأـل بقلق. لأنـه ما إن رآهـما حتى أدرك أنـ هناك شيئاً خطيراً يحدث؛ وأنـ هذا هو السبـب في استدعائـه المتعـجل إلى مفوضية الشرطة وسـبـب المـلامـح القـلـقة، والنـظـرات المـقـلـقة، وشـبه الـابـتسـامـات الـزـائـفة التي يـبـدىـها النـقـيب سـيلـفا والـرقـيب ليـتوـما. لقد أصابـ البـكم والـتـحـجـرـ الشـرـطـيـينـ حينـ رـأـيـاهـ يـدـخـلـ إـلـىـ الـحـجـرـ الضـيقـةـ.

- هـوـ يـاـ فيـليـثـيـتوـ، إـنـهـ بـارـدـ. اـفـتـحـ فـمـكـ وـاـشـرـبـ بـيـطـهـ، فـيـ جـرـعـاتـ صـغـيرـةـ يـاـ بـابـائـيـتوـ. سـتـرـىـ كـيـفـ سـيـجـعـلـكـ أـفـضـلـ حـالـاـ.

هزـ رـأـسـهـ موـافـقاـ، وـدونـ أـنـ يـفـتـحـ عـيـنـيـهـ، باـعـدـ ماـ بـيـنـ شـفـتيـهـ وـتـلـقـيـ، بإـحـسـاسـ بـالـرـاحـةـ، السـائـلـ الـبـارـدـ الـذـيـ رـاحـتـ آـدـيـلاـيدـاـ تعـطـيـهـ إـيـاهـ فـيـ فـمـهـ، كـمـاـ لـطـفـلـ رـضـيعـ. بـداـ لـهـ أـنـ مـاءـ يـطـفـنـ لـهـيـبـ حـلـقـهـ وـلـسانـهـ، وـبـالـرـغـمـ مـنـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ قـادـراـ عـلـىـ الـكـلـامـ وـلـاـ رـاغـبـاـ فـيـهـ، إـلـاـ أـنـهـ فـكـرـ: «ـشـكـرـاـ آـدـيـلاـيدـاـ». شـبـهـ الـظـلـمـةـ الـهـادـئـةـ الـتـيـ تـسـودـ دـكـانـ التـقـيـةـ عـلـىـ الدـوـامـ هـدـأـتـ أـعـصـابـهـ قـلـيلاـ.

- أـمـورـ مـهـمـةـ يـاـ صـدـيقـيـ - قالـ أـخـيـرـاـ النـقـيب سـيلـفا مـبـدـياـ الجـديـةـ وـهـوـ يـنـهـضـ وـاقـفاـ لـيـصـافـحـهـ فـيـ حـرـكـةـ اـنـفـتـاحـ غـيرـ مـعـهـودـةـ. هـلـمـواـ بـنـاـ لـنـتـنـاـوـلـ

قهوة في مكان أكثر بروادة، في الجادة العريضة. هناك سنتبادل الحديث أفضل من هنا. فالحر في هذا الكهف خانق، ألا ترى ذلك يا دون فيليثيتو؟

و قبل أن يباح له الوقت للرد، التقط المفوض قبعته عن المشجب، وتبعده لتوما الذي كان يبدو أشبه برجل آلي، يتفادى النظر إلى عينيه، واتجه نحو الباب. ما الذي أصابهما؟ ما هي الأمور المهمة؟ ما الذي حدث؟ أي ذبابة لسعت هذين الشرطيين؟

- هل تشعر بالتحسن يا فيليثيتو؟ سأله التقية.

- أجل - تمكنا من التعلّم بصعوبة. يشعر بألم في لسانه وحلقه وأسنانه. ولكن كأس الماء البارد جعلته أحسن حالاً، أعادت إليه قليلاً من تلك الطاقة التي راحت تنسل خارجة من جسمه - شكرًا يا آديلايدا.

- أخيراً، هيا، لحسن الحظ - هتفت الخلاصية وهي ترسم إشارة الصليب وتبتسم - يا للرعب الذي سببته لي يا فيليثيتو. كم أنت شاحب! آي، تشي غوا! حين رأيتكم تدخل وتتهاوى على الكرسي الهزاز مثل كيس، كنت تبدو أشبه بجثة. ماذا أصابك، ومن مات لنا.

- إنك تسبب لي الجزء أيها النقيب بهذا الغموض كلّه - أح فيليثيتو وقد بدأ يشعر بالخوف - ما هي هذه الأمور الخطيرة إذا كان يمكن لي أن أعرف؟

- فنجان قهوة ثقيل جداً لي - أمر النقيب سيلفا النادل -. وقهوة مع قليل من الحليب للرقيب. وأنت يا دون فيليثيتو، ماذا ستشرب؟

- مياه غازية، كوكاكولا، كوكاكولا، أي شيء - فقد صبره، وببدأ يضرب بقبضته على المنضدة -. حسن، فلنتحدث في الأمر مباشرة. إنني رجل قادر على تقبل الأخبار السيئة، لقد بدأت اعتقاد على هذا الأمر.

أخباراني بالمشكلة دفعة واحدة.

- لقد حلّت القضية. قال النقيب وهو ينظر إلى عينيه. ولكنه ينظر إليه بلا سعادة، بل هي نظرات حزن وأقرب إلى الشفقة. والمفاجئ في الأمر أنه صمت بدل أن يواصل الكلام.

- حلّت القضية؟ - صاح فيليثيتو - أتعني أنكم قد أمسكتم بهم؟ رأى أن النقيب والرقيب يؤكdan ذلك بهز رأسهما، بحرج شديد وبإباء وقار مضحك. لماذا يتأملانه بهذه الطريقة الغريبة، كما لو أنه يوحى إليهما بالأسى؟ كان هناك صخب جهنمي في جادة سانتشيث سيرو، أناس يذهبون ويأتون، أبواق سيارات، صراخ، نباح ونهايق. يُسمع عزف موسيقى فالس، ولكن ليس للمغنية عنズوبة صوت سيسيليا باراسا، وإنما صوت عجوز مخمور.

- أتتذكرين المرة الأخيرة التي جئت فيها إلى هنا يا آديلايدا؟ - كان فيليثيتو يتكلم بصوت خافت، باحثاً عن الكلمات، خائفاً من أن يفقد صوته. وكان قد فتح أزرار الصديري وحلحل ربطه عنقه كي يتنفس بصورة أفضل - حين قرأت لك رسالة العنكبوت الأولى.

- أجل يا فيليثيتو، أذكر ذلك جيداً - قالت التقبية وهي تسرّه بعينيها الهائلتين والقلقتين.

- وهل تتذكرين أنني حين بدأت أودعك، جاءك الوحي فجأة وطلبتي مني أن أرضيهم، وأن أقدم لهم الإتاوة التي يطلبونها؟ هل تتذكرين هذا أيضاً يا آديلايدا؟

- أذكره طبعاً يا فيليثيتو، بالتأكيد، كيف يمكن لا أتذكره. ألم تقول لي أخيراً ما الذي جرى لك؟ لماذا أنت شاحب هكذا ودائخ؟

- لقد كنت محققة يا آديلايدا. مثلما يحدث على الدوام، أنت على حق. وكان من الأفضل لي أن أعمل بنصيحتك. لأن، لأن...

لم يستطع أن يكمل. فقد انقطع صوته وسط إجهاشة نحيب وانفجراً في البكاء. لم يفعل ذلك منذ أزمنة بعيدة جداً، أمنذ ذلك اليوم الذي مات فيه أبوه، في ذلك الركن الضيق والمظلم من قاعة الطوارئ في مستشفى بيورا العمالي؟ أو ربما منذ تلك الليلة التي نام فيها أول مرة مع مابيل؟ ولكن هذا الخيار الأخير لا ينفع لأنه كان بكاء سعادة يومذاك. أما الآن بالمقابل، فدموعه تسيل طيلة الوقت.

- لقد حُلَّ الأمر كله وسوف نشرح لك الآن يا دون فيليثيتو - تحمس النقيب أخيراً، مكرراً ما كان قد قاله من قبل -. أخشى كثيراً من أن ما تستمعه لن يروق لك.

سوَى جلسته على المهد وانتظر بكل حواسه المتأهبة. راوده إحساس بتلاشي الناس في البار الصغير، وبأن ضجة الشارع قد خمدت. شيءٌ ما جعله يشك في أن ما سيأتي أسوأ من كل الكوارث التي تتواتي عليه منذ بعض الوقت. بدأت ساقاه ترتعشان.

- آديلايدا، آديلايدا - أنَّ بينما هو يمسح عينيه - كان لابد لي من أن أُفرِّج عن نفسي بطريقة ما. لم أستطع كبح دموعي. أقسم لك إن البكاء ليس عادتي، اغذريني.

- لا تقلق يا فيليثيتو - ابتسمت له التقبة وهي تربت على يده بحنان - من المفيد لنا جميعاً أن نسكب بعض الدموع بين حين وآخر. أنا أيضاً يداهمني البكاء في بعض الأحيان.

- تكلم وحسب أيها النقيب، إبني مستعد - أكد صاحب شركة النقل -. تكلم بوضوح وقوة من فضلك.

- فلنمض بالتدليل - تنهنج النقيب سيلفا لكسب الوقت؛ رفع فنجان القهوة إلى فمه، تناول رشفة منه ثم واصل:- من الأفضل أن تأخذ حضرتك باكتشاف المكيدة منذ البداية، مثلما اكتشفناها نحن. ما

اسم الحراس الذي كان يوفر الحماية للسيدة مابيل يا ليتوما؟  
كانديلاريو بيلاندو، ثلاثة وعشرون عاماً، من مدينة تومبيس. انضم  
منذ سنتين إلى سلك الشرطة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ألبسه  
فيها رؤساؤه الملابس المدنية من أجل القيام بمهمة. حددوا له موقعاً  
قبالة بيت السيدة، في الشارع المسدود بحي كاستيبيا المجاور للنهر  
ولدرسة دون خوان بوسكو لرهبان طائفة الساليسيانيين، وأمروه بالانتباه  
كيلا يحدث شيءٌ لسيدة البيت. وعليه أن ينجدها إذا تطلب الأمر،  
وأن يسجل ملاحظة عن كل من يأتون لزيارتها، وأن يتبعها دون إشارة  
الانتباه، ويسجل مع من تلتقي، ومن تزور، وما الذي تفعله أو تمنع  
عن فعله. أعطوه سلاحه النظامي مع ذخيرة من عشرين طلقة، وآلية  
تصوير فوتغرافي، ودفتر ملاحظات، وقلم رصاص، وهاتف خليوي  
لاستخدامه في حالات الضرورة القصوى فقط وليس للاتصالات الشخصية  
بأي حال.

- مابيل؟ - فتحت التقبية عينيها شبه المجنونتين على اتساعهما -  
صديقتك؟ هي بالذات؟  
هز فيليثيتو رأسه موافقاً. كانت كأس الماء فارغة، ولكنه لم ينتبه إلى  
ذلك كما يبدو، لأنه كان يواصل بين الفينة والفينية رفع الكأس إلى فمه  
وتحريك شفتيه وحنجرته كما لو أنه يبتلع جرعة ماء.  
- هي نفسها يا آديلايدا - هز رأسه عدة مرات - مابيل، أجل.  
مازلت غير قادر على تصديق ذلك.

لقد كان شرطياً جيداً، ينجز مهمته بحذافيرها وبكل دقة. إنه  
يحب المهنة ويرفض حتى الآن قبول أية إكراميات. ولكنه كان متعباً  
 جداً في تلك الليلة، فقد أمضى أربع عشرة ساعة في متابعة السيدة في  
الشارع ومراقبة بيتها، وما إن جلس في ذلك الركن الذي لا يصله

الضوء وأسند ظهره إلى الجدار، حتى غلبه النعاس ونام. لم يدر كم من الوقت؛ لا بد أنه وقت لا بأس به، لأنه عندما استيقظ متفاجئاً كان الصمت يخيم على الشارع الصغير، وكان الصبية الذين يلعبون بالدوامات قد اختفوا، وكانت البيوت قد أطفأت أنوارها وأقفلت أبوابها. حتى الكلاب كانت قد توقفت عن التراكم والنباح. بدا أن الجوار كله قد نام. نهض مذهولاً، واقترب ملتصقاً بالجدران من بيت السيدة. سمع أصواتاً. أصدق أذنه بإحدى النوافذ. بدا أنه جدال. لم يفهم كلمة واحدة مما كان يقال، ولكن لم يكن لديه شك بأن هنالك رجل وامرأة يتشارحان. هرع ليربض بجوار نافذة أخرى، واستطاع من هناك أن يسمع بصورة أفضل. كانا يتباادران السباب بتجريح، ولكن دون الوصول إلى الضرب، ليس بعد. صمت طويلاً فقط، وبعد ذلك أصوات أكثر ليناً. يمكن القول إن المرأة كانت تتراهل. إنها تتلقى زيارته كما يبدو، والزائر يضاجعها. عرف كانديلاريو بيلاندو على الفور أن ذلك الشخص ليس السيد فيليثيو ياناكيه. أهناك عشيق آخر إذاً للسيدة؟ ساد البيت أخيراً صمت تام.

انسحب كانديلاريو إلى الناصية حيث كان قد غفا من قبل. عاد للجلوس وأشعل سيجارة، وأسند ظهره إلى الجدار وراح ينتظر. لم ينم هذه المرة ولم يهمل المراقبة. كان واثقاً من أن الزائر سيظهر في أي لحظة. وبالفعل، لقد خرج بعد انتظار لا بأس به، وكان يتخذ احتياطات تفضحه: يفتح الباب قليلاً، يطل برأسه فقط، وينظر إلى اليمين وإلى اليسار. وحين اعتقد أنه لا يمكن لأحد أن يراه، خرج ماشياً. رأه كانديلاريو بكامل قامته وتأكد من خلال هيئته وحركاته أنه لا يمكن أن يكون العجوز شبه القزم صاحب شركة ناريهمولا للنقل. فهذا رجل شاب. لم يستطع تمييز وجهه، بسبب الظلمة.

حين رآه يبتعد باتجاه الجسر المعلق، لحق به. كان يمشي ببطء، محاولاً عدم الظهور، وعلى مسافة بعيدة بعض الشيء، ولكن دون أن يغيب عن نظره. اقترب منه قليلاً بعد اجتياز الجسر المعلق لأنه كان هناك بعض الساهرين الذين يمكن له أن يختفي بينهم. رآه يسلك أحد الدروب المؤدية إلى ساحة السلاح ويختفي في بار فندق لوس بورتالس. انتظر هنيئة ودخل أيضاً. وجده جالساً إلى منضدة الكونتوار - إنه شاب، أبيض، ناضج، له خصلة شعر منتصبة على طريقة الفيس برييلي - وكان يشرب مباشرة من زجاجة خمر بيسيكو. عندئذ عرفه. إذ كان قد رآه عندما حضر إلى مفوضية الشرطة في شارع سانتشيث سيرو لتقديم أقواله.

- هل أنت متأكد من أنه هو يا كانديلاريو؟ سأله الرقيب ليتوما وهو يبدي وجهاً بملامح متشككة.

- إنه ميغيل، وبكل تأكيد - قال النقيب سيلفا بجفاء وهو يرفع من جديد فنجان القهوة إلى فمه. بدا متضايقاً جداً من قول ما قاله له - .  
أجل يا سيد ياناكيه. مع أسفه الشديد. ولكن ميغيل.

- ابني ميغيل؟ - كرر صاحب شركة النقل بسرعة كبيرة، وكان يرمي دون توقف، ويهز إحدى يديه؛ وشحب وجهه بصورة مفاجئة - في منتصف الليل؟ حيث تقيم مابيل؟

- كانوا في ذروة نزاع يا حضرة الرقيب - أوضح الشرطي كانديلاريو بيلاندو للرقيب ليتوما - كانوا يتشاركان حقاً، مع شتائم مثل عاهرة، ويا بن العاهرة وما هو أسوأ. وبعد ذلك ساد صمت طويل. فتخيلتُ عندئذ ما تتخيله أنت الآن: جاءت المصالحة واندسا في الفراش. وما الذي سيفعلنه سوى المضاجعة؟ هذا الأمر الأخير لم أسمعه ولم أره. إنه فرضية.

- من الأفضل ألا تروي لي هذه الأمور - قالت آديلايدا متملمة وهي تحفظ بصرها. كانت رموشها طويلة وحريرية، وقد حزنت. رببت بيدها بحنان على ركبة صاحب شركة النقل - اللهم إلا إذا كنت تشعر بالراحة إذا ما رويت لي ذلك. افعل ما تفضله يا فيليثيتو. قل ما تشاء. فلسبب ما أنا صديقتك، تشي غوا.

- فرضية تكشف أن ذهنك متغصن جداً يا كانديلاريو - ابتسم له ليتوما - لا بأس يا فتي. لقد نجحت. فمادامت هنالك مؤخرات فسوف ترمق قصتك للنقيب.

- كان هذا طرف الخيط أخيراً. وبأننا نشهد ونفك الكبة. لقد شممته شيئاً منذ الاستجواب بعد عملية الاختطاف. لقد وقعت مابيل في تناقضات كثيرة، فهي لا تتقن التصنع. هكذا هو الأمر يا سيد ياناكيه - أضاف المفوض - لا تظن أن ذلك كان سهلاً بالنسبة لنا. أعني إطلاعك على هذا الخبر الرهيب. أعرف أن وقعة عليك أشبه بطعنة في الظهر. ولكن هذا واجبنا، وستعذرني حضرتك.

صمت لأن صاحب شركة النقل رفع يده، بقبضة منكمشة.

- لا يوجد احتمال خطأ؟ - دمدم الآن بصوت أحش ومتضرع قليلاً - ولا احتمال واحد؟

- لا وجود لأي احتمال - أكد النقيب سيلفا دون رحمة - الأمر مؤكد ومثبت إلى حد الإنهاك. السيدة مابيل وابنك ميفيل يخدعنك منذ زمن طويل أيها السيد. ومن هنا تبدأ قصة العنكبوت. إننا متأسفون من أعماق روحنا يا سيد ياناكيه.

- الذنب يتحمله ابنك ميفيل أكثر من السيدة مابيل - دس ليتوما أنفه، ثم اعتذر على الفور: - المعاذرة، لم أنشأ المقاطعة.

لم يعد يبدو أن فيليثيتو ياناكيه يسمع شيئاً مما يقوله الشرطيان. فقد

ازدادت حدة شحوبه؛ وراح ينظر إلى الفراغ كما لو أنه تجسد شيئاً.  
وكان طرف ذقنه يرتعش.

- أعرف جيداً ما الذي تشعر به يا فيليثيو وأشعر بالحزن من أجلك  
- كانت التقية قد وضعت يدها على صدرها - أجل، معك حق.  
الفضفضة سترىحك. ومن هنا لن يخرج أي شيء، مما ترويه لي يا  
باباثيتو، وأنت تعرف ذلك.

ضرب فيليثيو على صدره وفكراً: «يا للأمر الغريب، رن كفارغ». وأحس بالخجل لأن عينيه تمتلئان بالدموع مجدداً.

- إنه هو العنكبوت - أكد النقيب سيلفا بحزم - إنه ابنك، الأبيض.  
ميغيل. ويبدو أنه لم يقدم على فعل ذلك من أجل المال فقط، وإنما من  
أجل شيء أكثر إلتواء. وربما... ربما لهذا السبب نفسه أحباب مابيل.  
لديه شيء شخصي ضدك. حقد، ضغينة... هذه الأمور المعقّدة التي  
تسمم أرواح الناس.

- لأنك أجبرته على أداء الخدمة العسكرية كما يبدو - عاد ليتوما  
للتدخل. وقد اعتذر في هذه المرة أيضاً - المعذرة. هذا ما جعلنا هو نفسه  
نفهمه منه على الأقل.

- هل تسمع ما نقوله لك يا دون فيليثيو؟ - انحنى النقيب باتجاه  
صاحب شركة النقل. أمسك به من ذراعه: - هل تشعر بالتوعّك؟  
- أشعر بأنني على ما يرام - أبدى صاحب شركة النقل ابتسامة  
مغتصبة. كانت شفتاه ترتعشان، وكذلك فتحتني أنفه. ويداه اللتان  
تمسكان بزجاجة الإنكا كولا الفارغة. كانت دائرة صفراء تحيط ببياض  
عينيه وكان صوته خيطاً نحيلـاً - واصل أيها النقيب. ولكن، المعذرة،  
أرغب في معرفة أمر محدد إذا كان ممكناً. هل تيبورثيو، ابني الآخر،  
متورط أيضاً؟

- لا شيء من هذا، ميغيل وحده فقط - حاول النقيب تشجيعه -. أؤكد لك بصورة جازمة. يمكنك أن تكون مطمئناً من هذه الناحية يا سيد ياناكيه. تيبورثيو غير متورط في المسألة وليس على علم بكلمة واحدة في هذه القضية. وعندما سيعلم سوف يفاجأ مثلما فوجئت حضرتك.

- لكل هذا الرعب جانبه الطيب يا آديلايدا - زمجر صاحب شركة النقل بعد صمت طويل - حتى لو لم تصدقني، هنالك جانب طيب. - أصدق هذا يا فيليثيتو - قالت التقية وهي تفتح فمها كثيراً كاشفة عن لسانها - هكذا هي الحياة دوماً. الأمور الطيبة لها جانبها الخبيث دوماً، وللأمور الخبيثة جانبها الطيب. ما هو الجانب الطيب في هذه الحالة؟

- لقد توصلت إلى حلٌّ لشكوكِ كانت تنهش روحني منذ تزوجت يا آديلايدا - ددم فيليثيتو ياناكيه. بدا في تلك اللحظة كما لو أنه قد تعافي: لقد استعاد صوته، ألوانه، وشيء من الثقة بالنفس أثناء الكلام -. توصلت إلى أن ميغيل ليس ابني. وأنه لم يكن ابني قط. لقد أجبرتني خيرتروديس وأمها على الزواج بالقوة، بقصة الحَبَل. صحيح أنها كانت حبلني. ولكن ليس مني، بل من شخص آخر. وهو ابنه إذا. لقد أسلقوا بي ابنًا لزوجتي على أنه ابني، وهكذا نجت خيرتروديس من عار أن تكون أمًا عازبة. كيف يمكن أن يكون ابنًا لي ذلك الأبيض ذو العينين الزرقاء، هل لك أن تخبريني؟ لقد كنت في شك على الدوام من أن هناك قطًا مخبأً في هذه المسألة. والآن، توصلتُ أخيراً إلى الحقيقة الجلية، وإن متأخرًا. إنه ليس ابني، ولا تسري دمائي في عروقه. فلو كان ابني ومن دمي لما فعل بأي حال ما فعله بي. أترين؟ أتلاحظين يا آديلايدا؟

- أرى ذلك يا باباثيتو، وألاحظه - وافقته التقية -. أعطني كأسك

هذه، سأملؤها لك مجدداً بماء بارد من حجر التقطر. لستُ أدرى ما الذي أشعر به وأنا أراك تشرب الماء من كأس فارغة، تشي غوا.

- وما بيل؟ - تلعم صاحب شركة النقل وهو يخفض بصرة. - هل كانت على علم بمؤامرة العنكبوت منذ البدء؟ هل كانت كذلك؟

- أجل، كانت كذلك، ولكن مكرهة - خفف النقيب سيفاً من وطأة الأمر، كمن هو مرغم. - لقد كانت على علم بالأمر. ولم يرق لها عمل ذلك قطّ، وهي تتقول إنها حاولت في أول الأمر ثني ميغيل عن ذلك، وقد فعلت ما تستطيعه. ولكن لابنك طبعه و... - هو ليس ابني - قاطعه فيليثيتو ياناكيه وهو ينظر إلى عينيه مباشرة.

- اعذرنـي، أنا أعرف ما أقوله. تابع، قل ما لديك أيها النقيب.

- لقد كانت ضحـرة من ميغيل وترـيد قطـع علاقـتها به، ولكـنه لم يسمـح لها، كان يهدـدهـا بأنه سيـخبرـكـ عنـ غـرامـياتـهماـ - تدخل ليـتـومـاـ منـ جـديـدـ. ولـأنـهـ ورـطـهـاـ فـيـ تـلـكـ المـكـيـدـةـ، بدـأـتـ تـكـرـهـهـ.

- أتعـنيـ أنـكـماـ قدـ تـكـلـمـتاـ معـ ماـ بـيلـ؟ - سـأـلـ صـاحـبـ شـرـكـةـ النـقـلـ مشـوشـاـ. - وماـ الـذـيـ اـعـرـفـتـ بـهـ؟

- إنـهاـ تـتـعاـونـ معـنـاـ يـاـ سـيـدـ يـانـاكـيـهـ - أـكـدـ النـقـيـبـ. - لقدـ كانـتـ شـهـادـتهاـ حـاسـمةـ لـعـرـفـةـ مـكـيـدـةـ العـنـكـبـوتـ بـرـمـتـهاـ. ماـ قـالـهـ لـكـ الرـقـيـبـ صـحـيـحـ. فـيـ الـبـدـءـ، حـينـ بدـأـتـ معـ مـيـغـيلـ، لمـ تـكـنـ تـعـرـفـ أـنـهـ اـبـنـكـ. وـحـينـ عـرـفـتـ ذـلـكـ، حـاـوـلـتـ التـخـلـصـ مـنـهـ، وـلـكـنـ كـانـ الـوقـتـ قـدـ فـاتـ. لمـ تـسـتـطـعـ لـأـنـ مـيـغـيلـ كـانـ يـبـتـزـهـ.

- كانـ يـهـدـدـهـ بـإـخـبـارـكـ بـكـلـ شـيـءـ يـاـ سـيـدـ يـانـاكـيـهـ، كـيـ تـقـتـلـهـاـ أوـ تـضـربـهـاـ عـلـىـ الأـقـلـ. عـادـ الرـقـيـبـ ليـتـومـاـ إـلـىـ التـدـخـلـ.

- وـكـيـ تـرـكـهـاـ فـيـ الشـارـعـ وـلـيـسـ لـدـيـهـاـ فـلـسـ وـاحـدـ، وـهـذـاـ هـوـ الـأـهـمـ - دـخـلـ النـقـيـبـ عـلـىـ الـخـطـ. مـثـلـ مـاـ قـلـتـ لـكـ مـنـ قـبـلـ أـيـهـاـ السـيـدـ. مـيـغـيلـ

يكرهك، يكن لك حقداً عظيماً. يقول إنه يشعر بذلك لأنك أجبرته على أداء الخدمة العسكرية ولم تفعل ذلك مع أخيه تيبورثيو. لكنني أشعر أن هناك ما هو أكثر. ربما هذا العداء آت مما هو قبل ذلك، منذ طفولته. حضرتك تعرف أكثر.

- لا بد أنه كان يرتاب كذلك في أنه ليس ابني يا آديلايدا - أضاف صاحب شركة النقل. كان يشرب، في رشفات، كأس الماء الجديدة التي جاءته بها آديلايدا للتو -. لقد كان يرى وجهه في المرأة، فيدرك أن ما يسري في عروقه ليست دمائي، ولا يمكن لها أن تكون دمائي. وهذا بدأ يكرهني، وهو ما بقي له. الغريب أنه أخفى ذلك دوماً، ولم يُظهره قط. أتررين؟

- ماذا تريدين أن أرى يا فيليثيتو - هتفت المداوية -. كل شيء واضح تماماً، ويمكن حتى للأعمى أن يراه. هي فتاة شابة وأنت عجوز. هل كنت تظن أن مابيل ستظل وفيه لك حتى الموت؟ ولا سيما أن لك زوجتك وأسرتك، وهي تعرف جيداً أنه لا يمكن لها أن تكون أكثر من عشيقة لك. الحياة هي الحياة يا فيليثيتو، لابد أنك تعرف هذا. أنت آت من أسفل وتعرف ما هي المعاناة، مثلـي ومثلـ فقراء بيورا الكثـيرـين.

- طبعاً، فالاختطاف لم يكن اختطافاً قـط وإنـما مجرد تهـريـج - قال

النـقـيب -. من أجل الضـغـطـ عليكـ فيـ مشـاعـركـ أيـهاـ السـيدـ.

- كنت أعرف ذلك يا آديلايدا. لم تكن لدى أوهام قـطـ. لماذا تظـنـينـ إذاًـ أـنـنيـ كنتـ أـفـضـلـ غـضـ النـظـرـ دـوـماـ،ـ وـعـدـ التـحـريـ عـماـ تـفـعـلـهـ مـابـيلـ؟ـ لكنـنيـ لمـ أـتـخـيلـ قـطـ أـنـ يـمـكـنـ لـهـ يـمـكـنـ لـهـ أـنـ تـفـعـلـ ذـكـ مـعـ اـبـنـيـ بـالـذـاتـ!

- وهـلـ هوـ اـبـنـكـ؟ـ صـحـحتـ لـهـ التـقـيـةـ سـاخـرـةـ -.ـ ماـ أـهـمـيـةـ مـعـ مـنـ فعلـتـ ذـكـ يـاـ فيـلـيـثـيـتوـ.ـ ماـذـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـسـبـبـ لـكـ هـذـاـ كـلـهـ الـآنـ.ـ لـاـ تـفـكـرـ أـكـثـرـ فـيـ الـأـمـرـ يـاـ صـاحـبـيـ.ـ اـقـلـبـ الصـفـحةـ،ـ فـالـأـمـرـ قـدـ مـضـىـ.ـ هـذـاـ أـفـضـلـ مـاـ

يمكن عمله، اعمل بنصيحتي.

- أتدرين ما الذي أفكر به الآن بغم حقيقى يا آديلايدا؟ - فرغت كأسة مرة أخرى. وكان فيليثيو يشعر بقشعريرة -. إنها الفضيحة. قد يبدو لك هذا مجرد حماقة، ولكنه أكثر ما يعذبني. سيخرج الخبر غداً في الصحف، في الإذاعات، في التلفزيون. وسيأتي التصعيد الصحفي عندئذ. ستكون حياتي سيركًا مرة أخرى. ملاحقة الصحفيين، فضول الناس في الشارع، في المكتب. لم يعد لدي صبر ولا قدرة على تحمل كل هذا من جديد يا آديلايدا. لم أعد قادرًا.

- لقد غالب النوم السيد يا حضرة النقيب - همس ليتوما مشيراً إلى صاحب شركة النقل الذي أغضض عينيه وأحنى رأسه.

- هذا ما أظنه - وافقه الضابط -. لقد دمره الخبر. الابن والعشيقه. بعد القرون ضرب بالعصيّ. هذا أقل ما يمكن أن يصيبه، يا للعناء! كان فيليثيو يسمعهما ولكن دون سماعهما. لا يريد فتح عينيه، ولا حتى للحظة واحدة. كان يتناوم، وكان يسمع صخب وجلة جادة سانتشيث سيرو. لو لم يحدث هذا كله لكان الأن في مقر نارييهوالا للنقل، يراجع حركة الحافلات والشاحنات وسيارات الفترة الصباحية، ويدرس حركة اليوم ويقارنها بحركة الأمس، ويملي رسائل على السيدة خوسيفيتا، يلغى أو يقبض كبياليات في المصرف، ويستعد للعودة إلى بيته لتناول الغداء. أحس بحزن شديد سبب له رعشة حمى ثلاثة من أخمص قدميه حتى رأسه. لن تعود حياته أبداً إلى إيقاعها القديم الهدائى، ولا إلى أن يكون ماراً عادياً ومجهولاً. سيكون منذ الأن معروفاً على الدوام في الشوارع، لدى رؤيته يدخل إلى صالة سينما أو إلى مطعم ستعالى الهمسات والدمدمات، والنظرات الوجهة، والوششات، والأيدي المشيرة. هذه الليلة بالذات، أو في صباح الغد

على أبعد تقدير، سيكون الخبر عاماً، تعرفه ببيورا بأسرها. وسينبغي  
عندئذ ذلك الجحيم.

- هل تشعر بالتحسن مع هذه الغفوة أيها السيد؟ سأله النقيب  
سيلفا وهو يربت بمودة على ذراعه.

- لقد غفت قليلاً، متأسف - قال وهو يفتح عينيه - اعذراني.  
انفعالات كثيرة في آن واحد.

- طبعاً، طبعاً - طمأنه الضابط - أتريد أن نواصل أم نترك الأمر إلى  
وقت آخر يا دون فيليثيتو؟

هز رأسه مدمداً: «نواصل». خلال الدقائق التي ظل فيها مغمض  
العينين، امتلأ البار بالناس، وخاصة الرجال. كانوا يدخنون، ويطلبون  
سندوتشات، ومياهاً غازية أو بيرة أو فناجين قهوة. أخفض النقيب  
صوته كيلا يسمعه من يجلسون حول المنضدة المجاورة.

- ميغيل ومابيل معتقلان منذ الليلة الماضية، وقاضي التحقيق يتتابع  
القضية. لقد حددنا موعداً للصحافة في الساعة السادسة مساء. لا أظن  
أن حضرتك ترغب في حضور هذا اللقاء، أليس كذلك يا دون فيليثيتو؟

- ولا بأي حال - صاح صاحب شركة النقل مرعوباً - طبعاً لا!

- ليس ضروريًا أن تأتي - طمأنه النقيب - ولكن عليك أن تعرف  
وتكون مستعداً. الصحفيون سوف يسببون لك الجنون.

- هل اعترف ميغيل بالتهم كلها؟ سأله فيليثيتو.

- لقد أنكرها في البدء، ولكنه حين عرف أن مابيل قد خانته وأنها  
ستكون شاهد اتهام ضده، اضطر إلى الاعتراف بالواقع. لقد قلتُ هذا،  
إن شهادتها ساحقة.

- بفضل السيدة مابيل انتهى به الأمر إلى الاعتراف بكل شيء -  
أضاف الرقيب ليتوما - لقد سهلت علينا عملنا. إننا نحرر التقرير.

وقدًّا على أبعد تقدير سيكون بين يدي قاضي التحقيق.

- هل سيكون عليًّا أن أراه - كان فيليثيتو يتكلم بصوت خافت جداً، فاضطر الشرطيان إلى تقريب رأسيهما منه كي يسمعاه - أقصد ميفيل.
- ستكون موجوداً في المحاكمة على أي حال - أكد النقيب -  
وستكون حضرتك الشاهد النجم. إنك الفضحية، تذكر هذا.
- وقبل المحاكمة؟ ألح صاحب شركة النقل.

- يمكن لقاضي التحقيق أو النائب العام أن يطلب مواجهة - أوضح النقيب - في هذه الحالة ستقابله، أجل. نحن لا نحتاج إلى ذلك، لأن ميفيل، مثلما قال لك ليتوما، قد اعترف بالتهم كلها. يمكن لمحاميه أن يعمد إلى استراتيجية أخرى ويُكذب كل شيء متذرعاً بأن اعترافاته باطلة لأنها انتزعت منه بوسائل غير شرعية. وباختصار سيفعلون مثلما يحدث عادة. ولكنني لا أظن أنه سيجد مهرباً. مادامت مابيل تتعاون مع العدالة فإنه واقع لا محالة.

- كم ستكون مدة الحكم عليه؟ - سأله صاحب شركة النقل.
- الأمر يعتمد على المحامي الذي سيدافع عنه، وعلى ما يمكن أن ينفقه في دفاعه - قال المفوض الشرطي وهو يبدي تكشيرة متشككة - لن تكون مدة طويلة. لم يكن هنالك عنف باستثناء الحريق الصغير في شركتك. أما الابتزاز، وعملية الاختطاف المزيفة، وعصبة الإجرام فليست جرائم خطيرة، في هذه الظروف. لأنها لم تتمخض عن شيء عملي، وإنما كانت مجرد تصنع. سنتان أو ثلاثة سنوات في أفضل الحالات، أشك في أن يكون الحكم أكثر. والأخذ في الاعتبار أنه جائع مبتدئ، وبلا سوابق، يمكن له أن ينجو من السجن.

- وهي؟ سأله صاحب شركة النقل وهو يمر بلسانه على شفتيه.  
- بما أنها تعاونت مع العدالة، فإن الحكم عليها سيكون مخففاً جداً

يا دون فيليثيتو. ربما تخرج نظيفة لا قش ولا غبار عليها. فقد كانت، في نهاية المطاف، صحبة الشاب الأبيض أيضاً. هذا ما يمكن أن يتذمر به محاميها، ومعه بعض الحق في ذلك.

- أتلاظحين يا آديلايدا؟ - تنهد فيليثيتو ياناكيه -. لقد جعلوني أقضى أسبوع من الغم، وأحرقوا المكان في جادة سانتشيت سورو، وكانت الخسائر كبيرة، فالخوف الذي تسبب به المبتزون بالقائهم قبلة على حافلاتي، جعل زبائن كثيرين يبتعدون عنا. ومن المحتمل أن يخرج الاثنان إلى بيتهما طليقين، وأن يعيشَا حياة النعيم. أترى ما هي العدالة في هذه البلاد؟

صحت لأنه لاحظ أن شيئاً ما قد تبدل في عيني التالية. كانت تنظر إليه بثبات، بحدقتين متسعتين، وبجدية كبيرة وتركيز، كما لو أنها ترى فيه، أو من خلاله، شيئاً مثيراً للقلق. أمسكت إحدى يديه بين يديها الكبيرتين والخشنتين ومتسمختي الأظفار. راحت تضغط على يده بقوة كبيرة. ارتعش فيليثيتو وهو يكاد يموت خوفاً.

- أهو وهي يا آديلايدا؟ - تلعمت محاولاً سحب يده -. ماذا ترين، ما الذي يحدث لك، أرجوك يا صديقتي.

- هنالك شيء يحدث لك يا فيليثيتو -. قالت له وهي تضغط بشدة أكبر على يده، وتنظر إليه بعينيها العميقتين اللتين تحولتا الآن إلى محمومتين -. لا أدرى ماذا هنالك، لعله ما حدث لك هذا الصباح مع الشرطيين، وربما شيء آخر. شيء أسوأ أو أفضل، لست أدرى. شيء رهيب، قوي جداً، هزة ستبدل حياتك كلها.

- أتعنين أنه شيء مختلف عن كل ما يحدث لي؟ أشياء أسوأ مما حدث؟ ألا يكفيني الصليب الذي أجرجه؟

هزت رأسها كمن أصابها مس ولم يبدُ عليها أنها تسمعه. رفعت

صوتها كثيراً :

- لست أدرى إن كان أفضل أو أسوأ يا فيليثيتو - صرخت مذعورة -  
ولكنه أهم من كل ما حدث لك حتى اليوم. إنها ثورة في حياتك، هذا  
هو ما أستشره.

- أعظم مما أنا فيه؟ - كرر - لا يمكنك إخباري بأي شيء محدد يا آديلايدا؟

- لا، لا أستطيع - أفلتت التقية يده وراحت تستعيد شيئاً فشيئاً  
لامامها وأساليبها المعهودة. رآها تزفر، تمر بيدها على وجهها كما لو  
أنها تزيح حشرة عنه - أقول لك ما أشعر به فقط، ما يجعلني الوحي  
أشعر به. أعرف أن الأمر معقد. وهو كذلك بالنسبة لي أيضاً يا فيليثيتو.  
لا ذنب لي أنا، هذا ما أراد لي الرب أن أشعر به. هو من يأمر. هذا  
كل ما يمكنني أن أقوله. كن مستعداً، هنالك ما سيحدث لك. شيء  
سيفاجئك. ربما لا يكون شيئاً أسوأ يا بابايثيتو.

- أسوأ؟ - هتف صاحب شركة النقل - الشيء الوحيد الأسوأ الذي  
يمكن أن يحدث لي هو موتي سحقاً تحت سيارة، أو عضًا بانيايب كلب  
مصاب بالسعار. ربما يكون هذا هو ما يناسبني. أن أموت يا آديلايدا.

- لن تموت بعد، أؤكد لك. فليس موتك هو ما قاله لي الوحي.  
بدت التقية مستنفدة. وكانت ماتزال على الأرض، جالسة على  
كعبي قدميها وهي تفرك يديها وذراعيها ببطء، كما لو أنها تنفس عنها  
الغبار. قرر فيليثيتو الانصراف. لقد انقضت نصف فترة ما بعد الظهر.  
لم يكن قد تناول ولو لقمة واحدة في الظهيرة، ولكنه ليس جائعاً. مجرد  
فكرة الجلوس لتناول الطعام كانت تسبب له القرف. نهض عن  
أرجوحة النوم بمشقة وأخرج محفظة نقوده.

- لا حاجة لأن تعطيني أي شيء - قالت التقية وهي جالسة على

الأرض -. اليوم لا يا فيليثيتو.

- بلى، اليوم ضروري -. قال صاحب شركة النقل وهو يترك خمسين سولاً على منضدة قريبة -. ليس مقابل هذا الوحي المشوش، وإنما لأنك واسينتي ونصحتنى بحثان شديد. أنت صديقتي المفضلة يا آديلايدا. ولهذا أنا أثق بك على الدوام.

خرج إلى الشارع وهو يزور الصدار، ويعيد تسوية ربطه عنقه، وقبعته. أحس مجدداً بحر شديد. كانت تنقل عليه الحشود التي تملأ شوارع مركز بيورا. كان بعض الأشخاص يتعرفون عليه فيحيونه بإيماءة أو يتهامسون وهم يشيرون إليه. ويلتقط له آخرون صوراً بهواتفهم الخليوية. قرر المرور على نارييهوالا للنقل ليرى إن كانت هناك مستجدات حديثة. نظر إلى ساعته: الخامسة مساء. المؤتمر الصحفي في مفوضية الشرطة سيكون في السادسة. ساعة واحدة كي تسري الأخبار كالبارود. ستتفجر في الإذاعات، وفي شبكة الانترنت، وستنشرها المدونات، وطبعات الجرائد الالكترونية، وأخبار التلفزيون. وسيكون، من جديد، الرجل الأوسع شهرة في بيورا. (ضحية خداع ابنه وعشيقته)، «ابنه وعشيقته أرادا ابتزازه»، «العنكبوتان هما ابنه وعشيقته، وكانا فوق ذلك عشيقين!». أحس بالغثيان وهو يتخيل العناوين، ورسوم الكاريكتير التي تصوره في أوضاع مضحكة، بقرنين يصلان إلى السحاب. يا للأوغاد! يا للجاحدين، ناكري الجميل! سلوك ميغيل يسبب له غضباً أقل. لأن شكوكه تأكّدت بفضل ابتزاز العنكبوب: إنه ليس ابنه. من تراه يكون أبوه الحقيقي؟ أتعرفه خيرت روبيس؟ في ذلك الوقت كان أي واحد من زبائن النزل يضاجعها، هناك مرشحون كثر لهذه الأبوة. هل سينفصل عنها؟ أيتطلقان؟ لم يشا ذلك قط، أما الآن، وبعد مرور كل هذا الزمن، لم يعد قادراً حتى على

الحقد عليها. لم تكن امرأة سيئة؛ وخلال هذه السنوات كلها لم تكن تشوب سلوكها أية شائبة، وكانت تعيش من أجل بيتهما وتَدِينها وحسب. سيهزها الخبر طبعاً. فصورة لميغيل مقيد اليدين، ووراء القضبان، لأنه أراد ابتزاز أبيه فضلاً عن وضع قرون له مع عشيقه، هي أمور لا تتحملها الأم بسهولة. ست بكى وستهرب إلى الكاتدرائية كي يواسيها الكهنة.

موضوع مابيل كان أشد قسوة. يفكر بها فتتفتح فجوة في معدته. لقد كانت المرأة الوحيدة التي أحبها حباً حقيقياً في حياته. قدم لها كل شيء. البيت، المعاش، الهدايا. والحرية التي لا يمنحكها أي رجل لامرأة يُنفق عليها. لماذا تندس في الفراش مع ابنه! لماذا تحاول هذه اللعينة البائسة ابتزازه! لن يقتلها، بل إنه لن يوجه إليها ولو صفة واحدة على وجهها كاذبة. لن يعود لرؤيتها. فلتكتسب عيشها من التعهر. ولنر إن كانت ستجد عشيقاً معتبراً مثله.

بدل أن ينزل عبر شارع ليما، انحرف عند مستوى الجسر المعلق باتجاه كورنيش إغيفورين. هناك كان يتواجد أناس أقل، ويمكن له أن يمشي بطمأنينة أكبر، دون أن يُفاجأ بمعرفة أنهم ينظرون ويشيرون إليه. تذكر البيوت الكبيرة القديمة التي كانت تحف بهذا الكورنيش النهري حين كان صبياً صغيراً. وقد راحت تتداعى بيتهما بعد آخر بفعل الأضرار التي سببها النينيو، والأمطار وفيضانات النهر الذي كان قد فاض وغرم الحي كله. وبدل إعادة بنائهما، قام البيض ببناء بيوتهم الجديدة في ضاحية التشيبة، بعيداً عن مركز المدينة.

ما الذي سيفعله الآن؟ أي واصل عمله في ناريهوala للنقل وكأن شيئاً لم يحدث؟ مسكن تيبورثيو. سيشعر بكل تأكيد باستياء عظيم. فأخوه ميغيل الذي كان متتصقاً به جداً على الدوام يتحول إلى مجرم أراد أن

يسطُوا على أبيه بالتوافق مع العشيقة. لقد كان تيبورثيو شخصاً طيباً جداً. ربما هو ليس شديد الذكاء، ولكنه مستقيم، وفيه، وغير قادر على اقتراف نذالة مثل أخيه. سوف يحطم الخبر.

كان منسوب نهر ببورا مرتفعاً جداً، ويجر معه أغصاناً، وشجيرات صغيرة، وأوراقاً، وقناني وبلاستيك. لياهه لون طيني كما لو أنها محملة بانهيارات ترابية حدثت في سلسلة الجبال. ولم يكن هنالك أحد يسبح في مياهه.

حين صعد من الكورنيش إلى جادة سانتشيث سيرو قرر عدم الذهاب إلى المكتب. مازالت هنالك خمس عشرة دقيقة فقط لبلوغ الساعة السادسة، وسوف يهرب الصحفيون كالذباب إلى ناريهوala للنقل فور اطلاعهم على الخبر. من الأفضل له التزام البيت، وإغفال الباب الخارجي وعدم الخروج طوال عدة أيام، إلى أن تهدأ العاصفة. التفكير في الفضيحة يجعله يشعر كما لو أن ثعابين تزحف على ظهره.

سلك شارع اريكيبيا متوجهاً نحو بيته، وكان يشعر أن الغم قد بدأ يضغط مجدداً على صدره، ويجعل تنفسه أصعب. ميفيل يكن له الحقد، بل إنه يكرهه منذ ما قبل إجباره على الانضمام إلى الخدمة العسكرية. لقد كان شعوراً متبادلاً. لا، هذا زائف، فهو لم يكره قط هذا الابن النغل. شيء آخر هو أنه لم يحبه قط، لأنه كان يدرك أنه ليس من دمه نفسه. ولكنه لا يذكر أنه فضل تيبورثيو عليه. لقد كان أبداً عادلاً، يحاول منح كليهما معاملة متماثلة. صحيح أنه أجبر ميفيل على قضاء سنة في الثكنة العسكرية. كان ذلك من أجل مصلحته. كي يضعوه في الطريق السليم. فقد كان تلميذاً سيئاً جداً، لا يحب سوى الله، وركل الكرة وشرب الخمور في الحانات. لقد فاجأه وهو يشرب في باراتٍ وئزل سينة السمعة مع أصدقاء خبيثي المظهر، وينفق

مصروفه في الماخور. هذا الطريق سيودي به إلى مصير سيني. وقد حذرها: «إذا ما واصلت هكذا، سأدخلك إلى الجيش». فواصل، وأدخله إلى الجيش. يضحك فيليثيتتو. حسن، يمكن القول إن حاله لم تصلح كثيراً بالنظر إلى إقدامه على ما انتهى إلى فعله. فليذهب إلى السجن ليعرف ما الذي يعنيه هذا. ولنر من الذي سيوفر له عملاً بعد ذلك، وهو بمثل هذا السجل. سيخرج من هناك كقاطع طريق أكثر مما كان عليه لدى دخوله، مثل جميع من يمررون عبر جامعات الجريمة التي هي السجون.

كان قبالة بيته. وقبل أن يفتح البوابة الكبيرة المزينة بمسامير ضخمة، خطأ بعض خطوات حتى الناصية وألقى بعض قطع نقدية في علبة الأعمى:

- مساء الخير يا لوثيانو.

- مساء الخير يا دون فيليثيتتو. فليكافئك الرب.

رجع وهو يشعر بانقباض في قلبه، وبأنه يتنفس بصعوبة. فتح البوابة ثم أغلقها وراءه. ومن البهلو سمع أصواتاً في الصالة. هذا ما كان ينقص. لدينا زيارة! أمر غريب، فخيرتروديس ليس لها صديقات يأتين دون إخبار مسبق، لا تقيم لقاءات شاي أبداً. كان يقف في البهو، متربداً، حين رأى هيئة امرأته المشوشة تظهر من عتبة الصالة. كانت محشورة في واحد من تلك الأثواب التي تبدو كمسوح راهبات، رآها تتقدم باتجاهه مستعجلة كثيراً بطريقتها تلك الشاقة في المشي. لماذا هي بهذا الوجه؟ لقد علمت بالخير إذاً.

- هذا يعني أنك قد علمت بكل شيء. دمم.

ولكنها لم تتح له الوقت ليكمل. بل أشارت إلى الصالة، وراحت تتكلم بتعثر:

- آسفه، آسفة جداً يا فيليثيتو. اضطررتُ إلى إيوانها هنا في البيت.  
لم يكن بإمكانني عمل أي شيء آخر. ستبقى بضعة أيام فقط. جاءت  
هاربة. يمكن لهم أن يقتلوها كما يريدون. قصة لا تصدق. تعال، ستخبرك  
هي نفسها.

كان صدر فيليثيتو ياناكيه طبلاً. راح ينظر إلى خيرترووديس دون أن  
يفهم جيداً ما تقوله، ولكن بدلاً من وجه زوجته كان يرى وجه آديلايدا  
متحولاً ومشوهاً بسبب رؤى الوحي.



## XVI

لماذا تتأخر لوكريثيا كل هذا الوقت؟ يقوم دون ريفوبيرتو بالدوران كوحش حبيس أمام باب شقته في بارانكو. زوجته لم تخرج بعد من حجرة النوم. إنه يرتدي ملابس حداد صارمة، ولا يريد الوصول متأخراً إلى جنازة إسماعيل، لكن لوكريثيا بنزواتها في التأخر، بالبحث عن ذرائع شديدة السخافة لتأخير الخروج، ستجعلهما يصلان إلى الكنيسة حين يكون الموكب قد انطلق باتجاه المقبرة. هو لا يريد استثنارة الملاحظة بظهوره في مقبرة «حدائق السلام» وقد بدأت مراسم الجنازة، وأن يجتذب بذلك نظرات جميع الحاضرين. سيكون هناك أناس كثيرون جداً دون شك، مثلما كانت عليه الحال أثناء السهر على الجثمان في الليلة الماضية، ليس لروابط صداقتهم بالمتوفى وحسب، وإنما بداعف فضول أهالي ليما الخبيث في التعكن أخيراً من رؤية الأرملة التي أثيرت الفضيحة بسببها.

لكن دون ريفوبيرتو كان يعرف أنه ليس بإمكانه عمل أي شيء سوى الاستسلام والانتظار. ربما كان السبب الوحيد للمشادات التي وقعت له مع امرأته، على امتداد سنوات زواجهما، هو تأخر لوكريثيا دوماً لدى خروجهما إلى أي مكان، سواء إلى السينما أو إلى دعوة لتناول الطعام، أو إلى معرض، أو لمعاملة مصرافية، أو رحلة. في البدء، حين كانا حديثي الزواج، وببدأ العيش معاً، كان يظن أن زوجته تتأخر

لمجرد انعدام الرغبة وازدراء منها لدقة الموعيد. وقد تسبب ذلك بجدل بينهما، وزعل، ومماحكات. وشيئاً فشيئاً، ومن خلال مراقبتها، والتفكير في الأمر، انتبه دون ريغوبيرتو إلى أن تأخر زوجته لدى الخروج إلى أي التزام لم يكن حدثاً سطحياً، ينم على إهمال سيدة متعرجة. بل هو استجابة لشيء أعمق بكثير، لحالة معنوية أو كيانية، لأنها - ودون أن تعي ما الذي يحدث - في كل مرة تضطر فيها إلى مغادرة مكان ما، مثل بيتها، أو بيت صديقة ذهبت لزيارتها، أو المطعم الذي تناولت العشاء فيه، يسيطر عليها قلق خفي، نوع من انعدام الأمان، خوف غامض، بدائي، يدفعها إلى عدم الذهاب، المغادرة، تبديل المكان، وتختلق عندها كل أنواع الذرائع - إخراج منديل، تبديل المحفظة، البحث عن المفاتيح، التأكد من أن النوافذ مغلقة، أو أن التلفزيون مطفأ، وإذا لم يكن الطباخ قد بقي مشتعلًا، أو الهاتف مرتفع السماuga - أي شيء يؤخر الانصراف أو المغادرة المرعبة لدقائق أو لثوان. هل كانت هكذا على الدوام؟ وحين كانت طفلة أيضاً لم يتجرأ على سؤالها عن ذلك. ولكن ثبت له، مع مرور السنوات، أن هذه الرغبة الجامحة، أو النزوة أو الحتمية تزداد حدة، حتى إن ريغوبيرتو كان يفكر أحياناً، وهو يرتعش، بأن الأمر قد يصل بلوكريثيا ذات يوم إلى أن تصاب ببعدي السبات أو الخمول الميتافيزيقي الذي أصاب شخصية بارتليبي في قصة ميلفيل نفسها، وتُقرر عندها عدم التحرك من بيتها، وربما من غرفتها أو حتى من سريرها. «لخوفها من فقدان الكينونة، من فقدان كينونتها، من البقاء دون كينونتها»، عاد يقول لنفسه. وهذا هو التشخيص الذي توصل إليه بشأن تأخر زوجته. كانت الثوانی تمر دون أن تُطلّ لوكرثيا. لقد نادها ثلاثة مرات بصوت عالٍ مذكراً إياها بأن الوقت قد تأخر. مما لا شك فيه، مع ما أصابها من غمّ وتوتر أعصاب

مذ تلقت مكالمة آرميدا التي أخبرتها بموت إسماعيل المفاجئ، أن ذلك الخوف من بقائها دون كينونة، وتركه منسياً مثل مظلة أو معطف مطري إذا ما ذهبـتـ، آخذـ بالازديـادـ. سـتوـاـصـلـ التـأـخـرـ وـسيـصـلـانـ مـتأـخـرـينـ إـلـىـ الجـنـازـةـ.

وـأـخـيـراـ خـرـجـتـ لـوكـريـثـياـ منـ غـرـفـةـ النـومـ. كـانـتـ تـرـتـدـيـ ثـوبـاـ أـسـودـ، وـتـضـعـ نـظـارـةـ سـوـدـاءـ. سـارـعـ رـيـغـوـبـيرـتوـ إـلـىـ فـتـحـ الـبـابـ لـهـاـ. كـانـ وـجـهـ زـوـجـتـهـ لـاـ يـزـالـ مـمـتـقـعاـ بـسـبـبـ الـحـزـنـ وـالـقـلـقـ. مـاـذـاـ سـيـحـدـثـ لـهـمـاـ آـلـآنـ؟ـ فـيـ الـلـيـلـةـ السـابـقـةـ، أـثـنـاءـ السـهـرـ عـلـىـ الـجـثـمـانـ فـيـ كـنـيـسـةـ سـانـتـاـ مـارـيـاـ رـيـناـ، رـآـهـ رـيـغـوـبـيرـتوـ تـجـهـشـ بـالـبـكـاءـ وـهـيـ تـعـانـقـ آـرمـيدـاـ، بـجـانـبـ النـعشـ المـفـتوـحـ الـذـيـ يـسـجـيـ فـيـهـ جـسـدـ إـسـمـاعـيلـ، وـقـدـ عـقـدـ مـنـدـيلـ عـلـىـ رـأـسـهـ كـيـلاـ يـتـدـلـ فـكـهـ السـفـليـ. وـكـانـ عـلـىـ رـيـغـوـبـيرـتوـ نـفـسـهـ أـنـ يـبـذـلـ فـيـ تـلـكـ الـلـحـظـةـ جـهـداـ عـظـيـماـ كـيـ يـكـبـحـ رـغـبـتـهـ فـيـ الـبـكـاءـ. لـقـدـ مـاتـ إـسـمـاعـيلـ بـعـدـ أـنـ ظـنـ أـنـ قـدـ كـسـبـ الـمـارـكـ كـلـهـاـ، وـصـارـ يـشـعـرـ أـنـ أـسـعـ رـجـلـ فـيـ الـخـلـيقـةـ. أـتـكـونـ السـعـادـةـ هـيـ التـيـ قـتـلـتـهـ؟ـ لـأـنـ إـسـمـاعـيلـ كـارـيـرـاـ لـمـ يـكـنـ مـعـتـادـاـ عـلـيـهـاـ.

نـزـلـاـ فـيـ المـصـدـعـ مـباـشـرـةـ إـلـىـ الـكـرـاجـ، وـخـرـجـاـ مـنـهـ بـسـرـعةـ، وـبـعـدـ جـلوـسـ رـيـغـوـبـيرـتوـ وـرـاءـ الـمـقـودـ، تـوـجـهـاـ نـحـوـ كـنـيـسـةـ سـانـتـاـ مـارـيـاـ رـيـناـ، فـيـ حـيـ سـانـ إـسـيـدـروـ، حـيـثـ سـيـنـطـلـقـ الـمـوـكـبـ إـلـىـ مـقـبـرـةـ حـدـائقـ السـلامـ، فـيـ حـيـ لـامـولـينـاـ.

- هلـ اـنـتـبـهـتـ إـلـىـ أـنـ أـيـاـ مـيـكيـ أوـ إـسـكـوبـيـتاـ لـمـ يـقـرـبـ وـلـوـ مـرـةـ وـاحـدةـ مـنـ آـرمـيدـاـ خـلـالـ السـهـرـ عـلـىـ الـجـثـمـانـ؟ـ عـلـقـتـ لـوكـريـثـياـ -ـ وـلـاـ مـرـةـ وـاحـدةـ. يـاـ لـاـ نـعـدـامـ التـقـدـيرـ. إـنـهـمـاـ شـخـصـانـ خـبـيـثـانـ حـقاـ.

لـقـدـ لـاحـظـ رـيـغـوـبـيرـتوـ ذـلـكـ، وـلـاـحـظـهـ بـالـطـبـعـ مـعـظـمـ النـاسـ الـذـينـ ظـلـواـ طـوـالـ سـاعـاتـ، حـتـىـ مـنـتـصـفـ اللـيـلـ تـقـرـيـباـ، يـمـرـونـ مـنـ حـجـرـةـ التـسـجـيـةـ

الماتمية المغطاة بالأزهار. كانت الأكاليل والباقات والصلبان وبطاقة التعزية تملأ الردهة وتنتشر في الفناء حتى تصل الشارع. هنالك أناس كثيرون يحبون إسماعيل ويحترمونه، وهما هوذا الدليل: مئات الأشخاص يودعونه. وستكون هناك أعداد مماثلة أو أكثر الآن، في موكب الجنازة، صباحاً. ولكن كان هناك في الليل، وكذلك الآن، من قالوا الأقاويل عنه لأنه تزوج من خادمته، وحتى أولئك الذين أيدوا ميكى وإسکوبیتا في القضية القضائية التي رفعها هذان الأخيران من أجل أن يُبطل القضاء ذلك الزواج. ومثلما هي حاله الحال لوكريثيا، كانت نظرات جميع من سهروا على الجثمان مرکزة على الضبعين وعلى آرمیدا. كان التوءمان اللذان يرتديان ملابس حداد صارمة، دون أن ينزععا نظارتهما السوداين، يبدوان أشبه بأوغاد الأفلام. وكان يفصل بين الأرملة وابني المتوفى أمتار قليلة، لم يحاول أي منهما اجتيازها في لحظة. بدا المشهد مضحكاً أحياناً. فآرمیدا المسرولة بالحداد من رأسها حتى قدميها، مع قبعة وخمار أسودين، تجلس على مقربة من النعش، وتحمل في يدها منديلاً ومسبحة تحرك خرزاتها ببطء بينما هي تحرك شفتتها في صلاة صامتة. وبين لحظة وأخرى تمسح دموعها. وتنهض من وقت لآخر، بمساعدة رجلين قويين، لهما ملامح قطاع الطرق، يقفنان طيلة الوقت وراءها، فتقف على قدميها، وتقترب من النعش، وتنحنن فوق الزجاج وهي تصلي أو تبكي. وتواصل بعد ذلك تقبيل التعازي من الداخلين الجدد. عندئذ يتحرك الضبعان، يقتربان من النعش ويظلان أمامه للحظات يرسمان إشارة الصليب بحزن، دون أن يديرا رأسيهما ولو مرة واحدة إلى حيث تقف الأرملة.

- هل أنت متأكد من أن الشخصين القويين اللذين لهما ملامح الملائمين، وكأنما طيلة الليل إلى جانب آرمیدا، هما حارسان شخصيان؟

- سأله لوكريثيا . يمكن لهم أن يكونوا من أقربائها . لا تسرع أكثر ، أرجوك . يكفينا ميت واحد الآن .

- إنني متأكد جداً - قال ريفوبيرتو . لقد أكذ لي ذلك كلاوديو أرنبياس . لأن محامي إسماعيل صار محاميها الآن . إنهم حارسها الشخصيان .

- ألا يبدو لك الأمر مضحكاً بعض الشيء؟ - علقت لوكريثيا . أود أن أعرف ما هي حاجة آرميدا إلى حراس شخصيين .

- إنها بحاجة إليهم الآن أكثر من أي وقت آخر - رد دون ريفوبيرتو وهو يخفف من سرعة السيارة . يمكن للضعيعين أن يتعاقدا مع قاتل مأجور ويكلفاه بقتلها . إنها أمور تحدث الآن في ليما . أخشى أن يدمر المتهكأن هذه المرأة . لا يمكنك تخيل الثروة التي ورثتها الأرملة الجديدة يا لوكريثيا .

- إذا ما واصلت قيادة السيارة على هذا النحو فسوف أنزل منها - حذرته زوجته . آه ، هذا هو السبب إذا ، ظننت في البدء أن الغورو قد أصابها وتعاقدت مع هذين الشخصين كي تضفي أهمية على نفسها وحسب .

عندما وصلا إلى كنيسة سانتا ماريا رينا ، عند منحنى غوتيريث دي سان إيسيدرو ، كان موكب الجنازة قد بدأ انطلاقه ، فانضما إلى القافلة دون النزول من السيارة . كان رتل السيارات بلا نهاية . وقد رأى دون ريفوبيرتو أن مارة كثيرين يتوقفون ويرسمون إشارة الصليب لدى مرور عربة النعش ، وفكرا : « إنه الخوف من الموت ». هو لا يتذكر أبداً أنه خاف من الموت . « حتى الآن على الأقل » ، صحق لنفسه . « مدينة ليما بأسرها موجودة هنا » .

وبالفعل ، ليما كانت هناك عن بكرة أبيها . ليما كبار رجال الأعمال ،

وأصحاب المصارف، وشركات التأمين، وشركات المناجم والصياد البحري والبناء، والتلفزيونات، والصحف، والمؤسسات العقارية والمالية، ومعهم عدد كبير من موظفي الشركة التي قادها إسماعيل إلى من قبل أسابيع قليلة، بل هنالك بعض الأشخاص المتواضعين ممن عملوا لديه أو من يدينون له بجميل قدمه إليهم. وكان هناك أيضاً ضابط عسكري بوشاح، ربما هو مرافق عسكري لرئيس الجمهورية، وزيراً الاقتصاد والتجارة الخارجية. وقد وقع حادث صغير حين أنزلوا النعش من العربة الجنائزية وحاول ميكى وإسکوبیتا أن يتصدراً الموكب. وقد توصلوا إلى ذلك لبعض ثوان فقط. فبعد أن ترجلت آرميدا من سيارتها وتأبطت ذراع الدكتور أرنبياس، يحيط بها ليس اثنان وإنما أربعة حراس شخصيين، قام هؤلاء بشق الطريق لها، دون أية اعتبارات، وأوصلوها إلى مقدمة الموكب وأبعدوا التوءمين بحزم. فما كان من ميكى وإسکوبیتا، بعد لحظة ارتباك، إلا أن تنازلاً عن المكان للأرملة واتخذا مكاناً لهما على جانبي النعش. أمسكا بالشرائط القماشية وسارا في الموكب وهما يحنيان رأسيهما. معظم الحضور كانوا رجالاً، ولكن كان هناك أيضاً عدد لا يأس به من السيدات الأنثىقات اللواتي لم يتوقفن، خلال تححدث الكاهن، عن النظر إلى آرميدا بوقاحة. لم يستطعن رؤية شيء عظيم. فهي ترتدي السواد وتضع قبعة ونظارة قائمة تغطي جزءاً كبيراً من وجهها. وكان كلاوديو أرنبياس - بحملات بنطاله متعددة الألوان المعهودة تحت سترته الرمادية - يقف إلى جانبها، بينما الحراس الشخصيون الأربعة يشكلون وراء ظهريهما جدار حماية لا يمكن لأحد اختراقه.

عندما انتهت المراسم ووضع النعش أخيراً في كوة أغلقت بلوحة رخامية تحمل اسم إسماعيل كاريلا، بحروف مذهبة، مع تاريخ ميلاده

ووفاته - لقد مات قبل ثلاثة أسابيع من إكماله الثانية والثمانين من العمر -، اقتاد الدكتور أرنبياس آرميدا بمشية أكثر اضطراباً من المعهود، بسبب تسرعه، وأوصلها ومعه الحراس الأربعة إلى المخرج، دون أن يسمحوا لأحد بالاقتراب منها. أما ريفوبيرو فرأى، بعد مغادرة الأرملة، أن ميكى وإسكوبيتا قد ظلا واقفين بجانب القبر، وأن أشخاصاً كثيرين راحوا يقتربون منها ويعانقونهما. فانصرف هو ولوكريثيا دون أن يفعل ذلك. (ففي الليلة السابقة، أثناء السهر على الجثمان، اقتربا لتقديم التعازي للتوءمين فكان الشد على الأيدي جليدياً).

- فلنمر على بيت إسماعيل - اقترحـت دونيا لوكريثيا على زوجها - ولو للحظة واحدة، لعلنا نستطيع تبادل الحديث مع آرميدا.

- حسناً، فلنحاول.

عند وصولهما إلى البيت في سان إيسيدرو فوجـئـا بعدم رؤية حشد سيارات متوقفة عند الباب. ترجل ريفوبيرتو، وأعلن عن نفسه، وبعد عدة دقائق من الانتظار أدخلـوهـما إلى الحديقة. وهناك استقبلـوهـما الدكتور أرنبياس. كان يبدو كما لو أنه قد صار يتحكم بالوضع، ولكنه لا يمسك بزمام الأمور جميعـها. ويلاحظ أنه غير واثـقـ من نفسه.

- ألف اعتذار من آرميدا - قال لهـما -. أمضـتـ اللـيلـ كلـهـ مستـيقـظـةـ، في السـهرـ علىـ الجـثـمانـ، وقدـ أجـبـرـناـهاـ الآـنـ عـلـىـ النـوـمـ. فقدـ أصـرـ الطـبـيـبـ عـلـىـ أـنـ تـسـتـرـيـحـ قـلـيلـاـ. ولكنـ تـفـضـلـاـ، فـلـنـذـهـبـ إـلـىـ صـالـةـ الـحـديـقـةـ لـتـنـاوـلـ شـرـابـاـ مـرـطـبـاـ.

انقبض قلب ريفوبيرتو قليلاً حين رأى أن المحامي يقتادـهـماـ إلىـ الحـجـرـةـ التيـ رـأـيـ فيهاـ صـدـيقـهـ آخرـ مـرـةـ، قبلـ يومـينـ.

- آرميدا تشـكرـكـماـ جـزـيلـ الشـكـرـ - قالـ لـهـماـ كـلـاـودـيوـ أـرنـبيـاسـ، بـوـجـهـ قـلـقـ؛ بيـنـماـ هوـ يـتـكـلـمـ بـصـورـةـ مـتـقـطـعـةـ، وبـجـديـةـ كـبـيرـةـ. وكانت

حَمَالَة سرواله المُهِبَّة تلمع كلما انفتحت ستّرته .. أنتما، حسب قولها، صديقا إسماعيل الوحيدان اللذان تثق بهما. فالمُسْكِنَة تشعر الآن، مثلكما يمكن لكم أن تخيلها، بأنها مهجورة لصيّرها. سوف تحتاج كثيراً إلى دعمكم.

- اغذريني يا دكتور، أعرف أن هذا ليس الوقت المناسب - قاطعه ريفوبيرو - ولكنك تعرف كل الأمور التي ظلت معلقة مع موت إسماعيل. هل لديك فكرة عما سيحدث الآن؟

هز أرنبياس رأسه مؤكداً. كان قد طلب قهوة، وكان الفنجان في يده، قريباً من فمه، ينفح عليه بتمهل. وفي وجهه بارز العظام، كانت عيناه الحادتان والماكرتان تبدوان متشكّتين.

- كل شيء يعتمد على ذلك الثنائي - تنهد نافخاً صدره - غالباً ستفتح الوصية، في مكتب الكاتب بالعدل نونيث. أنا أعرف مضمونها إلى هذا الحد أو ذاك. سوف نرى كيف سيكون رد فعل الضبعين. محاميهما شخص فاشل وسينصحهما بالتحدي وال الحرب. لا أدرى إلى أين يريdan الوصول. لقد ترك السيد كاريلا ميراثه كله عملياً لآرميدا، ولهذا يجب الاستعداد لأسوأ الاحتمالات.

هز كتفيه مستسلماً لما لا مفر منه. وافتراض دون ريفوبيرو أن ما لا مفر منه هو أن يرفع التوءمان صراخهما إلى عنان السماء. وفكري في تناقضات الحياة الاستثنائية: واحدة من أفق نساء البيرو تحول، بين ليلة وضحاها، إلى واحدة من أثري الثريات.

- أ ولم يقدم لهما إسماعيل مسبقاً حصتها من الميراث؟ - تذكر - . لقد فعل ذلك عندما اضطر إلى طردّهما من الشركة بسبب الاحتيالات التي كانوا يقومان بها، إنني أتذكر ذلك جيداً. لقد أعطى لكل منها مبلغاً كبيراً من المال.

- ولكن بطريقة غير رسمية، بواسطة رسالة فقط - عاد الدكتور أرنبياس إلى تجعيد جبينه ورفع كتفيه وإنزالهما، بينما هو يعيد ترتيب وضع نظارته - لم تكن هنالك أية وثيقة رسمية ولا قبول رسمي من جانبهما. يمكن لهذا الأمر أن يُرد قانونياً، وهو ما سيحدث دون ريب. ولدي شك كبير في أن يستسلم التوeman. أخشى أن يستمر النزاع لوقت طويل.

- فلتحاول آرميدا إعطاءهما شيئاً كي يتراکاها بسلام - اقترح دون ريفوبيرتو - فأسوأ الأمور بالنسبة إليها هي المحاكمة طويلة الأمد. لأنها تستمر لسنوات ويستولى المحامون على ثلاثة أرباع الأموال... آي، المعدرة يا دكتور، هذا غير موجه إليك شخصياً، إنه مجرد مزاح. أشكرك على ما يتعلّق بي - ضحك المحامي أرنبياس وهو ينهض واقفاً - أوقفك الرأي، أوقفك. فالتوصل إلى صفقة هو الأفضل على الدوام. فلنر من أي وجهة سيتم تناول هذه القضية. وسابقيك على اطلاع طبعاً.

- وهل سأظل عالقاً في هذه المشكلة أيضاً؟

- سنحاول ألا تكون كذلك طبعاً - طمأنه المحامي نصف طمأنينة - الدعوى القضائية ضدك لم يعد لها أي مغزى الآن، بعد وفاة دون إسماعيل. ولكن لا يمكن أن نعرف أبداً ما الذي قد يخطر لقضاتنا. سأتصل بك فور حصولي على أية مستجدات.

في الأيام الثلاثة التالية لوفاة إسماعيل كارييرا ظل ريفوبيرتو مشلولاً بسبب انعدام اليقين. اتصلت لوكريثيا عدة مرات بآرميدا، ولكن هذه الأخيرة لم ترد على الهاتف قط. كان يرد عليها صوت أنثوي، يبدو أقرب إلى صوت سكريتيرة منه إلى صوت عاملة منزليّة. السيدة كارييرا تستريح، وهي تفضل في هذه الظروف، ولأسباب جلية، ألا تستقبل

زيارات؛ سأبلغها الرسالة بكل تأكيد. ولم يستطع ريفوبيرو كذلك الاتصال بالدكتور أرنبياس. فهو غير موجود في مكتبه ولا في بيته أبداً؛ فقد خرج للتو أو أنه لم يأت بعد، أو يعقد اجتماعات باللغة الأهمية، وسوف يرد على المكالمة فور توفر لحظة فراغ له.

ما الذي يحدث؟ ماذا جرى؟ هل فتحت الوصية؟ ما الذي سيكون عليه رد فعل التوءمين حين يعلمان أن إسماعيل قد عين آرميدا وريثة وحيدة له؟ سوف يطعنان بالوصية، وسيعتبرانها باطلة لأنها تخرق قوانين البيرو التي تشترط الثالث الإجباري للأبناء. ولن تعرف العدالة بحصة الميراث التي قدمها إسماعيل مسبقاً إلى التوءمين. أبيطل ريفوبيرو عالقاً في إجراءات الضبعين القانونية؟ هل سيستمران في التمادي؟ هل سيسندوا مجدداً أمام ذلك القاضي الفظيع، في ذلك المكتب الذي يوحى برهاب الأمكنة المغلقة؟ ألن يمكن من الخروج من البيرو ما لم يتم التوصل إلى حل للنزاع القضائي؟

يلتهم الصحافة ويستمع إلى كافة نشرات الأخبار الإذاعية والتلفزيونية، غير أن القضية لم تصبح خبراً بعد، إنها ما تزال مودعة في مكاتب تنفيذ الوصيات والمدعين العامين والمحامين. كان ريفوبيرو يعتكف في مكتبه، يشحذ ذهنه محاولاً أن يتنبأ بما يحدث في تلك المكاتب الوثيرة. لم يكن يجد الحماسة لسماع الموسيقى - حتى موسيقى محبوبه مالير تسبب له قشعريرة في أعصابه -، ولا يستطيع التركيز على كتاب، ولا تأمل صور لوحاته والاستغراق في تخيلاته. ويقاد لا يأكل سوى لقيمات قليلة. لا يتبادل مع فونتشيتو ودونيا لوكريشيا أكثر من كلمات صباح الخير ومساء الخير. لا يخرج إلى الشارع خشية أن ينقض عليه الصحفيون دون أن يدرى ما الذي يرد به على أسئلتهم. وقد اضطر، خلافاً لكل احتياطاته، إلى أن يلجمأ إلى المنومات الكريهة.

وأخيراً، في اليوم الرابع، وفي وقت مبكر جداً، حين كان فونتشيتو قد غادر للتو ذاهباً إلى المدرسة، وكان ريفوبيرتو ولوكريثيا لا يزالان بثياب النوم ويجلسان لتناول الفطور، حضر إلى البيت في حي بارانكو المحامي كلاوديو أرنبياس. كان يبدو كما لو أنه الناجي الوحيد من كارثة. وكانت حول عينيه دوائر زرقاء عميقية تشي بأرق طويل، ولحية نامية كأنه نسي حلقتها خلال الأيام الثلاثة الأخيرة، وتكشف ملابسه عن إهمال مفاجئ فيه، هو الذي يخرج على الدوام جيد الملبس والهندام: ربطة العنق منحرفة، ياقه القميص مجعدة جداً، إحدى حمالتي البنطال مفلترة والحذاء غير ملمع. صافحهما، اعتذر لمجيئه المفاجئ، وفي هذا الوقت المبكر، ووافق على تناول فنجان قهوة. وفور جلوسه إلى المنضدة، كشف عن سبب مجيئه:

- هلرأيتما آرميدا؟ هل تحدثتما معها؟ أتعرفان أين هي؟ إنني بحاجة إلى أن تكونا صريحين معي. من أجل مصلحتها ومصلحتكم بالذات.

كان دون ريفوبيرتو ودونيا لوكريثيا يحركان رأسيهما نافيين وينظران إليه بغمتين مفتوحين. انتبه الدكتور أرنبياس إلى أن أسئلته قد سببت الذهول لصاحبِي البيت، وبدا أن ذلك قد زاده غماً.

- أرى أنكما في السحاب ولا تعرفان شيئاً، مثلي - قال - . أجل، لقد اختفت آرميدا.

- الضبعان... - تلعم ريفوبيرتو بشحوب. تخيل الأرملة المسكينة مخطوفة وربما مقتولة، وجثتها ملقاة في البحر لأسماك القرش، أو في مزبلة خارج المدينة كي تتولى أمرها نسور الرخمة والكلاب الشاردة.

- لا أحد يعرف أين هي - تهادى الدكتور أرنبياس على الكرسي منهاراً - . لقد كنتما أملِي الأخير.

كانت آرميدا قد اختفت منذ أربع وعشرين ساعة، وبطريقة غريبة جداً. فبعد أن أمضت فترة الصباح كلها في مكتب الكاتب بالعدل نونيث، في مواجهة مع ميكي وإسكونبيتا ومحامي هذين الآخرين، إضافة إلى أرنبياس ومحاميين أو ثلاثة محامين من مكتبه. عُلق الاجتماع في الساعة الواحد، من أجل الغداء، وكان يجب أن يتجدد اللقاء في الرابعة مساء. رجعت آرميدا مع سائقها وحراسها الشخصيين الأربع إلى بيتها في سان إيسيدرو. قالت إنها لا تشعر برغبة في تناول الطعام؛ وإنها ست NAME قليلة قصيرة كي تكون مستريحه في لقاء المواجهة المسائي. انزوت في حجرتها، وفي الساعة الرابعة إلا ربعاً، حين طرقت العاملة المنزلية بابها ودخلت، كانت حجرة النوم خاوية. لم ير أحد خروجها من الحجرة ولا من البيت. كانت حجرة النوم لا تزال مرتبة تماماً - الفراش مرتب - ودون أي أثر للعنف. لم يرها أحد من الحراس الشخصيين الأربع، ولا كبير الخدم، ولا الخادمتان اللتان كانتا في البيت، ولم يلحظوا كذلك وجود أي شخص غريب يجول في محيط المكان. بحث الدكتور أرنبياس فوراً عن التوءمين، مقتنعاً من أنهما سيكونان المسؤولين عن اختفائهما. ولكن ميكي وإسكونبيتا اللذين أخافهما الحدث، رفعا صوتيهما إلى عنان السماء باتهام أرنبياس بنصب شرك لهما. وفي النهاية توجه الثلاثة معاً لتقديم تقرير إلى الشرطة. وقد تدخل وزير الداخلية شخصياً، وأصدر تعليمات بأن يتم التزام الصمت حالياً. وعدم توجيه أي بيان إلى الصحافة قبل أن يتصل الخاطفون بالأسرة. كانت هنالك حالة تعبئة عامة، ولكن دون أدنى إشارة إلى آرميدا أو الخاطفين حتى الآن.

- إنهم هما، الضبعان - أكدت دونيا لوكريثيا -. لقد اشتريا الحراس الشخصيين والسائق والخادمتين. إنهم هما، طبعاً.

- هذا ما ظننته أنا في أول الأمر يا سيدتي، ولكنني لم أعد متأكداً من ذلك - أوضح الدكتور أرنيبياس -. من غير المناسب لهما بأي حال أن تختفي آرميدا، ولاسيما في هذا الوقت بالذات؛ فالمحادثات في مكتب الكاتب بالعدل نونيهيت لم تكن تمضي بصورة سيئة. كنا قد بدأنا بوضع مخطط اتفاق، وكان يمكن لهما أن يتلقيا شيئاً إضافياً من التركة. وكل شيء يعتمد على آرميدا. كان إسماعيل قد ترك الأمور محكمة باتفاقه. فالكتلة الكبرى من الميراث محفوظة في أصول في الخارج، في أكثر الجنان الضرائبية أمّا على كوكب الأرض. وإذا ما اختفت الأرملة فلن يتلقى أحد سنتاً واحداً من الثروة. لا الضبعين ولا الموظفين في البيت ولا أحد. بل لن أتمكن أنا نفسي من تقاضي أتعابي. وهكذا فإن الأمور قد تحولت إلى اللون الرمادي.

أبدى ملامح حزن وخذلان مضحكة لم يتمكن ريفوبيرتو معها من كبح ضحته.

- أيمكنني أن أعرف ما الذي يضحكك يا ريفوبيرتو؟ - كانت دونينا لوكريثيا تنظر إليه باستحياء -. هل يبدو لك أن هنالك شيئاً كوميدياً في هذه المأساة؟

- أنا أعرف سبب ضحكك يا سيد ريفوبيرتو - قال الدكتور أرنيبياس -. لأنك تشعر بالتحرر. فالقضية المرفوعة ضد زواج إسماعيل لم تعد صالحة. ستكون ملغاً. وما كان ليكون لهذه القضية، على أي حال، أدنى تأثير على الميراث، لأن الأموال، كما قلت لك، ليست في متناول القضاء البيروي. وليس بالإمكان عمل أي شيء. إنها أموال آرميدا. وسوف تتقاسمها هي والخاطفون. أتلاحظون ذلك؟ إنه أمر مضحك طبعاً.

- بل الكلام الأدق، إن الأموال ستبقى بين أيدي بنوك سويسرا

وسنغافورة - أضاف ريفوبيرتو مبدئياً ملامح الجدّ - إنني أضحك من البلاهة التي ستكون عليها نهاية هذه القصة إذا ما جرت الأمور على هذا النحو يا دكتور أرنبياس.

- أيعني هذا أننا نحن قد تحررنا من هذا الكابوس؟ تساءلت دونيا لوكريثيا.

- بصورة مبدئية، أجل - وافق أرنبياس - اللهم إلا إذا كنتم أنتم من اختطفتم أو قتلتم الأرملة المليارديره.

وسرعان ما ضحك هو نفسه أيضاً، بقهقة هستيرية، مدوية، قهقة خالية من أدنى قدر من السعادة. أخرج نظارته، مسحها بقطعة قماش قطنية، رتب هندامه قليلاً، ثم استعاد وقاره مجدداً ودمدم: «ضحك من أجل عدم البكاء، كما يقول المثل». نهض واقفاً وودعهما مع الوعد بأن يبقيهما على اطلاع. وإذا ما حصل على أي خبر - وهو لا يستبعد أن يتصل الخاطفون بهما - عليهما الاتصال به على هاتفه المحمول، في أي ساعة من النهار أو الليل. أما المفاوضات بشأن الفدية فسوف تتولاها «كونتrol ريسك»، وهي شركة متخصصة مقرها نيويورك.

ما إن غادر доктор أرنبياس حتى انفجرت لوكريثيا بالبكاء. حاول ريفوبيرتو تهدئتها دون جدوى. كانت ترتعش منتحبة، والدموع تتدحرج على خديها، بينما هي تهمس: «يا للمسكينة، يا للمسكينة. لقد قتلها، لقد قتلها الوغدان، ومن سواهما. أو أنهما أرسلان يختطفها كي يسرقا منها كل ما خلفه إسماعيل». جاءتها خوستينيانا بكأس ماء مع قطرة من إكسير مهدئ، هدا من روعها أخيراً. ظلت في الصالة ساكنة وصامتة. تأثر دون ريفوبيرتو وهو يرى امراته في ذلك القنوط. إن لوكريثيا على حق. فمن المحتمل جداً أن يكون التوءمان وراء

هذه المسألة؛ لأنهما أكثر المتضررين، ولا بد أن جنوناً قد أصابهما من فكرة ضياع الميراث كله من أيديهما. رباه، يا للقصص التي تدبرها الحياة اليومية. ليست أعمالاً بارعة، بل أقرب إلى المسلسلات التلفزيونية الطويلة الفنزويلية والبرازيلية والكولومبية والمكسيكية التي تدين بأصولها إلى ثربانتس وتولستوي. ولكنها ليست بعيدة عن ألكسندر دوماس أو إميل زولا أو ديكنز أو بيريت غالدوس.

كان يشعر بالتشوش وانحطاط المعنويات. من الجيد طبعاً أنه قد أزاح عن كاهله تلك الشكوى القضائية. وفور التأكد من ذلك، سوف يجدد تذاكر السفر إلى أوروبا. أجل. يجب وضع بحر محيط بينهم وبين هذه الميلودrama. والذهاب إلى حيث اللوحات، المتاحف، أعمال الأوبرا، الحفلات الموسيقية، المسرح رفيع المستوى، المطاعم الفاخرة. أجل. مسكينة آرميدا، بالفعل: كانت قد خرجم من الجحيم، وعرفت بداية النعيم ثم عادت مجدداً إلى لهيب جهنم. إنها مخطوفة أو مقتولة. أمران كل منهما أسوأ من الآخر.

دخلت خوستينيانا إلى غرفة الطعام بلامتح ضيق شديدة. بدت حائرة.

- ما الذي جرى؟ سألهما ريفوبيرتو. وبدت لوكريثيا كما لو أنها تستيقظ من نوم قرون، ففتحت عينيها المبللتين من البكاء على اتساعهما.

- لا يكون نرسيس قد أصيب بالجنون؟ - قالت خوستينيانا وهي تضع إصبعاً على صدغها. إنه في حالة غريبة جداً. لا يريدني أن أذكر اسمه، ولكنني تعرفت عليه. يبدو خائفاً جداً. يريد التكلم معك يا سيدتي.

- حولي المكالمة إلى حجرة المكتب يا خوستينيانا.

خرج مسرعاً من غرفة الطعام باتجاه المكتب. كان واثقاً من أن هذه المكالمة تحمل له أخباراً سيئة.

- ألو، ألو - قال في سماعة الهاتف مهياً نفسه للأسوأ.

- أنت تعرف مع من تتكلم، أليس كذلك؟ - رد عليه صوتٌ تعرف عليه فوراً - لا تنطق اسمي، أرجوك.

- حسن، كما تشاء - قال ريفوبيرتو - أيمكنني أن أعرف ما الذي جرى لك؟

- يجب أن أراك بصورة مستعجلة - قال نرسيس مرعوباً ونذقاً - متأسف لإزعاجك، ولكن الأمر مهم جداً يا سيدي.

- أجل، طبعاً، بكل تأكيد - كان يفكر، بحثاً عن مكان اللقاء - هل تتذكر أين تناولنا الغداء آخر مرة مع رب عملك؟

- أتذكر ذلك جيداً. قال السائق بعد صمت قصير.

- انتظري هناك خلال ساعة بالضبط. سأمر لأخذك بالسيارة. إلى اللقاء.

حين رجع إلى غرفة الطعام ليخبر لوكريثيا بمكالمة نرسيس، وجد ريفوبيرتو زوجته وخوستينيانا ملتصقين بالتلفزيون. تستمعان وتنتظران كالمنومتين إلى الصحفي النجم في قناة الأخبار ر.ب.ب. راؤول بارغاس الذي كان يقدم تفاصيل، ويخرج بافتراضات وتخمينات، حول الاختقاء الغامض يوم أمس للسيدة آرميدا دي كاريلا، أرملة رجل الأعمال المعروف، دون إسماعيل كاريلا المتوفى حديثاً. أوامر وزير الداخلية بعدم إذاعة الخبر لم تفدي شيئاً. لا بد أن البيرو بأسرها ستكون الآن، مثلهما، تتتابع هذا الخبر المستجد. وسيكون لدى أهالي ليما ما يتسلون به بعض الوقت. وقف يستمع إلى راؤول بارغاس. كان يقول ما يعرفونه تقريباً: اختفت السيدة يوم أمس، عند العصر، بعد مثول في مكتب

الكاتب بالعدل نونيث لفتح وصية الزوج المتوفى. وكان من المقرر أن يُستكمل ذلك الاجتماع في المساء. اختفاء السيدة جرى خلال الاستراحة بين الاجتماعين، وقد احتجزت الشرطة جميع العاملين في البيت، وكذلك أربعة حراس شخصيين للأرمدة، من أجل استجوابهم. لا يوجد أي إثبات بأن في الأمر عملية اختطاف، ولكن هذا هو المتوقع. وتقدم الشرطة رقم هاتف خاص، لكل من رأى السيدة أو لديه أخبار عن مكان وجودها. عرض صوراً لآرميدا ولجنازة إسماعيل، مذكراً بالفضيحة التي مثلها زواج رجل الأعمال الثري من خادمته المنزلية السابقة. وأعلن أن ابني المتوفى قد نشرا بياناً يقولان فيه إنهم يعرّبان عن حزنهم لما حدث، ويأملان في أن تظهر السيدة سليمة ومعافاة. ويعرضان مكافأة لمن يساعد في العثور عليها.

- قطع الصحافة بأسره سيسعى الآن لإجراء مقابلات معى. قال ريفوبيرتو لاعناً.

- لقد بدؤوا - وجهت إليه خوستينيانا الطعنة - فقد اتصلوا من إذاعتين ومن جريدة حتى الآن.

- من الأفضل قطع الهاتف. أمرها ريفوبيرتو.

- ما الذي يريد نرسيس؟ سأله دونيا لوكريثيا.

- لا أدرى، لاحظت أنه خائف جداً بالفعل - قال موضحاً - لا بد أن الضبعين قد فعلوا له شيئاً ما. سوف أذهب للقاء به الآن. لقد حددنا موعداً للقاء كما في الأفلام، دون أن نذكر اسم المكان. ربما لن نتمكن من اللقاء أبداً.

استحم ونزل مباشرة إلى المراقب. وحين انطلق في السيارة رأى أمام مدخل البناء، حيث بيته، صحفيين مرابطين ومعهم كاميرات فوتografية. وقبل أن يتوجه إلى مطعم «روسا ناوتيكا»، حيث تناول

الغداء آخر مرة مع إسماعيل كاريرا، قام بعدة جولات في شوارع حي ميرافلوريس كي يتأكد من أن أحداً لا يتبعه. ربما يكون نرسيس قد تعرض لمشاكل مالية. ولكن هذا ليس سبباً لأن يتخذ كل تلك الاحتياطات ويخفي شخصيته. أو ربما لديه سبب ما. حسن، سأعرف الآن ما الذي جرى له. دخل إلى مرآب المطعم، ورأى نرسيس يظهر من بين السيارات. فتح له الباب، فصعد الزنجي وجلس بجانبه: «صباح الخير يا دون ريناتو. اعذرني لما سببته لك من إزعاج».

- لا تقلق يا نرسيس. هلم بنا للقيام بجولة حول المكان وبهذا يمكننا أن نتحدث باطمئنان.

كان السائق يضع قبعة زرقاء غاطسة حتى عينيه، وبدا أنحف مما كان عليه منذ اللقاء به آخر مرة. توجه ريناتو عبر الشاطئ الأخضر باتجاه بارانكو وتشوريوس منضماً إلى رتل كثيف من السيارات.

- لابد أنك قد رأيت كيف أن مشاكل إسماعيل لا تتوقف حتى بعد موته - علق أخيراً -. ولا بد أنك علمت بأن آرميدا قد اختفت، أليس كذلك؟ يبدو أنها قد اختطفت.

ولأنه لم يلْقَ جواباً، ولم يسمع سوى تنفس السائق الجزع، فقد وجه نظرة سريعة إليه. كان نرسيس ينظر إلى الأمام بضمور مزدوج وفي حدقيه بريق فزع. وقد شبك يديه وراح يشدهما بقوه.

- هذا بالضبط ما أريد التحدث معك عنه يا دون ريناتو - غمغم وهو يعاود النظر إليه ويزكي عينيه عنه في الحال.

- أتعني عن اختفاء آرميدا؟ - التفت دون ريناتو إليه مرة أخرى. واصل سائق إسماعيل凝视 إلى الأمام، ولكنه هز رأسه مؤكداً مرتين أو ثلاث مرات.

- سأدخل إلى نادي ريفاتاس وأتوقف بالسيارة هناك كي نتحدث

بهدوء. وإنني سوف أتسبب في تصادم - قال ريفوبيرتو.

دخل إلى النادي وتوقف في صف السيارات الأول مقابل البحر. كان صباحاً رمادياً وضبابياً، وكان هناك الكثير من النوارس والبط والقطرس تحلق في الهواء وتزعق. وفتاة نحيلة جداً ترتدي بيجامة رياضية وتمارس يوغا على الشاطئ المقرن.

- لا تقل لي إنك تعرف من هم الذين خطفوا آرميدا يا نرسيس. كان السائق هو الذي التفت الآن لينظر إلى عينيه ثم ابتسם فاتحاً فمه. بدأ بريق أسنانه ناصعة البياض.

- لم يختطفها أحد يا دون يغوبيرتو - قال مبدياً الجدّ - وهذا الموضوع بالذات هو الذي أريد أن أكلمك بشأنه، لأنني أشعر بشيء من العصبية. ما أردته هو تقديم معروف لآرميدا وحسب، أعني السيدة آرميدا. لقد كنا صديقين جيدين حين كانت مجرد عاملة لدى إسماعيل. وكانت علاقتي بها على الدوام أفضل من علاقتي بالعاملين الآخرين. لم تكن متكبرة، بل بسيطة جداً. وإذا ما طلبت مني معرفة باسم صداقتنا القديمة، فكيف يمكن لي أن أرفض تلبية طلبها. أما كنت حضرتك ستفعل الشيء نفسه؟

- سأطلب منك أمراً يا نرسيس - قاطعه ريفوبيرتو - من الأفضل أن تخبرني بكل شيء، من البداية. دون أن تننسى أي تفصيل. أرجوك. ولكنني أريد أن أعرف شيئاً واحداً قبل ذلك. هي حية إذا؟

- إنها حية مثلّي ومثلّك يا دون ريفوبيرتو. أو أنها كانت كذلك حتى يوم أمس على الأقل.

وعلى عكس ما طلبه منه، لم يتوجه نرسيس إلى لب المسألة فوراً. فهو محظوظ للديباجات والخدمات والاستطرادات الجانبية واللف والدوران والجمل الاعتراضية، أو أنه لا يستطيع تجنبها. فلم يكن من

السهل على دون ريفوبيرتو أن يعيده دوماً إلى التسلسل الزمني للوقائع وإلى صلب الموضوع. كان نرسيس يتبعه في تفاصيل وتعليقات عرضية. ومع ذلك، عرف ريفوبيرتو بطريقة مشوّشة وملتوية أنه في اليوم الذي رأى فيه إسماعيل آخر مرة في بيته بسان إيسيدرو، كان نرسيس هناك أيضاً في المساء، عند الغروب، إذ استدعاه إسماعيل كاريرا. وقد شكره كل من إسماعيل وأرميدا كثيراً على مساعدته لهما ووفائه، وكفاه بسخاء. ولهذا، حين علم في اليوم التالي بموت رب عمله المفاجئ، هرع مسرعاً للتقديم تعزيزه للسيدة. بل إنه حمل معه رسالة ليتركها لها لأنّه كان شبه واثق من أنها لن تستطيع استقباله. غير أنّ آرميدا طلبت منه الدخول وتبادلت معه بعض الكلمات. لقد كانت المسكينة محطمة من تلك النكبة التي أصابها الله بها ليختبر صلابتها. وفي لحظة وداعها، فوجئ نرسيس بسؤالها له عما إذا كان لديه هاتف محمول يمكنها الاتصال به. فأعطتها الرقم متسللاً باستغراب عن السبب الذي يمكن لها أن تتصل به من أجله.

بعد يومين من ذلك، أي قبل أول أمس، اتصلت به السيدة آرميدا، في وقت متأخر من الليل، حين كان نرسيس قد انتحر من رؤية برنامج مجيالي ميديانا في التلفزيون، وذهب ليندس في الفراش.  
- يا لها من مفاجأة، يا للمفاجأة. قال السائق حين تعرّف على صوتها.

- لقد كنت أكلّمها دون كلفة على الدوام - أوضح نرسيس لدون ريفوبيرتو -. ولكن منذ زواجها من دون إسماعيل، لم يعد بإمكانني فعل ذلك. غير أنّ كلمة حضرتك لم تكن تخرج معي. لذلك كنت أحاول التحدث إليها بصيغة الغائب، لا أدرى إن كنت تفهموني.  
- أفهمك تماماً يا نرسيس - ووجهه ريفوبيرتو -. تابع، تابع. ما

الذى كانت تريده منك آرميدا؟

- أريد منك أن تقدم لي معروفاً كبيراً يا نرسيس، جميلاً آخر كبيراً جداً. أطلبه منك مرة أخرى بسبب صداقتنا القديمة.

- طبعاً، طبعاً، بكل سرور - قال لها السائق - وما هو هذا الجميل؟

- أن توصلني إلى مكان معين، غداً مساء. دون أن يعلم أحد بالأمر. هل أنت قادر على ذلك؟

- وإلى أين أرادت أن توصلها؟ - استعجله دون ريفوبيرتو.

- إنه من أشد الأمور غرابة - انحرف نرسيس بالكلام مرة أخرى - لا أدرى إن كنت تتذكر، ولكن وراء الحديقة، بالقرب من غرفة العاملين، هناك في بيت دون إسماعيل باب صغير للخدم يؤدي إلى الشارع، يكاد لا يستخدم مطلقاً. إنه يطل على زقاق ومنه يخرجون القمامنة في الليل.

- أرجوك ألا تبتعد عما هو جوهري يا نرسيس - ألح ريفوبيرتو - ألا يمكنك أن تخبرني بما كانت تريده منك آرميدا؟

- أرادت مني أن أنتظرها هناك، بسيارتي القديمة، طيلة المساء. إلى أن تظهر هي. دون أن يراني أحد. أمر غريب، أليس كذلك؟

بدا الأمر غريباً جداً لنرسيس. ولكنه فعل ما طلبته هي منه، دون مزيد من الأسئلة. ومع بداية مساء البارحة، أوقف سيارته في ذلك الزقاق قبالة باب الخدمة في بيت دون إسماعيل. انتظر نحو ساعتين وهو يكاد يموت من الصجر، وكان يغلبه النعاس للحظات، ويستمع إلى نكات من المذيع في لحظات أخرى، أو يتأمل الكلاب الشاردة وهي تنبعش أكياس القمامنة، ويتساءل مرة بعد أخرى عما يعنيه كل ذلك. لماذا تتخذ آرميدا كل تلك الاحتياطات من أجل الخروج من البيت؟ لماذا لا تخرج من البوابة الكبيرة، بسيارتها المرسيدس بنز، ومع سائقها

الجديد ذي الزي الخاص وحراسها الشخصيين ذوي العضلات المفتولة؟  
لماذا تريد الخروج خفية في سيارة نرسيس العتيقة؟ وأخيراً انفتح الباب  
الصغير وظهرت آرميدا وبيدها حقيبة صغيرة.

- ما هذا، ما هذا، كنت قد بدأت أفكرا بالانصراف - قال لها  
نرسيس على سبيل التحية، وفتح لها باب سيارته المتهالكة.  
- انطلق بسرعة يا نرسيس، قبل أن يرانا أحد - أمرته - بل طر  
طيراناً.

- كانت مستعجلة جداً يا سيدى - أوضح السائق - عندئذ بدأت  
أقلق. أيمكنني أن أعرف ما سبب كل هذه السرية يا آرميدا؟

- ما هذا، أراك عدت إلى مناداتي بآرميدا ورفع الكلفة معى - قالت  
ضاحكة - كما في الأزمنة القديمة. أحسنت صنعاً يا نرسيس.

- أعتذر ألف مرة - قال السائق - أعرف أنه على أن أكلمك باحترام  
بعد أن صرت الآن سيدة عالية المقام.

- دعك من البلاهات وحدثني بلا تكلف وحسب، لأنني مازلت أنا  
نفسى مثلما كنت على الدوام - قالت - لست سائقى، بل أنت صديقى  
ورفيقى. أتدري ما الذى كان يقوله إسماعيل عنك؟ «هذا الزنجي يساوى  
وزنه ذهباً». إنها الحقيقة الخالصة. إنك تساوى ذلك يا نرسيس.

- أخبريني على الأقل إلى أين تريدين أن أوصلك - سألها.

- إلى محطة حافلات كروث دي تشايلبون؟ - قال ريعوبيرتو مذهبلاً  
- أكانت تريد السفر؟ أكانت آرميدا تريد ركوب حافلة يا نرسيس؟

- لا أدري إذا ما فعلت ذلك، ولكننى تركتها هناك - أكد السائق -  
في تلك المحطة. لقد قلت لك إنها كانت تحمل حقيبة صغيرة. يخيل  
إلي أنها كانت مسافرة. طلبت مني ألا أوجه إليها أسئلة، فلم أوجه  
أسئلتها.

- من الأفضل أن تنسى هذا كله يا نرسيس - كررت آرميدا وهي تصافحه مودعة - من أجلني ومن أجلك أنت على السواء. هنالك أشرار ي يريدون إلحاق الأذى بي. أنت تعرف من هم. ويريدون الأذية لكل أصدقائي. أنت لم ترني، ولم تجئ بي إلى هنا، ولا تعرف أي شيء عنّي. لا أستطيع أن أرد لك جميلاً هذا طيلة حياتي يا نرسيس.

- لم أستطع النوم طيلة هذه الليلة - أضاف السائق -. كانت الساعات تمر وأنا أزداد خوفاً، مثلما أقول لك، كنت أخاف أكثر فأكثر. بعد كل الرعب الذي سببه لي التوءمان، يأتي الآن هذا الخوف. لهذا اتصلت بك يا دون ريفوبيرتو. وما إن أنهيت مكالمتي معك حتى سمعت في تلفزيون ر.ب.ب. أن السيدة آرميدا قد اختفت، أنها قد اختطفت. لهذا ما زلت أرجف حتى الآن.

ربت دون ريفوبيرتو على كتفه.

- أنت طيب جداً يا نرسيس، ولهذا أنت خائف جداً. لقد أدخلت نفسك الآن مجدداً في ورطة كبيرة. أخشى أنه سيكون عليك أن تذهب إلى الشرطة وتروي لهم هذه القصة.

- لن أفعل ذلك ولو مت يا سيدي - أجابه السائق بتصميم -. لا أدرى أين ذهبت آرميدا ولا لماذا ذهبت. وإذا ما أصابها شيء سيبحثون عن مذنب. وأنا المذنب المناسب لهم تماماً، لاحظ ذلك. سائق سابق بدون إسماعيل، متواطئ مع السيدة. ومن أجل أن تكتمل القضية: زنجي. لست مجنوناً كي أذهب بنفسي إلى الشرطة.

«كلام دقيق»، فكر دون ريفوبيرتو. إذا لم تظهر آرميدا، سيكون على نرسيس أن يدفع ثمن الأطباق المكسرة.

- حسن، ربما تكون على حق - قال -. لا تخبر أحداً بما قلته لي. دعني أفكر. سأرى بماذا يمكنني أن أنصحك بعد أن أقوم بتقليل الأمر

والتمعن فيه. أضف إلى ذلك أنه يمكن لآرميدا أن تعود للظهور في أي لحظة. اتصل بي غداً، مثلما اتصلتاليوم، في موعدتناول الفطور. أوصل نرسيس إلى مرأب «روسا ناوتيكا» ورجع إلى بيته في بارانكو. دخل مباشرة إلى المراقب، كي يتتجنب الصحفيين الذين مازالوا يتجمعون أمام مدخل العمارة. وقد صار عددهم ضعف ما كانوا عليه.

كانت دونيا لوكريثيا وخوستينيانا لا تزالان تتبعان التلفزيون، تستمعان إلى الأخبار بملامح ذاهلة. وقد استمعتا إلى روايته فاغرتني القم. - أغنى امرأة في البيرو تهرب بحقيقة يدوية صغيرة، وفي حافلة بائسة مثل أي صعلوك متشرد، بدون وجهة محددة - أنهى دون ريفوبيرتو روايته - المسلسل الطويل لا ينتهي، إنه يتواصل ويتعقد أكثر فأكثر كل يوم.

- أنا أفهمها جيداً - هتفت لوكريثيا - لقد كانت ضحرة من كل شيء، من المحامين، من الصحفيين، من الضبعين، من النمامين. أرادت أن تتوارى عن الأنظار. ولكن أين؟

- وأين سيكون إلا في بيورا - قالت خوستينيانا واثقة مما تقول -. فهي بيورانية ولها أخت هناك تدعى خيرترووديس، على ما أظن.

## XVII

«لم تبكِ ولو مرة واحدة»، فكر فيليثيتو ياناكيه. بالفعل، ولا مرة واحدة. لكن خيرتروديس صارت بكماء. لم تعد إلى فتح فمها بكلمة واحدة، معه على الأقل، ومع ساتورنينا، الخادمة. ربما كانت تتكلم مع اختها آرميدا التي استقرت، منذ مجئها إلى بيورا، في الغرفة التي كان ينام فيها تيبورثيو وميفيل حين كانوا طفلين وشابين قبل أن يغادرا ليعيشَا وحدهما.

خيرتروديس وآرميدا ثمضيان ساعات طويلة هناك، ومن المحال إلا تكونا قد تبادلتا الكلام طوال ذلك الوقت. ولكن خيرتروديس أصيّبت بالبكّ منذ مساء أول أمس، حين رجع فيليثيتو من عند التقى آديلايدا وأخبر زوجته بأن الشرطة قد اكتشفت أن عنكبوت الابتزاز هو ميفيل، وأن ابنتها قد اعتُقلَت واعترف بكل شيء. لم تعد إلى فتح فمها أمامه. (لم يذكر لها فيليثيتو طبعاً أي شيء عن مابيل). لقد تأجّجت عينا خيرتروديس وسيطر عليهما الغم، أجل، وشابت يديها كمن تصلي. وبهذا الوضع كان يراها فيليثيتو كلما التقى معاً خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة. وبينما هو يختصر لها القصة التي أخبرته بها الشرطة، مخفياً عنها طيلة الوقت اسم مابيل، لم تسأله زوجته عن أي شيء، ولم تعلق بأي شيء، ولم تجب على الأسئلة القليلة التي وجهها إليها. ظلت جالسة هناك، في العتمة الظلليلة بحجرة التلفزيون، صامتة،

منطوية على نفسها مثل قطعة أخرى من قطع الأثاث، تنظر إليه بتينك العينين اللامعتين والمشككتين، وبعيدين متشابكتين، مثل معبد وثنى. بعد ذلك، حين نبهها فيليثيتو إلى أن الخبر سينتشر عما قريب، وسوف يتواجد الصحفيون كالذباب إلى البيت، وعليها ألا تفتح الباب ولا أن ترد في الهاتف على أسئلة أي صحيفة أو إذاعة أو تلفزيون، نهضت واقفة، دون أن تنطق بأي كلمة، وذهبت لتعتكف في حجرة أختها. لفت انتباها فيليثيتو أن خيرتروديس لم تحاول الذهاب فوراً لرؤيه ميغيل في مفوضية الشرطة أو السجن. وكذلك صفتها. هل إضراب الصمت هذا يقتصر عليه هو؟ لا بد أنها قد تحدثت مع آرميدا، لأن هذه بدت في الليل وخلال العشاء مطلعة على ما حدث.

- يؤسفني جداً مجئي لإزعاجكم في هذه اللحظات باللغة الصعوبة عليكم - قالت له السيدة الأنique التي كان يقاوم فكرة دعوتها بابنة حمييه بينما هي تمد إليه يدها -. لم يكن لدي مكان أذهب إليه. ستكون بضعة أيام فقط، أعدك بهذا. أطلب منك ألف معذرة لأنني داهمت بيتك بهذه الطريقة يا فيليثيتو.

لم يكن يصدق عينيه. أ تكون هذه السيدة البهية، فاخرة الملابس والمجوهرات، هي أخت خيرتروديس؟ إنها تبدو أكثر شباباً بكثير منها، كما أن ملابسها وحذاءها وخواتمها وقرطيها وساعة يدها، كلها كتلك التي تستخدمها أولئك السيدات الثريات اللاتي يعشن في بيوت كبيرة ذات حدائق ومساحات في التشبيه، وليس واحدة أخرى من أسرة صاحبة نُزِل شجرة الخروب، ذلك النسيون التافه في إحدى ضواحي بيورا.

أثناء العشاء تلك الليلة، لم تتذوق خيرتروديس لقمة واحدة، ولم تتفوه بأية كلمة. رفعت ساتورنينا طبق حساء الشعيرية دون أن يمس،

وكذلك طبق الأرز مع الدجاج. وطوال فترة المساء وشطر لا بأس به من الليل تواли الطُّرقُ على باب البيت ورنين جرس الهاتف دون توقف، على الرغم من أن أحداً لم يكن يفتح الباب أو يرفع ساعة الهاتف. كان فيليثيتو يترصد بين حين وآخر من خلال ستائر النافذة: ما زال في الخارج أولئك الغربان المتلهفون للحصول على جيفة آلات تصويرهم، يتجمعون على الرصيف وفي شارع اريكيبيا، منتظرین أن يخرج أحد من البيت لينقضوا عليه. ولكن لم يخرج أحد سوى ساتورنينا، لأنها خادمة بلا مبيت، وكان خروجها في وقت متأخر من الليل، وقد رأها فيليثيتو تدافع عن نفسها من الهجوم برفع ذراعيها، وأخفاء وجهها أمام وميض فلاشات المصورين، والانطلاق راكضة.

في الصالة الصغيرة فقط، شاهد فيليثيتو أخبار محطة التلفزيون المحلي واستمع إلى المذيع حيث يشيع انتشار الخبر. ظهر ميغيل على شاشة التلفاز، وكان عابساً، مشعر الشعر ومكبل اليدين، يرتدي بيجامة رياضية وحذاه كرمه سلة، وكذلك مابيل، ولكنها لم تكن مقيدة اليدين، تنظر بهلع إلى وميض آلات التصوير. وأحس فيليثيتو في أعماقه بالامتنان لأن خيرتوديس قد ذهبت لتلوز بحجرتها ولم تر، وهي جالسة بجانبه، هذه الأخبار حيث يجري الكشف عن أن عشيقته، المدعوة مابيل، التي فتح لها بيتاً في حي كاستييا، قد خانته مع ابنه بالذات، ودبراً معاً مؤامرة لابتزازه بيارسالهما رسائل العنكبوت الشهيرة، وافتعالهما حريق مقر ناريهوala للنقل.

كان يرى ويسمع ذلك كله بقلب منقبض ويدين مبللتين بالعرق، ويشعر ببداية دوار آخر مماثل لذاك الذي أفقده الإحساس عند آديلايدا، ولكن مع الشعور الشير للفضول، في الوقت نفسه، بأن ذلك كله صار بعيداً جداً وغريباً عنه. ليست له أية علاقة به. حتى إنه لم

يشعر بأنه معني بالأمر حين ظهرت صورته بالذات على الشاشة، بينما المذيع يتكلم عن عشيقته مابيل (التي أطلق عليها تسمية «مساكينته»)، وعن ابنه ميغيل وعن شركته للنقل. بدا كما لو أنه قد انفصل عن نفسه، وكما لو أن فليثيتو ياناكى الذي يظهر في الصور التلفزيونية والأخبار الإذاعية هو شخص ينتحل اسمه ووجهه.

وحين اضطجع، دون أن يتمكن من النوم، أحس بخطوات خيرتروديس في غرفة النوم المجاورة. رأى الساعة: قراية الواحدة بعد منتصف الليل. وزوجته، على ما يتذكر، لم تتأخر قط في السهر إلى مثل هذا الوقت. لم يستطع النوم، أمضى الليل مؤرقاً، كان يفكر للحظات، ولكنه يظل في معظم الوقت خالي الذهن، يصغي إلى نبضات قلبه. وفي موعد تناول الفطور، كانت خيرتروديس لا تزال صامتة؛ لم تتناول سوى فنجان شاي. بعد قليل من ذلك، وبطلب من فليثيتو، جاءت خوسيفيتا لتطلعه على ما يحدث في المكتب، وليكلفها ببعض المهام، وبحrir بعض الرسائل. وقد حملت إليه كذلك رسالة من ابنه تيبورثيو الذي كان في تومبيس. وحين علم بالأخبار، اتصل عدة مرات، لكن أحداً لم يرد عليه. لقد كان يسوق حافلة ركاب على ذلك الخط، وفور وصوله إلى ببورا سيهرع إلى بيت أبيه. بدت سكرتيته مشوشة من الأخبار إلى حدّ كاد معه فليثيتو لا يتعرف عليها. فهي تتفادى النظر إلى عينيه والتعليق الوحيد الذي تفوهت به هو عن مدى سماحة أولئك الصحفيين، فقد سببوا لها الجنون يوم أمس في المكتب، وأحاطوا بها الآن لدى وصولها إلى البيت، دون أن يسمحوا لها بالاقتراب من الباب لوقت طويل، بالرغم من أنها كانت تصرخ بهم بأنه ليس لديها ما تقوله، وأنها لا تعرف شيئاً، وأنها سكرتيرة السيد ياناكىه وحسب. كانوا يوجهون إليها أسئلة شديدة الوقاحة، ولكنها لم تقل لهم،

بالطبع، ولو كلمة واحدة. وعندما انصرفت خوسيفيتا، رأى فيليثيتو من النافذة أنها تعرضت مرة أخرى لهجوم حفنة رجال ونساء يحملون آلات تسجيل وكاميرات ويترافقون على رصيف شارع اريكيبيا.

في موعد الغداء، جلس خيرتروديس إلى المائدة مع آرميدا ومه، ولكنها لم تأكل ولو لقمة واحدة، ولم تتغوط بأية كلمة. كانت عيناهما كجمرتين، وكانت تشدق إحدى يديها على الأخرى. ما الذي تراه يدور في رأسها مشعرت الشعر؟ خطر له أنها نائمة، وأن الأخبار عن ميغيل قد حولتها إلى مسرنمة.

- كم هو رهيب، يا فيليثيتو، هذا الذي يحدث لكم - اعتذر آرميدا بأسى مرة أخرى -. لو أني كنت أعلم هذا كله لما وقعت عليكم على هذا النحو المفاجئ قطًّا. ولكن، مثلما قلت لك أمس، ليس لدي مكان أذهب إليه. وجدت نفسي في وضع صعب جداً وبحاجة إلى التواري عن الأنظار. سأشرح لك كل شيء بالتفصيل حين ترغبُ حضرتك. أعرف أن مشاكل أخرى أكثر أهمية تشغلك تفكيرك الآن. ولكن صدق قولي هذا على الأقل: لن أبقى لأيام إضافية طويلة.

- أجل، ستخبريني بكل ما تريدين، ومن الأفضل أن يكون ذلك فيما بعد - قال موافقاً -. حين تمر قليلاً هذه العاصفة التي تجتاحنا. يا لسوء الحظ يا آرميدا. أن تأتي لتخبئي هنا بالذات، حيث يتمركز صحفيو بيورا جميعهم بعد هذه الفضيحة. أشعر أنني سجين في بيتي بسبب هذه الكاميرات وألات التسجيل.

هزت أخت خيرتروديس رأسها موافقة، وبنصف ابتسامة متفهمة: - لقد مررت بمثل هذا وأعرف ما الذي يعنيه - سمعها تقول دون أن يفهم ما الذي تعنيه. ولكنه لم يطلب منها أن تفسر له ذلك.

وأخيراً، عند العصر، وبعد كثير من التفكير، قرر فيليثيتو أن الوقت

قد حان. طلب من خيرتروديس أن تذهب إلى صالة التلفزيون الصغيرة: «علينا أن نتحدث أنت وأنا على انفراد»، قال لها. انسحبت آرميدا فوراً إلى حجرتها. بينما تبعت خيرتروديس زوجها بكل وداعة إلى الحجرة المجاورة. جلست الآن على أريكة مقابلة، تحت إضاءة خافتة، بهدوء وخمول وصمت. كانت تنظر إليه دون أن تراه كما يبدو.

- لم أكن أتصور أنه سيأتي يوم نتحدث فيه عما سنتحدث عنه الآن. بدأ فيليثيو بنعومة بالغة. لاحظ، متفاجئاً، أن صوته يرتجف.

لم تتحرك خيرتروديس. كانت محشورة في الثوب عديم الهوية الذي يبدو هجينًا ما بين جلباب وعباءة، وتنظر إليه، كما لو أنه غير موجود هناك، بتينك الحدقتين اللامعتين ببريق هادئ في وجهها الملتئي ذي الفم الكبير، إنما الخالي من التعبير. كانت تضع يديها في حضنها، مشدودتين بقوة، كما لو أنها تعاني آلاماً رهيبة في المعدة.

- لقد خامرني الشك منذ اللحظة الأولى - واصل صاحب شركة النقل وهو يبذل جهداً للسيطرة على العصبية التي استحوذت عليه - لكنني لم أقل لك ذلك كيلاً أحرجك. وكنت سأحمل الأمر معى إلى القبر لو لم يحدث ما حدث.

أطلق زفراً، تنفس بعمق. لم تكن زوجته قد تحركت ميليمتراً واحداً، كما أنها لم ترمش ولو مرة واحدة. بدت متحجرة. بدأت حشرة غير مرئية تئز في مكان ما من الحجرة، وتصطدم بالسقف والجدران. كانت ساتورنينا تسقي الحديقة، وكان يُسمع صوت انسكاب ماء المرشة على النباتات.

- ما أعنيه - واصل الحديث مشدداً على كل حرف - أنك أنت وأمك قد خدعتمني. في ذلك اليوم، هناك في نزل شجرة الخروب. لم يعد الأمر يهمني الآن. لقد مضت سنوات طويلة، ولا فرق لدى اليوم في

اكتشاف أنك أنت والأمرة قد أوقعتما بي. الشيء الوحيد الذي أريده،  
كي أموت مطمئناً، هو أن تؤكدي لي ذلك يا خيرتروديس.

صمت وانتظر. ظلت هي في الوضع نفسه، جامدة، لكن فيليثيتو  
لاحظ أن أحد الخفيفين اللذين في قدمي امرأته قد انزاح جانباً بصورة  
ضئيلة. ثمة حياة هناك على الأقل. بعد لحظات، باعدت خيرتروديس  
ما بين شفتها وأطلقت جملة أشبه بزمجرة:

- ماذا تريدين أن أؤكد لك يا فيليثيتو؟

- أن ميغيل ليس ابني ولم يكن كذلك قطّ - قال رافعاً صوته قليلاً -  
 وأنك كنت حاماً من آخر عندما جئت أنت والأمرة في ذلك الصباح، في  
نُرُل شجرة الخروب، لتتكلما وجعلتمني أصدق أنني أنا الأب. بعد أن  
تقدمتنا بشكوى إلى الشرطة لإجباري على الزواج منك.

حين أنهى هذه الجملة أحس بالضيق والضجر، كما لو أنه أكل  
شيئاً غير قابل للهضم أو تناول إبريقاً شديداً التخمر من شراب  
التشيتشا.

- لقد ظننت أنك أنت الأب - قالت خيرتروديس بهدوء مطلق.  
كانت تتكلم دون غضب، بالاشمئزاز الذي تشير به دوماً إلى أي شيء،  
باستثناء الأمور الدينية. ثم أضافت، بعد صمت طويل، بالطريقة  
المحايدة وغير المبالغة نفسها: - لم يكن في نيتني ولا في نية أبي أن  
نخدعك. لقد كنت متأكدة آنذاك من أنك أنت أبو الجنين الذي كان  
في بطني.

- ومتى انتبهت إلى أنه ليس مني؟ سألها فيليثيتو باندفاع آخذ  
بالتحول إلى غضب.

- حين ولد ميغيليتا فقط - اعترفت خيرتروديس، دون أدنى تبدل في  
نبرة صوتها -. حين رأيته شديد البياض، بعينيه الزرقاويتين وشعر أقرب

إلى الأشقر. لا يمكن له أن يكون ابن خلاسي تشو لو تشوليكانى مثلث. صفتت وواصلت النظر إلى عيني زوجها بالهدوء نفسه. فكر فيليثيتو بأن خيرتروديس تبدو كمن تكلمه من تحت الماء أو من خلال زجاج سميك. كان يشعر بها منفصلة عنه بشيء غير مرئي ولا يمكن اجتيازه، بالرغم من أنها على مسافة متر واحد منه.

- إنه ابن سبعة آباء حقيقي، ليس من المستغرب أن يفعل بي ما فعله - دمدم بين أسنانه -. وهل عرفتِ عندئذ من هو والد ميغيل الحقيقي؟

تنهدت زوجته وهزت كتفيها بإيماءة يمكن لها أن تكون تعبيراً عن عدم الاهتمام أو التعب. وأنكرت بهز رأسها مرتين أو ثلاثة مرات، وبرفع كتفيها.

- كم من الأشخاص ضاجعتِ في ثُرل شجرة الخروب إذن، تشي غوا؟. كان فيليثيتو يشعر بعقدة في حلقه وأنه يريد إنهاء ذلك الموقف دفعة واحدة.

- جميع من كانت أمي تدخلهم إلى فراشي - ز مجرت خيرتروديس ببطء واقتضاب. ثم تنهدت من جديد بمزاج إنهاك غير متناهٍ، وحددت: - كثيرون. وليسوا جميعهم من النزلاء. بل أشخاص يأتون من الشارع أحياناً.

- الآمرة هي من كانت تدخلهم إليك؟ كان يجد صعوبة في التكلم ويشعر بأزيز في رأسه.

ظللت خيرتروديس ساكنة، بلا تبدل، لأنها شبح مسطح، وهي تشد إحدى يديها على الأخرى طوال الوقت. كانت تنظر إليه بثبات غائب، مضيئة وهادئة، مما يزيد من تشوش فيليثيانو كل لحظة.

- هي من كانت تختارهم وتتقاضى النقود منهم، وليس أنا - أضافت

امرأته، بشيء من التبدل في نبرة صوتها. لم تعد تبدو الآن أنها تخبره وحسب، بل تتحداه أيضاً. من تراه يكون أبو ميغيل. لا أعرف. إنه أبيض ما، أحد أولئك الغرباء الذين كانوا يمرون من نزل شجرة الخروب. ربما واحد من اليوغسلافيين الذين جاؤوا للعمل في أنظمة ري نهر تشيرا. فقد كانوا يأتون إلى ببورا ليسكرروا في عطلة نهاية الأسبوع، ويمررون بالنزل.

ندم فيليثيو على فتح هذا الحوار. هل أخطأ بإخراجه إلى السطح، هذا الموضوع الذي لاحقه مثل ظله طيلة حياته؟ وهاهوذا الآن هناك، بينهما، لا يدرى كيف يزيحه عن كاهله. كان يشعر به كعائق رهيب، كموضوع دخيل لن يخرج أبداً من هذا البيت.

- وكم عدد من أدخلتهم الآمرة إلى فراشك؟ - زمبر. كان متأكداً من أنه سيصاب في أية لحظة بإغماءة أخرى أو بنوبة تقيؤ - ببورا بأسرها؟ - لم أحص عددهم - قالت خيرتوديس بلا مبالاة، مبدية تكشيرة ازدراه -. ولكن بما أنك مهتم بمعرفة ذلك، أكرر لك بأنهم كانوا كثيرين. وكنت حريصة قدر ما أستطيع. لم أكن أعرف الكثير حول هذه الأمور آنذاك. وحقن الغسول التي كنت استخدمها يومياً كانت تنفعني، هذا ما كنت أظنه وما قالته لي أمي. لا بد أن شيئاً قد حدث بشأن ميغيل. ربما أكون قد تهاونت. لقد أردت الإجهاض عند قابلة أشبه بساحرة في الحي. كانوا يسمونها «الفراشة»، ربما تكون قد عرفتها. ولكن الآمرة لم تسمح لي بذلك. وهي من خرجت بفكرة الزواج. أنا لم أكن راغبة في الزواج منك أيضاً يا فيليثيو. لقد كنت أعرف أنني لن أكون سعيدة أبداً إلى جانبك. ولكن أمي هي التي أجبرتني.

لم يعد صاحب شركة النقل يدرى ما يقول. ظل ساكناً، يفكر، قبالة امرأته، كم هو مضحك جلوسهما هناك، أحدهما مقابل الآخر،

مشلولين، صامتين عن ماض شديد القبح ينبعث فجأة ليضيف خزيًا، وعارًا، وألمًا، وحقائق مريرة على النكبة التي حلّت به للتو من ابنه الزائف ومن مabil.

لقد كنت أدفع ثمن خطايدي طيلة هذه السنوات يا فيليثيتو - سمعَ خيرتوديس يقول، وهي تقاد لا تحرك شفتيها الغليظتين، ودون أن ترفع بصرها عنه ولو ثانية واحدة، مع أنها لم تكن تراه، وتتكلم كما لو أنه غير موجود معها - لقد حملتُ صليبى بصمت. وأنا أعرف جيداً أنه على المرء أن يدفع ثمن خطایاه. ليس في الحياة الأخرى فقط، بل في هذه الحياة أيضاً. لقد تقبلتُ ذلك. وندمت عن نفسي وعن أمي كذلك. لم أعد أشعر نحوها بالضغينة الكبيرة التي كنت أشعر بها في شبابي. ومازالت أدفع الثمن، وأرجو بعد كل هذه المعاناة أن يغفر لي السيد يسوع المسيح خطايدي الكثيرة.

كان فيليثيتو يريدها أن تصمت دفعة واحدة لينصرف. ولكنه لم يجد القوة للنهوض والخروج من الحجرة. كانت ساقاه ترتعشان بقوة. وفكراً: «أود لو أكون تلك الحشرة التي تنزع، وليس من أنا».

أنت نفسك ساعدتني على دفع الثمن يا فيليثيتو - واصلت أمرأته وقد خفضت صوتها قليلاً - وأناأشكرك على ذلك. ولهذا لم أقل لك أي شيء، قط. ولهذا لم أواجهك بأي شجار بداعف الغيرة، ولم أوجه لك أسئلة يمكن لها أن تزعجك. ولهذا لم أبدِ قط ما يشير إلى علمي بعلاقتك مع امرأة أخرى، وأن لك عشيقة، وهي مختلفة عني بأنها ليست عجوزاً ولا دميمة، بل شابة وجميلة. ولهذا لم أتذمر قط من وجود مabil، ولم أوجه إليك أي تأنيب. لأن مabil تساعدني أيضاً في دفع ثمن ذنبي.

صمنت منتظرة أن يقول صاحب شركة النقل شيئاً، ولأن هذا لم

يفتح فمه، أضافت:

ـ أنا أيضاً لم أكن أعتقد مطلقاً بأننا ستفتح هذا الحديث يا فيليثيو.  
أنت من أردته وليس أنا.

توقفت مرة أخرى في صمت طويل وتمتمت وهي ترسم إشارة الصليب  
في الهواء بأصابعها ذات العقد:

ـ والآن، هذا الذي فعله بك ميغيل هو الكفارة التي عليك أن تدفعها. وأنا أيضاً.

ومع الكلمة الأخيرة، نهضت خيرتروديس وخرجت من الغرفة مجرجة قدميها. ظل هو جالساً في حجرة التلفزيون الصغيرة، دون أن يسمع الضجيج، والأصوات، والأبواق في شارع اريكيبيا، ولا أصوات محركات الموتوكسي. ظل غارقاً في حالة سبات كثيف، في يأس وحزن لا يسمحان له بالتفكير ويحرمانه من أدنى قدر من الطاقة التي تتبع له النهوض. كان يريد فعل ذلك، يريد الخروج من هذا البيت، على الرغم من أن الصحفيين سينقضون عليه فور وصوله الشارع، بأسئلتهم المتmadية، وكل سؤال منها أكثر بلاهة من الآخر، وأن يذهب إلى كورنيش إغويغورين ويجلس هناك ليشاهد جريان مياه النهر البنية والرمادية، ويتأمل بفضول سُحب السماء، ويتنفس هواء الظهيرة الساخن، ويستمع إلى صفير العصافير. لكنه لم يحاول التحرك لأن ساقيه لن تطاووه أو لأن الدوار سيطرحه أرضاً على السجادة. كان يرعبه التفكير في أن أباه قد سمع، من الحياة الأخرى، الحوار الذي جرى للتو بينه وبين امرأته.

لم يدرك من الوقت ظل على تلك الحال من التهويم اللزج، شاعراً بمرور الوقت، خجلًا من نفسه ومشفقاً عليها، وعلى خيرتروديس، وعلى مابيل، وميغيل، والعالم بأسره. وبين لحظة وأخرى، كمثل شاع

نور واضح، يطل من رأسه وجه أبيه فتحفف عنه هذه الصورة العابرة لهنيةة. «لو أنك كنت حياً وعلمتَ بهذا كله لكونت متَ مرة أخرى»، هذا ما فكر به.

ووجأة، لاحظ أن تيبورثيو قد دخل إلى الغرفة دون أن يكون قد انتبه إليه. كان جاثياً إلى جانبه، يمسكه بذراعيه وينظر إليه بخوف.

- إنني بخير، لا تقلق - طمأنه. لقد غفت لحظات وحسب.

- أتريد أن أستدعي طبيباً؟ - كان ابنه بالأفرهول الأزرق والقبعة الخاصة بسائقي الشركة؛ وعلى واقيتها يُقرأ: «ناريهوala للنقل». وكان يحمل في يده قفازي الجلد الخام اللذين يلبسهما عندما يقود الحافلات - إنك شاحب جداً يا أبي.

- أأنت عائد للتو من تومبيس؟ - رد عليه - هل كانت الرحلة جيدة؟

- كانت الحافلة ممتلئة تقريباً، والحمولة كانت كبيرة - أكد تيبورثيو. وكان الذعر لا يزال بادياً على وجهه وهو يتفحصه، كما لو أنه يحاول انتزاع سرّ منه. بدا واضحاً أنه يرغب في توجيه أسئلة كثيرة إليه، لكنه لم يجرؤ على ذلك. وقد أشفق فيليثيتو عليه بدوره.

- سمعتُ خبر ميغيل من المذيع وأنا هناك في تومبيس - قال تيبورثيو مضطرباً - لم أستطع تصديق ذلك. اتصلت ألف مرة بهذا البيت ولكن أحداً لم يرد على الهاتف. لا أدرى كيف استطعتُ قيادة الحافلة حتى هنا. أعتقد أن ما تقوله الشرطة عن أخي صحيح؟

كان فيليثيتو على وشك أن يقاطعه ليقول له «هو ليس أخوك»، ولكنه كبح نفسه. أولم يكن ميغيل وتيبورثيو أخوين؟ لقد كانوا كذلك، ولو أنهم نصف أخوين.

- قد تكون أكذوبة، أنا أظن أنها أكاذيب - قال تيبورثيو الآن

بهياج، دون أن ينهاض عن الأرض، وهو ما يزال يمسك أبيه بين ذراعيه -. يمكن أن تكون الشرطة قد انتزعت منه اعتراضاً زائفاً، بتهشيمه ضرباً. بتعذيبه. من المعروف أنهم يفعلون هذه الأشياء.

- لا يا تيبورثيو. إنها الحقيقة - قال فيليثيتو - لقد كان هو نفسه العنكبوت. هو من حاك هذا الأمر كله. لقد اعترف لأنها هي، شريكه، قد وشت به. سأطلب منك الآن معرفةً كبيراً يابني. لا أريد أن نتحدث في هذا الموضوع. إلى الأبد. لا عن ميفيل، ولا عن العنكبوت. الأمر بالنسبة لي كما لو أن أخاك لم يعد له وجود. أو بكلمة أدق، كما لو أنه لم يوجد قط. لا أريد ذكر اسمه في بيتي. إلى الأبد. أنت تستطيع أن تفعل ما تشاء. أن تذهب لرؤيته إذا شئت ذلك. أن تأخذ له طعاماً، أن تحصل له على محام، أو أي شيء تريده. لا يهمني ذلك. لست أدرى ما الذي ستفعله أمك. لا تخبراني بأي شيء. لا أريد أن أعرف شيئاً. لا تذكره أبداً أمامي. إنني العن اسمه وانتهى الأمر. والآن، ساعدني على النهوض يا تيبورثيو. لا أدرى السبب، ولكن كما لو أن ساقي لم تعودا تستجيبان لي فجأة.

نهض تيبورثيو واقفاً، وأمسكه من ذراعيه وأنهضه دون جهد.

- سأطلب منك أن ترافقني إلى المكتب - قال فيليثيتو -. الحياة يجب أن تستمر. لابد من متابعة العمل، علينا النهوض بالشركة التي أهملت. فليس الأسرة وحدها هي التي تعاني من هذا الوضع يابني؛ بل ناريهوا لا للنقل أيضاً. يجب أن نضعها على السكة من جديد.

- الشارع يغض بصفحين - نبهه تيبورثيو -. لقد انقضوا على كبقعة زيت عند مجئي ولم يسمحوا لي بالمرور. كنت على وشك أن أبدأ بتوجيه الكلمات لواحد منهم.

- ستساعدني أنت على التخلص من هؤلاء الثقلاء يا تيبورثيو - نظر

إلى عيني ابنه، ثم أضفي عذوبة على صوته وهو يبدي إيماءة حنان خرقاء على وجهه: - أشكرك لأنك لم تأت على ذكر مابيل يا بني. ولأنك لم تسألني عن تلك المرأة. أنت ابن طيب.

أمسك بذراع الفتى وتقدم معه باتجاه المخرج. ما إن انفتح الباب المؤدي إلى الشارع حتى انفجر صخب مدو، واضطر أن يرمي أمام وميض فلاشات التصوير. «ليس لدى ما أصرح به أيها السادة، أشكركم جزيل الشكر»، كرر ذلك مرتين، ثلث مرات، عشر مرات، بينما هو متغلق بذراع تيبيورثيو ويتقدّم بصعوبة عبر شارع اريكيبيا، محاصراً، مدفوعاً، مزعزاً وسط حشد الصحفيين الذين ينتزع أحدهم الكلمة من الآخر ويدسون في وجهه الميكروفونات والكاميرات ودفاتر الملاحظات والأقلام. يوجهون إليه أسئلة لا يمكن من فهمها. بينما هو يكرر بين لحظة وأخرى، كما في لازمة ثابتة: «ليس لدى ما أصرح به أيها السادة، أشكركم جزيل الشكر». رافقوه حتى ناريهوالا للنقل، لكنهم لم يدخلوا إلى مقر الشركة لأن الحراس أغلق الباب في وجوههم. حين جلس وراء اللوح الخشبي الموضوع فوق برميلين، والذي صار منضدة مكتبه، قدم إليه تيبيورثيو كأس ماء.

- وتلك السيدة الأنique المدعوة آرميدا، هل كنت تعرفها يا أبي؟ - سأله - هل كنت تعرف أن هنالك أختاً لأمي تقيم في ليما؟ لم تخبرنا نحن بذلك قط.

نفى بحركة من رأسه ورفع إصبعاً إلى فمه:

- هنالك سر كبير يا تيبيورثيو. لقد جاءت لتخبيئ هنا لأن هنالك من يطاردها في ليما، بل إنهم يريدون قتلها. من الأفضل أن تنساها ولا تخبر أحداً بأنك رأيتها. لدينا ما يكفي من المشاكل ولسنا بحاجة لأن نرث كذلك مشاكل أخت زوجتي.

وببذل جهد هائل بدأ العمل. راح يراجع الحسابات، والكمبياليات، والسدادات، والنفقات الجارية، والمدخل، والفوواتير، والرواتب، والمدفوعات لمعهدي التموين. وفي الوقت نفسه، في أعماق عقله، كان يضع خطة عمل للأيام التالية. وبعد وقت قصير بدأ يشعر بالتحسن، وبأن بالإمكان كسب تلك المعركة الشاقة. وفجأة، دخلته رغبة هائلة في الاستماع إلى صوت سيسليا باراسا المرتعش والعذب. من المؤسف أنه لا يملك في المكتب بعض أسطواناتها، يجب توافر أغانيات مثل «شك ورماد»، «حب بريء»، «حنين جميل» أو «ثور قاتل» في المكتب، وجهاز للاستماع إليها. سيشتري هذا الجهاز فور تحسن الأحوال. وفي الأمسيات أو الليالي التي يظل يعمل فيها في المكتب، بعد إعادة تأهيلية من أضرار الحرائق، يستطيع في لحظات مثل هذه أن يضع في الجهاز مجموعة أسطوانات لغنته المفضلة. سينسى عندئذ كل شيء ويشعر بالسعادة... أو الحزن، ويكون متأثراً على الدوام بذلك الصوت القادر على سحبة لرقصة فالس، أو ماريونراس، أو بولكاس، أو بريغونيس، جميع أنواع الموسيقى الكريوليه وأشد المشاعر الدفينة في أعماقة حساسية.

عندما غادر مقر نارييهوالا للنقل كان ظلام الليل مطبقاً. لم يكن هناك صحفيون في الشارع: قال له الحراس إنهم تعبوا من انتظاره، فتفرقوا وغادروا منذ وقت طويل. وكان تيبورثيو قد غادر أيضاً، إلى شؤونه الخاصة، منذ أكثر من ساعة. سلك شارع اريكيبيا، وكان فيه أناس قليلون الآن، دون أن ينظر إلى أحد، باحثاً عن الظلال كيلا يتعرف عليه أحد. ولحسن الحظ لم يوقفه أحد ويدخل معه في حديث خلال الطريق. وفي بيته، كانت آرميدا وخيرتروديس قد نامتا، أو على الأقل لم يشعر بوجودهما. ذهب إلى صالة التلفاز الصغيرة ووضع بعض

الأسطوانات المدمجة، بصوت خافت. وظل قرابة الساعتين جالساً في الظلام، ساهياً ومتائراً، غير متحرر تماماً من القلق، ولكنه متخفف منه بعض الشيء بفضل الأغانيات التي تقدمها إليه سيسيليا باراسا في جلسته الحميمة تلك. كان صوتها بلسماء، ماء بارداً وشفافاً يغرق فيه بجسده وروحه، ويتطهر، يستعيد السكينة، يستمتع، وينبعث من أعمق أعماقه شيء صحي، عذب، متفائل. حاول ألا يفكر بما بليل، وألا يتذكر أشد اللحظات التي أمضها معها زخماً وسعادة خلال تلك السنوات الثمانية، بل تذكر فقط أنها قد خانته، وأنها نامت مع ميفيل وتواتأت معه، وأرسلت له رسائل العنكبوت، وتظاهرت بأنها مختطفة، وأحرقت مكتبه. هذا هو ما عليه أن يتذكره فقط، كيلا تكون شديدة المرارة عليه فكرة أنه لن يعود إلى رؤيتها أبداً.

في صباح اليوم التالي، استيقظ في وقت مبكر جداً، قام بتمارين الكي جونغ، متذمراً البقال لاو مثلما يحدث له عادة خلال هذا الروتين الإجباري عند الاستيقاظ، تناول فطوره، وخرج إلى مكتبه قبل أن يصل الصحفيون النؤمون إلى باب بيته ليواصلوا مطاردته. كانت خوسيفيتا قد حضرت قبله وابتسمت كثيراً لرؤيتها.

- كم هي رائعة عودتك إلى المكتب يا دون فيليثيتو - قالت له مصفقة  
- لقد صرت أفتقدك هنا.

- لا يمكننيمواصلةأخذ الإجازات - أجابها وهو يخلع القبعة والسترة ويستقر وراء منضدة الدف الخشبي المرتجلة - كفانا فضائح وحماقات يا خوسيفيتا. إلى العمل فقط ابتداء من اليوم. هذا هو ما يروق لي، وما قمت به طوال حياتي وما سأفعله منذ الآن.

انتبه إلى أن سكريترته تريد أن تقول له شيئاً، لكنها لم تجد الحماسة لذلك. ماذا جرى لخوسيفيتا؟ إنها مختلفة. أكثر أناقة وترجماً

من العادة، ترتدي ملابس مبهргة ولطيفة. تظهر على محياتها بين حين وآخر بعض الابتسامات وحمرة خجل لعوبة. وبدا له أنها، عند المشي، تهز مؤخرتها أكثر قليلاً مما كانت عليه من قبل.

- إذا كنتِ راغبة في أن تخبريني بسر، فإإنني أؤكد لك أنني قبر أسرار يا خوسيفيتا. وإذا كان في الأمر أحزان حب فسأكون سعيداً بأن أتحول إلى منديل لدموعك.

- لا أدرى ماذا عليَّ أن أفعل يا دون فيليثيتو - خفضت صوتها وقد كستها حمرة الخجل من رأسها حتى قدميها. أدنى رأسها من رئيسها، وهمست له وهي ترمي بعينيها كطفلة بريئة: - لاحظ أن نقيب الشرطة ذاك يواصل الاتصال بي هاتفياً. لماذا يا ترى؟ كي يدعوني للخروج معه طبعاً !

- النقيب سيلفا؟ - أبدى صاحب شركة النقل الذهول - لقد كنت أشعر بأنك قد فتنته. تشي غوا، يا خوسيفيتا !

- هذا ما يبدو لي يا دون فيليثيتو - أضافت سكرتيرته بخفر متغنج - إنه يوجه إليَّ كل أنواع الزهور حين يتصل بي هاتفياً، لا يمكن لحضرتك أن تتصور الأشياء التي يقولها لي. يا له من رجل بارد! إنه يسبب لي خجلاً شديداً. أجل، أجل، يريد دعوتي للخروج معه. وأنا لا أدرى ماذا أفعل. بماذا تنصحني حضرتك؟

- لا أدرى ماذا أقول لك يا خوسيفيتا. لا يفاجئني بكل تأكيد أنك فتنته. أنت امرأة شديدة الجاذبية.

- ولكنني سمينة بعض الشيء يا دون فيليثيتو - تذمرت مبدية تكشيرة زائفة - مع أن هذا الأمر ليس مشكلة، حسب ما قاله لي النقيب سيلفا. أكد لي أنه لا يحب أولئك الموصفات سيثات التغذية من فتيات الإعلانات، وأنه يفضل النساء ممتلئات التقاطيع... مثلني.

- انفجر فيليثيتو ياناكيه ضاحكاً وجارته هي أيضاً. كانت المرة الأولى التي يضحك فيها صاحب شركة النقل منذ علم بالأخبار السيئة.

- هل تحررت، على الأقل، إذا ما كان النقيب متزوجاً يا خوسيفيتا؟

- لقد أكد لي أنه عازب وغير مرتبط. ولكن من يدري كيف وضعه، فالرجال يقضون الحياة وهم يولفون الحكايات لنا نحن النساء.

- سأحاول التحري عن ذلك، دعي الأمر لي - عرض عليها فيليثيتو.

- وفي أثناء ذلك استمعتني واستخلصي عصارة الحياة، فأنت تستحقين ذلك حقاً. أتمنى لك السعادة يا خوسيفيتا.

كان يراقب انطلاق الفانات والحافلات والشاحنات، وإرسال الطلبيات الموصى عليها، وعند الضحى، ذهب إلى الموعد المحدد له مع الدكتور هيلبراندو كاسترو بوسو، في مكتبه الضيق والمزدحم بشارع ليماء. إنه محامي شركة النقل، وهو يتولى كافة شؤون فيليثيتو ياناكيه القانونية منذ عدة سنوات. شرح له بالتفصيل ما يدور في رأسه، بينما راح الدكتور كاسترو بوسو يسجل ملاحظات عما يقوله له في دفتر ملاحظاته الصغير المعهود، والذي يكتب فيه بقلم رصاص صغير مثله. كان رجلاً ضئيلاً، يرتدي صداراً وربطة عنق، شديد التأنق، ستينياً، حيوياً، نشيطاً، لطيفاً، محدثاً، ومهنياً متواضعاً ولكنه فعال، وليس غالياً بأي حال. كان أبوه مناضلاً اجتماعياً مشهوراً، يدافع عن الفلاحين، وقد تعرض للسجن والمنفي، وهو مؤلف كتاب عن القبائل الهندية جعله مشهوراً. وكان عضواً في مجلس الشيوخ. عندما انتهى فيليثيتو من شرح ما أراد شرحه، تفحصه الدكتور كاسترو بوسو برضى:

- الأمر ممكн بالطبع يا دون فيليثيتو - هتف وهو يتلاعب بقلمه الرصاص الصغير -. ولكن دعني أدرس القضية بهدوء وأقلبها من كافة

النواحي القانونية، كي نتمكن من التقدم بخطوات واثقة. سيتطلب الأمر مني يومين على أبعد تقدير. أتعرف؟ هذا الذي تريد عمله يؤكد تماماً الفكرة التي كونتها عنك دوماً.

- وما هي فكرتك عني يا دكتور كاسترو بوسو؟

- أن حضرتك رجل أخلاقي يا دون فيليثيتو. أخلاقي حتى طرف أظفار قدميك. أحد الأخلاقيين القلائل الذين عرفتهم في الحقيقة.

أصاب فيليثيتو الذهول، ما الذي يعنيه قوله هذا عن «رجل أخلاقي»؟<sup>(1)</sup> وقال فيليثيتو لنفسه إنه عليه أن يشتري معجماً في أحد هذه الأيام. فهو يسمع طيلة الوقت كلمات يجهل معناها. ويخرجل من أن يسأل الناس عما تعنيه تلك الكلمات. ذهب إلى بيته لتناول الغداء. ومع أنه وجد الصحفيين مرابطين هناك، إلا أنه لم يتوقف ولو لمجرد أن يقول لهم إنه لن يعطي مقابلات صحفية. مر بجانبهم محبياً إياهم بحركة من رأسه، دون أن يرد على الأسئلة التي يوجهونها متزاحمين. بعد تناول الغداء، طلبت منه آرميدا أن تتحدث معه على انفراد للحظات. ولكن فيليثيتو فوجئ عندما توجه مع أخت زوجته إلى صالة التلفاز، أن خيرتروديس، المعتكفة في الصمت مجدداً، قد لحقت بهما. جلست على أحد المقاعد وطلت هناك طيلة الوقت الذي دامه الحديث الطويل بين آرميدا وصاحب شركة النقل، وكانت تستمع دون أن تقاطعهما ولو مرة واحدة.

- سيبدو لك غريباً أنني منذ مجئي مازلت بالثوب نفسه. بادرت القول لزوج أختها بأكثر الطرق تلقائية.

- إذا أردتِ أن أكون صريحاً يا آرميدا، فإن كل شيء يبدو لي غريباً

<sup>(1)</sup> استخدم المحامي مصطلح علم الأخلاق الفلسفية etica ومن هناك جاء ذهول فيليثيتو ضئيل التعليم والثقافة.

في هذه القضية، وليس عدم استبدالك الثوب فقط. فجأة، تظهرين هنا... هكذا فجأة. أنا وخيرتروديس متزوجان منذ لا أدرى كم من السنوات، وإلى ما قبل أيام قليلة، لم تحدثني قطًّا على ما أظن عن وجود حضرتك. أتريدين ما هو أشد غرابة من هذا؟

- لا أبدل ثوبي لأنه ليس لدى غيره أرتديه - واصلت أخت زوجته كما لو أنها لم تسمعه -. خرجت من ليمما بما كنت ألبسه، حاولت تجريب أحد أثواب خيرتروديس، ولكنها واسعة جداً علىّ. باختصار، علىّ أن أبدأ هذه القصة من البداية.

- أوضح لي أمراً واحداً على الأقل - طلب منها فيليشيتو - لماذا تظل خيرتروديس صامتة، كما ترين، ولا تفسر لي ذلك. هل أنتما أختان من الأب والأم نفسيهما؟

تحركت آرميدا في المعد مرتبكة دون أن تدري بماذا تجبيه. نظرت إلى خيرتروديس بحثاً عن عون، ولكن أختها واصلت صمتها، منكمشة على نفسها مثل أحد تلك الرخويات ذات الأسماء الغريبة التي تعرضها بائعات السمك في السوق المركزي. كانت ملامحها تشير إلى خمول كامل، كما لو أنه لا علاقة لها بأي شيء مما تسمعه. بالرغم من أنها لم تكن تزبح بصرها عنهم.

- لا نعرف ذلك - قالتأخيراً آرميدا مشيرة بذقنها إلى أختها -. لقد تحدثنا كثيراً حول هذا الأمر خلال الأيام الثلاثة الماضية.

- آه، هذا يعني أن خيرتروديس تتكلم حين تكون معك. أنت محظوظة أكثر مني.

- نحن أختان من الأم نفسها، هذا هو الشيء الوحيد المثبت - أكدت آرميدا وهي تستعيد شيئاً فشيئاً السيطرة على نفسها -. إنها تكبرني ببضع سنوات. ولكن أيّاً منا لا تذكر شيئاً عن أبيينا. ربما يكون

الشخص نفسه. وربما لا. لم يعد هنالك من يمكن الاستفسار منه يا فيليثيتو. فعندما بدأنا، كلتانا، نمتلك ذكريات، لم يكن هنالك زوج للأمرة. هكذا كانوا يسمون أمي، ألا تتدذكر؟

- هل كنتِ أنتِ أيضاً تعيشين في نُزل «شجرة الخروب»؟

- إلى أن بلغت الخامسة عشرة من عمري - أكدت آرميدا -. لم يعد آنذاك نُزلاً، وإنما تحول إلى مجرد خان للبغاليين، وسط الأربعينال. في الخامسة عشرة من عمري ذهبت إلى ليما للبحث عن عمل. لم يكن ذلك سهلاً على الإطلاق. مررت بمصاعب كثيرة، أسوأ من كل ما يمكن تصوره. ولكننا أنا وخيرتروديس لم نقطع تواصلنا أبداً. كنت أكتب إليها بين حين وآخر، بالرغم من أنها لم تكن ترد على رسائلي إلا نادراً. فهي لا تهوى كتابة الرسائل. لأن خيرتروديس لم تذهب إلى المدرسة إلا سنتين أو ثلاثة سنوات. أنا كنت محظوظة أكثر منها، إذ أنهيت مرحلة المدرسة الابتدائية كلها. لقد اهتمت الآمرة بمسألة ذهابي إلى المدرسة. أما خيرتروديس بالمقابل فجعلتها تعمل في النزل منذ وقت مبكر جداً.

التفت فيليثيتو إلى امرأته.

- لا أدرى لماذا لم تخبريني بأن لك أختاً. قال لها. ولكنها واصلت النظر إليه كما لو أنها تنظر من خلال ماء، دون أن تجيبه.

- أنا سأخبرك بذلك يا فيليثيتو - تدخلت آرميدا -. كانت خيرتروديس تحجل من أن تخبرك بأن أختها تعمل خادمة في ليما. ولا سيما بعد أن تزوجت منك وتحولت إلى شخصية محترمة.

- هل كنتِ أنتِ عاملة منزلية؟ استغرب صاحب شركة النقل وهو ينظر إلى ثوب أخت زوجته.

- طوال حياتي يا فيليثيتو. باستثناء فترة قصيرة عملتُ خلالها عاملة في مصنع نسيج بمدينة بيatarتي - وأضافت مبتسمة -. أرى أنك تستغرب ارتدائِي ثوباً فاخراً وحذاً جيداً، وساعة يد مثل هذه. كلها أشياء إيطالية، تصور.

- أجل يا آرميدا، يبدو لي الأمر غريباً جداً - أكد فيليثيتو - فأنت ذات مظهر يمكن أن يكون أي شيء باستثناء خادمة.

- ما حدث أني تزوجت من السيد صاحب البيت الذي كنت أعمل فيه - أوضحت آرميدا وقد احمرت خجلاً -. سيد مهم، ومن مكانة جيدة.

- آه، طبعاً، فهمت، إنه زواج بدل حياتك - قال فيليثيتو - هذا يعني أنك كسبتِ اليانصيب.

- أجل، أنت حق بطريقة ما، ولكنني لستُ كذلك من ناحية أخرى - صحت له آرميدا - لأن السيد كاريرا، أعني إسماعيل، زوجي، كان أرمل. وله ابنان من زواجه الأول. وهم يكرهانني منذ تزوجت من أبيهما. حاولا إبطال الزواج، وقديما شكوى ضدِي للشرطة، واتهما أبيهما أمام القاضي بأنه عجوز خرف. وأنني عملت له سحراً، وأنني أعطيته أعشاباً ولا أدرِي أية أعمال سحر أخرى.

رأى فيليثيتو أن تبدلأ قد طرأ على وجه آرميدا. لم تعد هادئة مثلاً كانت. وبدا في ملامحها شيء من الحزن والغضب.

- أخذني إسماعيل في شهر عسل إلى إيطاليا - أضافت وهي تضفي عذوبة على صوتها وتبتسم -. كانت أسابيع جميلة جداً. لم أتصور قط أنني سأعرف أشياء بكل ذلك البهاء، وكل ذلك الاختلاف. حتى إننا رأينا البابا في شرفة، من ساحة القديس بطرس. لقد كانت تلك الرحلة أشبه بحكايات الجنونات. كان زوجي طيلة الوقت في لقاءات عمل،

وكنت أقضى أوقاتاً طويلاً وحدي أمارس السياحة.

«هنا يظهر تفسير هذا الثوب وهذه المجوهرات وهذه الساعة وهذا الحذاء»، فكر فيليثيتو «شهر عسل في إيطاليا! تزوجت من ثري! زواج الفقيرة من غني!».

- هناك، في إيطاليا، باع زوجي شركة تأمين كان يملكها في ليمـا - واصلت آرميدا الشرح - كيلا تقع في أيدي ابنيه اللذين كانا ينتظران اللحظة التي يستوليان عليها، بالرغم من أنه كان قد أعطاهم مسبقاً حصتها من الميراث وهو حـي. إنـهما وـغـدان، كـسـولـان من أسوأ مستوى. كان إسماعيل غاضباً منها ولـهـذا باع الشركة. لقد كنت أحـاـولـ فـهـمـ تـلـكـ التـشـابـكـاتـ،ـ ولكنـنيـ كـنـتـ أـضـيـعـ فيـ شـرـوحـهـ القـانـونـيـةـ.ـ وأـخـيـراـ رـجـعـناـ إـلـىـ لـيمـاـ،ـ وـماـ كـدـنـاـ نـصـلـ حـتـىـ أـصـيـبـ زـوـجـيـ بـسـكـتـةـ قـلـبـيةـ أـودـتـ بـهـ.

- متأسف جداً. تلـعـثـ فـيـلـيـثـيـتوـ،ـ وـصـمـتـ آـرمـيدـاـ وـهـيـ تـخـفـضـ بـصـرـهاـ.ـ بينماـ ظـلـتـ خـيـرـتـرـوـدـيـسـ سـاـكـنـةـ وـغـيرـ مـتـأـثـرـةـ.

- أوـ أـنـهـماـ قـتـلـاهـ -ـ أـضـافـتـ آـرمـيدـاـ -ـ لاـ أـدـريـ.ـ كانـ يـقـولـ لـيـ إنـ لـدـىـ اـبـنـيهـ رـغـبةـ كـبـيرـةـ فـيـ أـنـ يـمـوتـ كـيـ يـسـتحـوـذـاـ عـلـىـ أـمـوالـهـ،ـ حتـىـ إنـهـماـ لـنـ يـتـورـعـاـ عـنـ إـرـسـالـ مـنـ يـقـتـلـهـ.ـ لـقـدـ مـاتـ بـيـنـ عـشـيـةـ وـضـحـاهـاـ وـأـنـاـ لـأـسـتـطـعـ أـنـ أـبـعـدـ عـنـيـ فـكـرـةـ أـنـ التـوـءـمـيـنـ -ـ اـبـنـاهـ توـءـمـانـ -ـ قـدـ تـسـبـبـاـ بـطـرـيـقـةـ مـاـ بـالـأـزـمـةـ الـقـلـبـيـةـ التـيـ قـتـلـتـهـ.ـ هـذـاـ إـذـاـ كـانـ سـكـتـةـ قـلـبـيةـ وـلـيـسـ سـُـمـّـاـ.ـ لـسـتـ أـدـريـ.

- الآـنـ صـرـتـ أـفـهـمـ سـبـبـ هـرـوـبـكـ إـلـىـ بـيـورـاـ وـسـعـيـكـ لـلـاخـتبـاءـ،ـ وـعـدـمـ خـرـوجـكـ إـلـىـ الشـارـعـ -ـ قـالـ فـيـلـيـثـيـتوـ -ـ هلـ تـظـنـنـ حـقـاـ أـنـ يـمـكـنـ لـابـنـيـ زـوـجـكـ أـنـ...؟ـ

- لاـ أـدـريـ إـنـ كـانـ ذـلـكـ يـدـورـ فـيـ رـأـيـهـماـ أـمـ لـاـ،ـ وـلـكـنـ إـسـمـاعـيلـ كـانـ

يقول إنهم لا يتورعان عن عمل أي شيء، بما في ذلك التسبب في قتله - كانت آرميدا قد انفعت وصارت تتكلم باندفاع - لقد بدأت أشعر بعدم الأمان، وبخوف شديد يا فيليثيتو. جرى لقاء معهما، عند المحامي. كانا يكلمانني وينظران إليّ بطريقة فكرت معها بأنهما قد يتسببان بقتلي أنا أيضاً. كان زوجي يقول إنه يجري الآن في ليما التعاقد مع قاتل مأجور ليقتل أي شخص مقابل بضعة سولات. فلماذا لا يفعلان ذلك من أجل الاستحواذ على كامل ميراث السيد كاريرا؟

توقفت قليلاً ونظرت إلى عيني فيليثيتو.

- لهذا قررت الهرب. فكرت في أنه لن يخطر ببال أحد المجرم للبحث عنني هنا، في بيورا. هذه هي القصة التي كنت أود إخبارك بها يا فيليثيتو.

- حسن، حسن - قال هذا الأخير - إنني أفهمك، أجل. الشيء الوحيد الذي ظهر لك هو سوء الحظ. لقد جاء بك القدر إلى فم الذئب. انظري كيف هي الأمور. هذا ما يقال عنه القفز من المقلة إلى النار يا آرميدا.

- قلت لك إنني سأبقى يومين أو ثلاثة أيام، وأؤكد لك أنني سأفي بوعدي - قالت آرميدا - إنني بحاجة إلى أن أتكلم مع شخص يعيش في ليما. إنه الشخص الوحيد الذي كان زوجي يثق به ثقة مطلقة. وكان شاهداً على زواجنا. هل تساعدنني على الاتصال به؟ لدى رقم هاتفه. هل تقدم لي هذا الجميل؟

- اتصلي به أنت بنفسك من هنا. قال صاحب شركة النقل.

- ليس من الحكمة أن أتصل به أنا - قالت آرميدا، وأشارت إلى الهاتف: - وماذا لو كان الخط مراقباً؟ كان زوجي يظن أنهم يتنصتون على كل هواتفنا. من الأفضل الاتصال من الشارع، أو من مكتبك، أو من

هاتفه الخلوي الذي يبدو أنه من الصعب التنصل عليه. أنا لا  
أستطيع الخروج من هذا البيت. ولهذا ألجأ إليك.

- أعطني الرقم والرسالة التي عليّ أن أوجهها - قال فيليثيتو -. سأقوم بالاتصال من المكتب، هذا المساء. وبكل سرور يا آرميدا.

في المساء، بعد أن اجتاز مرة أخرى، وسط التدافع، حاجز الصحفيين، وبينما هو يمشي في شارع اريكيبيا متوجهاً إلى مكتبه، قال فيليثيتو ياناكيه لنفسه إن قصة آرميدا تبدو خارجة من أحد أفلام المغامرات تلك التي تروق له مشاهدتها في المرات النادرة التي يذهب فيها إلى السينما. وهو الذي كان يظن أن تلك الأحداث شديدة القسوة ليس لها أية علاقة بالحياة الواقعية. غير أن قصة آرميدا، وقصته هو نفسه منذ تلقيه رسالة العنكبوت الأولى، ليست أكثر ولا أقل من فلمين من أفلام الأكشن.

في مقر ناريهوala للنقل، انسحب نحو ركن هادئ ليتصل بالهاتف دون أن تسمعه خوسيفيتا. وعلى الفور رد عليه صوت رجل بدا مضطرباً حين سأله عن السيد دون ريفوبيرتو. «من يريد؟؟؟»، سأل. بعد صمت قصير، رد عليه فيليثيتو: «طلب من صديقة». فقال الآخر: «أجل، أجل، إبني أنا. عن أي صديقة تكلمني؟؟؟».

- صديقة لك، تفضل عدم ذكر اسمها، لأسباب تفهمها حضرتك - قال فيليثيتو -. أظنك تعرف من هي المعنية.

- أجل، أظن ذلك - قال السيد ريفوبيرتو -. هل هي بحالة جيدة؟ - أجل، جيدة جداً وترسل إليك تحياتها. تريد التحدث مع حضرتك. شخصياً إن كان ذلك ممكناً.

- طبعاً، ممكّن بالطبع - قال السيد فوراً دون تردد -. يسعدني ذلك جداً. كيف نفعل؟

- أيمكن السفر إلى المنطقة التي هي فيها؟. سأله فيليثيتو.
- ساد صمت طويل، مع نحننات أخرى مصطنعة.
- يمكنني ذلك، إذا كان الأمر ضرورياً - قال أخيراً - متى سيكون السفر؟
- عندما تشاء - رد فيليثيتو - وكلما كان ذلك أسرع يكون أفضل.
- أتفهم الوضع - قال السيد ريفوبيرتو - سأتول شراء تذاكر السفر فوراً. هذا المساء بالذات.
- وأنا سأحجز لك الفندق - قال فيليثيتو - أيمكنك الاتصال بي على هذا الهاتف الخلوي عندما تحدد موعد سفرك؟ إنه هاتف لا يستخدمه أحد سواي.
- حسن جداً، اتفقنا - قال له السيد ريفوبيرتو مودعاً - تشرفت بك، وإلى اللقاء أيها السيد.
- عمل فيليثيتو ياناكيه طوال المساء في نارييهولا للنقل. وبين وقت وآخر كانت قصة آرميدا تعود إلى رأسه ويتساءل كم فيها من الحقيقة وكم من المبالغة. أمن المكان لسيد ثري، يملك شركة كبيرة، أن يتزوج خادمته؟ يكاد رأسه لا يتسع لهذا الأمر. ولكن هل هذا أشد غرابة من ابن ينتزع عشيقة أبيه، ويتفق معها على ابتزازه من أجل القضاء عليه؟ الجشع يحول البشر إلى مجانيين، إنه أمر معروف. عند الغروب، جاء إلى المكتب الدكتور هيلدبراندو كاسترو بوسو ومعه حزمة أوراق كبيرة محشورة في ملف أخضر ليموني.
- هأنـت ترى أن الموضوع لم يتطلب مني وقتاً طويلاً يا دون فيليثيتو
- قال له وهو يسلمه الملف -. هذه هي الوثائق التي عليك أن تجعله يقع عليها، حيث وضعـت إشارة X. سيوقع عليها سعيداً ما لم يكن مجنوناً.

راجعتها فيليثيتو بدقة. وجه بعض الأسئلة، وأجابه عليها المحامي، فأبدى رضاه. فكر في أنه قد اتخذ قراراً جيداً، وحتى لو كان هذا القرار لا يحل كل المشاكل التي تحيط به، إلا أنه سيزيح على الأقل عبئاً ثقيلاً عن كاهله. كما أن قلق الشك الذي كان يحمله منذ سنوات طويلة سوف يتبخّر إلى الأبد.

حين غادر المكتب، بدلأ من أن يتوجه مباشرة إلى البيت، قام بالاتفاق كي يمر على مفوضية الشرطة في جادة سانتشيث سيرُو. لم يكن النقيب سيلفا موجوداً، ولكن الرقيب ليتوما استقبله. وقد فوجئ بعض الشيء بطلبه.

- أريد مقابلة ميغيل بأسرع ما يمكن - كرر فيليثيتو ياناكي -. لا يهمني أن تكون أنت أو النقيب سيلفا حاضرين في المقابلة.

- حسن يا دون فيليثيتو، يخيل إلي أنه لن تكون ثمة مشكلة -. قال الرقيب -. سأكلم النقيب في الأمر غداً صباحاً.

- أشكرك - ودعه فيليثيتو -. سلم لي على النقيب سيلفا وقل له سكريتيري السيدة خوسيفيتا ترسل إليه تحياتها.



## XVIII

وصل دون ريفوبيرتو ودونيا لوكريثيا وفونتشيتو إلى بيورا في الفحى بطائرة شركة لان بيرو، وأوصلتهم سيارة أجرة من المطار إلى فندق لوس بورتاليس، في ساحة السلاح. الحجز الذي أنجزه فيليثيتو ياناكىه - غرفة مزدوجة وغرفة عادية متجاورتان - يتواافق تماماً مع رغبتهم. ما كادوا يتسلمون غرفتيهما حتى خرجوا ثلاثة للمشي. قاما بجولة على ساحة السلاح المظللة بأشجار تمر هندي عالية وقديمة ولملونة بلطخات أزهار شديدة الحمرة.

لم يكن الحر شديداً. توافعوا قليلاً لتأمل النصب المركزي، «لا بولا». إنه تمثال من المرمر لسيدة محاربة تمثل الحرية، مهدى من الرئيس خوسيه بلاتا في العام 1870، وألقوا نظرة سريعة على الكاتدرائية الكثيبة. ثم جلسوا في كافيتريا إلتشالون لتناول شراب مرطب. كان ريفوبيرتو ولوكرىثيا يرصدان محيط المكان، الناس المجهولين، بتكتم وبشيء من الريبة. هل سيتحقق فعلاً اللقاء المبرمج مع آرميدا؟ إنهم يتخمين ذلك بكل تأكيد، غير أن كل اللف والدوران الذي أحاط بهذه الرحلة يحول دون أن يأخذوا الأمر على محمل الجد تماماً. كان يبدو لهما أحياناً بأنهما يلعبان واحدة من تلك الألعاب التي يلعبها المسنون كي يبدوا شيئاً.

- لا، لا يمكن أن يكون الأمر مزاحاً أو كميناً - أكد دون ريفوبيرتو

مرة أخرى وهو يحاول إقناع نفسه -. السيد الذي تكلمت معه بالهاتف أثار فيّ انطباعاً جيداً، لقد أخبرتُك بهذا. إنه رجل بائس دون شك، ريفي، خجول بعض الشيء، ولكنه طيب النوايا. إنه شخص طيب، وأنا واثق من ذلك. وليس لدى أي قدر من الشك بأنه كان يتكلم باسم آرميدا حقاً.

- لا يبدو لك أننا نعيش حالة على شيء من عدم الواقعية؟ - ردت عليه دونيا لوكريثيا مع ضحكة عصبية. كانت تحمل في يدها مروحة يدوية من الصدف، تحرك بها الهواء أمام وجهها دون توقف -. أجد صعوبة في تصديق الأمور التي تحدث لنا يا رينغوبيرتو. مجيئنا إلى بيورا قائلين للجميع إننا بحاجة إلى الراحة. لم يصدق أحد ذلك بالطبع. بدا أن فونتشيتو لا يسمعهما. كان يتناول رشقات متباude من عصير ثمار اللوكماء المثلج، بينما عيناه مصوبتان إلى نقطة من المنضدة، غير عابئ مطلقاً بما يقوله أبوه وزوجته، كما لو أنه مستغرق في قلق خفي. إنه على هذه الحال منذ لقاءه الأخير مع إديلبيرتو تورييس، وقد كان هذا هو السبب الذي جعل دون رينغوبيرتو يصر على إحضاره معهما إلى بيورا، على الرغم من أنه سيُضيع أياماً من المدرسة بسبب هذه الرحلة. - إديلبيرتو تورييس؟ - طفر في مقعد مكتبه - أهو مرة أخرى؟ وكان

يتكلم عن الكتاب المقدس؟

- إنني أنا نفسي يا فونتشيتو - قال إديلبيرتو تورييس - لا تقل لي إنك قد نسيتني. لا أظنك جاحداً إلى هذا الحد.

- لقد قدمت اعترافي للتو وأنا أنجز الكفارنة التي حددتها لي الكاهن - تلعم فونتشيتو وهو يشعر بالمفاجأة أكثر من شعوره بالذعر -. لا يمكنني التحدث معك الآن أيها السيد، متأسف جداً.

- في كنيسة فاطمة؟ - كرر دون رينغوبيرتو غير مصدق، وهو يتلفت

كمن أصيب فجأة بداء هنتنفتون، موقعاً إلى الأرض كتاباً عن فن التانتريك كان يقرأ فيه -. هل كان هناك ، هو نفسه؟ في الكنيسة؟ - أتفهمك وأعتذر منك -. قال إديلبيرتو توريس خافضاً صوته ومشيراً إلى مذبح الكنيسة بإصبعه السبابية -. صل ، صل يا فونتشيتو ، فالصلة تُشعرك بالتحسن. ستحدث في ما بعد. أنا أيضاً سأصلني.

- أجل ، في كنيسة فاطمة - أكد فونتشيتو وهو شاحب الوجه ونظراته شاردة بعض الشيء -. ذهبت أنا وأصدقائي ، جماعة قراءة الكتاب المقدس ، ذهبنا للاعتراف. كان أصدقائي قد غادروا ، وكنت أنا الأخير في الدخول إلى حجرة الاعتراف. ولم يكن قد بقي أناس كثيرون في الكنيسة. وفجأة انتبهتُ إلى أنه هناك ، لا أدرى منذ متى. أجل ، كان هناك ، جالساً إلى جانبي. يا للخوف الذي شعرتُ به يا بابا. أعرف أنك لن تصدقني ، أعرف أنك ستقول إنني أختلف هذا اللقاء ، في هذه المرة. كان الحديث عن الكتاب المقدس ، أجل.

- حسنٌ حسن - تنازل دون ريفوبيرتو -. من الأفضل الآن أن نعود إلى الفندق. نتناول الغداء هناك. فالسيد ياناكيه قال لي إنه سيحصل بي في لحظة من لحظات بعد الظهر. هذا إن كان ذلك هو اسمه الحقيقي. إنه اسم غريب جداً، يبدو كالأسماء المستعارة لغنى الروك الذين تغطي الوشوم أجسادهم ، أليس كذلك؟

- يبدو لي أنه اسم ينتمي إلى ببورا جداً - أبدت دونيا لوكريثيا رأيها - ربما هو آت من حضارة التالانيين القديمة.

دفع الحساب وخرج الثلاثة من الكافيتيريا. ولدى احتياز ساحة السلاح ، اضطر ريفوبيرتو إلى إبعاد ماسحي الأحذية وبائعي اليانصيب الذين يعرضون عليه خدماتهم. لقد بدأ الحر يشتد الآن بالفعل. وكانت تظهر في السماء الصافية شمسٌ بيضاء ، وبدا كل ما حولهم من أشجار

ومقاعد وخزف وأناس وكلاب وسيارات كأنه يشتعل.

- متأسف يا بابا - همس فونتشيتو بأسى - أعرف أن ما قلته لك كان خبراً سيئاً، وأعرف أن هذه اللحظات صعبة جداً عليك، بعد موت السيد كاريرا واختفاء آرميدا. أعرف أنه من القذارة أن أفعل هذا. ولكنك أنت من طلبت مني أن أخبرك بكل شيء، وأن أقول لك الحقيقة. أليس هذا ما تريده. يا بابا؟

- لقد تعرضت لمشاكل مالية مثل الناس جميعاً في هذه الأوقات، وقد بدأت صحتي تخذلني - قال السيد إديلبيرتو توريس بوهن وغم - صرت أخرج قليلاً في الأونة الأخيرة. وهذا هو السبب في أنك لم ترني منذ أسابيع عديدة يا فونتشيتو.

- هل جئت إلى هذه الكنيسة لأنك تعرف أنني سأكون هنا أنا وأصدقائي الذين نقرأ الكتاب المقدس؟

- لقد جئت من أجل التأمل، من أجلطمأنينة نفسى، كي أرى الأمور بهدوء، وروية أكبر - أوضح إديلبيرتو توريس، ولكنه لم يكن يبدو هادئاً وإنما مرتجفاً، وكمن يعيش قلقاً عظيماً - كثيراً ما أفعل هذا. إنني أعرف نصف كنائس ليما، وربما أكثر. أشعر بالتحسن في أجواء العزلة والصمت والصلة هذه. بل تروقني رؤية الراهبات ورائحة البخور وربما رائحة القدم والعراقة أيضاً، بكل شرف. أنا أصلى أيضاً وأقرأ الكتاب المقدس يا فونتشيتو، حتى لو كنت تستغرب هذا. وهو دليل آخر على أنني لست الشيطان، مثلما يظن أبوك.

- سوف يستاء أبي حين يعلم أنني التقيت بك - قال الفتى - هو يعتقد أنه لا وجود لك، وأنني أنا من اختلفت وجودك. وكذلك زوجة أبي. يظننان ذلك حقاً. ولهذا تحمس أبي حين قلت حضرتك بأنه يمكنك أن تساعدنا في المشاكل القضائية التي هو متورط فيها. كان يريد

رؤيتك، اللقاء بحضورتك. ولكنك اختفيت.

- لم يفت الوقت لهذا الأمر - أكد السيد توريس -. ويسعدني اللقاء بدون ريفوبيرتو وطمأنته من الهواجس التي يشعر بها تجاهي. يسعدني أن أكون صديقاً له. فنحن في السن نفسها حسب تقديراتي. والحقيقة أنه لا أصدقاء لي، وإنما معارف فقط. إنني متأكد من أننا، هو وأنا، سنتفاهم جيداً.

- أنا أريد طبق سيكو دي تشابيلو - طلب دون ريفوبيرتو من النادل -. إنه الطبق التقليدي في بيورا، أليس كذلك؟

دونيا لوكريثيا طلبت سمكة غراب بحر مشوية مع سلطة مشكلة. واكتفى فونتشيتتو بطبق سيفتشي. كان مطعم فندق لوس بورتاليس شبه مقفر، وكانت هناك مراوح بطيئة تحافظ على برودة الجو. وكان ثلاثة يتناولون ليموناده مع كثير من الثلج.

- أريد أن أصدقك، أنا أعرف أنك لا تكذب عليّ، وأنك فتى نظيف وطيب المشاعر - أكد دون ريفوبيرتو بلامح ضجرة -. ولكن هذا الشخص تحول إلى ثقالة في حياتي وحياة لوكريثيا. يبدو أننا لن نتحرر منه أبداً، وأنه سيلحق بنا حتى القبر. ما الذي يريد الآن؟

- أن نخوض حديثاً حول أشياء عميقة، حوار أصدقاء - أوضح إديلبيرتو توريس -. الرب، الحياة الأخرى، عالم الروح، التسامي. مثل أساطير الكتاب المقدس، أعرف أن هذه الأمور تهمك الآن يا فونتشيتتو. أعرف كذلك أن تشعر بشيء من خيبة الأمل في قراءتك للعهد القديم. وأنك كنت تنتظر شيئاً آخر.

- وكيف تعرف هذا أيها السيد؟

- لقد أخبرتني به عصفورة - ابتسم إديلبيرتو توريس، ولكن لم يكن في ابتسامته أدنى قدر من السعادة، وإنما ذلك الحذر الخفي دوماً -. لا

تأخذ كلامي على محمل الجد، إنني أمنزح. الشيء الوحيد الذي أريد أن أقوله لك هو أن هذا يحدث لكل من يبدؤون قراءة العهد القديم. واصل، واصل، لا تفقد الحماسة. وسوف ترى كيف أن انطباعك سيكون مختلفاً.

- كيف عرف أنك كنت تشعر بخيبة الأمل من تلك القراءة التوراتية؟  
- انقبض دون رينغوبيرتو من جديد في غرفة مكتبه -. هل هذا صحيح يا فونتشيتو؟ هل تشعر بخيبة الأمل؟

- لست أدرى إن كنت أشعر بالخيبة - وافق فونتشيتو بشيء من الارتباك -. المسألة هي أن كل شيء في الكتاب المقدس عنيف جداً. ابتداء من الرب نفسه، يهوه. لم أتصوره قط بمثل هذه الشراسة، يطلق الكثير من اللعنات، يطلب رجم السيدات الزانيات، يأمر بقتل من يخالف الطقوس. يطالب بقطع غلفة أعداء العبرانيين. أنا لم أكن أعرف ما تعنيه غلفة إلى أن قرأت التوراة يا بابا.

- لقد كانت أزمنة بربوية يا فونتشيتو - طفأه إديلبيرتو تورييس، وكان يتكلم مع وقفات صفت كثيرة، ودون أن يتخلّى عن طريقته في الكلام المقتضب -. كل ذلك كان يحدث منذ آلاف السنين، في الأزمنة الوثنية وأزمنة أكل لحوم البشر. عالم كان فيه الطغيان والتعصب يسودان في كل مكان. أضف إلى ذلك أنه يجب عدم أخذ ما تقوله التوراة بحرفيته. فكثير مما يرد فيه رمزي وشعري ومبالغ به. وعندما اختفى يهوه الرهيب وظهر يسوع المسيح صار الرب وديعاً، رحيمًا ومتفهمًا، وسوف ترى ذلك. ولكن لتعرف هذا يجب أن تصل إلى العهد الجديد. عليك بالصبر والمثابرة يا فونتشيتو.

- عاد للقول لي إنه يريد اللقاء بك يا بابا. أينما كان وفي أي وقت. يحب أن تصبحا صديقين، لاسيما أنكمما في السن نفسها.

- هذه النغمة سمعتها في المرة الأخيرة التي تجسد لك فيها هذا الشبح، في تلك الحافلة - قال دون ريفولييرتو ساخراً - ألا يريد أن يساعدني في حل مشاكل القانونية؟ وماذا حدث؟ أتراه تبخر! سيفعل شيء نفسه هذه المرة أيضاً. باختصار، أنا لا أفهمك يا بني. هل تعجبك أم أنها لا تعجبك هذه القراءات في الكتاب المقدس التي أدخلت نفسك فيها؟

- لا أدرى إذا كنا نفعل ذلك بصورة جيدة - تهرب الصغير من الإجابة - فمع أنها تعجبنا كثيراً في بعض الأحيان، إلا أنها تبدو في أحيان أخرى معقدة ومشوّشة، كما هي تلك الشعوب التي تحارب اليهود في الصحراء. من المستحيل تذكر تلك الأسماء الغريبة جداً. أكثر ما يروق لنا هي القصص التي تُروي. ولا تبدو أنها أمور دينية، مثل مغامرات ألف ليلة وليلة. بيکاس شیریدان هو واحد من أصدقائي، قال قبل أيام إن هذه الطريقة في قراءة الكتاب المقدس ليست جيدة، وإننا لا نستفيد منه. وإنه من الأفضل أن نتخذ لنا دليلاً. أن نطلب مساعدة كاهن على سبيل المثال. ما رأيك أنت أيها السيد؟

- لذيد جداً - قال دون ريفولييرتو وهو يتذوق لقمة من طبقة السيكودي تشابيلو -. يعجبني كثيراً هذا التشخيص... هذه هي التسمية التي يطلقونها هنا على الموز المقلي والمفروم. ولكنني أخشى أن يكون عسير الهضم بعض الشيء في مثل هذا الحر الشديد.

بعد أن أكلوا أطباق طعامهم طلبوا مثلجات، وحين كانوا على وشك البدء بتناول التحلية، لمحوا سيدة تدخل إلى المطعم. وقبل أن تتجاوز قدمها الباب، تفحصت المكان باحثة. لم تكن شابة، إلا أنه كان فيها شيء طازج وبهيج، بقية شبابية في وجهها المعتلى والحالم، وفي عينيها المتقافرتين وفمهما بشفتيه العريضتين كثيرتي الطلاء. تباهى دون ظرافه

بأهداب اصطناعية ترمش، وبقرطين مستديرین يتارجحان، وترتدي ثوباً أبيض ضيقاً جداً ومطبعاً برسوم ورود. وركاها السخيان لا يسمحان لها برشاشة الحركة. بعد أن ألقت نظرة على المائد الثلاث أو الأربع المشغولة، توجهت بتصميم إلى المنضدة التي يجلس إليها الثلاثة. «السيد ريفوبيرتو، أليس كذلك؟»، سألت باسمة. مدت يدها لمصافحة كل واحد منهم، وجلست على الكرسي الشاغر.

- أسمي خوسيفيتا، وأنا سكرتيرة السيد فيليثيتو ياناكيه - قدمت نفسها - أهلاً بكم في مدينة رقصة التونديرو والتشي غوا. هل هي المرة الأولى التي تزورون فيها ببورا؟

لم تكن تتكلم بفمهما فقط، وإنما كذلك بعينيها المعبرتين، كثيرتي الحركة والخضراوين، وكانت تحرك يديها دون توقف.

- إنها المرة الأولى، ولكنها لن تكون الأخيرة - قال دون ريفوبيرتو بلطف - ألم يستطع السيد ياناكيه المجيء؟

- فضل لا يفعل ذلك، لأن السيد فيليثيتو، كما تعلمون، لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة في شوارع ببورا دون أن يلحق به سرب من الصحفيين. - صحفيون؟ - ذُعرَ فاتحاً عينيه على اتساعهما دون ريفوبيرتو -

وهل يمكننا أن نعرف لماذا يلاحقونه يا سيدة خوسيفيتا؟ - أنا آنسة - صحت له، ثم أضافت بحياء - مع أن هناك الآن متعدد يتقارب مني، وهو نقيب في الحرس الأهلي.

- ألف اعتذار يا آنسة خوسيفيتا - اعتذر ريفوبيرتو وهو ينحني لها -

أيمكنك أن تفسري لي لماذا يلاحق الصحفيون السيد ياناكيه؟ توقفت خوسيفيتا عن الابتسام. نظرت إليهم متراجئة وبشيء من الشفقة. وكان فونتشيتو قد خرج من غيبوبته وبدأ مهتماً أيضاً بما تقوله من وصلت للتو.

- ألا تعلمون أن دون فيليثيتو ياناكيه أوسع شهرة الآن من رئيس الجمهورية نفسه؟ - هتفت مذهولة، مُظهرة نقطة من لسانها - . منذ أيام طويلة وأخباره في الإذاعات والصحف والتلفزيون. ولكن لأسباب خبيثة بكل أسف.

وكلما تكلمت أكثر كان وجها دون ريفوبيرتو وزوجته يبديان دهشة متزايدة، بحيث لم تجد خوسيفيتا بدأ من أن تشرح لهما سبب تحول مالك شركة ناريهوala للنقل من شخص غير معروف إلى شخصية واسعة الشعبية. بدا واضحًا أن هؤلاء القادمين من ليما لا يعرفون شيئاً عن قصة العنكبوت والفضائح التي تلتها.

- هذه فكرة عظيمة يا فونتشيتو - وافق السيد إديلبيرتو توريس - من أجل الإبحار بانسيابية في بحر الكتاب المقدس، لا بد من الاستعانة ببحار مغرب. يمكن له أن يكون رجل دين مثل الأب أودونوفان، بكل تأكيد. ولكن يمكن الاستعانة بشخص علماني كذلك، شخص يكون قد كرس سنوات طويلة لدراسة العهدين القديم والجديد. أنا شخصياً على سبيل المثال. لا تظن أنني متبرج، فقد أمضيت في الحقيقة شطراً لا بأس به من حياتي في دراسة الكتاب المقدس. أرى في عينيك أنك لا تصدقني.

- إنه متعرض ومغرر بالقاصرين، ويريد الظهور الآن بمظهر اللاهوتي والخبير في دراسة الكتاب المقدس - قال دون ريفوبيرتو ساخطاً - . أنت لا تدرى كم أنا متلهف لرؤيتك وجهك يا فونتشيتو. سيقول لك في آية لحظة أنه هو نفسه كاهن.

- هذا ما قاله لي يا بابا - قاطعه فونتشيتو - . لم يقل إنه كاهن، بل إنه كان كاهناً. وإنه نزع عنه مسوح المدرسة الدينية قبل أن يُرسم. لأنه لا يستطيع تحمل العفة، كما قال لي.

- ما كان عليَّ أن أحدهُك في هذه الأمور، فأنت ماتزال صغيراً على هذا - أضاف السيد إديلبيرتو تورييس وقد شحب وجهه قليلاً وارتعد صوته - ولكن هذا هو ما حدث. كنتُ أستمني طوال الوقت، حتى مرتين في اليوم. وهو أمر يحزنني ويُوشبني. لأنَّه كان لدى، أؤكد لك، ميل قوي لخدمة الرب. ومنذ كنت طفلاً، مثلك. المشكلة فقط في أنني لم أتمكن قطًّا من هزيمة شيطان الجنس اللعين. وجاء وقت ظننت فيه أنني أصبت بالجنون بسبب الغوايات التي كانت تحاصرني في الليل والنهار. عندئذ لم يعد هناك مفر، واضطررت إلى مغادرة المدرسة الدينية.

- هل حدثك في هذه الأمور؟ - انزعج دون ريفوبيرتو - حدثك عن العادة السرية وعن الاستمناء؟

- وهل تزوجتَ عندئذ أيها السيد؟ سأله الصبي بخجل.

- لا، لا، مازلت عازباً حتى الآن - ضحك السيد تورييس كمن يفعل ذلك بشيء من الإكراه - الزواج غير ضروري من أجل أن تكون لأحدنا حياة جنسية يا فونتشيتتو.

- ولكنه ضروري في الديانة الكاثوليكية. أكد الصغير.

- صحيح، لأنَّ الديانة الكاثوليكية متشددَة ومتزمتة في موضوع الجنس - أوضح ذلك الرجل - هناك ديانات أخرى أكثر تسامحاً. أضف إلى ذلك أن هناك كثير من التسامح في هذه الأزمنة، حتى روما نفسها آخذة بتقبل التحديث، وإن كانت تجد صعوبة في ذلك.

- أجل، أجل، الآن تذكرت - قاطعت السيدة لوكريشيا كلام خوسيفيتا - أجل بالطبع، لقد قرأتُ عن ذلك في مكان ما أو أنني رأيته في التلفزيون. هل السيد ياناكِيه هو ذاك الذي كان ابنه وعشيقته يريдан اختطافه من أجل سرقة أمواله كلها؟

- حسن، حسن، هذا يكسر كافة حدود ما هو معقول - كان دون ريفوبيرتو قد ضجر من الأمور التي يسمعها -. هذا يعني أننا نحن من جئنا لندرس أنفسنا في فم الذئب. إذا كنتُ أفهم جيداً، فإن مكتب رئيسك وبنته محاطان بالصحفيين نهاراً وليلاً. أليس كذلك؟

- في الليل لا - حاولت خوسيفيتا، بابتسامة ظافرة، تشجيع ذلك السيد ذي الأذنين الكبيرتين الذي بدأ يبدي تكشیرات تبدو مخادعة - في البدء أجل، كان الصحفيون في الأيام الأولى لا يكلون. كانوا يحيطون بيبيته ومكتبه طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم. ولكنهم تعبوا، وصاروا الآن ينصرفون في الليل ليناموا أو ليسكروا، لأن جميع الصحفيين هنا من البوهيميين والرومانسيين. خطة السيد ياناكيه ستسير على ما يرام، لا تقلق.

- وما هي هذه الخطة؟ سألها ريفوبيرتو. وكان قد ترك المثلجات بعد أن تناول نصفها، وهو يحمل في يده الآن كأس الليمونادة التي انتهى للتو من إفراغها بجرعة واحدة.

الخطة بسيطة جداً. من الأفضل أن يظلوا في الفندق، أو أن يذهبوا إلى إحدى صالات السينما؛ توجد منها صلات كثيرة الآن، في المراكز التجارية الجديدة، وهي توصيهم بالمركز التجاري «أوبن بلازا»، في حي كاستيليا، غير بعيد، إنه ملاصق لجسر آندريس أبيلينو كاثيريس. من غير المناسب أن يظهروا في شوارع المدينة. وفي الليل، عندما ينصرف الصحفيون جميعهم من شارع اريكيبيا، سوف تأتي إليهم خوسيفيتا نفسها وتوصلهم إلى بيت السيد ياناكيه. إنه قريب، على بعد شارعين. - يا لسوء حظ المسكينة آرميدا - تحسرت دونيا لوكريثيا فور انصراف خوسيفيتا -. هي من جاءت حقاً لتقع في فخ أسوأ من الذي أرادت الهرب منه. لا أجد تفسيراً لمسألة كيف لم يتمكن الصحفيون أو

الشرطة من الإمساك بها حتى الآن.

- لا أريد استثارة استنكارك يا فونتشيتو ببوجي بأساري - اعتذر إديلبيرو توريس بندم وهو يخفض صوته وبصره - ولكن عذابي بسبب شيطان الجنس اللعين دفعني للذهاب إلى المواخير والدفع للمومسات. أمور فظيعة تجعلني أشعر بالقرف من نفسي. أرجو ألا تستسلم لهذه الإغواءات المقرفة مثلما جرى لي.

- أعرف جيداً إلى أين يريد الوصول بك ذلك المنحرف بحديثه لك عن ملامسات خبيثة وعاهرات - تنهنج دون ريفوبيرتو مختنقًا -. كان عليك أن تذهب فوراً ولا تجاريه بالاستماع إليه. ألم تلاحظ أنَّ بوحه المزعوم ما هو إلا استراتيجية لإيقاعك في شباكه يا فونتشيتو؟

- أنت مخطئ يا بابا - ردَّ عليه - أؤكد لك أن السيد توريس كان صريحاً، ولم تكن له نوايا أخرى. كنت أراه حزيناً، يكاد يموت حزناً لأنه فعل تلك الأمور. لقد احمررت عيناه فجأة، وانقطع صوته وبدأ يبكي من جديد. رؤيته على تلك الحال تعزق الروح.

- لحسن الحظ أنني أحضرت معي شيئاً جيداً للقراءة - علق دون ريفوبيرتو -. لأنَّ ما زال هنالك وقت طويل بانتظار حلول الليل. لا أظن أنكم ترغبان في دخول صالة سينما في مثل هذا الحر.

- ولم لا يا بابا؟ - اعترض فونتشيتو -. لقد قالت خوسيفيتا إن صالات السينما مزودة بأجهزة تبريد، وإنها صالات حديثة جداً.

- فلنر قليلاً من التقدم، ألا يقولون إن بيورا هي واحدة من أكثر مدن البيرو اندفاعاً في التقدم؟ - ساندته دونيا لوكريشيا -. فونتشيتو على حق. فلنقم بجولة في ذلك المركز التجاري، وربما يكون هنالك فيلم جيد. ففي ليما لا نذهب أبداً إلى السينما معَ كأسرة. هيا، تشجع يا ريفوبيرتو.

- أشعر بخجل شديد لإقدامي على تلك الأشياء الخبيثة والقذرة،

حتى إنني أفرض على نفسي بنفسي عقوبات التكفير. وفي بعض الأحيان أجلد نفسي، كعقاب، حتى يسيل الدم - اعترف إديلبيرتو توريس بصوت مُحزن يمزق القلب وبعينين محمرتين.

- أولم يطلب منك عندئذ أن تجلده أنت؟ - انفجر دون ريفوبيرتو -. سأفترش السماء والأرض بحثاً عن هذا المنحرف، ولن أتوقف حتى أجده وأسدد معه الحساب، إنني أنبهك. سيذهب إلى السجن أو سأطلق عليه رصاصة إذا ما حاول فعل شيء معك. قل له هذا على لسانك إذا ما ظهر لك مرة أخرى.

- وعندئذ داهمته نوبة بكاء أشد ولم يعد قادراً علىمواصلة الكلام يا بابا - هدا فونتشيتو أبيه - لا شيء مما تفكر فيه، أقسم لك أن لا. لأنه... تصور، وهو وسط ذلك البكاء، نهض فجأة وخرج راكضاً من الكنيسة، دون وداع ودون أي شيء. بدا يائساً، كمن هو ذاuber للانتحار. إنه غير منحرف، وإنما هو رجل يعاني كثيراً. وهو يستحق الشفقة وليس الخوف منه، أقسم لك.

وبينما هما في هذا الحديث، قاطعتهما طرقات عصبية خفيفة على باب غرفة المكتب. ففتح أحد مصرعي الباب وأطل وجه خوستينيانا قلقاً.

- لماذا تظنين أنني أغلقت الباب؟ - أوقفها ريفوبيرتو، وهو يرفع يداً مؤنبة، دون أن يتتيح لها أن تتكلم - ألا ترين أننا أنا وفونتشيتو مشغولان. - إنهم هنا يا سيدى - قالت الفتاة - لقد بقيا واقفين أمام الباب بالرغم من أنني قلت لهم إنك مشغول، إنهم يريدان الدخول.

- هما؟ - قال دون ريفوبيرتو متراجعاً - التوءمان؟

- لم أدرِ ماذا يمكنني أن أقول لهم، ولا ماذا أفعل - وافقته خوستينيانا بقلق شديد، وكانت تتكلم بصوت خافت وإيماءات - إنهم

يقدمان لك ألف اعتذار. يقولان إن الأمر مستعجل جداً، ولن يأخذنا من وقتك سوى بعض دقائق. ماذا أفعل يا سيدي؟

ـ لا بأس، أدخلهما إلى الصالون - استسلم ريفوبيرتو - وكوني متيقظة أنت ولوكريثيا، يجب استدعاء الشرطة إذا ما حدث أي شيء.

عندما انسحبت خوستينيانا، أمسك دون ريفوبيرتو ذراع فونتشيتو ونظر مطولاً إلى عينيه. كان يتأمله بمحبة، ولكن بجزع أيضاً يتبدى في كلامه غير الواثق والمتضرع:

ـ فونتشو، فونتشيتو، ابني الحبيب، أرجوك، أتوسل إليك بأعز ما لديك. قل لي إن كل ما روته لي ليس صحيحاً. وأنك أنت من اختلقته. وأنه لم يحدث. قل لي إن إديلبيرتو توريس لا وجود له وستجعلني بذلك أسعد إنسان على الأرض.

رأي وجه الطفل يعكس وهذا في المعنويات، وأنه بعض شفتيه إلى أن تحولتا بنفسجيتين.

ـ حسنٌ يا بابا - سمعه يقول بنبرة لم تعد نبرة طفل وإنما شخص بالغ - لا وجود لإديلبيرتو توريس. أنا من اخترعته. لن أحدهك أبداً بعد اليوم عنه. أيمكنني الانصراف الآن؟

أومأ ريفوبيرتو موافقاً. رأى خروج فونتشيتو من المكتب ولاحظ أن يديه ترتعشان. كان قلبه قد تجمد. إنه يحب ابنه كثيراً، ولكنه فكر أنه لن يتمكن من فهمه أبداً على الرغم من كل جهوده، سيظل بالنسبة إليه على الدوام سراً غامضاً لا يسبر أعمقه. وقبل أن يواجه الضبعين، ذهب إلى الحمام وبلل وجهه بماء بارد. لن يخرج أبداً من هذه المتابة، في كل مرة مزيد من الكوابيس، مزيد من الأقبية، مزيد من اللف والدوران. أهذه هي الحياة، مجرد متابهة ستوصلك، مهما فعلت، إلى براثن السكلوب؟

وفي الصالون، كان ابنا إسماعيل كاريرا ينتظرانه واقفين. كلاهما كان يرتدي بدلة مع صدار وربطة عنق، كالعادة، ولكن خلافاً لما كان يظنه ريفوبيرتو، لم يكن مجئهما بهدف قتالي. أكان حقيقةً مظهر الهزيمة والضحية الذي يبديانه، أم أنه تكتيك جديد؟ ما الذي يخفيانه؟ حياءً كلاهما بتعدد، وبتربيت على الظهور وبذل الجهد لإظهار الحزن. وكان إسکوبیتا هو الأول في الاعتذار.

- لقد أساءت التصرف جداً معك في آخر مرة كنا هنا يا عماه - دمدم بأسف وهو يفرك يديه - فقدت صبري، تفوحت ببلهات، وشتمتك. لقد كنت مصدوماً وشبه مجنون. أطلب منك ألف معذرة. إنني أختنق، لا أعرف النوم منذ أسابيع، أتناول أقراصاً لتهيئة الأعصاب. تحولت حياتي إلى كارثة أيها العم ريفوبيرتو. أقسم لك إننا لن نعود أبداً إلى إساءة احترامك.

- جماعينا نشعر بالاختناق، وهذا أقل ما يمكن في هذه الأحوال - اعترف دون ريفوبيرتو - فالآمور التي تحدث تُخرجنا عن طورنا. لا أشعر بأية ضغينة تجاهكم. اجلسا ولنتحدث. ما سبب هذه الزيارة؟

- لم نعد قادرين على تحمل المزيد يا عماه - بادر ميكى. وكان يبدو دوماً أكثر الاثنين جديةً وحكمة، على الأقل حين يتكلم - لقد صارت حياتنا لا تطاق. أتوقع أنك تعرف هذا. الشرطة تظن أننا اختطفنا أو قتلنا آرميدا. إنهم يستجوبوننا، يوجهون لنا أشد أنواع الأسئلة استفزازاً، يلاحقنا مخبرون طيلة الليل والنهار. يطلبون منا رشوة، وإذا لم نقدمها لهم يدخلون ويعيثون خراباً في بيوتنا في أي وقت. كما لو أننا مجرمون، كيف يبدو لك هذا.

- وهناك الصحف والتلفزيون يا عماه! - قاطعه إسکوبیتا - هل رأيت القذارات التي يوجهونها إلينا؟ كل نهار وكل ليلة، في كل

نشرات الأخبار ما رأيك. يقولون إننا مغتصباً بنا، مدمداً مخدرات، وأنه يمكن لنا، بمثل هذه السوابق، أن نكون المذنبين في اختفاء خلاصية البراز تلك. أي ظلم هذا يا عماه!

- إذا ما بدأتما بشتم آرميدا، وهي زوجة أبيكم سواه شئتم أم لا، فإنكم تبدآن بدية سيئة يا إسکوبیتا. أنت دون ریغوبیرتو.

- معك حق، آسف، ولكنني منفعل - اعتذر إسکوبیتا. وفي أثناء ذلك كان ميكي قد عاد إلى عادته القديمة بقبض أظفاره، إنه يفعل ذلك دون توقف، إصبعاً فإصبعاً، وبضراوة - أنت لا تعرف كم صارت فظيعة قراءة الصحف، وسماع المذياع، والتلفزيون. يفترون علينا طيلة النهار والليل، يسموننا منحليين، كسولين، مدمري كوكائين ولا أدرى كم من الأشياء المشينة الأخرى. في أي بلاد نعيش يا عماه!

- ولا فائدة ترجى من الذهاب إلى المحاكم، وطلب الحماية، لأنهم يقولون إن في ذلك اعتداء على حرية الصحافة - قال ميكي متذمراً. وابتسم دون أي مبرر، وعاد إلى إبداء مظهر الجد - ما علينا، نحن نعلم أن الصحافة تعيش على الفضائح. الأسوأ هو ما تفعله الشرطة. لا يبدو لك أمراً مشيناً أنهم، فوق كل ما فعله أبي معنا، يريدون جعلنا الآن مسؤولين عن اختفاء هذه المرأة؟ أصدروا بحقنا أمر إقامة جبرية مادامت التحقيقات متواصلة. حتى إنه لا يمكن لنا مغادرة البلاد، ولا سيما الآن حيث يبدأ «الأوبن ميامي».

- ما هو هذا الأوبن؟ قاطعه دون ریغوبیرتو مستغرباً.

- بطولة التنس، سوني أريكسون أوبن - أوضح له إسکوبیتا - لا تعرف أن ميكي أحد الأوائل في لعبة التنس يا عماه؟ نال كومة من الجوائز. لقد عرضنا مكافأة لمن يساعد في الكشف عن مكان آرميدا. ولكننا، وهذا كلام بيننا، لا نملك ما ندفعه. هذا هو الوضع الحقيقي.

إننا مفلسان. لم يبق لدى ميكى ولا لدى أنا أي شيء من النقود العاهرة. لدينا ديون وحسب. وقد تحولنا إلى موبوئين، لا وجود لصرف، ولا دائن، ولا صديق يوافق على إقراضنا سنتاً واحداً.

- لم يعد لدينا شيء نبيعه أو نرهنه أليها العم ريفوبيرتو - قال ميكى. وكان صوته يرتعش كثيراً، مع توقفات صمت طويلة، وعيناه ترمشان بلا توقف -. بلا فلس واحد، وبلا اعتماد، وكما لو أن هذا كله قليل، فإنهم يستبهون بنا في عملية اختطاف أو جريمة قتل. لهذا جئنا للقائك.

- أنت خشبة نجاتنا الأخيرة - أمسك إسکوبیتا يده وشدّ عليها بقوة مؤكداً وفي عينيه دموع -. لا تخذلنا، أرجوك يا عماه.

لم يستطع دون ريفوبيرتو أن يصدق ما يراه ويسمعه. لقد فقد التوءمان العجرفة والأمان اللذين كانا يميزانهما، إنهما يبدوان أعزلين، مرعوبين، متسللين إشفاقه عليهما. كيف تبدل الأحوال بمثل ذلك الوقت القصير!

- يؤسفني جداً كل ما جرى لكما يا بئي أخي - قال مطلقاً عليهمما هذه الصفة بلا سخرية لأول مرة -. أعرف أن ضرر كثرين يشكل عزاء للحمقى. ولكنني أفكر، على الأقل، بأن كل ما يلحق بهما من أذى، يصيب المسكينة آرميدا أكثر منه بكثير. أليس صحيحاً؟ سواء أكانوا قد قتلوا أم مازالوا يحتفظون بها مخطوفة، يا لنكتتها، ألا تريان ذلك؟ ومن جهة أخرى، أنا نفسي كنت ضحية أيضاً لظلمات كثيرة، على ما أعتقد. اتهاماتكما لي، على سبيل المثال، بالتوسط في عملية الخداع المزعومة التي كان إسماعيل ضحية لها بزواجه من آرميدا. أتدريان كم مرة كان عليّ أن أذهب للإدلاء بأقوالي لدى الشرطة وقاضي التحقيق؟ أتدريان كم هي أجور المحامين التي دفعتها؟ أتدريان أنتي اضطررت

منذ شهور إلى إلغاء رحلتي مع لوكريثيا إلى أوروبا بعد أن كنا قد دفعنا تكاليفها؟ وأنني مازلت غير قادر على البدء بتقاضي راتبي التقاعدي من شركة التأمين، لأنكما عرقلتما الإجراءات. وأخيراً، إذا كانت المسألة تعداد النكبات، فإننا ثلاثة نعانيها.

استمعا إليه مطربين، صامتين، متآثرين ومغضطرين. سمع دون ريفوبيرتو موسيقى غريبة هناك في الخارج، من جهة كورنيش بارانكو البحري. فهو صغير مجلخ السكاكيين العجوز مرة أخرى؟ يبدو أن هذين الاثنين يحاكيانه. كان ميكى يقضى أظفاره، بينما إسکوبیتا يؤرجم قدمه اليسرى بحركة رتيبة. أجل، إنها موسيقى المجلخ. سماها يسعده.

- لقد تقدمنا بتلك الشكوى لأننا كنا يائسين أيها العم، فزوج أبي جعلنا نفقد عقلنا - قال إسکوبیتا - أقسم لك إننا نأسف أشد الأسف على كل الإساءات التي تسببنا بها لك. ومسألة تقاعده ستخرج الآن سريعاً جداً كما أتصور. فكما تعرف، لم يعد لنا أية علاقة بالشركة. لقد باعها أبي لشركة إيطالية. حتى إنه لم يطلعنا على الخبر.

- والشكوى ضدك ستسحبها عندما تطلبُ منها ذلك يا عماه - أضاف ميكى -. فهذا بالتحديد أحد الأمور التي نريد التحدث معك عنها.

- شكرأً جزيلاً، ولكن تأخر الوقت قليلاً على ذلك - قال ريفوبيرتو -. فقد أوضح لي الدكتور أرنبياس أن المحاكمة التي شرعاها ضدي تصبح ملغاً بموجب إسماعيل.

- من مثلك يا عماه - قال إسکوبیتا وهو يُظهر، كما فكر ريفوبيرتو، غباءً أكبر مما هو متوقع عقلاً من كل ما يفعله أو يقوله -. يمكنني القول بكلمة عابرة إن الدكتور أرنبياس، هذا المخت بحمالتي بنطاله كمهرج، هو أسوأ خائن ولد في بيرو. لقد عاش على مصّ ثديي أبي

طوال حياته، وصار الآن عدونا المُعلن. إنه خادم مباع جسداً وروحاً لآرميدا، ولأولئك الإيطاليين المافياويين الذين اشتروا الشركة من أبي بسرع بحس.

- لقد جثنا لتسوية الأموروها أنت تزيدها تعقيداً - أنبه أخوه ميكى، ثم التفت إلى دون ريفوبيرتو بحزن -. نريد أن نسمع منك يا عماه. فعلى الرغم من أن مساعدتك لأبينا في ذلك الزواج ستؤلمنا دوماً، إلا أننا ثق بك. مذ لنا يد المساعدة، قدم لنا نصيحة. فقد سمعت في آية محن نحن، ولا ندرى ماذا نفعل. ما الذي تقترح علينا عمله؟ فأنت تمتلك خبرة كبيرة.

- هذا أفضل بكثير مما هو متوقع - هتفت دونيا لوكريثيا - متاجر لشركات ساغا فالابيّا، وتوتوس، وباساريلا، وديجافو، كما في أفضل محلات الشوبينغ في العاصمة.

- وست صالات سينما! جميعها مجهزة بأجهزة التكييف - صفق فونتشيتتو -. لا يمكنك أن تتذمر يا بابا.

- حسن - استسلم دون ريفوبيرتو -. اختارا أقل الأفلام سوءاً قدر الإمكان، ولندخل إلى إحدى صالات السينما وننتهي.

ولأن الوقت كان لا يزال بداية العصر والحر شديد في الخارج، فإن تواجد الناس كان قليلاً جداً في أجنبية مركز أوين بلازا التجاري الأنique. أما هنا في الداخل، فكان الهواء المبرد نعمة مباركة، وبينما راحت دونيا لوكريثيا تلقى نظرة على بعض الواجهات التجارية، واستغرق فونتشيتتو في دراسة قائمة الأفلام التي تُعرض، انجدب دون ريفوبيرتو إلى تأمل المناطق الرملية الصفراء التي تحيط بحرم جامعة بيورا الوطنية الفسيح، وأشجار الخروب المتفرقة الموزعة على تلك الألسنة الأرضية الذهبية، حيث العظام السريعة التي لا يراها، لكنه

يستطيع تخيلها، ترصد محيط المكان برؤوسها الصغيرة المثلثة وعيونها الفمضاء بحثاً عن حشرات. يا لغرابة قصة آرميدا! ففي هربها من فضيحة المحامين وابني زوجها الغاضبين، جاءت إلى بيت شخص هو بطل فضيحة أخرى عظيمة، فيها عناصر تشويق أشهى للصحافة الصفراء: زنا، ابتزاز، رسائل مغفلة تحمل توقيع عنكبوت، عمليات اختطاف واختطافات زائفة، وحتى زنا محارم على ما يبدو. إنه يتلهف الآن فعلاً للتعرف على فيلبيتيتو ياناكيه، واللقاء بآرميدا وإخبارها بحديثه الأخير مع ميكى وإسكوبيتا.

وبينما هو في هذه الأفكار، اقتربت منه دونيا لوكريثيا ومعها فونتشيتو. كان لديهما اقتراحان سينمائيان: قراصنة الكاريبي (الجزء الثاني)، وهو الفيلم الذي اختاره ابنه، و«غرام قاتل» اختارته امرأته. فوق اختياره على فيلم القرصنة، مفكراً في أنه سيكون تهويدة مناسبة إذا ما توصل إلى إغفاءة قيلولة، وأفضل من ميلودrama الدموع التي يوحى بها عنوان الفيلم الآخر. منذ كم من الشهور لم يدخل صالة سينما؟ - ولدى الخروج يمكننا المجيء إلى محل الحلويات هذا - قال فونتشيتو - يا لحلوه الرائعة!

«يبدو سعيداً ومستثاراً بهذه الرحلة»، فكر دون ريفوبيرتو. منذ وقت طويل لم ير ابنه مبتهجاً ومتھمساً بهذا الشكل. فمنذ ظهور إديلبيرتو توريس المشؤوم تحول فونتشيتو إلى شخص متحفظ، سوداوي، وسامٍ. أما الآن، في بيورا، فيبدو من جديد ذلك الفتى المرح، والفضولي والتحمس الذي كانه من قبل. داخل صالة السينما الحديثة لم يكن يوجد أكثر من ستة أشخاص.

استنشق دون ريفوبيرتو هواء، ثم أطلقه ووجه خطبته: - لدى نصيحة واحدة فقط أقدمها لكم - كان يتكلم بوقار - توصلا

إلى سلام مع آرميدا. تقبلا زواجهما من إسماعيل، تقبلوها باعتبارها زوجة أبيكما. انسيا حماقة أنكما تريدان إبطال الزواج. تفاوضا معها على تعويض مادي. لا تخدعا نفسيكما، لن تستطعهما أبداً أن تنتزعان منها كل ما ورثته. أبوكما كان يعرف ما الذي يفعله، وقد أحكم ترتيب الأمور جيداً. إذا ما أصرتانا على السير في هذه القضية القضائية، فسوف ينتهي بكم الأمر إلى قطع كل الجسور ولن تحصلا على سنتٍ واحد. تفاوضاً ودياً، توافقا على مبلغ، حتى لو لم يكن مثلما ترغبان، يمكن له أن يكون كافياً لتعيشا حياة جيدة، بلا عمل وباستمتاع، وبلعب التنفس، طوال حياتيكم.

- وماذا لو كان الخاطفون قد قتلواها يا عماه؟ - كانت عبارة إسكوبيتا مؤثرة جداً إلى حدّ أصيب معه ريفوبيرتو باختلاجة. وبالفعل: ماذا لو أنهم قد قتلواها؟ ماذا سيكون مصير تلك الثروة؟ هل ستبقى بين أيدي المصرفين والوكلاء والمحاسبين ومكاتب المحاماة الدولية التي تمتلكها الآن، ولن تكون بمنأى عن يد هذين الشيطانين البائسين وحسب، وإنما كذلك عن أيدي جباة الضرائب في العالم بأسره؟

- من السهل عليك أن تطلب منا مصالحة تلك المرأة التي سرقت منا أبانا يا عماه - قال ميكى مبدياً الحزن أكثر من الغضب -. وقد استحوذت فوق ذلك على كل ما كانت تملكه الأسرة، بما في ذلك الأثاث وملابس أمي ومجوهراتها. لقد كنا نحب أبانا كثيراً. ويوئلنا جداً وقوعه في شيخوخته ضحية هذه المؤامرة الدينية.

نظر دون ريفوبيرتو إلى عيني ميكى وحدق به. عديم الحياة الصغير هذا الذي ملأ بالمرارة سنوات إسماعيل الأخيرة، واستبقاءه هو نفسه ومعه لوكريشيا معلقين منذ شهور ومحتجزين في ليما ومحتفظين في مواعيد قضائية، يمنح نفسه الآن ترف إظهار النوايا الطيبة.

- لم تكن هناك أية مؤامرة يا ميكي - قال بتمهل، محاولاً عدم إظهار الغضب في كلماته -. أبوك تزوج لأنّه كان يشعر بعاطفة نحو آرميدا. ربما لم يكن حباً، ولكنها عاطفة كبيرة. فقد كانت طيبة معه، وواسته حين ماتت أمك. وقد كانت تلك مرحلة صعبة جداً، أحس فيها إسماعيل أنه وحيد.

- ويا للمواساة التي قدمتها إليه باندساسها في سرير العجوز المسكين - قال إسکوبیتا. وصمت حين رفع ميكي يده بحدة مشيراً له أن يطبق فمه. - ولكن، وقبل كل شيء، تزوج إسماعيل منها لخيبة أمله الرهيبة فيكما - واصل دون رигوبيرتو كما لو أن لسانه، ودون مشيئته، قد انفلت من تلقاء نفسه - أجل، أجل، أعرف جيداً ما أقوله لكم يا بئي أخي، أعرف ما الذي أتكلم عنه. وستعرفانه أنتما الآن أيضاً إذا ما استمعتنا إلى دون مزيد من المقاطعة.

كان قد بدأ برفع صوته، وكان التوءمان الآن هادئين ومتنهدين، وقد فوجئا بالصرامة التي يكلّمها بها.

- أتريдан أن أقول لكم لماذا كان يشعر بخيبة الأمل فيكما؟ ليس لأنكما كسولان ومحتالان وسكيران ومدخنا ماريغوانا وتتعاطيان الكوكائين كمن يتناول السكاكر. لا، لا، فكل هذا كان قادرًا على تفهمه، بل وغفرانه أيضاً. على الرغم من أنه كان يرغب، بالطبع، أن يكون ابنيا مختلفين جداً عما هما عليه.

- لم نأت هنا كي تهيننا يا عماه. احتج ميكي وقد احمر وجهه.

- لقد كان محبطاً منكما لأنّه علم أنكما تنتظران بفارغ الصبر أن يموت كي ترثاه. كيف عرفت ذلك؟ لأنّه هو نفسه أخبرني به. يمكنني أن أقول لكم أين، وفي أي يوم وأية ساعة. وأن أخبركم بالكلمات التي قالها لي حرفياً.

وخلال بضع دقائق، أخبرهما رينغوبيرتو، بكل هدوء، بتلك المحادثة التي جرت قبل شهور قليلة، أثناء ذلك الغداء في مطعم روساناوتيكا، حين أطلعه رئيسه في العمل صديقه على قراره بالزواج من آرميدا وطلب منه أن يكون شاهداً على ذلك الزواج.

- لقد سمعكما، في مستشفى سان فيليبي، تتفوهان بتلك الأمور البلياء والخبثة، بجوار سرير احتضاره - أنتما من سرعتما زواج إسماعيل وأرميدا لأنكم عديمي الإحساس وقاسيين. أو بعبارة أدق، لأنكم أحمقين. كان عليكم أن تخفيما مشاعركما على الأقل في تلك اللحظات، وأن تتركا أبيكما يموت بسلام، معتقداً أن ابنيه حزينين لما يحدث له. وليس البدء بالاحتفال بموته وهو لا يزال حياً ويسمعكما. لقد قال لي إسماعيل إن سماعه لكم تتفوهان بتلك الأمور الرهيبة منحه القوة للبقاء حياً، وللصراع ضد الموت. أنتما من تسببتما في بعثه حياً وليس الأطباء. حسن، ها أنتما تعرفان الآن. هذا هو السبب الذي جعل أباكم يتزوج من آرميدا. وكيلًا تكوننا أبداً الوريثين الوحدين لثروته.

- نحن لم نقل قط هذا الذي تقول إنه قال لك إننا قلناه - ذهل إسكوبيتا، وتحولت كلماته إلى لعثمات - لقد حلم أبي بذلك، بسبب الأدوية القوية التي أعطوه إليها لإخراجه من حالة الغيبوبة. هذا إن كنت تقول الحقيقة ولم تختلق هذه القصة كلها كي تخوزقنا أكثر مما نحن فيه.

بدا أنه يريد أن يضيف شيئاً آخر. ميكى لم يقل أي شيء وواصل قضم أظفاره بإصرار. تعكرت ملامحه وبدا قانطاً. وكان احتقان وجهه قد تفاقم.

- من المحمّل أن تكون قد قلنا ذلك وأنه سمعنا - صحق لأخيه بفظاظة - لقد قلنا ذلك مرات كثيرة، هذه هي الحقيقة يا عماه. لم نكن

نحبه لأنه هو أيضاً لم يحبنا قطّ. فأنا لا أذكر أنني سمعته يوجه إلينا كلمة محبة. لم يلعب معنا قطّ، لم يأخذنا إلى السينما أو إلى السيرك، مثلما يفعل آباء أصدقائنا جميعاً. وأظن أنه لم يجلس معنا قط لتبادل الحديث. لم يكن يكاد يكلمنا. لأنه ما كان يحب أحداً سوى شركته وعمله. أتدرى؟ لا أشعر بأي أسف لأنه علم أننا نكرهه. لأن هذه هي الحقيقة المجردة.

- أصمت يا ميكى، الغضب يجعلك تتلفظ بحمقات - اعترض إسکوبیتا - لا أدري لماذا رویت لنا هذا كله يا عماه؟

- لسبب بسيط جداً يابن أخي. من أجل أن تنزعوا من رأسيكما، إلى الأبد، تلك الفكرة السخيفه عن أن أبيكما قد تزوج من آرميدا لأنها مخبول، مصاب بحرف الشيخوخة، ولأنهم قدموا إليه أشربة أو مارسوا عليه فنون السحر الأسود. لقد تزوج لأنه علم أنكما تريدان له أن يموت بأسرع ما يمكن كي تستحوزا على ثروته وتبددانها. هذه هي الحقيقة الخالصة والمحزنة.

- من الأفضل أن نذهب من هنا يا ميكى - قال إسکوبیتا وهو ينهض عن المهد - أتري لماذا لم أكن راغباً في المجيء للقيام بهذه الزيارة؟ لقد قلت لك إن الأمر سينتهي بهذا الشخص إلى إهانتنا بدل أن يساعدنا، مثلما فعل في المرة السابقة. من الأفضل أن نغادر قبل أن يشتد غضبي من جديد وأحطم وجه هذا المفترى القذر.

- لا أدري ما هو رأيكما، أما أنا فقد أعجبني الفيلم كثيراً - قالت السيدة لوكريثيا - على الرغم من أنه فيلم أحمق، إلا أنني استمتعت بمشاهدته.

- إنه فيلم خيالي أكثر مما هو فيلم مغامرات - أيدها فونتشيتتو - أفضل ما رأيته فيه هم المسوخ والجماجم. ولا تقل لي إن الفيلم لم يرق

لك يا أبي. لقد كنت أراقبك ورأيتكم مستغرقاً بتركيز على الشاشة.

- حسن، الحقيقة أنني لمأشعر بأي ملل - وافق دون ريفوبيرتو - فلنأخذ سيارة أجرة كي نعود إلى الفندق. لقد بدأ الليل بالحلول واللحظة الحاسمة تقترب.

رجعوا إلى الفندق، واستحم دون ريفوبيرتو طويلاً تحت تدفق الدوش. فالآن، ومع اقتراب لحظة اللقاء بآرميدا، بدا له أن كل هذا الذي عاشه هو بالفعل، مثلما قالت لوكريثيا، لا واقعية مسلية وغير معقولة مثل الفيلم الذي شاهدوه للتو، ليس لها أدنى علاقة بالواقع المعيش. ولكن قشعريرة باردة جمدت ظهره فجأة. ربما أن عصابة قتلة، من مجرمين دوليين، عارفين بالثروة الكبيرة التي خلفها إسماعيل كاريرا، يقومون الآن بالذات بتعذيب آرميدا. بانتزاع أظفارها، وقطع إصبعها أو صلم أذنها، أو انتزاع إحدى عينيها، من أجل إجبارها على التنازل عن الملايين التي يطلبونها منها. أو ربما يكونون قد تجاوزوا الحد في تعذيبها وهي الآن ميتة ومدفونة. استحمت لوكريثيا أيضاً، ثم ارتدت ملابسها ونزلت إلى البار لتناول كأس شراب. أما فونتشتيتو فظل في غرفته يشاهد التلفاز. قال إنه لا يريد تناول طعام؛ سيكتفي بطلب سندوتش وينام.

كان البار ممتلئاً بالرواد، ولكن بدا أن لا أحد يوليهما أدنى اهتمام. جلسا إلى منضدة منزوية جداً وطلبا كأسين ويسكي مع صودا وثلج.

- مازلت غير مصدقة أننا سوف نرى آرميدا - قالت دونيا لوكريثيا -

أيكون الأمر حقيقياً؟

- إنه إحساس غريب - أجابها ريفوبيرتو - الإحساس بأننا نعيش خيالاً، حلماً يمكن له أن يتحول إلى كابوس.

- خوسيفيتا، يا لهذا الاسم الذي تحمله، ويا لهيئتها - علقت

لوكريثيا -. الحقيقة أن أعصابي متوتة. وماذا لو كان هذا كله فخاً من بعض الأوغاد من أجل ابتزاز نقود منك يا ريفوبيرتو؟

— سيصابون بخيبة أمل عظيمة - قال ضاحكاً - لأن محفظتي فارغة. ولكن المدعوة خوسيفيتا لها هيئة يمكن لها أن تكون أي شيء باستثناء كونها مجرمة. أليس كذلك؟ والشيء نفسه ينطبق على السيد ياناكيه؛ فقد بدا لي خلال مكالمته الهاتفية أنه أشد كائنات هذه الدنيا بُعداً عن العدوانية.

أنهيا تناول ال威سكي، وطلبا كأساً أخرى لكل منهما، ثم انتقلا بعد ذلك إلى المطعم. ولكن أيهما لم يكن يشعر برغبة في الأكل، وهذا، بدل أن يجلسا إلى منضدة ذهبا للجلوس في صالة المدخل الصغيرة. ظلا هناك حوالي الساعة، يتآكلهما القلق، دون أن يزيحَا أعينهما عن الناس الذين يدخلون إلى الفندق ويخرجون منه.

وأخيراً جاءت خوسيفيتا، بعينيها المتقاوزتين، وقرطيها الكبيرين، وردفيها الفخمين. كانت تلبس كما في الصباح. جاءت بملامح جدية جداً وإيماءات تأمّرية. اقتربت منها بعد أن استطاعت بعينيها المتحركتين محيط المكان حولهما، ودون أن تفتح فمها ولو لقول لهم مساء الخير، أو مات إليهما بأن يتبعاهما. خرجا في إثرها إلى ساحة السلاح. دون ريفوبيرتو الذي يكاد لا يشرب مطلقاً، تسبب له كأساً ال威سكي بدوره خفيف، وأصابه هواء الشارع بشيء من التشوش الإضافي. جعلتهما خوسيفيتا يدوران حول الساحة ويمران بمحاذة الكاتدرائية، ثم ينعطفان بعد ذلك إلى شارع اريكبيا. كانت المتاجر قد أغلقت، بينما ظلت واجهاتها مضاءة ومحمية بشباك معدنية، ولم يكن هناك عابري سبيل كثيرون على الرصيفين. عند الوصول إلى كتلة الأبنية الثانية، أشارت لهما خوسيفيتا إلى البوابة الكبيرة لبيت قديم، نوافذه

مسدلة الستائر، ودون أن تقول ولو كلمة واحدة، أومأت لهما بيدها مودعة. رآياها تبتعد مسرعة، متباخرة، دون أن تلتفت. اقترب دون ريغوبيرتو ودونيا لوكريثيا من البوابة الضخمة المزينة بمسامير حديدية كبيرة، ولكن البوابة انفتحت قبل أن يطرقها عليهما، ودمدم صوت ذكوري باحترام شديد: «تفضلاً، ادخلوا من فضلكم».

دخلوا. وفي بهو سيئ الإضاءة، فيه مصباح وحيد يهزم هواء الشارع، استقبلهما رجل ضئيل ونحيل، محشور في بدلة محكمة مع صدار. انحنى لهما انحناءة كبيرة وهو يمد إليهما في الوقت نفسه يد طفل: - أتشرف بالترحيب بكم في بيتي.. فيليثيتون ياناكيه في خدمتكما. تفضلاً، تفضلاً.

أغلق الباب الخارجي وقادهما عبر البهو شبه المظلم باتجاه صالة ظليلة أيضاً، حيث يوجد جهاز تلفاز ورف صغير عليه أسطوانات مدمجة. رأى دون ريغوبيرتو شبحاً أنتوياً ينهض منتصباً عن أحد المقاعد. تعرّف على آرميدا. وقبل أن يتمكن من تحيتها سبقته إليها دونيا لوكريثيا، ورأى امرأته تعانق أرملة إسماعيل كاريلا بقوة. انفجرت المرأةان كلتاهم بالبكاء، كما لو أنهما صديقتان قد يلتقيان بعد سنوات طويلة من الغياب. وعندما جاء دوره لتحيتها، قرّبت له آرميدا خدها ليقبله. وقد فعل ذلك مدمداً: «يا للسعادة برؤيتك سليمة ومعافاة يا آرميدا». وشكرته هي لمجيئه، فليكافئك الله، وإسماعيل أيضاً سيشكرك من هناك، حيث هو الآن.

- يا لها من مغامرة يا آرميدا - قال ريغوبيرتو -. أظنك تعرفين أنك المرأة التي يبحث عنها الجميع في بيرو. والمرأة الأوسع شهرة أيضاً. تظهررين في التلفزيون صباح مساء، والجميع يظنون أنك مختطفة.

- لا أجد الكلمات الكافية لشكركم على تحملكم مشقة المجيء إلى

بيورا - قالت وهي تمسح دموعها - إنني بحاجة إلى مساعدتكم. لم يعد بإمكانني البقاء لمزيد من الوقت في ليما. فتلك المواعيد مع المحامين، ومع الكتاب بالعدل، واللقاءات مع ابني إسماعيل، بدأت تسبب لي الجنون. كنت بحاجة إلى قليل من الهدوء كي أتمكن من التفكير. لست أدرى ما الذي كنت سأفعله من دون خيرتروديس وفيليثيو. هذه أختي وفيليثيو صهرى.

ووسط ظلال الحجرة ظهرت هيئة غائمة. ومدّت المرأة المنفة بجلباب يدها التخينة المترعرعة وصاحتها مع انحناء من رأسها، دون أن تتفوه بكلمة واحدة. وإلى جانبها، وقف الرجل الضئيل الذي يبدو أنه زوجها، بدا أكثر ضآلة، أشبه بعفريت قزم. وكان يحمل بكلتا يديه صينية فيها كؤوس وقوارير شراب غازي :

- لقد جهزتُ لكما بعض المرطبات. تفضلوا، رجاء.
- لدينا حديث كثير معك يا آرميدا - قال دون ريفوبيرتو - ، ولا أعرف من أين أبدأ.
- من الأفضل البدء من البداية - قالت آرميدا - ولكن، اجلسا، اجلسا. إنكم جائعان. لقد حضرنا أنا وخيرتروديس شيئاً لتناوله أيضاً.

## XIX

عندما فتح فيليثيتو ماناكيه عينيه كان الوقت فجراً، ولم تكن العصافير قد بدأت تغرد بعد. فكر: «هذا هو اليوم». كان الموعد مقرراً في الساعة العاشرة صباحاً، مازال لديه نحو خمس ساعات. لم يكن يشعر بالعصبية؛ فهو يعرف كيف يحافظ على التحكم بنفسه، لن يسمح للغضب بأن يسيطر عليه، وسيحدثه بكل هدوء. فالقضية التي أرقته طيلة حياته ستُسوى اليوم وإلى الأبد، وستأخذ ذكرها بالثلاثي شيئاً فشيئاً إلى أن تختفي من ذاكرته.

نهض، أزاح الستائر، وبينما هو حافي القدمين وبجامته ذات المقاس الطفلي، مارس لمدة نصف ساعة تمارين الكي جونغ بالبطء والتركيز اللذين علمه إياهما الصيني لاو. فمن أجل التوصل إلى الكمال في كل حركة من حركاته، كان يتبع للجهد أن يستحوذ على وعيه بالكامل. وفker: «كنت على وشك إضاعة المركز ولم أتوصل بعد إلى استعادته». ناضل كيلا يتغلب عليه وهن العزيمة مرة أخرى. ليس غريباً فقدانه التركيز مع التوتر الذي يعيشه منذ تلقيه رسالة العنكبوت الأولى. من بين كافة الشروح التي قدمها إليه البقال لاو حول الكي جونغ - هذا الفن، الرياضة، الديانة أو أية تسمية أخرى، الذي علمه إياه وصار منذ ذلك الحين جزءاً من حياته - الشيء الوحيد الذي فهمه بكمال أبعاده هو «العثور على المركز». كان لاو يكرر ذلك في كل مرة يضع فيها يديه

على رأسه أو على معدته. وأخيراً فهم فيليثيتو: «المركز» الذي لا بد من العثور عليه، ولا بد من تحميته بحركة دائيرية براحتي اليدين على البطن، حتى الإحساس بأن قوة غير مرئية تخرج من هناك وتمنحه شعوراً بالطفو، لم يكن ذلك مركز جسده وحسب، بل شيء أشد تعقيداً، إنه رمز لنظام وسكونة، سُرّة للروح، إذا ما تمكن المرء من تحديده جيداً والسيطرة عليه، فسوف يطبع حياته بمغزى واضح وتنظيم متناسق. ولقد سيطر عليه في هذه الفترة الأخيرة الإحساس - اليقين - بأن مركزه قد ضاع وأن حياته آخذت تغرق في الفوضى.

يا للصيني لاو المسكين. لم يكونا صديقين بكل معنى الكلمة، لأن علاقة الصداقة تتطلب التفاهم كلامياً، ولا و لم يتعلم الإسبانية فقط، بالرغم من أنه كان يفهم كل شيء تقريباً. لكنه يتكلم لغة إيماءات وحركاتمحاكاً يمكن من خلالها فهم ثلاثة أرباع ما يقوله. أما الصينية التي تعيش معه وتساعده في الدكان؛ فهي تفهم كما يبدو ما يقوله الزبائن، ولكنها نادراً ما تتجروا على التوجّه إليهم بالكلام، مدركة أن ما تقوله ليس سوى أصوات مختلطة، يصعب فهمها أكثر من صعوبة فهم إيماءات لاو. لقد كان فيليثيتو يظن، لوقت طويل، أنهما زوج وزوجة، ولكن في أحد الأيام، حين كان الاثنان قد نسجاً علاقة تشبه الصداقة، ولكنها ليست كذلك، تمكن لاو من إفهامه أن تلك المرأة الصينية، في الحقيقة، هي أخته.

كان دكان لاو عند تخوم بيورا آنذاك، حيث تلتقي المدينة بالأراضي الرملية، من جهة التشبيه. ما كان يمكن للمكان أن يكون أشد بؤساً: كوخ من عيدان أشجار الخروب مع سقف من التوبياء مثبت بأحجار، مقسوم إلى قسمين، قسم للدكان، وهو حجرة صغيرة فيها منضدة كونتوار وخزان جدارية مرتجلة، والقسم الآخر هو الذي يعيش فيه الأخوان،

ويأكلان وينامان. وكان لديهما بعض الدجاج والماعز، وقد امتلكا في إحدى المرات خنزيراً أيضاً، ولكنه سُرق منهما. وهما يعيشان بفضل سائقي الشاحنات الذين يمرون من المكان أثناء توجههم إلى سويانا أو بايتا، ويتوقفون هناك لشراء سجائر أو مياه غازية أو بسكويت أو لتناول زجاجة بيرة. وكان فيليثيتو يعيش في الجوار، في ثُرثُر تملّكه أرملة، قبل سنوات من انتقاله إلى بنسيون «شجرة الخروب». المرة الأولى التي اقترب فيها من دكان لاو - حدث ذلك في ساعة مبكرة جداً من الصباح - وجده يقف منتسباً وسط الرمال، لا يرتدي شيئاً سوى البنطال، بينما صدره بارز العظام عار، ويقوم بممارسة تمارين غريبة بحركة كاميلا بطيئة. لسعه الفضول، ووجه إليه أسئلة، فحاول الصيني بإسبانيته الكاريكاتورية أن يشرح له ما الذي يفعله بتحريك ذراعيه ببطء والتوقف أحياناً دون حراك مثل تمثال، وبعينين مغمضتين، كما لو أنه يحبس أنفاسه. منذ ذلك الحين، صار سائق الشاحنة يستغل أوقات فراغة ليذهب مسرعاً إلى ذلك الدكان كي تبادل الحديث مع لاو، إن كان يمكن تسمية ذلك الذي يفعله تبادلاً للحديث، إذ كانا يتواصلان بإشارات وإيماءات يحاولان أن يكملوا بها الكلمات، وهي إيماءات تدفعهما أحياناً، عند أي عدم تفاهم، إلى الانفجار في الضحك.

لماذا لم يكن لاو وأخته يلتقيان بصيني البيرو الآخرين؟ هنالك عدد لا بأس به منهم، بينهم أصحاب مطاعم وحانات ومتاجر، وبعضهم مزدهرين جداً. ربما لأنهم جميعهم في وضع أفضل بكثير من وضع لاو، وهم لا يريدون الإساءة لسمعتهم بالاختلاط مع هذا الفقير الذي يعيش كمتوحش بدائي، دون أن يستبدل أبداً البنطال المزيل كثثير الثقوب وقمصيه الوحيدتين اللذين يرتديهما مفتوحين على الدوام تقريباً، كاشفأ بذلك عن عظام صدره. وقد كانت أخته هيكلًا عظيمًا صامتاً كذلك،

ولكنها هيكل عظمي نشيط جداً، فهي من تقدم العلف للحيوانات، وتذهب لشراء الماء والمؤن من الموزعين في أمكنة قريبة. لم يستطع فيليثيتو قط أن يتحرى أي شيء في حياتهما، كيف ولماذا جاءا إلى البيرو من بلادهم النائية، ولماذا لم يستطيعا، خلافاً للصينيين الآخرين في المدينة، من التقدم قدمًا وظلاً غارقين في البؤس.

كانت واسطة تواصلهما الحقيقة هي رياضة الكي جونغ. في البدء، راح فيليثيتو يحاكي حركات لاو كمن يلعب، غير أن لاو لم يأخذ الأمر على محمل المزاح، بل حثه على المثابرة، وتحول إلى معلم. معلم صبور، لطيف، متفهم، يرافق بإسبانيته البدائية كل حركة من حركاته وأوضاعه، بشرح يفهمها فيليثيتو بصعوبة. ولكن، شيئاً فشيئاً، سمح للعدوى بنموذج لاو أن تنتقل إليه، وبدأ يمارس طقوس الكي جونغ، ليس لدى زيارته الدكان وحسب، وإنما كذلك في ثُزل الأرمدة، وفي الأمكنة التي يأوي إليها للراحة خلال سفرياته. لقد أعجبه ذلك. وأحس بأنه مفيد له. يجعله يهدأ حين يكون عصبياً، ويمنحه طاقة وقدرة على التحكم بالتبديلات اليومية. وساعدته على اكتشاف مركزه.

في إحدى الليالي، أيقظت صاحبة الثُزل فيليثيتو قائلة له إن امرأة الدكان الصينية شبه المجنونة تقف عند الباب مطلقة الصرخات، وليس هناك من يفهم ما تقوله. خرج فيليثيتو بسرواله الداخلي. كانت أخت لاو مشعة الشعر، تومئ مشيرة إلى الدكان وهي تطلق صرخات هستيرية. ركض وراءها ووجد هناك صاحب الدكان عارياً، يتلوى من الألم على حصیر، مع حرارة مرتفعة جداً. تكلف مشقة في العثور على سيارة تنقل لاو إلى أقرب مركز إسعاف عمومي. وهناك قال له الممرض المناوب إنه يجب نقله إلى المستشفى، لأن مركز الإسعاف لا يقدم سوى إسعافات خفيفة، وهذه الحالة تبدو حرجة. تطلب الأمر أكثر

من نصف ساعة للعثور على سيارة أجرة تحمل لاو إلى قسم الطوارئ في المستشفى العمالي، حيث تركوا البقال مطروحاً على مقعد خشبي حتى الصباح التالي، لأنه لا وجود لأسرة شاغرة. وفي اليوم التالي، حين رأه طبيب في نهاية المطاف، كان لا يحتضر. وقد مات بعد ساعات قليلة. لم يكن هناك من يدفع نفقات دفنه - كان فيليثيتو يكسب ما يكفي لطعامه فقط - فدفنه في قبر جماعي، بعد تلقي وثيقة توضح أن سبب وفاته تعفن معوي.

المثير للفضول في الأمر أن أخت لاو قد اختفت في ليلة موت البقال نفسها. لم يعد فيليثيتو إلى رؤيتها أو سمع أي خبر عنها قط. أما الدكان فتم السطو عليه ونهبه في ذلك الصباح بالذات، وبعد بعض الوقت أخذوا صفائح التوتية والعارض الحديدية، بحيث لم يبق بعد أسباب قليلة أي أثر من الأخوين. وعندما ابتلع الزمن والصحراء آخر آثار الكوخ، أقيمت في المكان ساحة لصراع الديوك، لكنها لم تلق نجاحاً كبيراً. أما الآن، فتحول المكان إلى جزء من مدينة إلتشيببيه، وصار فيه عمران، وشوارع وكهرباء، وماء وصرف صحي، وبيوت أسر مزدهرة من الطبقة الوسطى.

بقيت ذكري البقال لاو حية في ذاكرة فيليثيتو. تتجدد في كل صباح، بعد ثلاثين عاماً، في كل مرة يمارس فيها تمارين الكي جونغ. لقد انقضى زمن طويل وما زال يتساءل أحياناً عن مغامرة لاو وشقيقته، عن سبب مغادرتهما الصين، وأية ظروف عانياها واضطررتهما إلى البقاء في بيوتا محكومين بتلك الحياة الحزينة والتوحدة. كان لا يكرر بكثرة أنه لا بد من العثور على المركز، وهو أمر، على ما يبدو، لم يستطع التوصل إليه قط. لقد قال فيليثيتو لنفسه إنه ربما سيتمكن اليوم، حين يفعل ما هو ذاته ل فعله، من استعادة مركزه المفقود.

أحس ببعض التعب عند الانتهاء، وكان قلبه ينبعض بسرعة أكبر قليلاً. استحمل بهدوء، لُع حذاءه، ارتدى قميصاً نظيفاً وتوجه إلى المطبخ ليُعدّ فطوره المعهود، المكون من حليب الماعز والقهوة وشريحة خبز أسود سخّنها في آلة التحميص، وطلالها بالزيت وعسل تسانكاكا. كانت الساعة السادسة والنصف صباحاً حين خرج إلى شارع اريكيبيا. وكان لوثيندو الأعمى قد اتخذ مكانه عند الناصية، كما لو أنه ينتظره. وضع قطعة عملة من فئة سول في علبة الأعمى المعدنية وتعرف عليه الأعمى في الحال:

- صباح الخير يا دون فيليثيتو. إنك تخرجاليوم في وقت أبكر من المعتاد.

- هذا يوم مهم بالنسبة لي، ولدي عمل كثير. تمنى لي أن يحالبني الحظ يا لوثيندو.

أناس قليلون كانوا في الشارع. فكان المشي ممتعاً على الرصيف دون أن يكون المرء محاصراً بالصحفيين. والأكثر متعة هو معرفة أن هزيمة كبرى محققة قد أثبتت بأولئك الصحفيين: لم يتمكن أولئك التعساء من اكتشاف أن آرميدا، المختطفة المزعومة، وأكثر شخصية كان البحث جار عنها من قبل صحافة البيرو، وقد أمضت أسبوعاً كاملاً - سبعة أيام بليلاتها! - مختبئة في بيته، تحت أنوفهم، دون أن يخطر لهم ذلك. المؤسف فقط أنهم لن يعلموا أبداً بأنهم قد خسروا بذلك خبطه القرن الصحفية. لأن آرميدا، في مؤتمرها الصحفي الحاشد الذي عقده في ليما، محاطة بوزير الداخلية وقائد الشرطة، لم تكشف للصحافة عن أنها التجأت إلى بيورا، عند اختها خيرتروديس. اكتفت بالإشارة بصورة غائمة إلى أنها كانت في بيت بعض الأصدقاء كي تهرب من ملاحقة الصحافة التي أوصلتها إلى حافة أزمة عصبية. تابع

فيليثيتو وزوجته عبر التلفاز ذلك المؤتمر الصحفي الذي غص بالصحفيين، ووبيض الفلاشات والكاميرات. وقد دُهل صاحب شركة النقل للطلاقة التي ترد بها أخت زوجته على الأسئلة، دون أن تتورط في الكلام، ودون أن تتباكى، بل كانت تتكلم بهدوء وبكلام جميل. فتواضعها وبساطتها، كما سيقول الجميع في ما بعد، أكسباها تعاطف الرأي العام الذي صار أقل استعداداً، منذ الاستماع إليها، لتصديق صورة الانتهازية الجشعة الساعية للزواج من ثري التي أشاعها عنها ابنها إسماعيل كاريلا.

خروج آرميدا من مدينة بيورا، بصورة سرية، في منتصف الليل، في واحدة من سيارات ناريهموا لالنقل، يقودها ابنه تيبورثيو، كان عملية خطط لها ونفذت باتقان، دون أن ينتبه أحد إليها، ابتداء من الشرطة وانتهاء بالصحفيين. في البدء، كانت آرميدا تريد أن يأتي من ليما ليأخذها شخص يدعى نرسيس، السائق السابق لزوجها المتوفى والذي تثق به كثيراً، إلا أن فيليثيتو وخيرتروديس أقنعاها بأن يتولى قيادة السيارة تيبورثيو الذي يثقان به ثقة عمياء. إنه سائق رائع، وشخص متكلم، وهو ابن أختها فوق ذلك كلّه. كما أن السيد دون ريفوبيرتو شجعها كثيراً على العودة إلى ليما بأسرع ما يمكن، والخروج إلى العلن من أجل تبديد ظنون آرميدا.

تم كل شيء، مثلما خططوا له. فقد رجع دون ريفوبيرتو وزوجته وأبنه إلى ليما بالطائرة. وبعد يومين من ذلك، حضر تيبورثيو إلى البيت في شارع اريكيبا في الموعد المتفق عليه، بعد منتصف الليل، وكان قد وافق بطيب خاطر على التعاون في الخطة. ودعّعتهم آرميدا بقبلات ودموع والامتنان. وبعد اثنين عشرة ساعة من سفر بلا عقبات، وصلت إلى بيتها في سان إيسيدرو بالعاصمة ليما، حيث كان بانتظارها محاموها

وحراسها الشخصيون والسلطات، وكانوا جميعهم سعداء لإعلان أن أرملة إسماعيل كاريرا قد عادت للظهور سالة وعافية، بعد ثمانية أيام من الاختفاء الغامض.

حين وصل فيليثيتو إلى مكتبه في جادة سانتشيث سيرو، كانت أول الحافلات والشاحنات والفنانات جاهزة للانطلاق إلى كافة مناطق محافظة بيورا وإلى إقليمي تومبيس ولامبايكى المجاورين. وكانت ناريهوالا للنقل قد بدأت تستعيد شيئاً فشيئاً زبائنهما كما في أزمنتها الجيدة. فالناس الذين أداروا ظهورهم للشركة بسبب واقعة العنكبوت، لخوفهم من الواقع ضحية عمل عنف من جانب الخاطفين المزعومين، راحوا ينسون الموضوع ويعودون إلى الاعتماد على الخدمات الجيدة التي يوفرها سائقو الشركة. كما تم التوصل أخيراً إلى اتفاق مع شركة التأمين على أن تدفع مناصفة معه تكاليف إعادة إصلاح الأضرار التي أحدثها الحريق. وسرعان ما بدأت أعمال الإصلاح. وعادت المصارف إلى تقديم قروض له، وإن يكن بالتفصيل. وأخذت الأمور تستتب يوماً بعد يوم. تنفس فيليثيتو الصعداء: سيضع اليوم نقطة النهاية لتلك القضية المشؤومة.

عمل طيلة الصباح في المسائل اليومية العادية، تحدث مع ميكانيكيين وسائقين، ودفع بعض الفواتير، قام بعملية إيداع، أملى رسائل على خوسيفيتا، تناول فنجانى قهوة، وفي الساعة التاسعة والنصف صباحاً، تناول الملف الذي أعده المحامي الدكتور هيلديبراندو كاسترو بوسو، وتوجه إلى مركز الشرطة ليأخذ معه الرقيب ليتوما. كان هذا الأخير ينتظره عند مدخل المفوضية. نقلتهما سيارة أجرة إلى سجن الرجال في ريو سيكو، خارج أسوار المدينة.

- هل تشعر بالعصبية من هذه المهمة يا دون فيليثيتو؟ سأله الرقيب

- لا أظن أنني كذلك - ردّ عليه متربداً - لا يمكن لأحد أن يعرف. سوف نرى حين يكون واقفاً أمامي.

أدخلوهما في السجن إلى غرفة التدابير الاحتياطية. وتولى بعض الحراس تفتيش ملابس فيليثيتو للتأكد من أنه لا يحمل سلاحاً. ثم قام مدير السجن شخصياً، وهو رجل منحن وكئيب يرتدي قميصاً قصير الكمين ويجرجر صوته وقدميه، باقتيادهما إلى حجرة صغيرة محمية، فضلاً عن الباب الخشبي السميك، بحاجز قضبان حديدية. كانت جدرانها مغطاة بكتابات ورسوم وكلمات بدائية. وفور اجتياز العتبة، تعرف فيليثيتو على ميغيل الواقع في منتصف الغرفة.

لم يكن قد رآه منذ أسابيع قليلة، ولكن تحولاً كبيراً كان قد طرأ على الشاب. فهو لا يبدو فقط أنه صار أشد نحواً وأكثر تقدماً في السن، ربما بسبب نمو شعره الأشقر وتشعثه ونمو شعر ذقنه الذي يلوث الآن وجهه، بل إن تبلاً قد طرأ كذلك على ملامحه التي كانت شبابية وحالة، وهي الآن ملامح صامدة، مستنفدة، ملامح شخص فقد الاندفاع، وحتى الرغبة في الحياة، لأنه يعرف أنه مهزوم. ولكن ربما كان التبدل الأكبر هو الذي يبدو على ملابسه. فهو الذي اعتاد أن يلبس ويتهندم بتغنج دون جوان الحارة، على العكس من تيبورثيو الذي يظل نهاراً وليلًا ببنطال الجينز وسترات الغوايابيرا الخاصة بالسائقين والميكانيكيين؛ كان يرتدي الآن قميصاً مفتوح الصدر تنقصه أزراره كلها، وبنطال مجعد وملوث بلطخات وبقع، وينتعل حذاء متتسحاً وبلا رباط. ولم يكن يلبس جوربين.

نظر فيليثيتو إلى عينيه بثبات ولم يتحمل ميغيل نظرته تلك لأكثر من بضع ثوانٍ؛ ثم بدأ يرمي، فخفض بصره ووجهه إلى الأرض. في هذه

اللحظة فقط انتبه فيليثيتو إلى أن طول قامته يكاد لا يصل إلى مستوى كتف ميفيل، وأن قامة هذا الأخير تزيد عنه أكثر من حجم رأس. أما الرقيب ليتوما فظل يقف ملتصقاً بالجدار، صامتاً تماماً، متوتراً، كما لو أنه يرغب في أن يكون غير مرئي. وعلى الرغم من وجود كرسيين معدنيين في الحجرة، فقد ظل الثلاثة واقفين. كانت هناك خيوط عنكبوت تتسلق على الجدران حيث الرسوم البذرية لفروج وصدر نسائية. ويعقب المكان برائحة بول. لم يكن المجرم مقيد اليدين.

- لم آت لأسئلتك عما إذا كنتَ نادماً عما فعلته - قال فيليثيتو أخيراً وهو ينظر إلى تشعث الشعر الأشقر والمتفسخ الذي على بُعد متر عنه، ويشعر بالرضا عن أنه يتكلم بحزم، دون إبداء أي أثر من ذلك الحنق الذي يكبحه في أعماقه - هذا أمر لك أن تتدبره هناك في الأعلى عندما تموت.

توقف عن الكلام كي يتنفس بعمق. لقد تكلم بصوت خافت، وحين واصل الكلام رفع من نبرة صوته:

- لقد جئت من أجل موضوع أهم بكثير بالنسبة لي. أكثر أهمية من رسائل العنكبوت، ومن ابتزازاتك للحصول على المال مني، ومن عملية الاختطاف المزيفة التي دبرتها مع مابيل، وأكثر من الحريق في مكتبي - ظل ميفيل جاماً دون حراك، ورأسه إلى أسفل طيلة الوقت، ولم يتحرك الرقيب ليتوما كذلك من مكانه - لقد جئت لأقول لك إنني سعيد لما حدث. لما خططت له وما فعلته. بفضله استطعت أن أتوصل إلى توضيح شُكٌ ساورني طيلة حياتي. أنت تدري ما هو، أليس كذلك؟ لا بد أن يكون قد خطر في بالك، في كل مرة ترى فيها وجهك في المرأة، أن تتساءل عن السبب في امتلاكه بشرة بيضاء في حين أننا، أنا وأمك، خلاسيين. أنا أيضاً أمضيت حياتي أسأل نفسي هذا السؤال. ولقد

ابتلعت الأمر حتى الآن، دون أن أحاول التحرى، كيلاً أجرح مشاعرك ومشاعر خيرتوديس. أما الآن فلم يعد لدى مبرر للحفاظ على تقدير لمشاعرك. لقد وجدت حلّ هذا السر. ولهذا السبب جئت إليك. جئت لأقول لك شيئاً سيروق لك جداً مثلما يرroc لي. أنت لست ابني يا ميغيل. ولم تكن ابني قط. أمك والامرأة، أم أمك، جدتك، حين اكتشفنا أن خيرتوديس حبلٍ، جعلتاني أصدق أنني أنا الأب من أجل إجباري على الزواج منها. لقد خدعتاني. لم أكن أنا الأب. تزوجت من خيرتوديس لمجرد أنني رجل طيب. لقد اتضحت الشك الآن. وقد كانت أمك صريحة واعترفت لي بكل شيء. إنها سعادة عظيمة يا ميغيل. كان يمكن لي أن أموت غمّاً لو أن ابناً لي، تجري في عروقه دمائي، هو من فعل بي ما فعلته أنت. إنني مطمئن الآن، بل إنني سعيد. لم يكن ابني من فعل ذلك كله، وإنما ابن السبعة آباء. يا للراحة العظيمة التي أشعر بها لمعرفي أنها ليست دمائي، ليست دماء أبي النقيمة، هي التي تسرى في عروقك. هنالك أمر آخر يا ميغيل. حتى أمك نفسها لا تعرف من الذي حبلت منه لتولد أنت. فهي تقول إنه ربما يكون واحداً من أولئك اليوغسلافيين الذين جاؤوا من أجل إقامة أنظمة الري على نهر تشيرا. لكنها غير متأكدة. أو ربما هو واحد من ذوي البشرة البيضاء الميتين جوعاً الذين كانوا يأتون إلى نُزل «شجرة الخروب» ويمررون كذلك على فراشها. سجل ملاحظة يا ميغيل. أنا لست أباك، وأمك نفسها لا تعرف من هو الحليب الذي أنجبك. أنت إذاً واحد من أبناء السبعة آباء الذين في بيورا، واحد من أولئك الذين تولدهن الغسالات أو راعيات الماعز اللاتي «يقوصهن» الجنود في أيام سُكرهم. ابن سبعة آباء يا ميغيل، هذه هي حقيقتك بالضبط. ولا تستغرب إقدامك على فعل ما فعلته بكل هذه الدماء المختلطة في عروقك.

صمت لأن رأس الشعر الأشقر المشعث ارتفع بعنف. رأى العينين الزرقاء محتقنتين بالدم والحدق. «أتراه سينقض علىِّ، ويحاول خنقني»، فكر. ولا بد أن الرقيب ليتوما قد فكر في ذلك أيضاً، لأنه تقدم خطوة إلى الأمام ويده على قراب المسدس، ووقف إلى جانب صاحب شركة النقل لحمايته. إلا أن ميغيل بدا مقيداً، عاجزاً عن القيام برد فعل والتحرك. كانت الدموع تسيل على خديه، مع ارتعاش في يديه وفمه. كان شاحباً. يريد أن يقول شيئاً لكن الكلمات لا تخرج منه، وبين حين وآخر تصدر عن جسده ضجة بطنية، على شكل تجشؤ أو غثيان.

عاد فيليثيو ياناكيه لمواصلة الكلام، بالبرود المكبوح نفسه الذي ألقى به ذلك الخطاب الطويل:

- لم أنته بعد. قليل من الصبر. هذه آخر مرة نلتقي فيها، لحسن حظك وحظي. سأترك لك هذا الملف. اقرأ بتأن كل كلمة أعدّها لك محاميُّ الخاص. الدكتور هيلديبراندو كاسترو بوسو الذي تعرفه جيداً. وإذا كنت توافق عليها، ضع توقيعك على كل ورقة، حيث توجد إشارة X. وسيرسل المحامي من يأخذ هذه الأوراق غداً، وسوف يتولى بنفسه مواصلة الإجراءات أمام القضاء. المسألة التي في الأوراق بسيطة جداً. تغيير الهوية الشخصية، هكذا يسمونها. سوف تتخلى عن لقب ياناكيه، وهو لقب لا تنتهي إليه على كل حال. يمكنك الاحتفاظ بلقب أمك، أو أن تخترع الاسم الذي يروق لك. ومقابل عملك هذا، سوف أسحب جميع الشكاوى التي رفعتها ضد الفاعل في مسألة رسائل العنكبوت، وضد المتسبب بالحريق في ناريهم والا للنقل وعملية اختطاف مابيل الزائف. من المحتمل، بفضل ذلك، أن تتخلص من سنوات السجن التي سيُحكم بها عليك وتخرج إلى الشارع. ولكن، فور

نيلك الحرية، ستترك بيورا. ولا تعود لوضع قدميك على أرضها، حيث الجميع يعرفون أنك مجرم. أضف إلى ذلك أن أحداً لن يمنحك فرصة عمل محترم هنا. لا أريد العودة للقاء بك في الطريق. لديك وقت للتفكير في الأمر حتى يوم غد. إذا لم تشاً توقيع الأوراق، فهذا شأنك. سوف تتواصل المحاكمة وسوف أبذل المستحيل كي يكون الحكم عليك بأطول ما يمكن من سنوات السجن. القرار لك. هنالك أمر آخر. أملك لم تأت لزيارتكم لأنها لا تريد العودة لرؤيتكم إلى الأبد. أنا لم أطلب منها ذلك، بل هو قرارها. هذا كل ما لدى. يمكننا الانصراف الآن أيها الرقيب. فليسامحك الرب يا ميغيل. أما أنا فلن أسامحك أبداً.

ألقى الملف بما فيه من أوراق عند قدمي ميغيل واستدار باتجاه الباب يتبعه الرقيب ليتوما. ظل ميغيل ثابتاً في مكانه، بعينين ممتلئتين بالحقد والدموع، يحرك فمه دون أن يصدر عنه أي صوت، كما لو أن صاعقة أصابته وحرمتة من الحركة، والكلام، والرشد، بينما الملف الأخضر عند قدميه. «هذه هي صورته الأخيرة التي ستبقى في ذاكرتي»، فكر فيليثيتو. وكان يتقدم مع الرقيب نحو مخرج السجن، حيث كانت سيارة الأجرة بانتظارهما. وبينما السيارة العتيقة تتقدم مهتزة خارج بيورا، متوجهة إلى مفوضية الشرطة في جادة سانتشيث سيرو لإيصال ليتوما، ظل هذا الأخير وصاحب شركة النقل صامتين. وعندما صاروا في المدينة، كان الشرطي هو من تكلم أولاً:

– أيمكن لي أن أقول لك أمراً يا دون فيليثيتو؟

– قل ما تريد أيها الرقيب.

– لم أتخيل قطًّ أنه يمكن قول مثل هذه الكلمات الفظيعة التي قلتها لابنك هناك في السجن. لقد تجمد دمي، أقسم لك.

- إنه ليس ابني. رفع صاحب شركة النقل يده.  
- ألف اعتذار، أعرف ذلك - اعتذر الرقيب - لديك الحق بالطبع،  
فما فعله ميفيل لا توجد تسمية له. ولكن، حتى في هذه الحال. لا  
تتضائق مني، إنها أقسى الكلمات التي سمعت شخصاً يوجهها لآخر  
في حياته، يا دون فيليثيتو. ولم أتوقع قط أن تصدر عن شخص شديد  
الطيبة مثلك. لا أستطيع أن أدرك كيف أن الشاب لم ينقض عليك.  
ظننتُ أنه سيفعل، وقد أفلتُ لهذا السبب زر قراب المسدس. وأقول لك  
إنني كنت على وشك سحب المسدس.

- لم يتجرأ لأنني تفوقت عليه أخلاقياً - رد فيليثيتو -. ربما هي  
كلمات قاسية، ولكن، أتراني كذبت أو بالغت أيها الرقيب؟ قد أكون  
قاسياً، ولكنني لم أقل سوى الحقيقة الصارمة.

- الحقيقة الرهيبة التي أقسم لك إنني لن أبوح بها لأحد. لن أبوح  
بها حتى للنقيب سيلفا. هذا وعد يا دون فيليثيتو. ولكنك من جهة  
أخرى كنت بالغ الكرم معه. إذا ما سحببت جميع الدعاوى الموجهة  
إليه، فسوف يخرج حراً. أمر إضافي آخر، لتغيير الموضوع. تلك الكلمة،  
«قص». كنت أسمعها وأنا صبي صغير، ولكنني نسيتها. لم يعد أحد  
يستخدمها الآن في بيورا، هكذا يبدو لي.

- المسألة أنه لم يعد هنالك «مقوصون» كثيرون كما في الزمن الغابر -  
تدخل السائق ضاحكاً بشيء من الحنين - حين كنت صغيراً كان ذلك  
شائعاً بكثرة. لم يعد الجنود الآن يذهبون إلى النهر أو إلى البرك  
لضرب الخلاسيات. فالرقابة عليهم الآن أكبر في الثكنات، وهم  
يعاقبونهم إذا ما أقدموا على «التقويس». حتى إنهم يجبرونهم على  
الزواج، تشي غوا.

تبادل تحيات الوداع عند باب المفوضية، وأمر صاحب شركة النقل

السائق بأن يوصله إلى مكتبه، ولكنه غير رأيه حين كانت السيارة على وشك التوقف أمام ناريهوala للنقل. طلب من السائق الرجوع به إلى حي كاستييا وأن يتركه في أقرب مكان ممكن من الجسر المعلق. حين مرّ من ساحة السلاح رأى الشاعر خواكين راموس، يرتدي السواد، ببنظارة المونوكل وملامحه الحالة، يعشى بصلف في منتصف الشارع وهو يجر عنزته كالعادة. فكانت السيارات تتجنبه، وبدلاً من شتمه كان السائقون يحيونه بأيديهم.

الشارع الصغير المؤدي إلى بيت مابيل كان يغص، كالعادة، بصبية بشباب رثة وبلا أحذية، وكلاب ضامرة جرباء، ووسط أصوات الموسيقى وإعلانات الدعاية الآتية من أجهزة المذياع الملعلعة بأعلى صوت، يُسمع نباح كلاب وقوقة دجاج، وصياح ببغاء يردد كلمة «كاكاتوا، كاكاتوا». سُحب غبار تشوش الهواء. الآن أجل، بعد أن شعر بالثقة الشديدة بنفسه خلال المقابلة مع ميفيل، راح فيليثيتو يشعر بأنه سريع العطب وأعزل وهو يفك باللقاء مجدداً مع مابيل. كان يؤجل هذا اللقاء منذ خروجها من السجن بافراج مؤقت عنها. لقد فكر ذات مرة بأنه من الأفضل له تجنب ذلك اللقاء، واستخدام الدكتور كاسترو بوسو لإنجاز الشؤون الأخيرة معها. ومع ذلك، انتهى إلى الحسم بأنه لا يمكن لأحد أن يحل محله في هذه المهمة. إذا كان عليه البدء بحياة أخرى، فلا بد له من تصفية آخر الحسابات مع مابيل، مثلما فعل للتو مع ميفيل. كانت يداه تتعرقان عندما ضغط على الجرس. لم يرَ أحد. وبعد ثوان من الانتظار، أخرج مفتاحه وفتح الباب. أحس بضيق في الدم والتنفس لدى تعرفه على الأشياء والصور، ومنحوتة اللاما، والعلم الصغير، والربعات الصغيرة، وأزهار الشمع، ولوحة قلب يسوع التي تتتصدر الصالة. كل شيء واضح ومرتب ونظيف كما في السابق. جلس في الصالة

الصغيرة ينتظر مابيل دون أن يخلع الجاكيت أو الصدار، وإنما القبعة فقط. كان يشعر بقشعريرة. ماذا سيفعل إذا ما رجعت إلى البيت يرافقها رجل يتأبطن ذراعها أو يطوق بخصرها؟

لكن مابيل جاءت وحدها، بعد بعض الوقت، عندما كان فيليثيتو ياناكيه، بفعل التوتر العصبي للانتظار، قد بدأ يشعر، وسط التأثير، بنعاس شديد. حين سمع فتح الباب الخارجي انتفض متاهباً. أحس بجفاف في فمه، وكأنه قد تحول إلى ورق صفراء، أو كمن شرب خمرة التشيشا. رأى الوجه المرتعب وسمع صرخة مابيل («آي، رباه!») حين اكتشف وجوده في الصالة. رآها تستدير لتخرج راكضة.

- لا تخافي يا مابيل - طمأنها بهدوء لم يكن يشعر به -. لقد جئت بنية سلام.

توقفت واستدارت. ظلت تنظر إليه، بضم مفتوح وعيينين قلقتين، دون أن تقول شيئاً. كانت أشد نحواً. بلا مكياج، وبمنديل عادي يثبت شعرها، ترتدي ذلك الثوب البيتي وتنتعل صندلاً قديماً. بدت له أقل جاذبية بكثير من مابيل التي في ذاكرته.

- اجلس لي لنتحدث قليلاً - أشار إلى أحد المقاعد - لم آت لتوجيهي أي لوم إليك، ولا لمحاسبتك. لن آخذ الكثير من وقتك. هنالك أمور لا بد لنا من تسويتها كما تعلمين.

كانت شاحبة. تطبق فمها بقوة كبيرة مما شكل تكشيرة على وجهها. رآها تومئ برأسها موافقة وتجلس على حافة المهد، وذراعها متقطعاً فوق بطنهما، كمن تحمي نفسها. وكان في عينيها انعدامطمأنينة وذعر.

- توجد أمور عملية يمكننا أن نحلها أنا وأنت مباشرة - أضاف صاحب شركة النقل - فلنبدأ بالأهم. هذا البيت. الاتفاق مع المالك ينص

على دفع الإيجار له كل ستة شهور. وهو مدفوع حتى شهر كانون الأول/ديسمبر. ابتداء من شهر كانون الثاني/يناير ستتولين أنت الحساب. العقد باسمك، وهكذا يمكنك أن ترى ماذا ستفعلين. يمكنك تجديد العقد أو الانتقال إلى مكان آخر. أنت من ستقررين.

- حسن - دمدمت بصوت يكاد لا يُسمع - لقد فهمت.

- حسابك في بنك الاعتماد - واصل الكلام؛ وقد صار يشعر بثقة أكبر وهو يرى هشاشة مأبيل وذعرها - إنه حساب باسمك، ولكنه بكفالتي. ولأسباب واضحة، لا يمكنكمواصلة تقديم كفالتي لك. سوف أسحبها، لكنني لا أظن أنهم سيفلّقون لك الحساب لهذا السبب.

- لقد فعلوا ذلك. قالت. ثم صمتت، وبعد قليل أوضحت: وجدت الإشعار هنا، لدى خروجي من السجن. ويقول الإشعار إنه بسبب الظروف المستجدة، يجد المصرف نفسه مضطراً لإلغاء الحساب. لأنه لا يقبل إلا زبائن شرفاء، بلا سوابق شرطية. ويطلبون مني أن أمر على البنك كي أسحب رصيدي.

- وهل فعلت ذلك؟

نفت مأبيل بحركة من رأسها.

- أشعر بالخجل - أجبت وهي تنظر إلى الأرض - الجميع يعرفوني في هذا الفرع. سيكون عليّ أن أذهب في أحد هذه الأيام، عندما ينفد ما معى من نقود. فمن أجل النفقات اليومية، مازال لدى بعض النقود في علبة الكوميديين.

- سيفتحون لك حساباً في أي بنك آخر، بسوابق أم من دونها - قال فيليثيتو بجهاء - لا أظن أنك ستواجهين مشاكل في هذا الشأن.

- حسن - قالت - أفهم جيداً. ماذا بعد؟

- إنني آت من زيارة لمغيل - قال بكثير من الضيق والاشمئزاز،

فتنيبت مابيل -. قدمتُ إليه اقتراحاً. إذا وافق على تبديل لقب ياناكيه من اسمه أمام كاتب بالعدل، فسوف أسحب كافة الدعاوى القضائية، ولن أكون شاهد إثبات لدى المدعى العام.

- أتعني أنه سيخرج حراً؟ سأله مابيل. ولم تعد الآن مذعورة، بل مرتبعة.

- أجل، إذا قبل باقتراحي. هو وأنت ستنانان حررتكم ما لم تكن هناك اتهامات أخرى من الحق العام. أو ستحصلان على أحكام مخففة. هذا ما قاله لي المحامي على الأقل.

رفعت مابيل في هذه الأثناء يدها إلى فمه:

- سوف ينتقم، لن يغفر لي قطّ أتنني وشيت به للشرطة - دمدمت - سوف يقتلني.

- لا أظن أنه سيكون راغباً في العودة إلى السجن بجريمة قتل - قال فيليثيتو بجفاء - ثم إن شرطي الثاني له، حين يخرج من السجن، أن يغادر بيورا ولا يعود إلى وضع قدميه في هذه المدينة. ولهذا أشكُ في أنه سيسبب لك أي أذى. ويمكنك على أي حال أن تطلبني حماية الشرطة. بما أنك تعاونت معهم، فسوف يوفرون لك الحماية.

انخرطت مابيل في البكاء. بللت الدموع عينيها، وكانت الجهد التي تبذلها لکبح بكائها تضفي على وجهها ملامح مشوهة، ومضحة إلى حد ما. لقد تكوت على نفسها، كمن تشعر بالبرد.

- حتى لو لم تصدقني، إنني أكرهه من أعماق روحي - سمعها تقول بعد لحظات - لأنه حطم حياتي إلى الأبد.

أفلتت نحيباً وغطت وجهها بكلتا يديها. لم يشعر فيليثيتو بالتأثير. كان يفكر: «ترها حقيقة أم مجرد تمثيل؟». لم يكن مهتماً بمعرفة ذلك، فالأمر سيان لديه أكانت الحال هذه أو تلك. منذ أن حدث كل

ذلك، وعلى الرغم من الغضب والحدق، كانت تمر بعض اللحظات، أحياناً، يتذكر فيها مابيل بمحبة، وحتى بشوق. ولكنه في هذه اللحظة بالذات لم يكن يشعر بشيء من ذلك. ولم يكن يشعر بالرغبة أيضاً، ولو أنه امتلكها عارية بين ذراعيه، لما استطاع ممارسة الحب معها. بدا كما لو أن المشاعر المتراكمة خلال السنوات الثمان الماضية والتي أوحى بها مابيل له، قد انخسفت كلها أخيراً.

- ما كان لشيء من هذا كله أن يحدث لو أنه أخبرتني بالأمر منذ بدأ ميغيل يتودد إليك - راوده مرة أخرى ذلك الإحساس بأن شيئاً من ذلك كله قد حدث، وأنه ليس في هذا البيت، ومابيل أيضاً ليست موجودة هناك، بجانبه، تبكي أو تتصرّف البكاء، ولم يكن هو نفسه يقول ما يقوله - وكنا وفرنا على نفسينا الكثير من أوجاع الرأس يا مابيل.

- أعرف ذلك، أعرفه، لقد كنتُ جبانة وغبية - سمعها تقول -. أوتظن أنني لم أندم؟ كنت أخافه، ولا أعرف كيف أتخلص منه. ألاستُ أدفع ثمن ذلك الآن؟ أنت لا تدري كيف هو سجن النساء في سويانا. مع أنني لم أبق هناك سوى أيام قليلة، إلا أنني أعرف أنني سوف أظل أجرجر ذكرها مدى الحياة.

- مدى الحياة وقت طويل - سخر فيليثيتوا، مواصلاً التكلم بهدوء -. أنت مازلت شابة ولديك ما يكفي من الوقت لإعادة ترميم حياتك. وهذه ليست حالتي بكل تأكيد.

- أنا لم أتوقف عن حبك قطّ يا فيليثيتوا - سمعها تقول -. حتى لو لم تصدق ذلك.

أفلت فيليثيتوا ضحكة ساخرة.

- إذا كنت تحببني وفعلت بي هذا الذي نعرفه، فما الذي كان يمكن لك أن تفعليه لو أنك تكرهيني يا مابيل.

وبينما هو يسمع نفسه يقول ذلك، فكر في أنه يمكن لهذه الكلمات أن تكون مناسبة لواحدة من أغانيات سيسليا باراسا التي تروق له كثيراً.

- أرغب في أن أشرح لك الأمر يا فيليثيتو - قالت متضرعة، وهي تخفي طيلة الوقت وجهها بين يديها -. ليس لكي تغفر لي، وليس لكي يعود كل شيء مثلما كان في السابق. وإنما لتعرف فقط أن الأمر لم تكن مثلما تظن، وإنما هو مختلف جداً.

- لست مضطرة لأن تشرح لي أي شيء يا مابيل - قال، وكان يتكلم الآن بطريقة مستسلمة، تكاد تكون ودية -. لقد حدث ما كان يجب أن يحدث. وكنت أعرف على الدوام أنه سيحدث، عاجلاً أو آجلاً. وأنك ستذهبين للزواج من رجل يكبرك بسنوات عديدة، وستعشقين شاباً. هذا هو قانون الحياة.

تعلمت في مقعدها.

- أقسم لك بأمي إن الأمور ليست كما تظن - تبأكت - دعني أوضح لك، دعني أخبرك على الأقل كيف جرى كل شيء.

- ما لم أكن أتخيله أن يكون ذلك الشاب الذي ستعشقينه هو ميفيل - أضاف صاحب شركة النقل متنحناً -. ولم أكن لأتخيل رسائل العنكبوت بالطبع. ولكن ذلك قد حدث. وأفضل ما أفعله هو أن أنصرف دفعة واحدة. لقد رتبنا الأمور العملية كلها ولم يبق شيء معلق. لا أريد لهذا الأمر أن ينتهي بشجار. أترك لك هنا مفتاح البيت.

وضع المفتاح على منضدة الصالة، إلى جانب منحوتة اللاما الخشبية وعلم البيرو، ونهض واقفاً. ظلت هي تغطي وجهها بيديها وتبكي.

سمعها تقول:

- فلنبق أصدقاء على الأقل.

- أنت وأنا لا يمكن لنا أن نكون أصدقاء، وأنت تعرفين هذا جيداً -  
أجابها دون أن ينظر إليها -. حظاً سعيداً يا مابيل.

توجه نحو الباب، فتحه، ثم أغلقه وراءه بتمهل. جعله وجه الشمس يرمش. تقدم وسط زوابع الغبار، وصخب أجهزة الراديو، والصبية ذوي الأسماك والكلاب الجرباء، وكان يفكر في أنه لن يعود أبداً لطرق هذه الأزقة المتربة في حي كاستييا كما أنه لن يعود، بلا شك، إلى رؤية مابيل. وإذا شاءت المصادرات أن يلتقي بها ذات يوم في أحد شوارع مركز المدينة، فسوف يتظاهر بأنه لم يرها، وستفعل هي الشيء نفسه. سيمران كأي غريبين. وفكرا أيضاً، بلا حزن ولا مرارة، بأنه على الرغم من عدم بلوغه سن الشيخوخة المتقدمة، فمن المحتمل ألا يعود أبداً إلى ممارسة الحب مع امرأة. فهو لم يعد في وارد البحث عن عشيقه أخرى، ولا الذهاب إلى الماخور في الليالي لضاجعة موسمات. وفكرة العودة إلى ممارسة الحب مع خيرتروديس بعد كل تلك السنوات لم تمر مجرد مرور في ذهنه. ربما سيكون عليه ممارسة العادة السرية بين حين وآخر، مثل غلام فتي. وأياً تكون وجة مستقبله، فإن هنالك أمراً مؤكداً: لن يكون لديه متسع للملونة أو الحب. وهو لن يأسف لذلك، ولن يبيئس. فهكذا هي الحياة، وقد تعلم، مذ كان صبياً بلا حذاء في تشولوكاناس وياباتيرا، أن يتقبلها مثلما تأتيه.

وبلا شعور، راحت قدماه تقودانه نحو دكان الأعشاب ولوازم الخياطة، وصور القديسين والمسيح والعذراء التي تملكها صديقته آديلايدا. وقد كانت التقية هناك، مشوقة القامة، وافرة المؤخرة،

حافية القدمين، محشورة في الجلباب الخام الذي يصل حتى كاحليها،  
رأته قادماً وهي عند باب بيتها، بعينيها الواسعتين الثاقبتين.

- أهلاً فيليثيتو، يا لسعد العينين اللتين تريانك - حيث ملوحة  
تلوية وداع - بدأت أظن أنك قد نسيتني.

- أنت تعرفين جيداً يا آديلايدا أنك صديقتي المفضلة التي لا يمكنني  
نسيانها أبداً - مد لها يده مصافحاً وربت على ظهرها بمودة - لقد  
واجهتني مشاكل كثيرة في الفترة الأخيرة، لا بد أنك علمت بها. ولكن،  
ها أنذا معك هنا. أيناسبني أن أتناول الآن كأساً من ذلك الماء المقطر  
شديد النقاء والبرودة الذي لديك؟ أكاد أموت عطشاً.

- تفضل، ادخل واجلس يا فيليثيتو. سأريك بكأس الماء فوراً، أجل  
بالطبع.

وخلالاً للحر الشديد في الخارج، كان دكان آديلايدا في الداخل غارقاً  
في العتمة الظلية والسكون المعهودين، تسوده البرودة. وبينما هو جالس  
على الكرسي الهزاز ذي القش المجدول، تأمل نسيج العناكب،  
والرفوف، والمناضد التي عليها مسامير، وأزرار، وبراغ، وبذور، وباقات  
أعشاب، وإبر، وصور، ومسابح، وتماثيل من الجبس ومن الخشب  
للعذراء وللمسيح بمختلف الأحجام، بينما هو ينتظر عودة التقبية. هل  
هناك زبائن لآديلايدا؟ ففي كل المرات التي جاء إليها، وهي مرات  
كثيرة، لم ير قط أحداً يشتري أي شيء. فهذا المكان يبدو مصلى أكثر  
من كونه متجرًا. لا ينقصه سوى المذبح. في كل مرة يجيء إلى المكان،  
يشعر بهذا الإحساس بالأمان الذي كان يشعر به في ما مضى - وهو  
ماض بعيد جداً - في الكنائس، حين كانت خيرترودليس، وهما حديثاً  
الزواج، تسحبه معها إلى القدس في أيام الآحاد.

شرب بتلذذ ماء حجر التقطير الذي قدمته إليه آديلايدا.  
ـ يا للمشكلة التي تورطت فيها يا فيليثيتو ـ قالت التقية متأثرة مع نظرة حانية ـ عشيقتك وابنك يتوطأن لنتف ريشك. رباه، يا للقباحات التي تُرى في هذا العالم! لحسن الحظ أنهم حبسوا هذا الثنائي.

ـ لقد انقضى ذلك كله، لم يعد الأمر يهمني ـ هز كتفيه وأبدى تكشيرة ازدراه ـ لقد صار ذلك كله خلفي، وقد بدأت أنساه. لا أريد السماح لهم بتسليم حياتي. والآن، سأنكب جسداً وروحأً للتقدم قُدماً بناريهوالا للنقل. فبسبب تلك الفضائح أهملت الشركة التي توفر لي الطعام. وسوف تعرق إذا لم أهتم بها.

ـ هذا يعجبني يا فيليثيتو، فما مضى قد مضى ـ صفت التقية ـ وإلى العمل! لقد كنت على الدوام رجلاً لا يعرف الاستسلام، ومن يناضلون حتى النهاية.

ـ أتعلمين يا آديلايدا؟ ـ قاطعها فيليثيتو ـ ذلك الوحي الذي جاءك في آخر مرة زرتك فيها، قد تحقق. لقد حدث شيء استثنائي، مثلما قلت أنت. لا يمكنني أن أخبرك بالمزيد الآن، ولكنني سأفعل فور تمكنني من ذلك.

ـ لا أريدك أن تخبرني بشيء ـ بدت التقية حزينة جداً وغشت عينيها ظلالاً لبرهة ـ لا يهمني ذلك يا فيليثيتو. أنت تعرف جيداً أن مجيء تلك الإيحاءات لي لا يروقني أبداً. لسوء الحظ أن الوحي يأتيوني دوماً حين يتعلق الأمر بك. يبدو لي أنك أنت من تستثير مجئه، تشي غوا.

ـ آمل ألا تستثير فيك أي وحي آخر يا آديلايدا ـ ابتسم فيليثيتو ـ لم أعد قادرًا على تحمل المزيد من المفاجآت. ابتداء من الآن أريد أن

أعيش حياة هادئة وعادية، مكرساً نفسي للعمل.

ظلا صامتين لبعض الوقت، يستمعان إلى ضجة الشارع. كانت أبواك السيارات والشاحنات ومحركاتها، ونداءات الباعة المتجولين، وأصوات وحركة عابري السبيل تصل إليهما مخففة في هدوء هذا المكان. وكان فيليثيتو يفكر بأنه على الرغم من معرفته آديلايدا منذ سنوات طويلة، إلا أن التقية مازالت لغزاً كبيراً غامضاً بالنسبة إليه. هل لها أسرة؟ هل كان لديها شريك في حياتها ذات يوم؟ ربما تكون قد خرجت من دار الأيتام، وأنها واحدة من أولئك الأطفال اللاتي يهجرن، من يُلقطن ويُرببن على نفقة الإحسان العام، ثم عاشت وحيدة على الدوام بعد ذلك، مثل نبتة فطر، بلا أبوين ولا إخوة، ولا زوج ولا أبناء. لم يسمع آديلايدا تتكلم قط عن أي قريب لها، ولا حتى عن صداقات. ربما يكون فيليثيتو هو الشخص الوحيد في بيورا الذي يمكن للتقية أن تدعوه صديقاً.

- أخبريني أمراً يا آديلايدا - سألهما -. هل عشت ذات يوم في هوانكابامبا؟ هل ترعرعت هناك بالصدفة؟

وبدلاً من الرد على سؤاله، أطلقت الخلاسية قهقهة مدوية وهي تفتح فمها الكبير بشفتيه الغليظتين على اتساعه، كاشفة عن أسنان كبيرة ومنتظمة.

- أعرف لماذا تسألني هذا السؤال يا فيليثيتو - هتفت وسط ضحكها -. إنك تسأل بسبب سحره هوارينغاس، أليس كذلك؟

- لا تظني أنني أفكرا، بأي حال، أنك ساحرة - أكد لها -. كل ما هنا لك أن تتمتعي... لا أدرى كيف أسمى ذلك... بتلك القدرة، الهبة - أو أية تسمية تشاءين - على التكهن بأمور ستحدث، وهو ما جعلني أفكرا دوماً. هذا مستحيل، تشي غوا. في كل مرة يأتيك الوحي، يحدث

ما تكوني قد توقعته. إننا نعرف أحدهنا الآخر منذ سنوات، أليس كذلك؟ وكلما تنبئ لي بشيء، يحدث بحذافيته. لست مثل الآخرين، مثل البشر العاديين، فيك شيء لا يمتلكه أحد سواك يا آديلايدا. لو أنك رغبت لأصبحت ثرية بتحولك إلى منجمة محترفة.

بينما هو يتكلم، اتخذت هي هيئة جدية جداً.

- هذا الأمر تكبة أكثر من كونه موهبة. إنه نكبة ألقى بها الرب على كاهلي يا فيليثيتتو - قالت متنهدة -. لقد قلت لك هذا مرات كثيرة. لا يروق لي أن تداهمني فجأة تلك الإيحاءات. لا أدرى من أين تخرج، ولا لماذا، وهي تكون مرتبطة بأشخاص معينين، مثلك. الأمر أحجية غامضة بالنسبة لي أيضاً. فأنا لم أتلق أي وحي خاص بي مثلاً. لم أعرف قط ما الذي سيحدث لي غداً أو بعد غد. حسن، من أجل الرد على سؤالك. أجل، لقد كنت في هوانكابامبا، مرة واحدة فقط. دعني أقول لك شيئاً. إنني أشعر بالحزن على أولئك الناس الذين يصعدون إلى هناك، منفقين ما يملكونه وما لا يملكونه، يرهنون حتى أنفسهم، من أجل أن يشفوهم المعلمون، كما يسمونهم. إنهم جماعة من المحتالين، معظمهم على الأقل. من يمررون قوارض الكوي على أجساد المرضى، من يحممونهم بماء البحيرة المثلج. ويتسببون بموتهم أحياناً بذات الرئة بدلأ من شفائهم.

- ليس دوماً يا آديلايدا. هنالك صديق لي، سائق في ناريهوالا للنقل، يدعى أندريليس نوفوا، كان مصاباً بالحمى المالطية ولم يستطع أطباء المستشفى العمالي علاجه. تخلوا عنه كحالة مি�غوس منها. ذهب إلى هوانكابامبا وهو شبه ميت، فأخذه أحد السحراء إلى بحيرات هوارينغاس، وجعله يستحم في مياه البحيرة، وقدم إليه شراباً لا أدرى ما هو. فرجع من هناك معافى. لقد رأيته بعيني

هاتين، أقسم لك يا آديلايدا.

- ربما يوجد استثناء ما - وافقت معه - ولكن في مقابل كل مداوٍ  
حقيقي هنالك عشرة محталين يا فيليثيتو.

تبادلـاـ الحديث لوقـت طـويـلـ. وراحتـ المـحادـثـة تـتـنـقـلـ منـ سـحـرـةـ  
هـوـانـكـابـامـبـاـ وـمـعـلـمـيـهاـ وـمـعـالـجـيـهاـ وـتـشـامـانـاتـهاـ الـمـشـهـورـينـ الـذـينـ يـتـوـافـدـ  
إـلـيـهـمـ النـاسـ مـنـ كـلـ أـنـحـاءـ الـبـيـرـوـ لـاستـشـارـتـهـمـ بـشـأـنـ أـمـراضـهـمـ،ـ إـلـىـ  
الـحـدـيـثـ عـنـ مـرـتـلـاتـ الـأـدـعـيـةـ وـالـتـقـيـاتـ فـيـ بـيـرـوـ،ـ أـولـئـكـ النـسـوةـ  
الـبـائـسـاتـ عـمـومـاـ،ـ وـالـمـسـنـاتـ الـلـاتـيـ يـلـبـسـ كـالـرـاهـبـاتـ،ـ وـيـتـنـقلـ مـنـ بـيـتـ  
لـبـيـتـ لـتـلـاوـةـ الـأـدـعـيـةـ بـجـانـبـ فـرـاشـ الـرـضـىـ.ـ وـيـرـضـيـنـ بـبـضـعـ سـنـتـاتـ  
قـلـيـلـةـ كـمـكـافـأـةـ أـوـ بـمـجـرـدـ الـحـصـولـ عـلـىـ طـبـقـ طـعـامـ مـقـابـلـ أـدـعـيـتـهـمـ الـتـيـ  
يـؤـمـنـ أـنـاسـ كـثـيرـونـ بـأـنـهاـ تـكـمـلـ مـهـمـةـ الـأـطـبـاءـ فـيـ الـمـسـاعـدـةـ عـلـىـ شـفـاءـ  
الـرـضـىـ.ـ وـكـانـتـ مـفـاجـأـةـ فـيـلـيـثـيـتوـ فـيـ أـنـ آـدـيـلـاـيدـاـ لـاـ تـؤـمـنـ بـشـيءـ مـنـ ذـلـكـ  
أـيـضـاـ.ـ فـمـرـتـلـاتـ الـمـدـيـنـةـ وـالـتـقـيـاتـ الـمـدـاـوـيـاتـ بـالـأـدـعـيـةـ وـالـتـرـاتـيلـ يـبـدوـنـ لـهـاـ  
مـحـتـالـاتـ كـذـلـكـ.ـ وـقـدـ أـبـدـىـ اـسـتـغـرـابـةـ مـنـ أـنـ اـمـرـأـ مـثـلـهـاـ،ـ لـدـيـهـاـ تـلـكـ  
الـمـوهـبـةـ وـالـقـدـرـةـ عـلـىـ اـسـتـشـرـافـ مـسـتـقـبـلـ بـعـضـ الرـجـالـ وـالـنـسـاءـ،ـ تـنـكـرـ إـلـىـ  
هـذـاـ الحـدـ قـدـراتـ بـعـضـ الـأـشـخـاصـ الـعـلـاجـيـةـ.ـ رـبـماـ هـيـ عـلـىـ حـقـ،ـ  
فـهـنـالـكـ الـكـثـيرـ مـنـ الـمـدـعـيـنـ وـالـمـدـعـيـاتـ بـيـنـ مـنـ يـتـبـاهـونـ بـاـمـتـلـاكـ قـدـراتـ  
عـلـىـ شـفـاءـ الـرـضـىـ.ـ وـقـدـ فـوـجـئـ فـلـوـرـيـنـثـيـتوـ حـيـنـ سـمـعـ آـدـيـلـاـيدـاـ تـقـولـ إـنـهـ،ـ  
فـيـ مـاضـ قـرـيبـ،ـ كـانـتـ هـنـالـكـ فـيـ بـيـرـوـ نـسـاءـ غـامـضـاتـ يـسـمـيـنـ نـازـعـاتـ  
الـأـحـزـانـ،ـ تـسـتـدـعـيـهـنـ بـعـضـ الـعـائـلـاتـ إـلـىـ الـبـيـوتـ كـيـ يـسـاعـدـنـ  
الـمـحـتـضـرـينـ عـلـىـ الـمـوـتـ،ـ وـهـوـ مـاـ كـنـ يـفـعـلـنـهـ،ـ وـسـطـ تـرـدـيـدـ الـأـدـعـيـةـ  
وـالـصـلـوـاتـ،ـ بـقـطـعـ الـوـرـيدـ الـعـنـقـيـ بـظـفـرـ طـوـيـلـ يـتـرـكـنـهـ يـنـمـوـ وـيـكـبـرـ فـيـ  
الـإـصـبـعـ السـبـابـةـ لـهـذـاـ الغـرـضـ بـالـذـاتـ.

وقد فوجئ فيليثيتو كثيراً، بالمقابل، حين عرف أن آديلايدا، تؤمن إيماناً مطلقاً بالأسطورة القائلة إن تمثال السيد الكاوتيفو في كنيسة آياباكا قد نحته عدد من الإكوانوريين الذين تبين أنهم ملائكة.

- أتؤمنين أنت بهذه الشعوذة يا آديلايدا؟

- أؤمن بها لأنني سمعت القصة من الناس هناك. فهم ينقلونها من الآباء للأبناء منذ حدوثها، وإذا كانت قد استمرت طيلة هذا الوقت كله، فلا بد من أن تكون صحيحة.

لقد سمع فيليثيتو مرات عديدة قصة تلك العجزة، ولكنه لم يأخذها قط على محمل الجد. تقول القصة إنه منذ سنوات طويلة، قامت لجنة من أعيان آياباكا البارزين بحملة جمع أموال من أجل نحت تمثال للمسيح. وقد اجتازوا الحدود إلى الإكوادور، ووجدوا هناك ثلاثة سادة يرتدون ثياباً بيضاء، وتبين لهم أنهم نحاتون. فتعاقدوا معهم على الفور كي ينتقلوا إلى آياباكا وينحتوا التمثال. وقد فعلوا ذلك، ولكنهم اختفوا قبل أن يتلقوا الأجر المتفق عليه. رجعت اللجنة نفسها إلى الإكوادور بحثاً عنهم، ولكن أحداً هناك لم يكن قد سمع بهم أو علم بوجودهم. وبكلمات أخرى: كانوا ملائكة. من الطبيعي أن تؤمن خيرتوديس بذلك، ولكن المفاجأة هي في تصديق آديلايدا ذلك أيضاً وابتلاعها قصة العجزة.

بعد وقت لا بأس به من تبادل الحديث، أحس فيليثيتو أنه أحسن حالاً مما كان عليه عند وصوله. لم يكن قد نسي لقائه مع ميغيل ومابيل؛ وربما لن ينساهمما أبداً، غير أن الساعة التي أمضاها هنا ساعدته على تبريد ذكري ذينك اللقائين وعدم إثقالهما عليه كصليب. شكر آديلايدا على الماء المقطر والحديث معها، وبالرغم من رفضها،

أجبرها على قبول ورقة الخمسين سولاً التي دسها في يدها عند الوداع. حين خرج إلى الشارع، بدا له أن حدة الشمس لا تزال قوية. مشى ببطء باتجاه بيته، ولم يقترب منه خلال الطريق كله سوى شخصين فقط، لا يعرفهما، ليسلما عليه. وفكر براحة أن كونه مشهوراً ومعروفاً سيبدأ بالتلذسي شيئاً فشيئاً. سوف ينسى الناس قصة العنكبوت وسيتوقفون فجأة عن الإشارة إليه والاقتراب منه. وربما لن يكون بعيداً اليوم الذي يتمكن فيه من العودة للتجوال في شوارع المدينة مثل أي عابر سبيل مجهول.

حين وصل إلى بيته في شارع اريكيبيا، كان الغداء جاهزاً. فقد أعدت ساتورنينا حساء خضار وأويوكيتو مع التشاركي والرز<sup>(1)</sup>. بينما كانت خيرتروديس قد جهزت إبريق ليموناده مع كثير من الثلج. جلسا لتناول الطعام بصمت، وعند الانتهاء من تناول ملعقة الحساء الأخيرة، أخبر فيليثيتو زوجته بأنه ذهب لزيارة ميغيل في الصباح، وأنه عرض عليه سحب الاتهام الموجه إليه إذا ما وافق على تغيير لقبه. استمعت زوجته إليه صامتة، ولم تتفوه بأي تعليق بعد أن انتهت.

- من المؤكد أنه سيوافق على العرض وسيخرج طليقاً - أضاف فيليثيتو - وسوف يغادر بيورا، مثلما طلبت منه. لأنه، بسجل سوابقه، لن يجد عملاً هنا بأي حال.

هزت رأسها دون أن تتلفظ ولو بكلمة واحدة.

- ألن تذهب بي زيارته؟ سألها فيليثيتو.

نفت ذلك بحركة من رأسها.

- أنا أيضاً لا أريد رؤيته إلى الأبد - أكدت، وواصلت تناول الحساء،

(1) طبق تقليدي بيروفي مكون من قطع أويوكيتو، وهو نبات درني شبيه بالبطاطا، ولا يوجد إلا في جبال الأنديز، والشاركي وهو لحم اللاما مقدداً، ويقدم الأرز إلى جانبها، في الطبق نفسه.

برشفات ملاعق بطيئة . . ما عدت قادرة على رؤيته بعد الذي فعله معك .  
وacialا تناول الطعام بصمت ، وبعد وقت لا بأس به ، حين رفعت

ساتورنينا الأطباق . دمدم فيليثيتو :

- لقد ذهبت إلى حي كاستيا أيضاً ، إلى حيث تتخيلين . ذهبت من  
أجل إنهاء تلك العلاقة .

وأخيراً سمع فيليثيتو خيرترووديس تسأله :

- أتريد قهوة أم ملة البابونج ؟



عندما استيقظ دون ريفوبيرتو، وكان الظلام لا يزال مخيماً، سمع صخب البحر وفكراً: «لقد حل النهار أخيراً». باعتراف إحساس بالراحة والإثارة. أهذه هي السعادة؟ وإلى جانبه، كانت لوكريثيا تنام بهدوء. لا بد أنها متعبة جداً، فقد ظلت في اليوم السابق، حتى وقت متأخر، ترتب الحقائب. ظلَّ لبعض الوقت يصغي إلى حركة البحر - إنها موسيقى لا تُسمع أبداً في بارانكو خلال النهار، وإنما في الليل عند الفجر فقط، حين ينطفئ صخب الشوارع - نهض بعد ذلك، وذهب وهو بالبيجاما والخفَّ إلى حجرة المكتب. بحث ووجد، في رفٌّ الشُّعر، كتاب فراري لويس دي ليون. وعلى ضوء مصباح المنضدة، قرأ القصيدة المكرسة للموسيقي الأعمى فرانشيسكو دي ساليناس. لقد كان يحاول تذكرها في اليوم السابق، وهو بين النوم واليقظة، ثم حلم بها بعد ذلك. لقد قرأها من قبل مرات كثيرة؛ وحين أعاد قراءتها الآن، وهو يحرك شفتيه ببطء، أكد لنفسه مرة أخرى: إنها أجمل تكريم مكرس للموسيقى يعرفه، وهذه القصيدة، في الوقت الذي تفسر فيه ذلك الواقع العصي على التفسير الذي هو الموسيقى، تشكل هي بحد ذاتها موسيقى. موسيقى بأفكار واستعارات. إنها رمزية ذكية لرجل إيمان، تضمخ القارئ بأحساسٍ يعجز عنها الوصف، وتكشف له الجوهر السري المتسامي، والسامي الذي يعيش في ركن ما من

الحيوان البشري، ويُطلّ على الوعي فقط بالانسجام المتقن لسيمفونية بديعة، لقصيدة زخمة، لأوبرا عظيمة، لعرض فني فائق التميز. وهو إحساس بالنسبة لفراي لويس، المؤمن، يختلط بالنعمة الربانية والغيبوبة الصوفية. كيف هي موسيقى أرغن الأعمى تلك التي صاغ فrai لويس دي ليون من أجلها هذا المديح الشعري الشامخ؟ إنه لم يسمعها قطّ. سيجدها، لقد صارت لديه الآن مهمة عليه إنجازها خلال وجوده في مدريد: الحصول على قرص سي. دي لمؤلفات فرانثيسكو ساليناس الموسيقية. لا بد لإحدى المجموعات المهمة بالموسيقى القديمة - فرقة جوردي سافال على سبيل المثال - أن تكون قد كرّست أسطوانة لمن أوحى بمثل تلك القصيدة الرائعة.

أغمض عينيه، وفكّر أنه سيقوم هو ولوكريثيا وفونتشيتو، بعد ساعات قليلة، باجتياز الأجواء، مخلفين وراءهم غيوم ليما الكثيفة، وبادئين بالرحلة المؤجلة إلى أوروبا. أخيراً! سيصلون في أوج الخريف. تخيل الأشجار الذهبية والشوارع المبلطة وقد وشّيت بأوراق أفلتت بفعل البرد. بدا له ذلك أشبه بالكذب. أربعة أسابيع. واحد منها في مدريد، وآخر في باريس، وآخر في لندن، والأسبوع الأخير ما بين فلورنسا وروما. لقد خطّط لتلك الأيام الإحدى والثلاثين بطريقة لا يتسبّب التعب فيها بإفساد المتعة، وبتجنب ما أمكن تلك الحالات الطارئة المزعجة التي تُدمر الرحلات. فرحلات تنقلهم بالطائرات محجوزة، وبطاقات الدخول إلى الحفلات الموسيقية وعروض الأوبرا والمعارض الفنية مشتراء، وأجور الفنادق والتّردد مدفوعة سلفاً. ستكون المرة الأولى التي يطأ فيها فونتشيتو قارة رامبو، أوروبا الشرفات القديمة. ستكون متعة كبيرة أن يُري ابنه، في هذه الرحلة، متاحف البرادو واللوفر والناشيونال غاليري ومتحف أوفيزي، وساحة القديس بطرس، وكنيسة السيستين. هل

سينسي ابنه، وسط كل تلك الأشياء البديعة، هذه الفترة المشؤومة الأخيرة وحالات الظهور الشبحي لإديلبيرتو توريس، ذلك الروح الشريرة - الإنكوبو أو السوكوبو<sup>(1)</sup> (ما هو الفرق بينهما؟) - الذي سبب له ولوكريثيا الكثير من المراة في حياتيهما؟ آمل ذلك. سيكون هذا الشهر حمام تطهر: ستغلق الأسرة أسوأ مرحلة في حياتها. وسيرجع ثلاثتهم إلى ليما متجددين كمن ولدوا من جديد.

تذكر آخر حديث له مع فونتشيتو في مكتبه، قبل يومين، ووقاحة ابنه المفاجئة:

- إذا كانت أوروبا تعجبك إلى هذا الحد، وتحلم بها ليلاً ونهاراً، فلماذا عشت حياتك كلها في البيرو يا أبي؟  
أريكه السؤال ولم يدر بماذا يرد عليه للحظات. كان يشعر بالذنب لشيء ما، لكنه يجهل ما هو.

- حسن، أظن لو أنني ذهبت للعيش هناك، لما كنت سأستمتع كثيراً بالأشياء الجميلة التي تضمها القارة العجوز - حاول التهرب من الورطة - كنت سأعتاد كثيراً عليها بحيث لا ألحظ وجودها، مثلما يحدث لملايين الأوروبيين. وباختصار، لم يخطر لي قط الانتقال إلى هناك، لقد فكرتُ على الدوام بأنه عليّ أن أعيش هنا. أن أقبل قدرى، إذا كان هذا ما ترمي إليه.

- كل الكتب التي تقرؤها هي لمؤلفين الأوروبيين - ألح ابنه -. وأظن أن معظم الأسطوانات والرسوم وصور اللوحات التي لديك هي كذلك أيضاً. إيطاليين، وإنكليزيين، وفرنسيين، وإسبان وألمان وبعض الأمريكيين.

<sup>(1)</sup> الإنكوبو *incubo* أو السوكوبو *sucubo*: شيطان في خرافات أوروبا العصور الوسطى، الأول شيطان نفر يقع فوق ضعبته الأنثى الناقمة لمضاجعتها، أما السوكوبو فهو شيطان يتخذ هيئة امرأة جذابة لغواية الذكور، وبصورة خاصة الرهبان، بالدخول إلى أحلامهم وتخيلاتهم.

ولكن، هل هنالك شيء يروق لك في البيرو يا بابا؟  
كان دون ريفوبيرتو على وشك الاعتراض، والقول إن هنالك أشياء  
كثيرة، ولكنه اختار أن يبدي ملامح الشك وأن يشير بإيماءة ارتياحية:  
ـ ثلاثة أشياء يا فونتشيتو. قال متضمناً التكلم بتفحيم متئور مدعٍ  
رسوم فرناندو سرسلو. وأشعار سيسار مورو بالفرنسية. وقريديس نهر  
ماخيس بالطبع.

ـ لا يمكن الحديث معك بجد يا بابا - احتاج ابنه - أظن أنك  
أخذت، ما سألك عنـه، على محمل المزاح لأنك لا تجرؤ على قول  
الحقيقة لي.

ـ هذا الصبي أكثر تيقظاً من سنحاجـب، ويفتنـ حـين يجعلـ أباـه يـمر  
ـ بـلحـظـاتـ حـرجـةـ، فـكـرـ رـيفـوبـيرـتوـ. «ـ هلـ كـنـتـ أـناـ هـكـذاـ أـيـضاـ فيـ  
ـ صـبـايـ؟ـ». إنه لا يتذكر.

ـ ظـلـ يـرـاجـعـ أـورـاقـاـ، أـلـقـىـ نـظـرةـ أـخـيرـةـ عـلـىـ حـقـيـبـتـهـ الـيـدـوـيـةـ لـيـتـأـكـدـ مـنـ  
ـ أـنـهـ لـمـ يـنـسـ شـيـئـاـ. طـلـعـ الفـجـرـ بـعـدـ قـلـيلـ وـسـمـ حـرـكـةـ فـيـ المـطـبـخـ. أـتـراـهـ  
ـ يـجـهـزـونـ طـعـامـ الـفـطـورـ؟ـ حـينـ رـجـعـ إـلـىـ غـرـفـةـ النـوـمـ، رـأـيـ الحـقـائـبـ.  
ـ الثـلـاثـ جـاهـزـةـ فـيـ المـقـرـ، وـقـدـ وـضـعـتـ عـلـيـهـاـ لـوـكـريـثـياـ الـبـطـاقـاتـ الـلـازـمـةـ.  
ـ ذـهـبـ إـلـىـ الـحـمـامـ، حـلـقـ ذـقـنـهـ، وـاسـتـحـمـ، وـحـينـ رـجـعـ إـلـىـ غـرـفـةـ النـوـمـ،  
ـ كـانـتـ لـوـكـريـثـياـ قـدـ نـهـضـتـ وـذـهـبـتـ لـإـيـقـاظـ فـونـتشـيـتوـ. وـأـعـلـنـتـ خـوـسـتـيـنـيـانـاـ  
ـ عـنـدـئـذـ أـنـ الـفـطـورـ بـاـنـتـظـارـهـ فـيـ غـرـفـةـ الـطـعـامـ.

ـ أـكـادـ لـأـصـدـقـ أـنـ هـذـاـ الـيـوـمـ قـدـ جـاءـ -ـ قـالـ لـلـوـكـريـثـياـ بـيـنـماـ هوـ يـتـذـوقـ  
ـ كـأسـهـ مـنـ عـصـيرـ الـبـرـتـقـالـ، وـقـهـوـتـهـ بـالـحـلـيـبـ، وـخـبـزـ الـمـحـمـصـ مـعـ الزـبـدـ  
ـ وـالـمـرـبـىـ -ـ لـقـدـ وـصـلـ بـيـ الـأـمـرـ فـيـ هـذـاـ الشـهـرـ إـلـىـ التـفـكـيرـ بـأـنـنـاـ سـنـظـلـ  
ـ عـالـقـيـنـ لـسـنـوـاتـ وـسـنـوـاتـ فـيـ تـلـكـ التـعـقـيدـاتـ الـقضـائـيـةـ الـتـيـ أـدـخـلـنـيـ فـيـهاـ  
ـ الضـبـاعـ، وـأـنـنـاـ لـنـ نـعـودـ أـبـداـ إـلـىـ أـورـوباـ.

- لو أخبرتك بأكثـر ما يثير فضولي في هذه الرحلة، فسوف تضحك - ردت عليه لوكريثيا التي كانت تتناول فطوراً يقتصر على فنجان شاي فقط - أتدري ماذا؟ إنها دعوة آرميديا. كيف ستكون تلك الوجبة؟ من ستدعوا معنا؟ مازلت غير مصدقة أن خادمة إسماعيل السابقة ستقيم لنا مأدبة في بيتها بروما. إنني أموت فضولاً. كيف تراها تعيش، كيف تستضيف الآخرين، من هم أصدقاؤها. هل تعلمت الإيطالية؟ أظن أنها تملك قصراً صغيراً هناك.

- حسن، أجل، بكل تأكيد - قال ريفوبيرتو، بشيء من خيبة الأمل -. إنها تملك من الأموال ما يكفي لأن تعيش كملكة بالطبع. وعسى أن تمتلك كذلك الذوق والحساسية ل تستغل مثل تلك الثروة بأفضل طريقة. ولم لا تكون كذلك في نهاية المطاف. فقد أثبتت أنها أكثر فطنة منا جميعنا معاً. لقد حقق مرادها، وها هي هناك الآن، تعيش في إيطالية، وثروة إسماعيل كلها صارت في جيبيها. بينما هُزم التوءمان هزيمة ساحقة. الحقيقة أنني سعيد من أجلها.

- لا تتكلـم بالسوء عن آرميدا، لا تسخر - قالت لوكريثيا وهي تضع يدها على فمهـا -. فهي ليست ولم تكن قطًّا مثلما يظـنـها الناس.

- أجل، أجل، أعرف أن الحديث الذي تبادلـهـ معها في بيورا قد أقنـعـك - ابتسم ريفوبيرتو - وماذا لو أنـ ماـ روـتهـ لكـ مجرد حكاـيةـ يا لوكريـثـيا؟

- لقد قالت ليـ الحـقـيقـةـ - أـكـدـتـ لـوكـريـثـياـ بـصـورـةـ حـاسـمـةـ -. إنـيـ مستـعدـةـ لأنـ أـدـسـ يـديـ فيـ النـارـ لـتـأـكـيدـ أنـ ماـ قـالـتـهـ ليـ هوـ ماـ جـرـىـ حقـاـ دونـ زـيـادـةـ أوـ نـقـصـانـ. فـأـنـاـ لـدـيـ غـرـيزـةـ لـاـ تـخـطـئـ فـيـ هـذـهـ الـأـمـورـ. لـاـ أـصـدـقـكـ. أـهـذـاـ مـاـ جـرـىـ حقـاـ؟

- حقاً - خفضت آرميدا بصرها بشيء من الخجل -. لم يكن قد نظر إلى قط من قبل، ولم يوجه لي أية كلمة غزل. ولا حتى شيئاً من تلك العبارات اللطيفة التي يقولها، أحياناً، أصحاب البيوت لمجرد قول شيء لعاملاتهن المنزليات. أقسم لك بأقدس ما لدى يا سيدة لوكريثيا.

- كم مرة يجب أن أطلب منك أن تكلميوني دون كلفة يا آرميدا؟ - أنبتها لوكريثيا -. أجد صعوبة في تصديق ما تقولينه. هل حقاً لم تلحظي أبداً، من قبل، أنك تعجبين إسماعيل ولو قليلاً؟

- أقسم لك بما هو أكثر قداسة - وقبلت آرميدا إصبعيها المتصالبين -. لم يحدث ذلك مطلقاً، وليعاقبني الرب عقاباً أبداً إن كنت أكذب. لا شيء. أبداً. على الإطلاق. ولهذا كانت المفاجأة شديدة إلى حد أنه أغمى عليّ تقريراً. ولكن، أي شيء هذا الذي تقوله لي حضرتك! هل أصابك الجنون يا دون إسماعيل؟ أم أنتي أنا من أصبحت بالجنون؟ ما هذا الذي يحدث هنا؟

- لا أنت مجنونة ولا أنا مجنون يا آرميدا - قال السيد كارييرا مبتسمًا لها، متكلماً بلطف لم تعرفه منه أبداً من قبل، ولكن دون أن يقترب منها -. أنت سمعت جيداً بالطبع ما قلته لك. وأعود لأأسلك من جديد. أتوافقين على الزواج مني؟ أقول لك هذا بجد. فقد صرت عجوزاً على مغازلتك وعشيقك على الطريقة الشائعة. إنني أعرض عليك مودتي واحترامي. وأنا واثق من أن الحب سيأتي فيما بعد. حبي لك وحبك لي.

- قال لي إنه يشعر بالوحدة، وإنني أبدو له طيبة، وأعرف عاداته، وأعرف ما يعجبه، وما يزعجه، إضافة إلى أنه متأكد من أنني سأعرف كيف أعتني به. كان رأسي يلف أيتها السيدة لوكريثيا. لم أستطع أن أصدق أنه كان يقول ما سمعته. لكن هذا ما حدث، مثلما أرويه لك. هكذا، فجأة ومن دون مواربة ولا مقدمات. هذه هي الحقيقة ولا شيء

آخر سواها. أقسم لك.

- إنك تذهليني يا آرميدا - كانت لوكريثيا تتفحصها بذهول -. ولكن، أجل، ولم لا. لقد قال لك الحقيقة في نهاية المطاف، وبكل بساطة. كان يشعر بالوحدة، ويحتاج لمن يرافقه، وأنت تعريفه أفضل من الجميع. وهل وافقت عندئذ على طلبه، هكذا فجأة؟

- لست مضطرة إلى أن تردي عليّ الآن يا آرميدا - أضاف السيد، دون أن يتقدم خطوة واحدة نحوها، دون أدنى محاولة للمسها، لإمساك يدها، ذراعها -، فكري في الأمر. عرضي لك جدي تماماً. نتزوج ونذهب في شهر عسل إلى أوروبا. سوف أحاول إسعادك. فكري في الأمر. أرجوك.

- لقد كان لي حبيب يا سيدة لوكريثيا. يدعى بانتشيتوك. شخص طيب. يعمل في بلدية لينثي، في مكتب التسجيل. فكان لا بد لي من قطع العلاقة معه. الحقيقة أنني لم أفك في الموضوع كثيراً. بدا لي الأمر أشبه بحكاية سندريلا. لكنني ظللت حتى اللحظة الأخيرة أشك في أن السيد كاريرا قد كلمني بجد. ولكن أجل، أجل، كان يتكلم بجد تام، وقد رأيت حضرتك كل ما جرى بعد ذلك.

- لست أدرى ما الذي أشعر به وأنا أتوجه إليك بهذا السؤال يا آرميدا - قالت لوكريثيا وهي تخفض صوتها كثيراً -. ولكنني لا أستطيع كبح نفسي. الفضول يقتلني. أتعنين أنه لم يكن هناك أية شيء، بينما كما قبل الزواج؟

انفجرت آرميدا في الضحك وهي ترفع يديها إلى وجهها.

- بعد أن وافقت، أجل، جرت بيننا أشياء - قالت بخجل وهي تضحك -. لقد جرت أشياء بالطبع. فالسيد إسماعيل كان لا يزال رجلاً كامل الرجلة، على الرغم من عمره.

انفجرت لوكريثيا في الضحك أيضاً.

- لا أحتاج إلى أن تخبريني بأكثر من هذا يا آرميدا - قالت وهي تعانقها -. آyi ، كم هو مضحك حدوث الأمور على هذا النحو. من المؤسف أنه مات سريعاً.

- لم أقنع بعد بأن الضبعين قد فقدا أننيابهما - قال ريفوبيرتو -. وأنهما قد صارا وديعين جداً.

- وأنا لا أصدق ذلك، فهما لم يعودا إلى إحداث الضجيج لأنهما يخططان لمكائد أخرى - أجابت لوكريثيا -. هل شرح لك الدكتور أرنبيا مضمون اتفاق آرميدا معهما؟

أنكر ريفوبيرتو بحركة من رأسه.

- ولم أسأله عن ذلك أيضاً - أجابها وهو يهز كتفيه -. ولكن لا شك في أنهما قد استسلما. فلولا ذلك لما سحبا كل المطالب والدعوى المرفوعة. لا بد أنها قدمت لهما مبلغاً جيداً لتروضهما. وربما لا. ربما توصل الأحمقان إلى الاقتناع بأنهما إذا ما واصلا الصراع، فسوف يموتان بفعل الشيخوخة دون أن يحصلوا على قرش واحد من الميراث. والحقيقة أن هذا الأمر لا يهمني بأي حال. لا أريد أن نتحدث عن هذين الوغدين طيلة هذا الشهر يا لوكريثيا. فليكن كل شيء خلال هذه الأسبوع الأربع نظيفاً، جميلاً، لطيفاً، مشجعاً. والضبعان لا يتوافقان بأي حال مع شيء من هذه المتطلبات.

- أعدك بأنني لن أعود إلى ذكر اسميهما - ضحكت لوكريثيا -. سؤال أخير فقط. أتعرف ما الذي جرى لهما؟

- سيكونان قد ذهبا إلى ميامي لينفقا، في السهر والصخب، النقود التي حصلوا عليها من آرميدا، وإلا أين سيدهبان -. قال دونريفوبيرتو -. آه، ولكنهما لا يستطيعان في الحقيقة الذهاب إلى ميامي، لأن ميكي

صدم أحدهم هناك ثم هرب. مع أنه يمكن لتلك التهمة أن تكون قد سقطت بالتقادم. الآن أجل، لقد اخترفي التوءمان، تلاشيا، لم يوجد أبداً يا فونتشيتو! قط. لن نعود إلى الحديث عنهما أبداً. أهلاً يا فونتشيتو! كان الفتى قد ارتدى ملابسه من أجل السفر، حتى إنه قد اعتذر قبعة.

- يا لأناقتئ، رياه - استقبلته دونيا لوكريشيا مقابلة -. فطورك جاهز هنا. سأترككما، لأن الوقت بدأ ينفد، يجب أن أسرع إذا كنتما تريدان الخروج في التاسعة تماماً.

- هل تستثير مخيلتك هذه الرحلة؟ - سأل دون ريفوبيرتو ابنه حين ظلا وحدهما.

- كثيراً يا بابا. لقد سمعتكم تتكلّم عن أوروبا كثيراً مذ وعيتُ على الدنيا، فصرت أحلم منذ سنوات بالذهاب إلى هناك.

- ستكون تجربة بدعة، وسوف ترى ذلك بنفسك - قال دون ريفوبيرتو -. لقد خططتُ لكل شيء بدقة كبيرة، كي ترى أفضل ما في قارة أوروبا العجوز، مع تجنب ما هو قبيح. ستكون هذه الرحلة، بطريقة ما، هي عملي البارع. العمل الذي لم أرسمه، ولم أنظمه، ولم أكتبها يا فونتشيتو. أما أنت فسوف تعيشها.

- لم يفت الوقت بعد يا أبي - رد الصبي -. مازال أمامك متسع من الوقت، يمكنك أن تكرس وقتك لما تحبه حقاً. أنت الآن متّقاعد ولديك كل ما في العالم من الحرية كي تفعل ما تحبه.

ملحظة أخرى غير مريحة، ولا يدرى كيف يتملص منها. فنهض بحجة أنه يريد القيام بـالقاء نظرة مراجعةٍ الأخيرة على حقيبة يده.

حضر نرسيس في الساعة التاسعة صباحاً بالضبط، مثلما طلب منه دون ريفوبيرتو. جاء يقود سيارته ذات الدفع الرباعي، ماركة تيوتا آخر

موديل، لونها أزرق بحري، وقد علق سائق إسماعيل كاريلا السابق بمرأتها العاكسة دمية صغيرة ملونة تمثل الطوباوية ميلتشوريتا. كان لا بد لهم من الانتظار لوقت لا يأس به طبعاً، ريثما تخرج دونيا لوكريثيا. الوداع بينها وبين خوستينيانا جرى بمعانقات وقبلات لا تنتهي، وقد انتبه ريفوبيرتو بذهول إلى أن شفاههما قد تلامست. ولكن أياً من فونتشيتو ونرسيس لم يلحظ ذلك. حين نزلت سيارة الدفع الرباعي ممر كيبرادا دي ارمينداريس واتخذت طريقها عبر كوستا بيردي باتجاه المطار، سأل دون ريفوبيرتو نرسيسَ كيف هي الحال في عمله الجديد في شركة التأمين.

- على أحسن ما يرام - أظهر أسنانه البيضاء وهو يبتسم ابتسامة تمتد من إحدى أذنيه حتى الأخرى -. ظننت أن توصية السيدة آرميدا لن تنفع شيئاً لدى أصحاب الشركة الجدد، ولكنني كنت مخطئاً. لقد عاملوني معاملة أكثر من جيدة. استقبلني المدير شخصياً، تصور حضرتك. سيد إيطالي معطر جداً. ولكنني لم أكن على أحسن حال، لا أدرى ماذا أصابني وأنا أرى أنه قد احتل مكتبك يا دون ريفوبيرتو.

- أن يحتله هو أفضل من أن يحتله إسكونبيتا وميكى، ألا ترى ذلك؟  
وأطلق دون ريفوبيرتو قهقهة.

- هذا أمر لا شك فيه. بالطبع !

- وما العمل الذي تقوم به يا نرسيس؟ أأنت سائق المدير؟  
- بالضبط. وحين لا يكون بحاجة لي، أوصل وأحضر أنساناً من الشركة، أعني من المسؤولين - كان السائق يبدو سعيداً، وواثقاً من نفسه -. وهو يرسلني أحياناً إلى الجمارك، وإلى البريد، وإلى المصارف. عمل شاق، ولكن لا يمكنني أن أتزمر، فهم يدفعون لي جيداً. وبفضل السيدة

آرميدا، صار لدى الآن سيارة خاصة. وهو ما لم أكن أفكّر بالحصول عليه في الحقيقة.

- لقد قدمت لك هدية جميلة يا نرسيس - علقت دونيا لوكريثيا -. سيارتكم بديعة.

- كانت على الدوام ذات قلب من ذهب - أكـد السائق -. أعني السيدة آرميدا.

- هذا أقل ما يمكنها عمله معك - شدـ دون ريفوبيرتو -. فقد تصرفت على أحسن وجه معها ومع إسماعيل. فأنت لم تتوافق فقط على أن تكون شاهداً على زواجهما، مع أنك كنت تعلم ما الذي تعرض نفسك له. والأهم أنك لم ترضخ لتخويف الضبعين ومحاولتهم شرائك. من العدل جداً أن تقدم لك هذه الهدية.

- هذه السيارة ليست هدية، بل هي أعظم من هدية يا دون. كان مطار خورخي تشافيس يغص بالناس، رتل المنتظرين عند شركة إيبريا طويلاً جداً. لكن ريفوبيرتو لم يفقد صبره. لقد مر بحالات ضيق كثيرة خلال الشهور الأخيرة من الاستدعاءات الشرطية والقضائية، وتعطيل إجراءات تقاعده، وأوجاع الرأس التي سببها له فونتشيتو بقصة إديليبيرتو تورييس، بحيث لم يعد يهمه الوقوف في صف انتظار لربع ساعة، أو نصف ساعة أو مهما يكن من وقت، طالما أنه قد خلف تلك الأمور كلها وراء ظهره، وسيكون يوم غد عند الظهر في مدريد مع زوجته وابنه. شبـ ذراعيه باندفاعـ بذراعيـ لوكريثياـ وفونتشيـتوـ، وقال لهم بحماسة متدفعـةـ :

- غداً في الليل سوف نذهب لنأكلـ فيـ أفضلـ وأـلطفـ مطعمـ فيـ مدريدـ. «ـ كـاسـاـ لوـثـيـوـ»ـ !ـ الجـامـبـونـ عنـدـهـ،ـ والـبـيـضـ معـ الـبـطـاطـاـ المـقـلـيـةـ وجـبـةـ لاـ تـضـاهـيـ.

- بيبض مع بطاطا مقلية وجبة لا تضاهى يا بابا؟ - قال فونتشيتو ساخراً.

- اضحك كما تشاء، لكنني أؤكد لك، مهما بدا هذا الطبق بسيطاً، بأنهم قد حولوه، في كاسا لوثيو، إلى عمل فني، إلى شيء لذيذ تمص أصابعك معه.

وفي تلك اللحظة بالذات، لمح، على بعد أمتار قليلة، زوجين متبرين للفضل بدا له أنه يعرفهما. لا يمكن لهما أن يكونا أكثر تماثلاً وخروجاً عن المألوف. فهي امرأة صلبة وضخمة، ذات خدين منتفخين، غاطسة في ما يشبه جلباباً فاتح اللون يصل حتى كاحليها ومتدرجة بكنزة صوفية مفتوحة الصدر، سميكية ضاربة إلى الخضراء. لكن الأكثر غرابة هي القبعة العبيثية المسطحة وذات الخمار التي تضعها على رأسها وتمنحها مظهراً كاريكاتورياً. أما الرجل بالمقابل، فضئيل، قصير، ونحيل، يبدو معلباً في بدلة ضيقة جداً، ذات لون رمادي لؤلؤي، مع صدار أخضر مبهج لافت للنظر. ويضع بدورة قبعة، غاطسة حتى منصف جبهته. لهما هيئة ريفية، يبدوان تائهيدين ومشوشين وسط الزحام في المطار، ينظران إلى كل شيء بتمعن وارتياح. يخيل لمن يراهما بأنهما هاربان من واحدة من تلك اللوحات التعبيرية التي تغص بناس ذاهلين وغير متناسقين، في برلين سنوات العشرينات التي كان يرسمها أوتو ديكس وجورج غروسو.

- آي، أتراهما - سمع لوكريثيا تقول مشيرة إلى ذلك الثنائي -. يبدو أنها مسافران إلى إسبانيا أيضاً. وفي الدرجة الأولى، ما رأيك !  
- أظن أنني أعرفهما، ولكنني لا أتذكر أين - قال رينغوبيرتو، ثم سألهما: - من يكونان؟

- بنى - ردت لوكريثيا -، الزوجان اللذان من بيورا، كيف لا تتمكن

من التعرف عليهما.

- إنهم أخت آرميدا وصهرها، طبعاً - تعرف إليهما دون ريفوبيرتو -  
معكِ حق، إنهم مسافران أيضاً إلى إسبانيا، يا للمصادفة.  
أحسَ باستياء غريب وغير مفهوم، بقلق مبهم، كما لو أن توافق  
رحلته في طائرة إيبريا إلى مدريد مع هذين الزوجين البيورانيين يشكل  
تهديدًا ما لبرنامج نشاطاته الذي وضع مخططه بدقة تامة من أجل  
الشهر الأوروبي. «يا للحماقة»، فكر «يا لهذيان الملاحة». بأي طريقة  
يمكن لهذين الزوجين المبهرجين أن يفسدا رحلتهم. ظلَ يراقبهم البعض  
الوقت بينما هما يقومان بالإجراءات عند منضدة شركة إيبريا ويزنان  
الحقيقة الضخمة المثبتة بأحزنة ثخينة ويسجلانها كأمتعة. لاحظ أنهما  
أشبه بضائعين ومذعوريين، كما لو أنها المرة الأولى في حياتهما التي  
سيركبان فيها الطائرة. عندما انتهيَا من فهم تعليمات مضيفة شركة  
إيبريا، أمسك كل منهما بذراع الآخر، كما لو أنهما يحتميان من أمر  
مفاجئ، وابتعدا باتجاه الجمارك. ما الذي سيفعله في إسبانيا فيليبتيتو  
ياناكيه وزوجته خيرتروديس؟ آه، طبعاً، لا شك أنهما ذاهبان لنسيان  
تلك الفضيحة التي كانا بطيئها، هناك في بيورا، فضيحة رافقها  
عمليات اختطاف وزنا محارم وعاهرات. أتراهما يسافران ضمن رحلة  
سياحية منتظمة، ينفقان فيها مدخلات حياتهما. ليس للأمر أدنى  
أهمية. لقد صار خلال هذه الشهور الأخيرة كثير الوساوس،  
والحساسية، وشبه هذيانى. بعيداً عن متناول يد هذين الزوجين لن  
يلحق به أدنى ضرر في إجازته الرائعة.

- أتدري أنني أشعر، دون أن أعرف السبب، بوخزة شؤم من لقائي  
بهذين البيورانيين يا ريفوبيرتو؟ - سمعَ لوكريشيا تقول ذلك، فاجتاحته  
قشعريرة. لقد كان في صوت زوجته شيء من الغم.

- وخزة تشاوم؟ - قال مدارياً مشاعره - أي بعع هذا يا لوكريثيا، لا مسوغ لذلك. ستكون هذه الرحلة أفضل من رحلة شهر عسلنا، هذا وعد.

بعد أن أنهوا الإجراءات، صعدوا إلى الطابق الثاني في المطار، حيث كان هناك رتل طويل من أجل أن تختتم الشرطة جوازات السفر. وعندما أصبحوا أخيراً في صالة التوجه إلى الطائرة، كان لا يزال لديهم متسع من الوقت قبل الانطلاق. قررت دونيا لوكريثيا الذهاب لإلقاء نظرة على متاجر السوق الحرة، ورفقاها فونتشيتو. فقال لهاما ريفوبيرتو الذي يمقت التسوق، إنه سينتظرهما في الكافيتيريا. وفي طريقه اشتري مجلة الإيكonomist، ووجد أن المناضد كلها مشغولة في المطعم الصغير. كان يتأنب للذهاب والجلوس عند باب صالة المغادرة، حين اكتشف وجود السيد ياناكيه وزوجته يجلسان إلى إحدى المناضد. كانوا جديين جداً وساكنين جداً، أمامهما على المنضدة زجاجاتي شراب غازي وطبق بسكويت. فاستجاب ريفوبيرتو لدافع مفاجئ واقترب منها.

- لا أدري إن كنتما تتذكراني - قال لهاما محبباً وهو يمد يده - لقد كنا في بيورا قبل بضعة شهور. ويا لمفاجأة اللقاء بكم هنا. إنكم ذاهبان في رحلة إذا.

كان البيورانيان قد نهضا واقفين، وقد فوجئا للوهلة الأولى، ثم ابتسموا. تصافحوا بالأيدي باندفاع.

- يا للمفاجأة يا دون ريفوبيرتو، حضرتك هنا. كيف يمكن إلا نتذكر مؤامرتنا السرية المشتركة.

- تفضل بالجلوس أيها السيد - قالت السيدة خيرتروديس - امنحنا هذه السعادة.

- حسن، أجل، بكل سرور - شكرهما دون ريفوبيرتو - زوجتي

وابني يُلقيان نظرة على المتأجر. إننا مسافرون إلى مدريد.  
- إلى مدريد؟ - فتح فيليثيتو ياناكيه عينيه على اتساعهما - مثلنا، يا  
للمصادفة.

- ماذا تريد أن تتناول أيها السيد؟ سألته السيدة خيرتروديس بلهف  
شديد.

بدت متغيرة، فقد صارت تواصليه ولطيفة، وهي تبتسم الآن. إنه  
يتذكرها، خلال تلك الأيام في بيورا، دائمة التجمهم وغير قادرة على  
إفلات كلمة واحدة.

- قهوة مع قليل من الحليب - أمر النادل ... أنتما ذاهبان إلى مدريد  
إذاً، سنكون رفاق سفر.

جلسوا، ابتسموا، تبادلوا انطباعات حول الرحلة - هل ستخرج  
الطائرة في موعدها أم ستتأخر؟ - والسيدة خيرتروديس التي كان  
ريغوبيرتو متأكداً من أنه لم يسمع صوتها خلال الاجتماعات في بيورا،  
صارت تتكلم الآن دون توقف. عسى ألا تهتز هذه الطائرة مثلما اهتزت  
طائرة شركة «لان بيرو» التي جاءت بهما من بيورا يوم أمس. لقد  
ترافقست الطائرة في الجو كثيراً، حتى إن دموعها انسابت من عينيها  
لاعتقادها أنها ستتفجر. وهي تأمل ألا تضيع لهما شركة إيبريا  
الحقيقة، لأنها إذا ضاعت، ماذا سيلبسان في مدريد، حيث سيمضيان  
ثلاثة أيام وثلاث ليال، وحيث البرد شديد كما يبدو.

- الخريف هو أفضل فصول السنة في أوروبا كلها - طمانها ريجوبيرتو  
- وأجملها، أؤكد لك. لا برد فيه، وإنما بعض البرودة اللطيفة جداً. هل  
أنتما ذاهبان إلى مدريد للتنزه؟

- الحقيقة أننا ذاهبان إلى روما - قال فيليثيتو ياناكيه -. ولكن آرميدا  
اصرت أن نبقى بضعة أيام في مدريد، للتعرف عليها.

- أختي تريدنا أن نذهب إلى الأندلس أيضاً - قال خيرتروديس -. ولكن هذا يعني أن نبقى وقتاً طويلاً، ولدى فيليثيتو في بيورا عمل كثير، في حافلات الشركة وشاحناتها. إنه يعيد تنظيم الشركة من القدمين حتى الرأس.

- ناريهولا للنقل آخذة بالتقدم قدماً، على الرغم من أنها تسبب لي في بعض الأحيان أوجاع رأس - قال السيد ياناكيه مبتسمًا -. لقد حل محلني ابني تيبورثيو. وهو يعرف الشركة جيداً، فقد عمل فيها منذ صباح. أنا واثق من أنه سيقوم بالعمل على أحسن وجه. ولكن، مثلما تعرف حضرتك، لا بد لأحدنا من أن يظل على رأس عمله في كل شأن، وإلا ستبدأ الأمور بالتراجع.

- آرميدا هي من دعتنا إلى هذه الرحلة - قالت السيدة خيرتروديس، ببرقة فخر في صوتها -. لقد دفعت لنا كافة النفقات. لاحظكم هي كريمة. تذاكر السفر، الفنادق، وكل شيء. وفي روما سوف ننزل في بيتها.

- لقد كانت شديدة اللطف إلى حد لا يمكننا معه أن نرفض منها شيئاً كهذا - أوضح السيد ياناكيه -. تصور كم ستكلفها هذه الدعوة. ثروة! آرمinda تقول إنها ممتنة جداً لأننا استقبلناها في بيتنا. كما لو أن ذلك قد سبب لنا أدنى إزعاج. بل كان شرفاً كبيراً لنا في الحقيقة.

- حسن، لقد تصرفتما جيداً معها خلال تلك الأيام باللغة الصعوبة - علق ريفوبيرتو -. منحتماها الحنان والدعم والمعنويات. لقد كانت بحاجة إلى أن تشعر أنها قريبة من أسرتها. وهي الآن في مكانة عظيمة، ولها أجد أنها أحسنت صنعاً بدعوتكم. سوف تفتنكما روما، وستريان.

نهضت السيدة خيرتروديس لتذهب إلى الحمام. فأشار فيليثيتو ياناكيه إلى امرأته، وخفض صوته، معترضاً بدون ريفوبيرتو:

— زوجتى تموت تحرقاً لرؤية البابا. إنه حلم حياتها، لأن خيرتوديس متعلقة جداً بالدين. لقد وعدتها آرميدا بأن تأخذها إلى ساحة القديس بطرس حين يخرج البابا إلى الشرفة. وربما تتمكن من التوصل إلى أن يوفروا لها مكاناً بين الحجاج الذين يلتقي بهم الأئم القدس في أحد أيام اجتماعه بهم. ستكون رؤية البابا، ووطأ أرض الفاتيكان، هي أعظم سعادة في حياتها. أتعرف حضرتك أنها تحولت إلى كاثوليكية جداً بعد زواجنا. لم تكن كذلك من قبل. لهذا السبب تشجعت على قبول هذه الدعوة. من أجلها. لقد كانت امرأة طيبة على الدوام. وقد ضحت كثيراً في الأزمنة الصعبة. لولا خيرتوديس لما قمت بهذه الرحلة. أتعرف أمراً؟ لم آخذ إجازة في حياتي من قبل قط. لا أشعر بأنني على ما يرام إذا لم أفعل شيئاً. لأن أكثر ما يرورق لي هو العمل.

وفجأة، وبلا مرحلة انتقالية، بدأ فيليثيتو ياناكيه يروي لدون ريفوبيرتو أشياء عن أبيه. إنه ياناكوني، من ياباتира، تشلوكاني بايس، لم يتلق تعليماً، ولم يلبس أحذية، هجرته امرأته، واشتغل في أعمال تقصم الظهر، وربى فيليثيتو يجعله يدرس، ويتعلم مهنة، كي يخرج قُدماً. لقد كان رجلاً يمثل الاستقامة مجسدة.

— حسن، كم أنت محظوظ بأنه كان لك أب من هذا النوع يا دون فيليثيتو — قال دون ريفوبيرتو، ونهض واقفاً — لن تنند على هذه الرحلة، أؤكد لك. مدريد وروما مدینتان مليئتان بأشياء مثيرة للاهتمام، وسوف ترى.

— أجل، أتمنى لك الأفضل دوماً — أيده الآخر وهو ينهض أيضاً — سلم على زوجتك.

ولكن بدا لريفوبيرتو أنه غير مقتنع، وأن الرحلة لا تشكل أي حلم

له، وأنه يضحي بالفعل من أجل زوجته. سأله عما إذا كانت المشاكل التي تعرض لها قد حلّتْ، لكنه ندم على الفور حين رأى لمحّة من القلق أو الحزن تظهر على وجه الرجل الضئيل الذي أمامه.

- لقد جرى حلّها لحسن الحظ - دمم - . آمل أن تؤدي هذه الرحلة إلى جعل البيورانيين ينسونني. لا يمكن لحضرتك أن تعرف كم هو رهيب تحول المرأة إلى شخصية معروفة، أن يظهر في الصحف وفي التلفزيون، ويشير إليه الناس في الشارع.

- إنني أصدقك... أصدقك - قال دون ريفوبيرتو وهو يربت على كتفه. ثم استدعي النادل وأصر أن يدفع الحساب - . حسن، سنتلقي في الطائرة. إنني أرى زوجتي وابني هناك يبحثان عنّي. إلى اللقاء قريباً. تقدموا حتى بوابة الخروج، ولم يكن صعود الركاب إلى الطائرة قد بدأ بعد. روى ريفوبيرتو للوكريثيا فونتشيتتو أن الزوجين ياناكيه يسافزان إلى أوروبا بدعوة من آرميدا. فأبدت زوجته تأثرها بكرم أرملة إسماعيل كاريلا.

- هذه أشياء لم تعد تُرى في هذه الأزمنة - قالت - سوف أقترب منها في الطائرة وأسلم عليهما. لقد استقبلتها بضعة أيام في بيتهما، ولم يكن يخطر في بالهما أنّهما بسبب ذلك العمل الطيب سيحصلان على جائزة يانصيب.

كانت قد اشتريت من السوق الحرة عدة سلاسل فضية بيروية لتقديمهَا كذكرى للأشخاص اللطفاء الذين سيتعرفون عليهم خلال الرحلة، واشترى فونتشيتتو قرص دي.في.دي لجاستن بيبير، وهذا مغنٌ كندي يبعث الجنون الآن بشباب العالم بأسره، وهو ينوي مشاهدته في الطائرة على جهاز كمبيوتره. بدأ ريفوبيرتو بتصفح مجلة الإيكونومست ولكنَّه تذكر، في تلك اللحظة بالذات، أنه من الأفضل أن يحمل في يده

الكتاب الذي اختاره للقراءة خلال الرحلة. فتح حقيبته اليدوية وأخرج منها نسخته القديمة – كان قد اشتراها من كشك على ضفاف السين – من دراسة أندرية مارلو حول غويا: «ساتورن». فمنذ سنوات طويلة، يختار بحذر ما يقرأه في الطائرة. وقد أثبتت له التجربة أنه من غير الممكن قراءة أي شيء خلال رحلة طيران. يجب أن تكون القراءة مثيرة، تشد انتباذه بطريقة تعطل معها تماماً ذلك القلق الدفين الذي يُفاجأ به كلما حلق طائراً، والذي يُذكره بأنه على ارتفاع عشرة آلاف متر - عشرة كيلومترات -، وينزلق في الفضاء بسرعة تسعمئة أو ألف كيلومتر في الساعة، وأن درجات الحرارة، هناك في الخارج، تصل إلى خمسمائة أو ستين درجة مئوية تحت الصفر. لم يكن ما يشعر به حين يطير هو الخوف بالضبط، وإنما شيء أشد زخماً من الخوف، إنه اليقين بأن ذلك الوضع قد يكون النهاية في أية لحظة، تفكك الجسد خلال جزء من الثانية، وربما الكشف عن السر الكبير الغامض، بمعرفة أن هناك ما هو بعد الموت، إذا كان ثمة شيء. هناك احتمال، انطلاقاً من لا أدريته القديمة التي لم تكن تخفف منها السنون، يميل أكثر إلى استبعاده. ولكن بعض القراءات تتوصل إلى سدّ الطريق أمام ذلك الإحساس الهاجسي المشؤوم، إنها قراءات تتمكن من امتصاص ذلك الهاجس بطريقة يستغرق معها في ما يقرأه، وينسى تماماً كل ما سواه. لقد حدث له ذلك وهو يقرأ رواية لداشيبيل هاميت، ودراسة إيتالو كالفيينو «ست مقتراحات للألفية القادمة»، و«الدانوب» لكلاوديو ماغريس، وأعادته قراءة «دوره اللولب» لهنري جيمس. هذه المرة اختار دراسة أندرية مارلو لأنه مازال يتذكر التأثر الذي أحس به حين قرأها أول مرة، والجزع الذي أيقظته فيه رؤيتها بصورة حية، وليس في استنساخات الكتب، لوحات الفريسكو في كينتا دل سوردو، وأعمال

الحفر «كوارث الحرب» و«النزوارات». في كل مرة ذهب في إلى متحف البرادو كان يبقى طويلاً في صالة أعمال غويا. وإعادة قراءة دراسة مارلو ستكون مقدمة جيدة لتلك المتعة.

عظيم جداً أن تلك القصة المزعجة قد حلّت أخيراً. ولديه قرار حاسم الآن بعدم السماح لشيء أن يفسد عليه هذه الأسابيع. فكل شيء خلاها يجب أن يكون بهيجاً، جميلاً، ممتعاً. وعدم رؤية شيء أو أحد يمكن له أن يكون باعثاً على الاكتئاب أو النزق أو القبح، تنظيم كافة التنقلات بطريقة تكون فيها السعادة الدائمة، خلال الشهر كله، أمراً ممكناً، يسهم فيها كل ما يفعله ويسمعه ويراه، بل وكل ما يشهه أيضاً (وهذا الأمر الأخير لن يكون سهلاً بالطبع).

كان غارقاً في هذا الحلم المشرق حين أحس بضربات من مرافق لوكريثيا تشير إليه إلى أن الصعود إلى الطائرة قد بدأ. رأيا، من بعيد، دون فيليثيتو ودونيا خيرتروديس يمران في أول رتل ركاب درجة رجال الأعمال. وكان صف ركاب الدرجة الاقتصادية طويل جداً، مما يعني، طبعاً، أن الطائرة ستكون ممتلئة. كان ريفوبيرتو يشعر بالاطمئنان على أية حال؛ إذ كان قد توصل إلى جعل وكالة السفر تحجز له مقاعد الصف العاشر الثلاثة، بجانب باب الطوارئ، حيث توجد فسحة أكبر لـ الأرجل، مما يجعل إزعاج الرحلة أقل وطأة.

حين دخلوا إلى الطائرة، مدت لوكريثيا يدها إلى الزوجين البيورانيين وصافحت الثنائي بمودة كبيرة. وقد وجدوا بالفعل أنهم سيشغلون المقاعد الثلاثة في الصف العاشر، بجانب باب الطوارئ، حيث تتوافر مساحة أكثر اتساعاً لـ الأرجل. جلس ريفوبيرتو بجانب النافذة، ولوكريثيا في جهة المسر، وفونتشيتو في المعد الأوسط.

تنهد دون ريفوبيرتو. كان يسمع، دون إصغاء، التعليمات التي

يقدمها أحد أفراد طاقم الطائرة حول الرحلة. وحين بدأت الطائرة تخرج على المدرج باتجاه نقطة الانطلاق، كان قد تمكّن من الاندماج بمقالة افتتاحية في الإيكonomist حول إذا ما كان اليورو، العملة الأوروبيّة، سيتجاوز الأزمة التي تهزّ أوروبا، وإذا ما كان الاتحاد الأوروبي سيحافظ على وجوده عند اختفاء اليورو. حين اندرفت الطائرة وسط زمرة محرّكاتها الأربع، وبسرعة تتزايد في كلّ ثانية، أحسّ فجأة بأنّ يد فونتشيتو تضطّع على ذراعه الأيمن. رفع بصره عن المجلة والتفت نحو ابنه: كان الصبي ينظر إليه مذهولاً، وعلى وجهه ملامح لا يمكن تفسيرها.

- لا تخاف يابني - قال متفاجئاً، لكنه سكت لأنّ فونتشيتو كان ينفي بحركة من رأسه، كما لو أنه يقول «ليست هذه هي المسألة، ليس هذا هو السبب».

انفصلت الطائرة في تلك اللحظة عن الأرض، وكانت يد الصغير تنفرس في ذراع الأب كما لو أنها تريد أن تؤذيه.

- ماذا حدث يا فوتشيتو؟ سأله وهو يلقي نظرة ذعر باتجاه لوكريثيا، إلا أنها لم تسمعهما بسبب ضجيج المحرّكات. كانت زوجته قد أغمضت عينيها وبدت كما لو أنها نائمة أو تصلي.

كان فونتشيتو يحاول أن يقول له شيئاً، لكنه يحرك فمه دون أن تصدر عن شفتيه أية كلمة. لقد كان شاحباً جداً.

هاجس رهيب دفع دون ريفوبيرتو إلى الانحناء نحو ابنه والهمس في أذنه: - لن نسمح لإديلبيرتو تورييس أن يفسد علينا رحلتنا، أليس كذلك يا فونتشيتو؟

- إنه هنا يا بابا، هنا في الطائرة، يجلس وراءك. أجل، أجل، السيد إديلبيرتو تورييس.

أحس ريفوبيرتو بتشنج في رقبته، وبدا له أنه أصيب برض\*\* وتمزق. لم يستطع تحريك رأسه، والالتفات للنظر إلى المهد الذي خلفه. كانت رقبته تؤلمه أللّا رهيباً وبدأ رأسه يغلي ويغور. خطرت له الفكرة البلياء بأن دخاناً ينبعث من شعره كأنه موقد. أيكون ممكناً أن ابن العاهرة ذاك موجود هنا، في هذه الطائرة، ويسافر معهم إلى مدريد؟ كان الغضب يتتصاعد في بدنـه مثل كتلة حمـم لا ثقاوـم، ورغبة ضاربة في النهوض والانقضاض على إديلبيرتو توريـس، لضربيـه وشتمـه دون رحـمة، إلى أن يشعر باستنفاد قواهـ. وعلى الرغم من الألـم الحاد في حلـقه، تمكـن أخيرـاً من الالتفـات بمنصف جـسدهـ. ولكنـ لم يكنـ هناكـ في المـهد الذي خـلفـةـ أيـ رـجـلـ، وإنـما اـمـرـاتـانـ متـقدمـتانـ فيـ السـنـ فـقطـ، وـطـفـلـةـ تـلـعـقـ مـصـاصـةـ حـلوـيـ. فـاستـدارـ مشـوشـاـ ليـنـظـرـ إلىـ فـونـتشـيـتوـ، وـانتـبهـ عـندـئـذـ إلىـ مـفـاجـأـةـ أـنـ عـيـنيـ اـبـنـهـ تـلـمعـانـ بـوـمـيـضـ سـخـرـيـةـ وـسعـادـةـ. وـأـنـهـ أـطـلـقـ فيـ تـلـكـ اللـحـظـةـ قـهـقـهـةـ مـدوـيـةـ.

- لقد صدقـتـ الأـمـرـ ياـ بـابـاـ - رـاحـ يـقـولـ وهوـ يـختـنقـ بـضـحـكةـ صـحـيةـ، خـبـيـثـةـ، نـظـيـفـةـ، طـفـوليـةـ - أـلـيـسـ صـحـيـحاـ أـنـكـ قدـ صـدـقـتـ الأـمـرـ؟ـ لوـ أـنـكـ تـرىـ كـيـفـ صـارـ وـجهـكـ ياـ بـابـاـ !

حرـكـ رـيفـوبـيرـتوـ الآنـ رـأـسـهـ بـراـحةـ، اـبـتـسـمـ، وـراحـ يـضـحـكـ أـيـضاـ، مـتـصالـحاـ مـعـ اـبـنـهـ، وـمعـ الـحـيـاةـ. كـانـواـ قدـ تـجاـوزـاـ طـبـقـةـ الـغـيـومـ وـكـانـتـ هـنـاكـ شـمـسـ سـاطـعـةـ تـضـيـءـ الـطـائـرـةـ كـلـهاـ مـنـ الدـاخـلـ.



كان صوتها بلسماء، ماء بارداً وشفافاً يغرق فيه بجسده وروحه، وينتظر، يستعيد السكينة، يستمتع، وينبعث من أعمق أعماقه شيءٌ صحيٌّ، عذبٌ، متفائلٌ. حاول ألا يفكر بما يليل، وألا يتذكر أشد اللحظات التي أمضها معها زخماً وسعادة خلال تلك السنوات الثمانية، بل تذكر فقط أنها قد خانته، وأنها نامت مع ميغيل وتواطأت معه، وأرسلت له رسائل العنكبوت، وتناظررت بأنها مختطفة، وأحرقت مكتبه. هذا هو ما عليه أن يتذكره فقط، كيلا تكون شديدة المرارة عليه فكرة أنه لن يعود إلى رؤيتها أبداً.

\*\*\*

ماذا جرى لخوسيفيتا؟ إنها مختلفة. أكثر أناقة وترجأ من العادة، ترتدي ملابس مبهجة ولطيفة. تظهر على محياتها بين حين وأخر بعض الابتسamas وحمرة خجل لعوبية. ويداً لها أنها، عند المشي، تهز مؤخرتها أكثر قليلاً مما كانت عليه من قبل.

- إذا كنت راغبة في أن تخبرني بسرِّ، فإنني أؤكد لك أنني قبر أسرار يا خوسيفيتا. وإذا كان في الأمر أحزان حب فساكون سعيداً بأن أتحول إلى منديل لدموعك.

- لا أدرى ماذا على أن أفعل يا دون فيليثيو. خفضت صوتها وقد كستها حمرة الخجل من رأسها حتى قدميها. أدننت رأسها من رئيسها، وهمست له وهي ترمي بعينيها كطفلة بريئة:- لاحظ أن نقيب الشرطة ذاك يواصل الاتصال بي هانفيا. لماذا يا ترى؟ كي يدعوني للخروج معه طبعاً!

لم يكن ما يشعر به حين يطير هو الخوف بالضبط، وإنما شيءٌ أشد: رذخماً من الخوف، إنه اليقين بأن ذلك الوضع قد يكون النهاية في آية لحظة: تنفكُ الجسد خلال جزء من الثانية، وربما الكثف عن السر الكبير الغامض، بمعرفة أن هناك ما هو بعد الموت، ثمة احتمال، انطلاقاً من لا أدرىته القديمة التي لم تكن تخفي منها السنون، يميل أكثر إلى استبعاده. ولكن بعض القراءات تتوصل إلى سد الطريق أمام ذلك الإحساس الهاجسي المشووم، إنها قراءات تتمكن من امتصاص ذلك الهاجس بطريقة يستغرق معها في ما يقرأه، وينسى تماماً كل ما سواه.

